العلاقات العربية - البلقانية

الماضي - الحاضر - المستقبل

تحرير وتقديم

محمد م. الارناؤوط



العلاقات العربية - البلقانية

الماضي - الحاضر - المستقبل

يشتمل هذا الكتاب على أبحاث مؤتمر العلاقات العربية - البلقانية، والذي عقده منتدى العلاقات العربية والدولية في الدوحة خلال 19 و20 نوفمبر 2014.

يغطي الكتاب ثلاثة محاور رئيسة:

العلاقات التاريخية منذ القرون الأولى للميلاد وحتى القرن العشرين، والعلاقات السياسية والاقتصادية بين دول المنطقتين بعد نهاية الحرب الباردة، مع نظرة خاصة للعلاقات الخليجية البلقانية، والتي أصبحت تتصدّر المشهد في بداية الألفية الجديدة، وأخيراً العلاقات الثقافية كما تبدو في انتشار اللغة العربية، والمخطوطات العربية، واعتماد الحروف العربية لكتابة بعض اللغات البلقانية وصورة العرب في الأدب والصحافة البلقانية، وصولاً إلى ما أنجزته الترجمة الأدبية في معرفة كل طرف بالآخر.



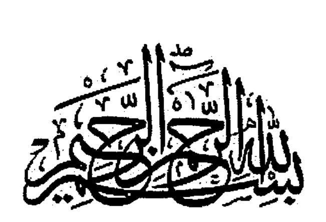
هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

السعر : 13 دولارًا
ISBN: 978-9927-103-28-5



العلاقات العربية - البلقانية

الماضي - الحاضر - المستقبل



العلاقات العربية - البلقانية
الماضي - الحاضر - المستقبل

أوراق الندوة الدولية

التي عُقدت في منتدى العلاقات العربية والدولية

الدوّحة ١٩-٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤

تحرير وتقديم

محمد م. الأرناؤوط



عنوان الكتاب: العلاقات العربية - البلقانية
الماضي - الحاضر - المستقبل
تحرير وتقديم: محمد م. الأرناؤوط.
٤٤٨ صفحة - ١٦,٥ × ٢٤ سم.
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٨٥/ ٢٠١٥.
الرقم الدولي (ردمك): ISBN: 978 - 9927 - 103 - 28 - 5

الطبعة الأولى ٢٠١٥.

المحتويات

مقدمة

يمكن القول إنه مع صدور هذا الكتاب، الذي يضمّ أوراق الندوة الدولية الأولى عن العلاقات العربية- البلقانية التي عُقدت في الدوحة خلال ١٩-٢٠ نوفمبر ٢٠١٤، أصبح لدينا في اللغة العربية مرجع عن البلقان وعن العلاقات العربية- البلقانية. والفضل في هذا وذاك يعود إلى منتدى العلاقات العربية والدولية في الدوحة، الذي بادر إلى تنظيم الندوة كما إنه سارع إلى إصدار هذا الكتاب ليكون بين أيدي المهتمّين.

ويبدو في كلمات الجلسة الافتتاحية كما في شهادات الجلسة الختامية، التي شاركت فيها شخصيات معروفة ومخضرمة عايشت التحولات الكبيرة في العقود الاخيرة، ما يبرّر عقد مثل هذه الندوة في هذا الوقت وفي هذا المكان. فالعلاقات التاريخية بين شبه جزيرة البلقان والشرق الأوسط التي تمتد ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة، وذلك منذ عهد الفينيقيين على الأقل، مرورًا بالدول والإمبراطوريات التي جمعت بينهما (من إمبراطورية الإسكندر المكدوني إلى الدولة العثمانية ومرورًا بالإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البيزنطية)، تمخّضت بعد أفول الإمبراطوريات إثر الحرب العالمية الأولى عن علاقات ثنائية بين الدول الجديدة (مثل مصر ويوغسلافيا) ثم عن علاقات أوسع مع حركة عدم الانحياز التي عقدت مؤتمرها الأول في بلغراد ١٩٦١.

ولكن هذه العلاقات تغيرت موازينها بعد انهيار الأنظمة الشمولية في البلقان وأوروبا الشرقية في العقد الأخير من القرن العشرين وهو العقد الذي شهد أيضًا حروب يوغسلافيا ١٩٩١-١٩٩٩. وربما يعود الفضل إلى الحرب على البوسنة ١٩٩٢-١٩٩٥ في تحريك مشاعر جديدة في المنطقة العربية من خلال التغطية الإعلامية لما كان يحدث هناك من مجازر ضد المسلمين، وتزايد الاهتمام بالوجود المسلم في أرجاء البلقان وهو ما أدى إلى انعطاف جديد في العلاقات العربية- البلقانية في العقد الأول للقرن الواحد والعشرين. ويمكن تلخيص هذا الانعطاف بتراجع دور الدول العربية المتوسطية (سوريا ومصر والجزائر) التي كانت تحكمها أنظمة اشتراكية وبروز دور دول الخليج (وخاصة قطر والسعودية والكويت والإمارات) التي أصبحت تقود العلاقات الجديدة مع دول البلقان خلال العقدين الأخيرين. ومن الواضح هنا أن هذه العلاقات الجديدة لم تعد مرتبطة بأيديولوجية مشتركة، كما كان الأمر في النصف الثاني للقرن العشرين، بل بمصالح مشتركة ولم يعد الوجود المسلم في البلقان يشكل عائقًا بل أصبح عنصرًا مساعدًا في تطور العلاقات العربية- الخليجية. فمع الخريطة الجديدة للبلقان أصبح عندنا عدة دول بوجود مسلم مؤثر (ألبانيا وكوسوفا والبوسنة ومكدونيا) وعدة دول أخرى أصبح الوجود المسلم محفزًا للعلاقات كما هو الأمر بين صربيا والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة في السنوات الأخيرة.

ومن ناحية أخرى يلفت النظر في كلمات الجلسة وأوراق الندوة حضور تركيا في هذه العلاقات التاريخية والحالية. فتركيا، كما وُصفت هنا وهناك، تشكل جسرًا تاريخيًا وثقافيًا وأرضيًا بين العرب وشعوب البلقان سواء في الماضي أو في الحاضر. فالدولة العثمانية حكمت الطرفين حوالى ٤٠٠ سنة وتركت إرثًا واضحًا إلى اليوم هنا وهناك ابتداءً من اللغة اليومية لشعوب البلقان، التي تحتوي الكثير من المفردات الشرقية التي دخلتها بواسطة اللغة العثمانية (التركية والعربية والفارسية)، وإلى العمارة العثمانية التي جعلت بعض مدن

البلقان بملامح شرقية واضحة. ومن هذا الإرث المشترك لدينا الآن في تركيا حوالى عشرة ملايين من أصول عربية وبلغارية وألبانية وبشناقية، كما إن تركيا الآن تشكل جسرًا أرضيًا بين العرب وشعوب البلقان نظرًا لأن قسمًا منها يمتدّ في البلقان ويشمل العاصمة الثانية للدولة العثمانية (أدرنه) بينما يمتد قسم آخر في بلاد الشام (لواء الإسكندرونة أو هاتاي).

وعلى الرغم من بعض الاعتذارات التي حرمتنا من وجود مشاركين من كرواتيا وصربيا، كالمستشرق الكرواتي دانييل بوتشان والباحثة الصربية رادميلا راديتش، إلا أن الأوراق المشاركة في الندوة والمنشورة هنا تشمل المحاور الرئيسة في العلاقات العربية- البلقانية التي تشمل التاريخ والعلاقات الثقافية والسياسية والاقتصادية كما هي عليه اليوم. وبحكم كونها الندوة الأولى التي تناولت العلاقات العربية- البلقانية فقد كان من الصعب أن تغطي كل شيء، بل يمكن القول إن الأوراق التي قُبلت بعد التحكيم الأول جمعت بين الإضافة المعرفية للطرفين والمحاولة الأولية لتأسيس أرضية معرفية مشتركة يمكن تطويرها في المستقبل بندوات أخرى.

وفي ما يتعلق بالأوراق المنشورة في هذا الكتاب فقد رُئِي توزيعها على ثلاثة أقسام لأغراض عملية فقط.

ففي القسم الأول «العلاقات عبر التاريخ إلى الحاضر والمستقبل» لدينا أرضية تاريخية عن العلاقات بين العرب والمسلمين مع بيزنطة بالاستناد إلى المصادر البيزنطية، بينما لدينا في القسم الإنكليزي ورقة تتناول العلاقات الفينيقية- البلقانية عبر الآلهة المشتركة التي كانت تُعبد في البلقان، وبعدها لدينا ورقة عودة الشرعة عن العلاقات التاريخية في القرون الوسطى بين أقوى دولتين (الإمبراطورية الصربية وسلطنة المماليك) وذلك بفضل الحج المسيحي إلى فلسطين حيث تكشف الورقة عن رسالة موجهة من الملك الصربي دوشان إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون في ٧٣١هـ/ ١٣٣٢م، يطلب فيها الإذن بالحج إلى القدس، وعن الجوانب الثقافية لهذه العلاقات أيضًا.

ومع ورقة المؤرّخ المغربي عبد الرحيم بنحادة نجد أن العلاقات العربية- البلقانية تنتقل إلى التاريخ الحديث من خلال كيانين كانت لهما خصوصيتهما: جمهورية راغوصة أو دوبروفنيك التي كان لها أسطولها في البحر المتوسط وسلطنة المغرب الوحيدة التي بقيت خارج الحكم العثماني، ولكن هذه االعلاقة الثنائية لم تبق كذلك بل شملت أيضًا الدولة العثمانية التي كانت تدعي الحماية على جمهورية راغوصة أو دوبروفنيك.

وخلال التاريخ الحديث يزداد الاختلاط بين العرب وشعوب البلقان تحت مظلة الدولة العثمانية الحاكمة، وذلك من خلال الإدارة والخدمة العسكرية والتجارة والحج، وتبرز شخصيات عربية في أرجاء البلقان في مجال العلم والطرق الصوفية كما تبرز شخصيات بلقانية في الولايات العربية في الإدارة والقضاء والخدمة العسكرية. ومن هذه الشخصيات التي لعبت دورًا مهمًا في المنطقة العربية لدينا ورقة عن أحمد باشا الجزار الذي جاء من البوسنة إلى مصر ومنها إلى بلاد الشام حيث أصبح على رأس ولاية صيدا وجعل من عكا أسطورة بصمودها أمام حملة نابليون بونابرت في ١٧٩٩. كما لدينا ورقة عن شخصية أخرى لها علاقة بالحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام ألا وهو محمد علي باشا الألباني الذي جاء ضمن القوات العثمانية لإخراج العثمانيين من مصر ولكنه بقي هناك وارتقى ليصبح واليًا في ١٨٠٥ ومؤسّسًا لسلالة حكمت مصر حتى ١٩٥٢. ومع حكم محمد علي باشا لمصر والشام يزداد الوجود البلقاني من مقدونيا واليونان في المنطقة العربية، وهو ما تكشف عنه ورقة دراغي جورجيف التي يتناول فيها وجود حرفيين من بعض مدن مقدونيا في دمشق والقاهرة والقدس بالاستناد إلى المصادر العثمانية.

ومع انهيار الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى وتشكّل الخريطة السياسية الجديدة في البلقان والشرق الأوسط، التي بقيت فيها تركيا جسرًا بين شعوب البلقان والعرب، نمت علاقات جديدة خلال القرن

العشرين بين الدول الجديدة التي استقلت هنا وهناك. وفي هذا السياق لدينا ورقة عن العلاقة التاريخية التي قامت بين يوغسلافيا بعد تشكّلها (١٩١٨) وبين مصر بعد إعلان استقلالها (١٩٢٢)، حيث تكشف ورقة المؤرخ المصري محمد عفيفي عن جوانب غير معروفة في هذه العلاقات وذلك من خلال المقارنة بين موقف مصر من مسلمي يوغسلافيا خلال العهد الملكي والعهد الناصري. وحينما تُذكر مصر تُذكر فيها الجالية اليونانية والعلاقة المميزة التي كانت تربط أيضًا بين مصر واليونان سواء في العهد الملكي أو العهد الجمهوري، وهو ما يتناوله المؤرخ السوري - اليوناني عارف العبيد في ورقته عن العلاقات العربية اليونانية، التي يتابع فيها ازدهار ثم انحسار هذه العلاقات للأسباب العديدة التي يوضّحها مع تمنياته بإعادة هذه العلاقات إلى ما كانت عليه لأجل المصلحة المشتركة.

مع وصولنا إلى نهاية القرن العشرين ونهاية الحرب البادرة (١٩٩١) وحروب يوغسلافيا (١٩٩١-١٩٩٩)، التي انبثقت عنها سبع دول جديدة (صربيا وكرواتيا وسلوفينيا والبوسنة ومكدونيا والجبل الأسود وكوسوفا)، نكون قد دخلنا في مرحلة تاريخية جديدة من العلاقات العربية- الخليجية تتسم بتراجع دور الأيديولوجيا وتقدم دول الخليج (السعودية والكويت وقطر والإمارات) لتتصدر العلاقات العربية- البلقانية في العقدين الأخيرين، وهو ما تتناوله أربع أوراق لباحثين في العلوم السياسية والعلاقات الدولية. وفي هذه الأوراق لدينا ماهو مشترك وماهو جديد في التعريف بالتغيرات التي طرأت على العلاقات العربية - البلقانية في العقدين الأخيرين والتطورات المتسارعة في العلاقات الخليجية - البلقانية في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية مع استشراف آفاق هذه العلاقات في المستقبل القريب.

أما في القسم الثاني «الثقافة أولًا وأخيرًا» فربما يفيد هنا تعريف المفكر والرئيس البوسنوي الأسبق المرحوم علي عزت بيغوفيتش للثقافة في سياق

التمييز بينهما وبين الحضارة حيث ربط بين الثقافة والدين. ويبدو هذا واضحًا في الحج المسيحي من البلقان إلى فلسطين وما حمله من مؤثرات ثقافية، الذي وردت الإشارة إليه في ورقة عودة الشرعة، كما يبدو في حج المسلمين من البلقان إلى مكة المكرمة. ففي ورقته عن حج المسلمين من البوسنة إلى الأماكن المقدسة في الحجاز يبيّن علاء الدين هوسيتش هذا الجانب الثقافي بمعناه الواسع للكلمة: أي بمكانة الحج في ثقافة المسلمين والاستعداد له وما دونوه من رحلاتهم وما حملوه معهم من كتب وغيرها وصولًا إلى مكانة الحاج في المجتمع المسلم بالبوسنة.

وفي سياق المجال الإداري والمعرفي والثقافي المشترك الذي جمع الطرفين تحت مظلة الدولة العثمانية يتتبع سفر حسنوف إسهام علماء البلقان في الثقافة العربية الإسلامية من خلال عينة بلغارية كان منها القضاة والمدرسون الذين خدموا في المنطقة العربية أو كتبوا المؤلفات المختلفة باللغة العربية، التي طبع بعضها وبقي بعضها مخطوطًا. وعلى ذكر المخطوطات لدينا هنا ورقتان تعرفان بالمخطوطات العربية في ثلاث دول بلقانية (ألبانيا وكوسوفا ومكدونيا) لفتحي مهدي بالعربية وأحمد شريف بالإنكليزية، حيث نتعرف على المخطوطات باعتبارها أحد جوانب العلاقات التاريخية والثقافية بين الطرفين، كما نتعرف على مواضيعها وأماكن وجودها ومصيرها.

وحين تذكر المخطوطات هنا يذهب الذهن في البلقان إلى اللغة التي كتبت بها (العربية) والأبجدية التي دُوِّنت بها والأدب وأصحاب هذا الأدب (العرب)، وهي المواضيع التي تناولتها أربع أوراق مميزة. ففي الورقة الأولى تحدثنا عمرة مولوفيتش عن مكانة اللغة العربية في البوسنة خلال الحكم العثماني (١٤٦٣-١٨٧٨) وعن التحديات التي واجهت استمرارها خلال الحكم النمساوي (١٨٧٨-١٩٧٨) ثم الحكم اليوغسلافي (١٩١٨-١٩٩٢) وصولًا إلى الوضع الراهن لها بعد الاستقلال. أما منير مويتش فيكشف لنا في ورقته عن جانب ثقافي مهم ألا وهو التوجه إلى كتابة بعض

اللغات البلقانية بالحروف العربية ويركّز في ورقته على اللغة البوسنوية التي أصبحت كتابتها بالحروف العربية تحمل بعدًا سياسيًا بعد الاحتلال النمساوي للبوسنة، واستمرت طباعة الكتب والمجلات بهذه الحروف حتى منتصف القرن العشرين. ومن ناحية أخرى فقد ارتبط ذلك أيضًا بالاهتمام بأدب العربية، حيث تحدثنا جليلة بابوفيتش في ورقتها عن استقبال الأدب العربي في البوسنة خلال المراحل المختلفة، أي خلال الحكم العثماني ثم النمساوي وأخيرًا اليوغسلافي وصولًا إلى الحاضر. ومن الطبيعي هنا أن يكون هناك حيّز في ثقافات البلقان لأصحاب هذا الأدب (العرب)، حيث يكشف لنا ميرزا سارايكتش عن صورتين مناقضتين للعرب في الأدب الشعبي البلقاني: صورة العربي الشرير لدى الصرب والبلغار والألبان الذي أصبح يمثل «العدو» الخارجي لبناء الهوية المحلية، وصورة العربي الإيجابية لدى البشناق. ومن المثير هنا بالفعل أن العرب حظوا فقط بهذه الصورة الإيجابية لدى البشناق الذين فضلوهم على الأتراك مع وجود الدين المشترك - الإسلام.

مع ذكر الآداب تُذكر الترجمات كوسيلة فعّالة في العلاقات الثقافية والمثاقفة. وفي هذا المجال لدينا ورقة عيسى ميميشي التي تتناول ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الألبانية في ألبانيا وكوسوفا ومكدونيا، حيث يتبين لنا أن ازدهار وانحطاط الترجمة يتعلق بالظروف السياسية المتغيرة التي لحقت بالبلقان خلال العقود الأخيرة مما يستدعي التأمل والتفاعل من جديد. ومثل ذلك نراه في ورقة إسماعيل أبو البندورة عن ترجمة آداب البلقان إلى اللغة العربية، حيث نرى «فورة» في الترجمات في الربع الأخير من القرن العشرين ترتبط أيضًا بظروف سياسية ثم نصل إلى تراجع واضح في الترجمات في المرحلة الانتقالية الجديدة. ولكن المرحلة الانتقالية الجديدة ليست سلبية كلها في ما يتعلق بالثقافة لأنه في إطار العلاقات الجديدة الخليجية- البلقانية لدينا إسهامات معتبرة في المجال الثقافي، ومن ذلك مساعدة قطر للبوسنة بتجهيز المبنى الجديد لمكتبة الغازي خسرو بك المعروفة في سراييفو والتي

لاتزال تقوم بدورها الثقافي منذ تأسيسها في ١٥٣٧، وهو ما تناولته بالتفصيل ورقة مصطفى يحيتش.

ومن جوانب العلاقات الجديدة الخليجية- البلقانية لدينا أيضًا قناة «الجزيرة- بلقان» التي انطلقت في ٢٠١٢ ومثّلت تجربة جديدة في المجال الإعلامي للتفاعل بين الطرفين (بين خبرة «الجزيرة» الأم وسمعتها الكبيرة وقضايا البلقان المتشابكة التي تحتاج إلى طرف محايد)، والتي تناولها شمسي أيوازي في ورقته. ومع أن تجربة القناة الجديدة لا تزال في بدايتها إلا أن سقف الطموح الذي أعلنت عنه القناة بمناسبة انطلاقتها يحتاج إلى فترة أطول للوصول إليه، وربما تفيد في ذلك الملاحظات التي يوردها الباحث في نهاية ورقته. وطالما نحن في مجال الإعلام كان من المتوقع أن تكون لدينا ورقة عن صورة العرب في الصحافة البلقانية، وهو ما تناوله شادي الأيوبي في ورقته من خلال الصحافة اليونانية واختار نموذجًا لذلك «صورة الربيع العربي». ومن الواضح هنا، كما في صحافة البلدان البلقانية الأخرى، أن صورة العرب ليست واحدة وهي ترتبط بالعلاقات التاريخية والتوجهات السياسية للصحف وجهات التمويل وغير ذلك، وهو ما ينبّه إلى أهمية التعاطي مع هذه الأمور.

وبالإضافة إلى الأوراق البحثية التي قدّمها مختصون من دول البلقان والدول العربية لدينا هنا شهادات لشخصيات مخضرمة عربية وبلقانية كانت لها تجربتها في العلاقات العربية- البلقانية (كامل أبو جابر وزير خارجية الأردن الأسبق وياسين رواشدة سفير البوسنة الأسبق في الكويت وأسعد طه الذي بدأ مراسلًا للحرب في البوسنة وانتهى مخرجًا ومنتجًا للأفلام الوثائقية عن البلقان)، ورأينا من المفيد أن نحتفظ بهذه الشهادات التي تلخص تجارب وتستشرف مستقبلًا أفضل للعلاقات العربية- البلقانية.

وأخيرًا لا بد هنا من توجيه خالص الشكر إلى د.محمد الأحمري مدير منتدى العلاقات العربية والدولية في الدوحة، الذي لم ينل البلقان حظًا من

اهتماماته الكثيرة حيث كان أول من ألف كتابًا عن علي عزت بيغوفيتش مفكرًا، فرعى فكرة الندوة وتابعها بكل تفاصيلها واهتم بإصدار أوراقها، ولذلك يستحق منّا كل تقدير على ما بذله من جهود. كما لا بد لي هنا أن أشكر زملائي الذين شاركوا في هذه الندوة وعلى رأسهم فخامة رئيس البوسنة الأسبق د.حارث سيلاجيتش، الذي كان له حضوره الفعّال في جلسات الندوة، وأن أشكر أيضًا د. مجاب الإمام رئيس مركز الترجمة في المنتدى على دعمه المعنوي والمهني وأعضاء اللجنة التنظيمية على ما بذلوه طيلة شهور من العمل للإعداد للندوة وصولًا إلى صدور هذا الكتاب.

محمد م. الأرناؤوط
عمّان - ٣ كانون الثاني - ٢٠١٥م

الجلسة الافتتاحية

كلمة الدكتور محمد الأحمري

مدير منتدى العلاقات العربية والدولية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وأهلا وسهلًا بكم في هذه الفرصة الرائعة للتلاقي بين ثقافتين متجاورتين.

أبدأ بالترحيب بفخامة الرئيس البوسني حارث سيلاجيتش، وبأصحاب المعالي والسعادة، وبجميع الباحثين والمهتمين، وبالحضور والمشاهدين الكرام، فمرحبًا بكم، ونشكر اهتمامكم ومشاركتكم في هذه الندوة وما تجشمتموه من إعداد ومن كتابة ومن جهود في تحسين العلاقة بين جارين مهمّين في العالم.

إن موضوع لقائنا هو تجديد الصداقة وتوثيق العلاقة بين ميادين المعرفة التي تربط الجانبين. فالجغرافيا القريبة التي تكاد تجعل شبه جزيرة البلقان أقرب إلى شبه الجزيرة العربية من بعض أنحاء ومناطق العالم العربي؛ تستدعي الاهتمام بالعلاقات، والمزيد من التفاهم والتواصل عبر كثير من مجالات البحث والدراسة.

وإننا في هذا اللقاء نبدأ بموضوع العلاقات العربية البلقانية الآن، ثم نتجه بعد ذلك إلى الأبحاث التفصيلية (تاريخية وثقافية)، ونقوم بجولة حول كثير من القضايا التي تهم الحاضرين، وتشغل الدارسين.

إن البلقان والعالم العربي عاشا متواصلين زمنًا طويلًا عبر العصور، لا أعني عصور الديانات فقط، بل ما قبلها. وإذا كانت البلقان الآن أخذت

ديانتيها الإسلام والمسيحية من بلاد عربية؛ واشتهرت بتسميات قديمة، فإن من المهم أن تبقى هذه الصلة وهذا التقارب وهذا التفاهم حول كثير من القضايا. وإذا كنّا لاحظنا في يوم من الأيام - في مأساة البوسنة مثلًا - ذلك التواصل والمناصرة؛ فإننا نتمنى - مع ذلك - أن نجد من إخواننا في البلقان اهتمامًا بقضايا ومظالم أخرى، تحدث الآن في القدس والناصرة وفي بيت لحم، تلك المناطق التي يحجّ إليها المسيحيون من البلقان والبلاد العربية، التي تتصل كثيرًا بهذه الثقافة. لقد جمعنا التاريخ مرات عديدة، جمعنا من أيام الإسكندر، وجمعنا من أيام الرومان، وجمعنا من أيام العثمانيين، وجمعنا أيام سيادة الخلافة الإسلامية لزمن طويل، بتأثير مباشر أو غير مباشر، وإذا ما اختلفنا - ربما - على بعض التفصيلات؛ فإن الكليات - كليات التواصل - تفرض علينا المزيد من التفاهم والتعاون.

إن الثقافة العربية في عصرنا الحديث مليئة بالأسماء التي جاءت من جزيرة البلقان؛ فكل منّا قد يكون درس لدى أستاذ من البوشناق أو من الأرناؤوط أو الألبان، أو من غيرهم من الثقافات التي عاشت في شبه الجزيرة، ونحن على هذا القرب نحتاج إلى مزيد من التواصل في مراحلنا وفي منطقتنا وفي سياستنا، وفي ثقافتنا. فإذا كان المؤرخ يهمه الأمانة التاريخية في تفصيل ما يتناول، فإن الاستراتيجي يجب أن يجعل من هذه الثقافة ومن هذا التاريخ نورًا لمستقبله وتواصلًا في مراحل قادمة تهم الجميع. إن الثقافة العربية في البلقان كبيرة ومؤثرة ويكفي أن نعرف مثلًا أن أكثر من ٩٠٠٠ مخطوط تعرضت للدمار في الحرب وقامت قطر مشكورة بتجديد مكتبة الغازي خسرو بك في سراييفو، وهي المكتبة الأهم والأجمل والأكبر في جزيرة البلقان الآن.

هذا جهد مشكور من قطر وفي الوقت نفسه يدل على مدى التواصل الذي نحتاجه مستقبلًا. إن الوقوف عند القضايا الاقتصادية دون الاهتمام بالقضايا الثقافية والتواصل السياسي فيه تقصير؛ تقصير من المثقفين نرجو أن ينتهوا منه قريبًا وأن يتجهوا إلى اهتمامات عالمية، وأن يتناصروا في قضاياهم التي حكم عليهم التاريخ والجغرافيا فيها أن يكونوا بين الشرق والغرب.

قد يختلف المؤرخون بين الشرق والغرب، هل البلقان والعالم العربي من الشرق أو الغرب؟ لا يهمنا هذا التصنيف، لكن يهمنا كيف نتعاون، وكيف نجعل من منطقتنا منطقة قوة وتواصل بين الطرفين، وألا نهلك في حروب الشرق والغرب، ألا تكون منطقتنا منطقة دمار متبادل في حروب الشرقيين والغربيين. إن هناك جسورًا ثقافية هي التي تجمعنا في مثل هذا اللقاء، فنجد مثلًا عددًا من البلقانيين الذين اهتموا باللغة العربية والدراسات والثقافة يعمرون مجلسنا الآن، ولعل من أهم تلك الجسور فخامة الرئيس حارث سيلاجيتش، الذي يتحدث العربية كأهلها والذي عاش في العالم العربي، ومن قبل ذلك الأستاذ الكبير فخامة الرئيس علي عزت بيجوفتش، الذي كان لحظة من نور في الثقافة الإسلامية، وفي الفكر الإسلامي المعاصر، قبل أن يكون رئيسًا للبوسنة.

إن هناك عددًا كبيرًا من الملهمين في ثقافتنا المعاصرة الذين يجب أن نحترمهم وأن نهتم بهم، كما نحب أن يكون للثقافة العربية حضورها في البلقان فقد قدمت الكثير، ولنعلم أنه على مدى حوالى ٥٠٠ سنة كانت الثقافة واللغة المنتشرة بين المثقفين في البلقان كانت اللغة العربية، والمخطوطات تشهد على ذلك، والأعداد الكبيرة من المثقفين عبر تلك العصور كانوا يجيدون الثقافة العربية، ثقافة العلم والمعرفة في ذلك الزمان. إننا نلتقي هنا لا لنركّز على الأبحاث وما يقال فيها؛ لكن لنجعل من هذه الأبحاث ومن هذه الدراسات وسيلة تواصل ومعرفة وتكاتف بين المنطقتين.

أشكركم جميعًا، وأشكر الذين هيّأوا لنا جميعًا هذا اللقاء، وأشكر د.محمد الأرناؤوط الذي كان منسّقًا لهذا اللقاء واهتم به كثيرًا، وتابعه عبر الشهور، وأشكر الحي الثقافي كتارا ممثلًا في الدكتور خالد السليطي الذي اهتم كثيرًا بخدمات واسعة وكثيرة لأعمالنا في الحي الثقافي.

ولجميع الذين شاركوا من منتدى العلاقات العربية والدولية ومن الشبكات الإعلامية التي تتابع وتهتم بهذا اللقاء.

أشكركم جميعًا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الدكتور خالد السليطي

المدير العام للحيّ الثقافي (كتارا)

بسم الله الرحمن الرحيم.. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أصحاب المعالي والسعادة كلّا باسمه وصفته، الضيوف الأعزاء، الأخوات والإخوة الحضور، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اسمحو لي بداية أن أرحب بكم أجمل ترحيب في مؤتمر العلاقات العربية البلقانية الذي ينظّمه منتدى العلاقات العربية والدولية في الحي الثقافي (كتارا)، هذه المؤسسة التي تسعى لمد جسور التواصل والحوار بين الشعوب، متمنيًا أن تضيف مناقشاتكم ومداخلاتكم خلال أعمال المؤتمر، وتفتح أفاقًا جديدة على صعيد الرؤى والأفكار تجاه عالمنا وواقعنا، حاضره ومستقبله، ومستقبل العلاقات العربية البلقانية المشتركة، خاصة في ظل هذه التحولات والمتغيرات الكبيرة التي تشهدها المنطقة وتداعياتها وانعكاساتها وتأثيراتها في الداخل والخارج.

الحضور الكريم، إن العلاقات بين الدول العربية ومنطقة البلقان يجب ألا تقتصر على الجوانب السياسية والاقتصادية والتجارية فحسب؛ بل يجب أن يكون لها بُعدها الثقافي الذي من شأنه أن يرتقي ببناء هذه العلاقات الثنائية وذلك من أجل تحقيق مزيد من التواصل الحضاري والمعرفي بين شعوبنا وهذا

ما تسعى إليه المؤسسة العامة الحي الثقافي (كتارا)، التي تفتح ذراعيها لأصحاب الفكر المنفتح ليساهموا عبر الحوار في رسم مستقبلٍ مشرق.

ختامًا، اسمحوا لي أن أتقدم بجزيل الشكر، لتشريفكم وحضوركم كما أشكر القائمين على تنظيم هذا المؤتمر وعلى رأسهم الدكتور محمد الأحمري، سائلًا الله لكم النجاح والتوفيق في مداولاتكم ومناقشتكم والتي تصب دون شك في مصلحة شعوبنا وأجيالنا القادمة...والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة سعادة الدكتور محمد بلوط
رئيس جامعة صباح زعيم بإستانبول[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

فخامة الرئيس حارث سيلاجيتش، الدكتور محمد الأحمري، الأخوة المنظّمين لهذه الفعالية.

أولًا أود أن أشكركم جميعًا لدعوتي، ولتنظيمكم لهذا المؤتمر هنا في الدوحة اليوم. وأنا كذلك مسرور لوجودي معكم لأرى الأدباء والمفكرين البلقانيين ومن العالم الإسلامي كذلك يناقشون العلاقات بين البلقان والشرق الأوسط.

إن هذه العلاقات - كما تعلمون - تعود إلى تواريخ قديمة جدًا، من الإمبراطورية الرومانية، ثم الإمبراطورية العثمانية. ولوقت طويل جدًا نعرف أنه خلال الإمبراطورية الرومانية كان هناك استقرار وسلام وتمّ تأسيس هذا السلام بين المنطقتين.

وبعد ذلك كانت الدولة العثمانية هي الأولى التي عملت على تقوية العلاقات مع البلقان. وقد كانت مكانًا جميلًا ورائعًا للزوار، وكانت صلة الربط

(١) ألقيت الكلمة باللغة الإنجليزية، وتُرجمت من قبل المنتدى.

بين الخليج والقارة الهندية. في ذاك الوقت كانت تكاليف السفر عالية جدًا وكان السفر صعبًا مقارنةً باليوم. ولكن بسبب تأسيس جو السلام كان في الأمر أمان وتيسير.. وإذا بدأ أحد رحلته من الدوحة إلى البوسنة فإنه يصل إلى هناك سالمًا شاعرًا بالأمان..

قامت الدولة العثمانية بتأسيس نظام، بحيث في كل ثمان ساعات تستطيع أن تمشي أو تركب حصانًا أو جملًا لترتحل عليه، حتى إذا تعب الجمل أو الحصان استرحت في مضافات لمدة ثلاثة أيام بدون أن تدفع أي شيء ومن ثم تستمر في رحلتك. يعني هذا أن المهاجر أو المسافر يستطيع أن يصل من الدوحة للبوسنة والهرسك بدون أن يدفع أي تكاليف أثناء سفره.

اللافت هنا أن الدولة العثمانية قد عالجت أهم عاملين كانا يقلقان المسافر في ذاك الوقت وهما تكلفة السفر وسلامة وأمان المسافر. ولكن لسوء الحظ، كما تعلمون، أنه في بداية القرن العشرين، بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، تراجع نشاط العلاقات بين أهل البلقان والشرق الأوسط حتى كادوا أن ينسى بعضهم بعضًا وباتت العلاقات محدودوة للغاية.

ولكن ها نحن أولاء اليوم بحمد الله نجتمع سويًا، ونعود مرة أخرى لفهم بعضنا بعضًا، وفهم تاريخنا وفهم حاضرنا بشكل أفضل. ونأمل إن شاء الله أن تكون هناك علاقات أفضل في المستقبل.

في ختام كلمتي أشير إلى نقطة وهي أنني من بلوفديـف، وجدي ولد في بلوفديف ولغتي الأم هي البلغارية. ونحن من البوماك[1]. ومن هم البوماك؟ وفقا للأوروبيين؛ كل المسلمين - بمن فيهم البوسنيين والعرب والأتراك - كلهم أتراك دون أي تمييز في أصولهم العرقية. ولكن في الحقيقة، فإننا تحت مظلة الدولة العثمانية كانت لدينا لغات مختلفة وألوان مختلفة.

---

(١) في اللغات الأوروبية Pomacs، وفي اللغات السلافية Pomaci التي يعود جذرها، كما سيرد لاحقًا، إلى فعل ساعد أو ناصر- المحرّر.

واليوم واجهنا مأساة البوسنة والهرسك، وهنا بيننا الآن أحد زعمائهم. وفي هذا الوقت قال لهم الأوروبيون: اذهبوا وارحلوا إلى دولكم. ولكن البوسنيون ردّوا أنهم من هذه الدول أصلًا، وأن كونهم مسلمين لا يسلبهم هويتهم البوسنية. وكذلك كان الحال في المأساة البلغارية، حيث قال الأوروبيون للمسلمين البلغار: اذهبوا إلى الأناضول لأنكم أتراك، فردّ البلغاريون في ذلك الوقت وتمسكوا بأصولهم حيث ولدوا هم وأجدادهم.

جدي كان مُلاّ، وشرح لنا عندما كنت أنا في المدرسة الابتدائية، قال: إن معنى البوماك الأنصار أو المساعدون. في بلغاريا في ذلك الوقت كانوا قد واجهوا في الاشتباكات الأولى بعض المسلمين، وتعلموا الكلمة الأولى «بوماكنم» التي تعني «ساعدني»، ومن ثم قالوا عنهم «بوماك» أي الأنصار أو المساعدين. وهذا يعني أن هؤلاء البلغاريين المسلمين يعود تاريخهم إلى القرن الحادي عشر، أي قبل العثمانيين. ولذلك على الأوروبيين أولًا والعالم كذلك أن يفهموا أن علاقات البلغار مع الإسلام تعود إلى ما قبل العصر العثماني.

وقصة أخرى تناقش سؤالًا: من أين أتى البوماك إلى أوروبا؟ وهناك حول ذلك روايتان. فالرواية الأولى تقول إنهم جاؤوا من بليكسي، بينما تقول الرواية الأخرى إنهم جاؤوا من البحر الأبيض المتوسط. وبالنسبة للمؤرخين هناك إمكانية كبيرة للقيام ببحث ودراسة الموضوع بشكل واسع.

شكرًا للمنظمين لهذا المؤتمر، وأتمنى له النجاح.

وشكرًا للحاضرين والمستمعين وإلى اللقاء.

كلمة الدكتور خالد إرن
المدير العام لمركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون
في إستانبول (ارسيكا)

فخامة الدكتور حارث سلاجيتش، رئيس دولة البوسنة والهرسك

حضرة الدكتور محمد الأحمري، مدير منتدى العلاقات العربية والدولية

معالي الدكتور كامل صالح أبو جابر

السادة الضيوف الكرام

الحضور الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسعدني ويشرّفني أن أخاطبكم في افتتاح مؤتمر العلاقات العربية البلقانية.

إن أولَ ما يتبادرُ إلى أذهانِنَا، عندمَا نبحثُ في تاريخِ العلاقاتِ العربيةِ البلقانيةِ، هو: متى وكيفَ بدأتْ هذه العلاقاتُ وتطورتْ على مرّ السنين؟ ولا أريدُ هنا التوقفَ للإجابةِ عن هذا التساؤلِ، لأنني على ثقةٍ أن السادةَ الباحثينَ المشاركينَ في هذه الندوةِ سيتناولونَ هذا الموضوعَ بكلِ حيثياتِهِ، ويكفي هنا أَنْ أقولَ إنَّ هذه العلاقاتِ تمتدُ إلى ما قبلَ الامتدادِ العثمانيِ إلى منطقةِ البلقانِ.

وعلى الرغمِ من أنَّ هذه العلاقاتِ ظلتْ متواضعةً، إلى حدٍّ مَا، في هذه الفترةِ، إلا أنَّ الامتدادَ العثماني إلى المنطقةِ رافقتْهُ تطوراتٌ مهمةٌ في كلِّ مناحي

الحياةِ، ما زالتْ آثارُهُ واضحةً حتى اليومِ، وفتحَ آفاقًا جديدةً، ولا سيما بعدَ أنْ تحولتْ أقاليمُ واسعةٌ من بلادِ البلقانِ إلى الإسلامِ، بل غدتْ هذه الأقاليمُ جزءًا حيويًا من الحضارةِ الإسلاميةِ تمثّلتْ معالمُها في المؤسساتِ الدينيةِ والمدنيةِ التي أُقيمتْ فيها كالمساجدِ والمدارسِ والمكتباتِ والخانقاهات والرُّبُط والتكايا والزوايا ودُورِ الطَّعامِ. ولم يقفْ الأمرُ عند حدّ إقامةِ هذه المؤسساتِ، بل تجاوزَ ذلك إلى انتقالِ طلبةِ العلمِ والعلماءِ من بلادِ البلقانِ إلى المراكزِ العلميةِ والثقافيةِ في البلادِ الإسلاميةِ ومنها البلادُ العربيةُ لِيَنْهَلُوا من مناهِلِها أو يُدَرِّسُوا فيها، وتَمَخَّضَتْ عن ذلك نشأةُ نخبةٍ خيّرةٍ منَ الْعلماءِ يَنْتَسِبُونَ إلى أقاليمَ مختلفَةٍ من البلقانِ كالبوسنةِ وألبانيا وقوصوه[1] بما فيها المدنُ المشهورةُ فيها. وهؤلاءُ العلماءِ وَضَعُوا بصماتِهم على كلِ مناحي الحضارةِ الإسلاميةِ، وغدتْ مكتباتُنَا لا تخلُو من مؤلفاتِهِمْ القيّمةِ.

ولكنْ، ومِمَّا يُؤْسَفُ له أنَّ الحقبة التي أعقَبَتْ الحُكْمَ العثمانيَّ في منطقةِ البلقان رافقَتْها أعمالٌ كانتْ بمثابةِ كَوَارِثَ حَلَّتْ بالمجتمعاتِ الإسلاميةِ فيها وبكلِ مفاصلِ الحياةِ فيها، إذ سَعَتْ الحكوماتُ التي نشأتْ هناكَ إلى طَمْسِ الهويةِ الثقافيةِ للمسلمينَ ومَحْوِ آثارِهِمْ، بلْ سَعَتْ إلى إقصاءِ المسلمينَ مِنْ كُلِّ مناحي الحياةِ وتهجيرِهِمْ من أراضِيهِمْ واغتِصَابِ ممتلكاتِهِمْ.. واسْتمرَّ هذا الوضعُ الذي يَتَعَارَضُ معَ أَبْسَطِ القِيَمِ الإنسانيةِ إلى العقدِ الأخيرِ من القَرْنِ الماضي وأثّرَتْ تأثيراً سلْبِيًّا على العلاقاتِ العربيةِ البلقانيةِ. وبعدَ تصحيحِ هذا الوضعِ بَدَأَتْ هذه العلاقاتُ تأخذُ مَنْحًى جَدِيدًا، يَصُبُّ في صالحِ الشعوبِ العربيةِ والبلقانيةِ، وسَعَتْ الحكوماتُ العربيةُ إلى تقديمِ يَدِ المساعدةِ إلى الشعوبِ البلقانيةِ وعلى وَجْهِ الْخُصُوصِ المسلمينَ منهُمْ، وإعمارِ مَا دَمَّرَتْهُ الحروبُ التي وقَعَتْ هناكَ. وأخذَتْ المراكزُ العلميةُ العربيةُ والإسلاميةُ دورًا إيجابيًا يُشْهَدُ لَها في هذا الميدانِ.

---

(١) قوصوه كما كانت تُعرف بالرسمي العثماني، وهي شائعة الآن بصيغتها الألبانية (كوسوفا) أو الصربية (كوسوفو)- المحرّر.

وكانَ مركزُنَا، مركزُ الأبحاثِ للتاريخِ والفنونِ والثقافةِ الإسلاميةِ (إرسيكا) من أوائلِ المراكزِ التي أَوْلَتْ اهتمامًا خاصًا بالتراثِ الإسلاميِّ في منطقةِ البلقانِ، فقَامَ بأعمالٍ وفعالياتٍ مختلفَةٍ. وبَادِئ ذي بَدْءٍ قُمْنَا بعَقْدِ عَدَدٍ مِنَ النَّدَواتِ الدوليةِ حولَ الحضارةِ الإسلاميةِ في منطقةِ البلقانِ، وكانتْ الندوةُ الأولى في صوفيا، أعقَبَتْها ندوةٌ في تيرانا، ثم في بوخارست، ثم في أوسكوب (سكوبيا)، والآن نُعِدُّ العدّةَ لِعَقْدِ الندوةِ الخامسةِ في سراي بوسنة (سراييفو) عام ٢٠١٥م.

وفي مجالِ الحفاظِ على التراثِ الحضاريِّ الإسلاميِّ أَطْلَقَ مركز «إرسيكا» مشروعَ «موستار ٢٠٠٤ » الذي بَدَأَ بجلساتِ عملٍ مِعْمَاريةٍ منذ عام ١٩٩٤م، أعقَبَتْها ندوةٌ علميةٌ وأنشطةٌ أخرى عُقِدَتْ عام ٢٠٠٣ بالتعاونِ مع مدينةِ موستار. وقد حازَ ذلك المشروعُ منذ بدايتِهِ على إعجاب وتقديرِ الدوائرِ العلميةِ الدوليةِ، وأصبحَ نموذجًا لبرامجِ الدراساتِ الخاصةِ بإعادةِ إعمارِ البوسنة والهرسك. ورافقَتْ ذلك أعمالٌ كثيرةٌ منها إعادةُ إعمارِ مسجدِ قره كوز بك الذي بناه المعمار العثماني الشهير سنان في منتصفِ القرنِ السادسِ عشرَ، وإعمارِ مسجدِ نذير آغا.

وفي هذا الإطارِ يقومُ مركز «إرسيكا» أيضًا بعَقْدِ سلسلةٍ من المدارسِ الصَّيْفِيةِ الدوريةِ بُغْيَةَ زيادةِ الوعيِّ بأهميةِ التراثِ العمرانيِّ في الدولِ الإسلاميةِ والمحافظةِ عليهِ والترويجِ له. وهو برنامجٌ وُضِعَ لاستكمالِ دراساتِ الباحثِينَ والمِهَنِيِّينَ الشبابِ مِنْ خِلالِ محاضراتٍ يُلْقِيها خبراء دَوْلِيُّونَ ويضمُّ رحلاتٍ ميدانيةً إلى مواقعَ ومشروعاتٍ مهمةٍ وبارزةٍ. وهذه المدارسُ تُـقَـدِّمُ مناهجَ حديثةً ومعاصرةً للحفاظِ على التراثِ العمرانيِّ من مختلفِ الجوانبِ والزوايا.

ويُشَارِكُ في هذه المدارسِ الصيفيةِ طلابٌ جامعيونَ (أكثرَ من ٦٠ طالبًا) مِنْ أقْسامِ العمارةِ من عشرةِ بلدانٍ إسلاميةٍ هي المملكةُ العربيةُ السعوديةُ

والبحرين ومقدونيا وكوسوفو وألبانيا والجبل الأسود وكرواتيا والبوسنة والهرسك وتركيا وقزاخستان. أما الجامعاتُ المتعاونةُ لتنفيذِ البرنامجِ فهي: جامعةُ فيرارا (إيطاليا)، وجامعةُ سراييفو (البوسنة والهرسك)، وجامعةُ دونيا جوريكا (الجبل الأسود)، والجامعةُ الأمريكيةُ (مقدونيا)، وجامعاتٌ تركيةٌ هي جامعةُ يلديز التقنية، وجامعةُ مرمرة، وجامعةُ إستانبول التقنيةِ، وجامعةُ المعمار سنان للفنون الجميلة، وجامعةُ وَقْفِ السلطان محمد الفاتح، وجامعةُ الغازي، وجامعةُ باغجه شهر، وجامعة ١٨ مارس بجناق قلعة.

وفي هذا الإطارِ قُمْنَا معَ الطلابِ في السنةِ الماضيةِ بجولةٍ شَمِلَتْ مُدُنَ البلقانِ المختلفةِ في بلغاريا واليونان. أما في هذه السنةِ فقد بَدَأَتْ الرحلةُ بزيارةِ المواقعِ العُمْرَانيةِ في أسكوب (سكوبيا) بمقدونيا، ثم تَلَتْهَا رِحْلاتٌ وزياراتٌ ميدانيةٌ إلى كوسوفو وألبانيا والجبلِ الأسود وكرواتيا والبوسنة والهرسك. وقد اقتضىَ مسارُ الرحلةِ زيارةَ بَعْضِ المواقعِ أكثرَ من مرةٍ، وجَرىَ خلالَ ذلك عقـدُ لقـاءاتٍ مختلفةٍ بـمشاركةِ خبراءَ وأساتذةٍ محليينَ ودَوْلِيِّينَ ومُمَثِّلِـينَ عَنِ السلطاتِ المحليةِ.

وفَضْلًا عن هذا المشروعِ يُواصِلُ مركز «إرسيكا» مشروعًا آخَرَ يَتَعَلَّقُ بالأوقافِ الإسلاميةِ في منطقةِ البلقان. إذ نقومُ بنشرِ حُجَجِ ووقفياتِ الأوقافِ التي أقيمَتْ هناكَ، وإجراءِ دراساتٍ تحليليةٍ وكشافاتٍ وفهارسَ عنْها. وصَدَرَ من هذا المشروعِ كتابُ «وقفياتِ بلغاريا» في ثلاثةِ مجلداتٍ كبيرةٍ (إرسيكا ٢٠١٢م)، ونعمَلُ في الوقتِ الحاضرِ على وقفياتِ اليونان، تعقبها بُلْدَانُ البلقان الأخرى.

وما أَوَدُّ التأكيدَ عليه هنا هو أَنَّ منطقةَ البلقانِ سوفَ تَظَلُّ تحظىَ بنصيبٍ وافٍ ضِمْنَ برامجَ ومشروعاتِ إرسيكا، ولا سيما في مجالِ الدراساتِ المتعلقةِ بتاريخِ الحضارةِ الإسلاميةِ وثقافاتِ شعوبِها، وتعايشِ الثقافاتِ وتفاعلِها، وتاريخِ العلومِ والفنونِ وأعمالِ المحافظةِ على التراثِ المعماريِّ الإسلاميِّ.

إخْوتي الكرام أخواتي الكريمات،

في نهايةِ كَلِمَتِي لا يَسَعُنِي إلاَّ أَنْ أُبَارِكَ الجهودَ التي بُذِلَتْ لِعَقْدِ هذه الندوةِ المهمةِ وذلك في وقتٍ نَشْهَدُ فيهِ توَاصل العلاقاتِ بين دولِ البلقان ومجتمعَاتِها الإسلاميةِ وبينَ دُولِ وشعوبِ العالَمِ الإسلاميِّ المختلفةِ ومنها العربية، وإني عَلَى ثِقَةٍ تامةٍ بأنَّ وَتِيرَةَ هذه العلاقاتِ قد زادَتْ قوةً عمَّا كانتْ عليهِ، وما وفُودُ الطلابِ القادمينَ للالتحاقِ بمُخْتَلَفِ الجامعاتِ والمعاهدِ العلميةِ في البلدانِ العربية والإسلاميةِ إلا دَلِيلًا على مَا وَصَلَتْ إليهِ هذه العلاقاتُ.

ولا يَسَعُنِي بهذه المناسبةِ إلاَّ أنْ أُقَدِّمَ جزيلَ شكرِي وامتنانِي إلى مُنْتَدَى العلاقاتِ العربيةِ والدوليةِ متمثلًا بمديرِهِ الأخ الدكتور محمد الأحمري لِحُسْنِ الاستقبالِ وكَرَمِ الضيافةِ، والشكرِ موصولٌ إلى الأخ الدكتور محمد الأرناؤوط لجهودِهِ لإقامةِ هذه الندوةِ، كما أُقَدِّمُ شُكْرِي إلى الباحثين المشاركين في هذه الندوةِ راجيًا من الله تعالى أن يُوَفِّقَنَا لخدمةِ قَضَايانَا.

أشكرُكمْ جَمِيعًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة فخامة الدكتور حارث سيلاجيتش

الرئيس الأسبق لجمهورية البوسنة والهرسك(١)

أولًا نشكر منتدى العلاقات العربية والدولية ومديره الدكتور محمد الأحمري، والدكتور محمد الأرناؤوط وفريق العمل على حسن التنظيم، وعلى هذا الاستقبال الكريم والضيافة. وكذلك يسعدني جدًا أن أقف في الدوحة، في قطر، بينكم؛ لأن هذه الدولة مع دول الخليج والدول الصديقة وقفت بجانب البوسنة والهرسك أيام الاعتداء على البوسنة والهرسك، والهجوم المؤسف من دول الجوار. وقفت معنا أيام الشدة، أيام الدمار والقتل الجماعي، والطرد الجماعي، وأقول إننا ما نسينا ولن ننسى.

واليوم أيضا يسرني أن أقول إنه يسعدني ما نشهده من روح الوحدة والتعاون بين دول الخليج؛ خاصة في وقت كهذا. ولكي نصل إلى التواصل والعلاقات الطيبة ما بين دول المنطقة، وفي العلاقات الدولية؛ لابد أن نعرف الحقيقة، وهذه اللقاءات تأتي بالحقائق التاريخية. وإني أرى عددًا كبيرًا من الباحثين من المنطقة، من ألبانيا ومن كوسوفو ومن تركيا، وطبعا من البوسنة والهرسك، من الباحثين الذين سيتكلمون عن هذه العلاقات والحقائق التاريخية.

---

(١) ألقيت هذه الكلمة باللغة العربية، وتنشر كما هي دون تدخل يُذكر- المحرّر.

لماذا هذه الحقائق؟ لأننا نعيش للأسف الشديد مرة ثانية فترة الشـعارات.

ونحن نعيش في أوروبا ونعرف أنه - للأسف - التيارات اليمينية المتطرفة رجعت إلى الوراء؛ خطابًا وعملًا، وهذا لا يؤدي إلى مستقبل مشرق في أوروبا ولا في العالم. ونحن نعلم أن شبه جزيرة البلقان مع شبه الجزيرة الإيبرية وشبه الجزيرة الأبينية، كما قال الدكتور الأرناؤوط، هي الجسور التي أخذت من الحضارات الشرقية ما تحتاج إليه أوروبا آنئذ واليوم. ونقول إن النموذج التعددي في شبه الجزر هذه، من شبه الجزيرة الإيبرية إلى شبه الجزيرة البلقانية، نموذج تحتاجه أوروبا اليوم، وهو نموذج حقيقي تاريخي، تمازجت فيه ثقافات متطورة جدًا، ابتداءً من شبه الجزيرة الإيبرية عام ٧١١م. وكذلك شبه الجزيرة البلقانية بعد مئات السنين. وأوروبا تعلّمت من هذ التاريخ، وأخذت هذا النموذج والمفاهيم؛ لأن مفهوم التمازج الثقافي كان معدومًا في أوروبا قبل ذلك.

نحن نعيش قرن الشعارات؛ لأننا نفتقد إلى وقت معين. هذا عصر السرعة، والسرعة أصبحت غاية في ذاتها. فالمؤرخ الشهير البروفسور أرنولد توينبي قال: إن الحضارات توقفت في تاريخها، وفي سيرها الشاق، كانت تتوقف لكي تنظر إلى الجديد؛ لكي تستوعب الجديد وتمضي في سيرها.

الآن حضارتنا هذه يبدو لي أنها لاتريد الاستراحة؛ بل تريد الجديد على الجديد، وبسرعة هائلة. ولذلك عالمنا اليوم، ثقافتنا اليوم، تسودها مفاهيم مركبة في كلمتين: السطحية والمحدودية، النمطية، وكذلك العلاقات والمفاهيم الثقافية، والتاريخ الثقافي في أوروبا، لماذا؟ لأنه ما عندنا وقت كي نتعمّق في الموضوع، ولقاءات كهذه تعطينا الوقت لكي نتكلم عن الحقائق التاريخية، وتداعياتها في السياسات اليومية، والعلاقات ما بين الشعوب.

نحن الآن في أوروبا نشهد فترة مخيفة إلى حد ما؛ نشهد خطابًا كنّا نعتقد أنه من الماضي، وخاصة الخطاب الموجّه إلى من هو غير أوروبي. وأحكي لكم حدثًا صغيرًا هنا. أيام ما بعد الحرب في البوسنة والهرسك قال لي أحد الرؤساء في الدول المجاورة إن مشكلة البلقان ومسؤوليتها تقع على عاتق البوسنيين، فقلت له لماذا؟ نحن لم نبدأ الحرب، نحن ندافع عن أنفسنا! قال لأنكم تدخلون عناصر آسيوية إلى أوروبا. قلت له: هذا غريب، ما هي هذه العناصر الآسيوية؟ والآسيوية معناها سلبي تلقائيًا ـ قال: نعم، هو الدين الإسلامي، هو آسيوي. فقلت له: وماذا عن المسيحية؟ وماذا عن اليهودية؟ وماذا عن اسمكم؟ (اسم أوروبا اسم أميرة فينيقية كان اسمها «أوروب» بمعنى الغرب باللغة الفينيقية، وهي عائشة في أسطورة زيوس إلى هذا اليوم لكنها شخصية تاريخية أعطت اسمها لأوروبا كلها) الاسم آسيوي، واللغات الأوروبية كلها آسيوية، والديانات آسيوية، والأصل أوروبي آسيوي، وأوروبا كلها شبه جزيرة آسيوية. ولكن هذا الخطاب اليوم وبعد الحروب كلها لانحتاج إليه؛ ونحن نتكلم عن التعاون، وعن العلاقات فيما بيننا، وعن الاقتصاد، والتعليم، ونعلم الأولاد أن هناك أوروبيين وآسيويين.

هذا مضر بالعلاقات؛ خاصة وأن هناك جاليات في أوروبا (في ألمانيا وفي فرنسا وفي إنكلترا) وهؤلاء ٩٩٪ أناس طيبون يريدون أن يعيشوا حياة عادية ويشتغلوا وما إلى ذلك، لكن وجودهم أصبح شاقًا؛ لأن هذا الخطاب يذكّرنا بالماضي، وخاصة الحرب العالمية الثانية وتعرفونها جيدًا.

فوجودهم أصبح وكأنهم غير مرغوبين في أوروبا، وأن هناك بعض الأحزاب اليمينية تريد أن تتخلص من هذا العنصر في أوروبا؛ لكن النظرة الموضوعية في هذه الظاهرة، والمنطقية، والعلمية كذلك، تقول إن هناك شيئًا اسمه التبادلية التاريخية historical reciprocity. فهناك مصطلح دبلوماسي اسمه تبادل الزيارات؛ فإذا رحت للهند الهند تأتيك، وإذا رحت لإفريقيا الشمالية واستعمرتهم يأتونك، فهذه سنة الحياة ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾.

ونأمل أن هذا الخطاب سيتغيّر، واللقاءت التي كهذه تساعد على ذلك؛ لأننا نعيش تاريخًا مختصرًا من كثرة السرعة التي نعيش بها؛ لأن هناك أدوات تكنولوجية متطورة جديدة، ولا نعلم ما إذا كانت هذه الأدوات الجديدة والوسائل، تقودنا أو نقودها؟ وهذا خطر علينا.

نتعلّم عن الحقائق الجديدة والمفاهيم المركبة جدًا في سطرين، وهذا التبسيط لايؤدي إلى تعاون وتمازج، بل إلى سوء الفهم فيما بيننا. أنا كمواطن بوسني أقول كنّا نتمنى ونأمل، بعد الحرب أوالاعتداء على البوسنة ما بين ١٩٩٢-١٩٩٥، كنّا نتمنى أن نتمتع بإعادة بناء البوسنة التعددية؛ لأنها متعددة أصلًا. هذا نموذج حي، ناجح، للتعددية، وكوكبنا هذا، أرضنا، لا بد أن تكون تعددية؛ لأن هذا أصبح كوكبًا صغيرًا، والثقافات كثيرة.

نحتاج إلى تأمّل وتمهّل وصبر كي نعيش مع بعض؛ لأن الثقافات أحيانًا تكون زوايا حادة جدًا ولا بد من مرور فترة زمنية معينة؛ لأن الإنسان طبيعته تدرجية حتى نتعوّد على الثقافات هذه.

والنماذج التعددية تساعنا على ذلك وهذا النموذج (البوسنة) نموذج لأوروبا كلها وأوروبا تعلن، ولا أعرف ماذا تريد بالفعل، أنها تريد أن تكون اتحادًا متعدد الثقافات، وأمامها نموذج، لكنها لا تساعد هذا النموذج.

كنا نتمنى أن نتمتّع بنموذج الأندلس. بعض المؤرخين يقول إن أنجح مجتمع في تاريخ البشرية هو الأندلس، وقد نقلت هذه الروح والبعد الإنساني الدولةُ العثمانية إلى البلقان، والبلقان تمتّعت بفترات طويلة من الاستقرار، كما قال الأصدقاء، وكنّا نأمل في البوسنة أننا سنعيش نموذجًا قريبًا من هذه النماذج، النموذج الذي كان قبل ألف سنة، وهذا دليل على أن مرور الوقت بخط مستقيم لا يعني التقدم.

فلذلك إن لقاءات كهذه التي تُدرس بأسلوب سليم لكي نكشف الحقائق التاريخية الثابتة، ونبني عليها هذه العلاقات، وليس على الشعارات وعلى الكراهية، هي مهمة جدًا. ومرة أخرى نودّ أن نكون نحن هذا النموذج الذي تريده أوروبا، أوروبا تريد النموذج ولا تساعد على إعادة بناء النموذج البوسني التعددي. فلا بد من اللقاءات الجدية، والمشاركون كما أرى سيتكلمون عن هذه الأمور بالتفاصيل. وفي الأخير هناك مبدأ ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، لا أحسن من هذا.

القسم الأول

العلاقات عبر التاريخ
إلى الحاضر والمستقبل

صورة العرب والمسلمين عند الرّوم
منذ القرن السّابع حتّى القرن الثاني عشر الميلاديّ

كوثر سِرحان[1]

تمهيد:

مع نهاية الرّبع الأَوّل من القرن الميلاديّ الرّابع، اعترف الملك قُسطنطين (Κωνσταντίνος ٣٠٦-٣٣٧) بالديـانة المسيحيَّـة[2]. وزارت والدتـهُ إيلـيني (Ελένη) الأَمـاكن المسيحيَّـة المقدّسـة في فلسـطين فبَنَت كنيـستي القيامـة وقسطنطين[3]، وزينت الصّليب المقدّس بالذّهب والفضّة[4]، واتخذت من الرّابع عشر من شهر أيلول عيدًا لهُ[5] كما أَرفقت اسمها مع إشـارة الصّـليب على كل

(١) باحثة فلسطينية- يونانية متخصصة في العلاقات العربية-البيزنطية، محاضرة في جامعة إيوانينا- اليونان.

(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، صحّحه عبدالله إسماعيل الصّاوي، دار الصّاوي-القاهرة ١٩٣٧، ص١٢٤؛ مروج الذّهب ومعادن الجوهر، شرحه مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلميّة- بيروت ١٩٨٦، ج١، ص٣٢٩.
Θεοφάνης, Χρονογραφία, μετάφ. Αρχιμανδρίτης Ανανίας Κουστένης, Εκδόσεις 'Αρμός, Αθήνα 2007, τομ. Α΄, σ.61 - 65.

(٣) التنبيه والإشراف، ص١٢٣.

(٤) يوحنا النقوسي، تاريخ مصر، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، مؤسسة عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٠، ص١٠٢.

(٥) في اليونان، يُعيِّدُ في هذا التّاريخ حاملو اسم ستافروس «Σταύρος» أي صليبا وحاملات اسم ستافرولا «Σταυρούλα».

كنيسة بنتها في سوريا وفلسطين ومصر[1]، ونقلت صليبًا إلى القسطنطينية[2]. لكن المملكة الرّومية (بيزنطة) سرعانَ ما انقسمَت إلى فريقينِ:

الفريقُ الأُول: مُؤيِّدٌ لفكرةِ آريوس الإسكندرانيّ[3] (٢٥٦-٣٣٦) التي كانت تقول بالمشيئة الواحدة للسيد المسيح، أي الطَّبيعة البشرية له[4].

الفريقُ الثَّاني: مُؤَيِّدٌ لفكرةِ أَثاناسيوس (٢٩٣-٣٧٣)[5] بطريرك الإسكندريَّة[6] التي كانت تدعمُ فكرةَ الثّالوثِ المقدَّس (Πάτερ, υιός και Άγιο πνεύμα) أي الأَبُ والابنُ والرُّوحُ القُدس، واحدٌ لا يتجزأ[7].

في ظل هذا الانقسام حول شخصيَّة المسيح، عُقِدَ المجمع الكنسي الأَوَّل في مدينة نيقيّة (سنة٣٢٥م) الذي أَسَّسَ العقيدة الأرثوذوكسية القائمة على أساس أَن المسيح وُلِدَ من الأبِ قبل كون الخلائِق، وهو من طبيعة الأب[8]. وفي القرنِ الميلاديِّ السَّادسِ، أَكْرَهَ الإمبراطور يوستنيانوس (Ιουστινιανός) النّاسَ على قبول مقررات مجمع خلقيدونيَّة[9]، لكنه بعد ذلك نادى بفكرة خياليّة تقول إن جسد الرّب (=المسيح) غير قابلٍ للآلام والفساد[10].

---

(١) مروج الذّهب، ج١، ص٣٢٩.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدّول، صححه الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرَّائد اللبنانيّ- بيروت ١٩٨٣، ص١٣٤-١٣٥.

(٣) التنبيه والإشراف، ص١٢٢.

(٤) تاريخ مصر، ص١١١. ينظر أيضًا الهامش رقم ٢.

(٥) أثاناسيوس (Αθανάσιος) اسم يونانيّ ويعني بالعربيّة «خالد».

(٦) تاريخ مصر، ص١١١. ينظر أيضًا الهامش رقم ١ من صفحة ١١٠.

(٧) تاريخ مار ميخائيل السّرياني الكبير، ترجمة مار غريغوريوس صليبا شمعون، دار ماردين، حلب ١٩٩٦، ج٢، ص٢٩٤.

(8) Χονογραφία, τομ.Α΄, σ.63 - 65, 85 - 87.

اجتمع فيه ٣١٨ قديسًا. للتوسع ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص١٥٣؛ التنبيه والإشراف، ص١٢٢-١٢٣؛ مروج الذهب، ج١، ص٣٣٠؛ تاريخ مار ميخائيل، ج٢، ص٢٩٥.

(٩) هو المجمع المسكوني الرّابع الذي عقد في مدينة خلقيدونيّة، وفيه تمّ الفصل بين الأرثوذكسيَّة الملكيّة وباقي الطوائف المسيحيَّة. تاريخ مصر، ص١٤٥، ١٤٩/ تاريخ اليعقوبي، ج١،ص١٥٥/ التنبيه والإشراف، ص١٢٠.

(١٠) تاريخ مصر، ص١٥٣/ تاريخ مار ميخائيل، ج٢، ص١٦٠.

وفي غمرة انقساماتِهم الدِّينيّةِ، استفاقَ الرّومُ على اكتساحِ الفرس للأراضي التابعةِ عسكريًا لمملكتِهم في الشَّرقِ، وأَسرهم أسقفَ القدسِ الخلقيدونيّ، واستيلائهم على الصَّليبِ المُقدّسِ[1]. لكنَّ هرقل الأَرمنيَّ استطاعَ لملمةَ الجيش الرّوميّ واستردادَ ما استولى عليهِ الفرسُ[2] واستعادة الصَّليبِ[3]، ثم كتب إلى عماله يقول: «كل من لا يقبل مجمع خلقيدونيّة يُقطع أنفه وآذانه وينهب بيته»[4].

ومع الاِحتفالاتِ بالنَّصر والتهديد بالمجمع الخلقيدونيّ، ظهرَ خصمٌ جديدٌ للرُّومِ في الجزيرةِ العربيّةِ ممثلًا بالمسلمين. فكيفَ نظرَ الرّومُ لذلكَ الدِّينِ الجديد؟ وهل نظروا للعربِ كقوةٍ سياسيَّةٍ وعسكريَّة؟ وكيف أثَّرت العلاقات السِّياسيّة والعسكريَّة على الجانبين الاقتصاديّ والثقافيّ؟

قبل مناقشة هذه الأسئلة، لا بد من إلقاءِ نظرةٍ على أهم المَصادر اليونانيّة الأوليَّة المعنية بموضوع البحث.

- كتاب حَولية ثيوفانيس «*Χρονογραφία του Θεοφάνη*». يُعدّ -حتّى اليوم- أَوَّل مصدر يونانيّ حولَ العلاقات الإسلاميّة الرُّوميَّة. تبدأ الحولية سنة ٢٤٨م، وتنتهي بأحداث ٨١٣م. كان ثيوفانيس مقربًا من البلاط الملكي. وقد اختار أن يكون راهبًا معترفًا (Ομολογητής)، وكان من أهمِّ المدافعين عن فكرة الأيقونيَّة التي كانت مصدر صراعٍ مع الرَّافضين لها داخل الكنيسة لفترة طويلة. ولهذا نفاه الملك لاون الخامس (Λέων=Λέοντα Ε΄) إلى جزيرة ساموثراكي الواقعة في بحر إيجه، وفيها توفي سنة ٨١٨م[5].

---

(1) Νικηφορος, Ιστορία Σύντομος, μετάφ. Λ. Κωσταρέλη, Εκδόσεις Κανάκη, Αθήνα1994, σ.54.

تاريخ مارميخائيل، ج٢، ص٢٩٣.

(٢) أغابيوس بن قسطنطين المنبجي، المنتخب من تاريخ المنبجي، انتخبه وحققه د.تدمري، دار المنصور- طرابلس١٩٨٦، ص٢٧-٢٨.

(٣) تاريخ مارميخائيل، ج٢، ص٣٠١، ٣٠٤. أيضًا: Ιστορία Σύντομος, σ.64 - 65

(٤) تاريخ مارميخائيل، ج٢، ص٣٠٢.

(5) Χρονογραφία, τόμ.Α΄, σ.910-/ H. Hunger, Βυζαντινή λογοτεχνία, μετάφ. Τ. Κόλιας, Μορφωτικό ίδρυμα Εθνικής Τραπέζης, Αθήνα 2001, τόμ.Β΄, σ.131 - 142.

- كتاب مختصر التاريخ (*Ιστορία Σύντομος*)، لبطريرك القسطنطينية نيكوفوروس. كانت للمؤلف صلات مباشرة بسياسة المملكة، وكان يصعب تمرير أي قرار سياسي أو عسكري دون معرفتهِ. شارك في المجمع المسكوني السّابع الذي عقد في مدينة نيقية عام ٧٨٧م، كأمين سرّ الملك. عاصر ثيوفانيس وكان مدافعًا عن الأَيقونيّة، ولهذا توفي بعيدًا عن العاصمة عام ٨٢٨م[1].

- كتاب غزو ثيسالونيكي (*Εις την Άλωσιν της Θεσσαλονίκης*) لإيوانيس كامينياتيس الّذي كان من رجال الدّين في مدينة ثيسالونيكي. وقع كامنياتيس في الأَسر أَثناء حملة ليو الطّرابلسي على مدينة ثيسالونيكي عام ٩٠٤م. وقد قُتِلَ عددٌ كبيرٌ من أَفراد عائلتهِ في تلك الحملة، وبيعت زوجة أخيه في جزيرة كريت. كتب إيوانيس هذا الكتاب في السّجن، كما يقول في مقدمته، بناءً على طلب رفيقٍ له في الأسر من قيسارية[2].

- كتاب البنود العسكريّة (***De Thematibus***)، لِقسطنطين السابع ابن الملك ليو (***Constantino Porfirogenito***). كان محبًا للتأليف والموسيقى والرّسم. وضع ثلاثة مؤلفات. يُعد كتاب «البنود» من أوائل المصنفات التي أوضحت البنود العسكرية في آسيا الصغرى[3]. توفي سنة ٩٥٩م. وبذلك يكون معاصرًا للمسعودي.

---

(١) للمزيد عن حياتهِ ينظر:
Ιστορία Σύντομος, σ.2124-/ Βυζαντινή λογοτεχνία, τόμ.B΄,σ.148 - 152.

(٢) تقع قيسارية في مقاطعة كباذوكيا في وسط آسيا الصُّغرى. للتوسع ينظر:
Costantino Porfirogenito, De Thematibus, comment A. Pertusi, Citta' Del Vaticano, Biblioteca Apostolica Vaticana 1952, σ.64.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩، ج٤، ص٤٢١. للمزيد عن حياة كامنياتيس ينظر:
Ιωάννης Καμινιάτης, *Εις την Άλωσιν της Θεσσαλονίκης*, μετάφ. Εύδοξος Τσολάκης, Εκδόσεις Κανάκη, Αθήνα 2000, σ.21 - 23/ *Βυζαντινή λογοτεχνία*, τόμ.B΄, σ.167 - 169.

(٣) للمزيد عن حياته وأعماله، ينظر: Βυζαντινή λογοτεχνία, τόμ. B΄, σ.172 - 178.

- كتاب التّاريخ المُختصر (*Επίτομη Ιστορία*) لإيوانيس زوناراس المعاصر للحروب الصّليبية، حيث أفل آنذاك نجم المسلمين والرُّوم سّياسيًّا وعسكريًّا. زوناراس هو واحد من رجال الكنيسة الذين لعبوا دورًا مهمًّا تلك الفترة. يبدأ كتابه من بَدء الخلق حتّى عام ١١١٨م(١). كما هو واضح، فالمؤرخون اشتغلوا بالدّين والسّياسة.

عدا ذلك، هناك مصادر مسيحية مكتوبة بالعربيّة وأُخرى عربيّة وأَرمنيّة وسريانيّة وقبطيّة عرضت أَحداثًا وردود أَفعالٍ بين الطرفَينِ الإسلاميّ والرُّوميّ، وهي تخدمُ البحث وسيشار إليها في موضعها.

أوّلًا: الصُّورة الدّينية للمسلمين عند الرّوم:

بعد ما أسّس نبيّ المسلمين محمَّد دولته في المدينةِ، أَرسلَ خطابًا للملكِ هرقلَ يدعوهُ فيهِ للإسلامِ ويحذره من حمل إثم الأريسيين(٢).

هذا العرضُ وضَعَ الملك هرقلَ في مأزقٍ كبير، ففي حروبهِ ضدّ فارس كان طليقًا بقراراته العسكريَّة لِأنَّه كان معنيًا بإعادة الصَّليب المقدس وفلسطينَ والمناطق التي احتلها الفرس إلى القسطنطينيَّة، أمَّا مع الخطاب الإسلاميّ فقد كان الأمرُ مختلفًا، إذ هيمن الجانب الدّينيّ على الجانبين السّياسيّ والعسكريّ. كان الفرقُ بينَ الفرسِ والإسلامِ، من وجهةِ نظرِ رجالِ الدّين الرّوم، أنَّ هدف

---

(١) للمزيد عن حياته وعمله ينظر:

Βυζαντινή λογοτεχνία, τόμ.Β΄, σ.246 - 249.

(٢) بسم الله الرحمن الرحيم. من محمَّد عبدالله ورسولِهِ، إلى هِرقل عظيم الرّوم. سلامٌ على من اتبع الهُدى. أما بعدُ: فإني أدعوكَ بدعاية الإسلام، أَسْلِم تَسْلم، وأَسْلِم يُؤتِكَ الله أجرك مَرتَين، فإن توليتَ فعليك إثم الأريسيين. و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعبدالا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية ٦٤).

أورد عدد كبير من المصادر العربيّة نص الخطاب، لكننا اعتمدنا كتاب محمد حميد الله كونه يحوي صورة الخطاب. يُنظر مجموعة الوثائق السّياسيَّة، دار النفائس- بيروت١٩٨٧، ص١٠٨-١٠٩.

الفرس من غزو المملكة كانَ سياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا[1]، أمّا الإسلام فقد مَسَّ أركان العقيدة الأُرثوذوكسيّة القائمة على فكرةِ الثالوثِ المقدّس. وعليهِ فأي قرار يتعلّق بالشأن الإسلاميّ كان لا بد أن يمرَّ على الكنيسة أولًا.

هناك أدلة صريحة في القرآن ترفض التثليث الذي أقرته كنيسة القسطنطينية، منها سورة الإخلاص الّتي تؤكّد أنّ الله واحدٌ أحد[2]، وسورة المائدة[3] التي أكدَّت على أن المسيح رسولٌ[4]. وسورتا البقرة وآل عمران اللّتان تشيران إلى أن المسيح مخلوق[5]. وقد وصف القرآن النصارى الّذين اتّبعوا المسيح رسول الله وعبده بالمؤمنين، حيث يقول ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾[6]. وبناءً عليه، فإنَّ أيّ نقاش حول التثليث كانَ مِن شأنِهِ – من وجهة نظر الكنيسة– أن يحيي فكرةَ آريوس. ولهذا لم تعترفِ الكنيسةُ بالدِّينِ الإسلاميِّ كدينٍ سماويّ شأنه شأن اليهوديّةِ والمسيحيَّة، بل اعتبرته هرطقة (αἵρεση).

فقد وصفَ ثيوفانيس نبيَّ المسلمينَ بالكذَّاب[7].

---

(١) وهكذا بسط الفرس نفوذهم على بلاد الرّوم وفي ما بين النّهرين وسورية وقيليقية وفلسطين ومصر وساحل البحر برمته، ونهبوا وأسروا شعبًا لا حصر له، وجلبوا إلى فارس ثروات وعبيدًا وغيرها من الأشياء وأعمدة المرمر...، ينظر تاريخ مارميخائيل، ج٢، ص٢٩٣.

(٢) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. قال نسطور في المجمع الكنسي الثالث: الأبُ وَلَدَ الإله، ولم يَلِدْ إنسانًا، والأمُ وَلَدَتْ إنسانًا، ولمْ تَلِدْ الإله. تاريخ اليعقوبي، ج١،ص١٥٥.

(٣) يُنظر سورة المائدة، الآيتان ٧٣،١٧.

(٤) «ما المسيحُ ابن مريم الا رسول» الآية ٧٥.

(٥) ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ سورة البقرة، آية ١١٦-١١٧. أيضًا يُنظر الآية ٤٧ من سورة المائدة.

(٦) سورة البروج، الآية ٤-٨.

(7) ψευδοπροφήτης, Χρονογραφία, τόμ.Β΄, σ.889.

ثانيًا: الصُّورة السِّياسيَّة للعرب والمُسلمين عند الرُّوم:

أطلقتِ المصادرُ الرّوميّةُ اليونانيَّةُ على العربِ والمسلمين عدةَ أسماءٍ سياسيّةٍ، أهمُّها:

- البرابرة (Οι Βάρβαροι)

ثمة عرفٌ عند اليونانِيين القدماء يقول (πας μη Έλλην βάρβαρος). أي أنَّ كلَّ من لا يتكلم اليونانيّة باللهجةَ الآتيكيَّةَ (αττική διάλεκτος) هو بربريّ. وقد استعملِ كثيرٌ من الفلاسفة والمؤرخين والخطباء هذا النعت. فمنهم من قصد به الضُّعفاء في النحو والصَّرف، ومنهم من قصد غير المتحضرين، ومنهم من قصد الجيوش الهمجيّة.

وقد نالَ العربَ المسلمينَ نصيبٌ من هذا المصطلح، حيث أورد ثيوفانيس هذا النعت عدّة مرات. ففي أَحداث ٦٦٦-٦٦٧م، يقول بخصوص حصار القسطنطينية الأَوَّل: إن القائد فَضالة وجد نفسه في مأزق، ولهذا أرسل لمعاوية طالبًا النّجدة. وبناءً عليه بعث له معاوية ابنه يزيد مع قوة عسكرية وأعداد كبيرة من البرابرة[1].

كما هو معروف، فالحملة المذكورة انطلقت من مدينة دمشق. ومن المستبعد أن يبعث معاوية مع ابنه يزيد مرتزِقة لأنه كان بأمسِّ الحاجة لتدعيم مكانته كمرشح للخلافة. ولهذا أرسل معاوية مع الحملة الصحابيَّ أَبا أَيوب الأَنصاري الذي توفيّ قرب أسوار القسطنطينيّة[2]. ويذكر المنبجي بوضوح أن معاوية أمر ابنه يزيد أن يأخذ معه جيوش العرب ويلحق بالعسكر[3].

---

(1) Χρονογραφία, τομ.Β΄, σ.951.
Και ο Μωαβίας του στέλνει το γιό το 'Ιζίδ με ένοπλη δύναμη πολυαρίθμων βαρβάρων).

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، حققه محب الدين عمر بن غلامة العَمْرَوي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥، ج١٦، ص٦٤. أبو عبيد هو خالد بن زيد بن كليب الأنصاري، للمزيد عن حياته يُنظر: البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكُتب العلمية، بيروت ١٩٧٨، ص٢٠. تاريخ دمشق، ج١٦، ص٣٣-٦٦.

(٣) تاريخ المنبجي، ص٦٩. للمزيد عن مصير الحملة البحرية ينظر ص٧٢.

أكثر المصادر استعمالاً لمصطلح البرابرة هو إيوانيس كامينياتيس الذي كتب عن حملة ليو الطّرابلسيّ على مدينة ثيسالونيكي. وكان يقصد به المسلمين الذين غزوا المدينة، رغم أن قائد الحملة ليو كان يونانيّ الأَصل[١]. ففي نهاية الكتاب يقول إن بعض الأسرى سيصلون إلى أثيوبيا وإلى البرابرة الذين يسكنون في أقصى الجنوب[٢]، ويقصد الجزيرة العربيّة.

الإسماعيليون (Οι Ισμαηλίτες).

يُقصد به أَبناءُ إسماعيلَ ابنِ هاجر. استخدم سيبيوس الأَرمنيّ هذا اللّقب في القرن الميلاديّ السّابع عندما تحدَّث عن المعارك البحريّة الإسلاميّة الرّوميّة[٣]. كما استخدمه يوحنا النقوسي[٤] وإيوانيس كامينياتيس[٥] وميخائيل السّريانيّ[٦] قاصدين به الجيوش العربيّة الّتي دخلت سورية الكبرى وفلسطين ومصر وتلك الّتي غزت ثيسالونيكي.

أغاريني (Οι Αγαρηνοί)

أي أَبناءُ هاجرَ الجارية. وعليه، فجميع أَبناء هاجر هم عبيد سارة. يذكر ثيوفانيس في أحداث عام ٧١٧-٧١٨ التالي: عندما صار عمر (بن عبد العزيز) زعيمًا للعرب، أَمَرَ مسلمة بترك حصار القسطنطينيّة والعودة إلى بلادهِ. وفي الخامس عشر من شهر آب/ أغسطس تراجع الأَغاراني خائبين، لِأنّهم عند إبحارهم واجهتهم عاصفة مرسلة من الرّب فشتتهم[٧].

---

(١) ليو هو اختصار للاسم اليونانيّ ليون (Λέων=Λέοντας).

(2) *Εις την Άλωσιν της Θεσσαλονίκης*. σ.197.

(3) Sebeos, *Histoire d'Héraclius*, Imprimerie Nationale, Paris 1904, p.95 - 98.

(٤) تاريخ مصر، ص١٨٩، ١٩١.

(5) *Ισμαηλίτες που κατοικούν στην Συρία», βλ. Εις την Άλωσιν της Θεσσαλονίκης, σ.59.*

(٦) تاريخ مار ميخائيل، ج٢، ص٣٠٢.

(7) Χρονογραφία, τόμ.Γ', σ.1081.
Όταν ο Ούμαρος έγινεν αρχηγός των 'Αράβων, διέταξε το Μασαλμά να γυρίσει πίσω. Και στις 15 Αυγούστου οι 'Αγαρηνοί αναχώρησαν καταντροπιασμένοι. Καθώς απέπλεεν ο στόλος τους, ενέσκηψε θεόσταλτη καταιγίδα και τους διεσκόρπισε.

المصطلح نفسه أورده الرَّاهب إيوانس كامينياتيس مرَّات عديدة. كما أورده إيوانيس زوناراس أكثر من خمسين مرَّة، ويعني به المسلمين(١).

ساراكيني (Οι Σαρακηνοί)

وتعني عبيدَ سارةَ أي أبناء اسماعيل ابنِ هاجرَ(٢) جاريةِ سارة. وبهذا يصبحُ المسلمونَ أتباعًا لسارةَ كمَا كانت أمهم هاجر. استعملت معظم المصادر اليونانيّة هذا المصطلحَ(٣) لكن ثيوفانيس يُعدّ المصـدر الأوَّل الأكثر استعمالًا للمصطلح الذي تنضوي تحته ثلاثة مقاصِد.

المقصد الأول:

ذكر ثيوفانيس المصطلح في أحداث سنة ٣٣٥م، عند حديثه عن عربِ ما بين النَّهرين وميولهم للفرس(٤). كما ذكره في بداية حكم هرقل عندما أغارت قبائل من السّاراكيني عام ٦١٢م، على سورية فنهبت عددًا من القرى وعادت إلى موطنها(٥). وأثناء حروب الاسترداد الرُّومي للمناطق التي احتلها الفرس يذكر في أحداث ٦٢١م، أن نخبة من الفرسان السَّاراكيني الذين كان بينهم وبين المملكة الفارسية اتفاقيات سلام، هاجمت جيش الروم في أرمينيا وكان هدفها الأول هرقل، ولكن الأخير تغلبَ عليها وتقدّمَ نحو الأَراضي الفارسيَّة(٦).

---

(1) Επίτομη Ιστορία,βλ. π.χ, τόμ Β΄, 33, 81, 117, 121, 133, 135, 141, 143, 145, 149, 151, 181, 185, 189.

(٢) تاريخ مختصر الدول، ص٢٢، ١٦٠.

(3) Π.χ. βλ. *Ιστορία Σύντομος*, βλ.σ.66, 68, 70, 72, 76, 86, 88, 96, 102, 110, 112, 120, 122, 124, 126, 128, 130, 132 .../ Μιχαηλ Ψέλλος, *Χρονογραφία*, μετάφ. Β. Καραλής, Εκδόσεις Αγρωστις, Αθήνα1992, τόμ.Α΄, σ.125.

(4) *Χρονογραφία*, τόμ.Α΄, σ.95.

(5) Το ίδιο έτος εξεστράτευσαν οι Σαρακηνοί κατά της Συρίας και, αφού ελεηλάτησαν αρκετά χωριά, επέστρεψαν στην πατρίδα τους. *Χρονογραφία*, τόμ, Β΄, σ. 807.

(6) *Χρονογραφία*, τόμ. Β΄, σ. 817819-.
...και τότε οι Σαρακηνοί, που ευρίσκοντο σε συμφωνίες ειρήνης με τους Πέρσες, σχεδίαζαν να επιτεθεί κρυφά κατά του βασιλιά ένα πλήθος ιππέων......., Ξεγέλασεν όμως τους Πέρσες κι αφού επέστρεψε, εισβάλλει στη χώρα των Περσών.

من الواضح أن المعلومات تتعلّق بالمناذرة، سكان ما بين النهرين وقبائل عربيّة أخرى كانت تحالفت مع فارس. فأول ظهور عسكريّ جدّيّ للمسلمين كان في موقعة بدر في السّنة الثانيّة للهجرة أي سنة ٦٢٤م[١]، وذلك ضمن الجزيرة العربيّة.

المقصد الثاني:

يقولُ ثيوفانيس في الحروب الرُّوميَّة الفارسيّة: عندما علم هرقل بوجود خَسرو في مدينة «غازكو» مع أربعين ألف مقاتل، بعث طليعة من تابعيه السَّاراكيني الذين كانوا معه. وقد التقى هؤلاء بحراس خسرو، فقتلوا فريقًا منهم وأسروا آخرين ونقلوهم مع قائدِهم إلى الملك هرقل[٢].

هذه الطَّليعة كانت من العرب الغساسنة المسيحيين والقبائل الأخرى الذين كانوا يقطنون بلاد الشّام وارتبطوا مع الرّوم بتحالفات عسكريَّة. وعليه، كان الرُّوم ينعتون الغساسنة والقبائل العربيَّة المسيحيَّة بالسَّاراكيني رغم ولائِهم العسكريّ للقسطنطينيّة.

المقصد الثّالث:

عندما تحدث ثيوفانيس عن المسلمين نعتهم بالسَّراكيني وصف نبيّهم بزعيم السَّراكيني[٣]. لكن عندما تحدث عن الحرب بين المسلمين السّراكيني والقبائل العربيّة، ساراكيني سورية، اضطر للتخلي عن تسمية هذه القبائل بالسّاراكيني وأطلق عليها اسم مسيحيين ليميزهم عن المسلمين السّاراكيني. ظهر هذا جليًا عندما تحدَّث عن معركة مؤتة حيث قال: عيّنَ مواميث (= محمّد)

---

(١) الواقدي، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت١٩٩٨٤، ج١، ص١٩-١٧٢. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٥-٤٦. تاريخ مختصر الدول، ص١٦١.

(2) *Χρονογραφία*, τόμ. Β΄, σ.825827-..

... έστειλε ως εμπροσθοφυλακή μερικούς από τους Σαρακηνούς υποτελείς του που ήσαν μαζί του και αυτοί συνάντησαν τη φρουρά του Χοσρόη...

(3) *Χρονογραφία*, τόμ.Β΄, σ.889.

أَربعةَ أُمراءٍ لمحاربة المسيحيين من جنسِ العرب. وهاجموا بلدةً صغيرةً تُدعى موخيا (=مُؤتَة). وأسفرت المعركة عن خسارة الساراكيني (=المسلمين) ثلاثةً من قوادهم والقضاء على معظم الجيش لولا خالد الذي أَنقذ الحملة، وسُمّيَ إثر ذلك بخنجر الله[١] (=سيف الله)[٢].

كان نعت «ساراكيني» هو الأكثر شيوعًا في المصادر الرُّوميّة اليونانيَّة، وكان مرادفًا للفظ «عرب»[٣]. فقسطنطين السّابع لا يورد اسم العرب بل «ساراكيني»[٤] و«أغاراني»[٥]. ورغمَ اعتناقِ الأتراكِ للإِسلامِ، إلَّا أنّ ثيوفانيس ونيكوفوروس وزوناراس وباقي المصادر المسيحية الشرقية لم ينعتوهم بالعرب. ففي الصفحةِ ١٣٥ من الجزءِ الثَّالثِ، يستخدمُ زوناراس مصطلحاتِ أَغاريني (Αγαρηνοί) وساراكيني (Σαρακηνοί) وعرب (Άραβες) وبرابرة (Βάρβαροι) قاصدًا بهَا العربَ المسلمينَ، وفي الصَّفحةِ نفسِها يستخدمُ اسمَ أَتراك (Τούρκοι). كما فصل كامينياتس قبل ذلك العربَ المسلمينَ عن المصريين[٦]. وبهذا يكون الرّوم قد ربطوا عرقَ العرب بإسماعيل، لأَنَّ هذا النعت ارتبط بالعرب الوثنيين والمسيحيين والمسلمين.

---

(1) *Χρονογραφία*, τόμ.Γ΄, σ.897.
Ο Μωάμεθ (=Μουάμεδ), που είχεν αποθάνει ενωρίτερα, είχε διορίσει τέσσερις εμίρηδες για να πολεμούν τους Χριστιανούς εκ του γένους των Αράβων........και σκότωσε τρείς εμίρηδες και τον περισσότερο στρατό. Εξέφυγεν όμως ένας εμίρης, ο Χάλεδος, που τον αποκαλούν η μαχαίρα του Θεού.

(٢) ابن عساكر، ج١٦، ص٢١٦-٢٨٢. للمزيد عن حياته يُنظر ابن سعد، الطّبقات الكبرى، حققه رياض عبدالله عبدالهادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٥، ج٧، ص١٨٨-١٩٠.

(3) Χρονογραφία, τόμ. Γ', σ.889.
Κατά το έτος αυτό απεβίωσεν ο Μωάμεθ(=Μουάμεδ), ο αρχηγός των Σαρακηνών

(4) *De Thematibus*, σ.81.

(5) *De Thematibus*, σ.62.

(6) *Εις την άλωσιν της Θεσσαλονίκη*, εκδόσεις Κανάκη, μετάφ. Εύδοξος Τσολάκης, Αθήνα 2000 σ.59. «Τα **βαρβαρικά πλοία** είναι......μανιακά άτομα, 'Ισμαηλίτες που κατοικούν στην Συρία και Αιθίοπες που γειτονεύουν με τους Αιγύπτιους..

ثالثًا: الصُّورة العسكريَّة للعرب عند الرُّوم:

هناكَ أربعُ صُورٍ عسكريّةٍ للعرب المسلمين عند الرّوم:

الصُّورة الأولى:

لم ينظر القادة العسكريون ولا المؤرخون الرُّوم إلى عرب الجزيرة العربية كقوة عسكريَّة يمكنها إقامة دولة موحدة تجمع قبائل الجزيرة، أو اكتساح منطقة واسعة والسيطرة عليها. كان أكثر ما يمكن أن يفعله العرب، في نظر المملكة الرُّوميَّة، هو الانضواء تحت جناح مملكة فارس، كما فعل المناذرة، أو تحت جناح دولتهم، كما فعلت قبيلتا تنوخ وغسّان وغيرهما من القبائل العربيّة المسيحيَّة التي قطنت سورية. جديرٌ بالذكر أن الدولة الرُّوميَّة لم تمنح الفرصةَ حتى لتلك القبائلَ لتكونَ قوةً ضاربةً يمكنها تحديد مصيرها بنفسها. فقد كانت ترفع شأنَ قبيلة وتحطّ شأن أخرى، رغم ما قدمته تلك القبائل لها أثناء حروبها الطَّويلة مع فارس[1]، وما قدمته خلال معاركها الأولى مع المسلمين في الشَّام[2].

حتّى إن ثيوفانيس اعتبر أن غزوة مؤتة هي هجوم ضدَّ المسيحيين العرب وليس ضدّ المملكة، وأن رجلًا اِسمه قتابة من قريش، كان عينًا للروم، أبلغ مراقب المنطقة الجنوبية بالقرب من البلدة عن وقت ومكان الهجوم عليها[3]. كذلك اعتبر مارميخائيل السريانيّ أن جيوش المسلمين الأربعة توجهت إلى فلسطين ومصر وفارس والجيش الرّابع ضدّ العرب المسيحيين(في سورية)[4]. هكذا، فحتى عام ٦٣٢م، أي تاريخ وفاة نبيّ المسلمين محمَّد، كانت صورة المسلمين لدى الرُّوم أنهم شعب يعتاش على الغزوات.

---

(١) للتوسع حول هذا الموضوع ينظر: ابراهيم أحمد العدوي، الأمويون والبيزنطيون، دار الجيل ١٩٦٣، ص١٠-١٦. خماش، الشام في صدر الاسلام، دار طلاس، دمشق١٩٨٧، ص٥٥-٦٨.

(٢) من القبائل العربيَّة المسيحيَّة التي قاتلت مع الرّوم ضدّ المسلمين: لخم وجُذان وبَلقَين وبَليّ وعاملة وتلك القبائل من قضاعة وغسّان. ابن عساكر، ص٢، ص١٤٤.

(3) *Χρονογραφία*, τόμ. Γ΄, σ.897.

(٤) تاريخ مارميخائيل، ج٢، ص٣٠٦.

الصورة الثانية:

تبدأ هذه الصُّورة من خلافة أبي بكر (٦٣٢م) عندما دخلت الجيوش الإسلامية بلاد الشَّام. ففي المفاوضات التي كانت تجري بين الطَّرفين الرّوميّ والإسلاميّ، قَدَّمَ الرُّوم للمسلمين عدّة عروض منها:

العرض الأَوَّل: أن يعطي الرُّومُ لكلِّ مقاتل مسلم دينارين وثوبًا، ولأبي عبيدة بن الجراح قائد الجيش الإسلامي ألف دينار، وللخليفة ألفي دينار، وذلك مقابل أن يعودوا أدراجهم إلى الجزيرة العربيَّة[1]. وبعدها رُفِعَ العرض إلى عشرة دنانير وراحلة من الكسوة والطعام لكل رجل[2].

العرض الثّاني: أن يأْخذ المسلمون المنطقة الممتدَّة بين البلقاء وشبه الجزيرة العربيَّة[3].

العرض الثَّالث: أن يأخذ العرب ما كسبوه من الأنفال، وسيعطى لكل أمير عشرة آلاف دينار، وما تحت الأمير ألف دينار، ولكل مقاتل مسلم مائة دينار، على أن يوثق القادة المسلمون بالأيمان المغلظة للرّوم أن لا يعودوا إلى بلاد الرّوم[4].

ورُغم أن المسلمين حققوا بعض الانتصارات وحافظوا على وجودهم كجيوش في سوريا الجنوبية والبلقاء والأُردن وجنوب فلسطين، إلاّ أنَ ما عرضه المفاوض الرّوميّ عليهم كان يعكس الاستخفاف بقدراتهم العسكريَّة والسياسيّة.

الصُّورة الثَّالثة:

كانت معركة اليرموك (٦٣٦م) نقطة التّحوُّل الرّئيس في تاريخ بلاد الشَّام[5]. وكان أوّل من أيقن أنَّ العرب أصبحوا قوةً عسكريَّةً هو الملك هرقل، وذلك من خلال التّالي:

---

(١) الأزدي، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبدالمنعم عامر، مؤسسة سجل العرب١٩٧٠، ص١٢٣.

(٢) ابن عساكر، ج٢، ص١٤٦-١٤٧.

(٣) تاريخ فتوح الشام، ص١٢٣.

(٤) تاريخ فتوح الشام، ص٢٠٣.

(٥) علّق ثيوفانيس على معركة اليرموك أنها كانت النصر الباهر للعرب وأنهم تقدّموا نحو دمشق ومناطق فينيقيا (لبنان). *Χρονογραφία*, τόμ.Β', σ.901

أَيقن هرقل أن العرب فهموا الاستراتيجية العسكريَّة الرّوميّة، ولهذا لم يأخذ بعد ذلك أي قرار بدخول معركة فاصلة ثانيّة. فالمعارك بعد اليرموك كانت بين كرٍ وفرٍ. حتّى إنّه لم يشترك في أي معركة من المعارك.

إنّ اقتحام الباب الشّرقي لمدينة دمشق[١] وفتح مدن أخرى أبوابَها للمسلمين[٢] كان يعني أن تلك المدن فضّلت العربَ المسلمين على الرّوم الخلقيدونيين. لهذا، قرّر هرقل العودة إلى القسطنطينيّة[٣] رغم أن المعارك الجانبية لم تكن قد انتهت آنذاك في سورية.

مع انكماش المملكة جغرافيًا، أصبح اليونانيون العنصرَ الأولَ للمملكة.

ولهذا قام هرقل بتجميد اللّغة اللاتينية، لغة المملكة منذ مقتل كليوبترا ٣٢ ق.م، وأعاد اللّغة اليونانيّة لتكون اللّغة الرسميَّة لها.

قام هرقل بتقسيم آسيا الصغرى إلى أَجناد عسكريَّة أطلق عليها اسم (Στρατιωτικά θέματα) لتكون مناطق عازلة بين المسلمين والقسطنطينية. وهذا يدل على مدى الخوف من التوغل الإسلامي في آسيا الصغرى. وحسب المؤرخ جورج أسترودورسكي فقد قُسِّمَت آسيا الصغرى إلى أربعة بنود[٤].

---

(١) اليعقوبي، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨، ص٨٧. ابن عساكر، ج٢، ص١٢٠، ١٢٦-١٢٧.

(٢) قال ابن إسحق إنّ حمص وبعلبك فتحتا صلحًا (تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص١٤٠). ويذكر خليفة بن خياط والبلاذري وأن شرحبيل فتح طبرية صلحًا (تاريخ خليفة بن خياط، حققه سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣، ص٨٨. فتوح البلدان، ص١٢٣)، وفتح يزيد صيدا وعرقة وجبيل وبيروت (فتوح البلدان، ص١٣٣). عدا هذه المدن يضيف اليعقوبي أن الرستن وحماة وسلميّة ومدن أخرى عديدة فتحت صلحًا (كتاب البلدان، ص٨٥-٨٦). كما يذكر يوحنا النقوسي «أن المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحيّة انضموا إلى عقيدة هذا المفترس» تاريخ مصر، ص١٩٧.

(٣) تاريخ مختصر الدول، ص١٧٤.

(4) *Ιστορία του Βυζαντινού* Κράτους, μετάφ. Ιωάννης Παναγοπούλος, Ιστορικές εκδόσεις. Στέφανος Βασιλοπούλος, Αθήνα 1993, σ.160 - 161, χάρτης Β΄.

هذه البنود ازدادت مع توتّر العلاقات الإسلاميّة الرّوميّة. ففي القرن العاشر قسّم الرّوم آسيا إلى تسعة بنود عسكريّة ذكرها المسعوديّ بالتفصيل[١].

بند الناطليق	ΘΕΜΑ ΑΝΑΤΟΛΙΚΩΝ
بند الأَبسيق	ΘΕΜΑ ΟΨΙΚΙΟΝ
بند ترقسيق	ΘΕΜΑ ΘΡΑΚΗΣΙΩΝ
بند بنطيليا	ΘΕΜΑ ΚΙΒΥΡΡΑΙΩΤΩΝ
بند القباذق	ΘΕΜΑ ΚΑΠΠΑΔΟΚΙΑΣ

بند البُقلار	ΘΕΜΑ ΒΟΥΚΕΛΛΑΡΙΩΝ
بند الأفطماط	ΘΕΜΑ ΟΠΤΙΜΑΤΩΝ
بند الأرمنياق	ΘΕΜΑ ΑΡΜΕΝΙΑΚΩΝ
بند فلاغونية	ΘΕΜΑ ΠΑΦΛΑΓΟΝΙΑΣ

هذه البنود كانت مقسّمة بدورها إلى أعمال. فعلى ما يذكر المسعودي كان عمل غصوبولي من بند الأبسيق، وعمل سلوقية وحصن بوقية واللامس الذي يكون فيه الفداء بين المسلمين والروم هي من بند بنطيليا[٢]. وحسب ما ورد في كتاب الشريف الإدريسي ومعجم ياقوت الحموي يظهر أَن عدد البنود والأعمال قد ازداد[٣]، وهذا يدل على أن العلاقات العسكريَّة بين الطّرفين كانت تسوء. أما قسطنطين السابع فقد ذكر ١٧ بندًا بين كبيرٍ وصغير. اللافت للنظر أن قسطنطين اعتبر بلاد ما بين النهرين بندًا من بنود المملكة[٤].

في المقابل، قام المسلمونَ بتأسيس ثلاثة ثغور بريّة أساسيَّة وهي: الثغور الشّاميّة قبالة سورية، وأهم مدنها طرسوس وأذنـــة والمصيـصة، وتقـابل بندي القبادق والنّاطلق وعمل سلوقيّة من جهة البحر. والثغور الجزريّة قبالة الجزيرة الفراتيّة وأول ما يحادُّ الثغور الشاميَّة، وأهم مدنها مرعش وما يلي ثغر الحدث.

(١) التنبيه والإشراف، ص١٥٠-١٥٣.

(٢) التنبيه والإشراف، ص١٥١.

(٣) نزهة المشتاق، عالم الكتب، بيروت١٩٨٩،ج٢، ص٨٠٢-٨٠٤. معجم البلدان، ج٣، ص٩٨-١٠٠.

(4) *De Thematibus*, σ.59 - 85.

وأخيرًا الثغور البكريّة قبالة ديار بكر وأهم مدنها سُمَيْساط وكِلِس وهي تقابل عمل الأَرمنياق وعمل الخالدية. عدا الثّغور البرية أسس المسلمون الثّغور البحريّة التي تضمنت السّاحلين الشاميّ والمصريّ[1]. هذه الثغور كانت ردًّا على البنود والهجمات الرّوميّة المتكررة على الشّام ومصر. وأهمها:

حملة إيمانويل الرّوميّ البحريّة ضد الإسكندريّة، وقد استطاع من خلالها بسط سيطرته على المدينة لفترةٍ زمنية[2].

الحملات البيزنطيَّة البحريَّة المتكرّرة على السَّواحل الإسلاميَّة. إذ عرض البلاذري كمًّا هائلًا من الحملات العسكريَّة الرُّومية في محاولة من بيزنطة لاستعادة السيطرة على المناطق التي خسرتها خاصةً قيسارية فلسطين[3] وصور وعكا وساحل اللاذقية[4]. ويضيف المنبجي أن الرّوم خرجوا من السّفن واستولوا على جبل لبنان[5].

في نهاية خلافة عمر بن الخطاب وبداية عهد الخليفة عثمان بن عفان غلب الرّوم على السّواحل فقصد لهم معاوية حتّى فتحها ثمّ رمّها وشَحَنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع. من تلك المدن كانت مدينة طرابلس الشّام التي وجّه

---

(١) للمزيد عن الثغور ينظر: قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت١٩٨٨، ص٧٥-٧٧. الاصطخري، مسالك الممالك، دار صادر- بيروت، عن طبعة ليدن المحروسة، ١٩٢٧، ص٦٧-٦٨. أيضًا دراسة صدرت عن المركز الوطني للأبحاث، أثينا:

Η Μικρά Ασία των Θεμάτων, Εθνικό Ιδρυμα Ερευνών, Αθήνα1998.

(2) *Χρονογραφία*, τόμ.Β΄, σ.901 - 903.

يُنظر أيضًا: اِبن عبدالحكم، فُتوح مصر والمغرب، تحقيق عبدالمنعم عامر، لجنة البيان العربي ١٩٦١، ص٢٣٥-٢٣٨/ ٢٥٨-٢٥٩. المقريزي، الخطط المقريزيّة، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٦، ج١، ص٢٧٠-٢٧٢.

(٣) طال حصار المسلمين لقيسارية لعظمتها وقربها من البحر وسهولة إمدادها بالعتاد. للتوسع ينظر: الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص٢٧٦-٢٨٣. الواقدي، فتوح الشّام، دار الجيل، بيروت، (دون تاريخ)، ج١، ص٢٤٤-٢٤٥. الكوفي، الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦، ج١،ص٢٤٥-٢٤٧.

(٤) فُتوح البُلدان، ص ١٢٣-١٢٤، ١٣٣-١٤٠، ١٤٨-١٤٩.

(٥) تاريخ المنبجي، ص٧٢-٧٣.

إليها معاويةُ سفيانَ بن مجيب الأزدي. وكان معاوية يوجّه كلَّ عام إلى طرابُلُس جماعة كثيفة من الجند[1].

الصُّورة الرابعة:

كان البحر الورقةَ الرّابحة التي كان الرُّوم يتحدّون بها المسلمين. لهذا عرض الوالي معاوية بن أبي سفيان على الخليفة عمر، ثم على الخليفة عثمان إنشاء أسطول إسلامي، إلّا أن الأمر قوبل بالرّفض. لكن بعد إلحـاح معاوية وافق عثمان، وهكذا أبحر معاوية إلى قبرص عام ٦٤٩م[2].

وخلال سنة ٦٥٣م، أثناء فترة تبديل الجند، أحرق أحد الرّوم الأُسطولَ الإسلاميَ في طرابلس الشَّام، وفرَّ بأحد المراكب مع الأسرى الرُّوم إلى القسطنطينيّة[3]. وكان هذا السببَ الأولَ لإبحار الأسطول الإسلامي للمياه البيزنطيّة والاصطدام بالأسطول البيزنطيّ في موقعة ذات الصواري قربَ جبل فينكس (Ὄρος Φοίνιξ) مقابل جزيرة رودوس[4]. وفي عهد الخليفة معاوية حاصر المسلمون القسطنطينية من البرّ والبحر مرتين. وهكذا أصبحت الهجمات البحرية متبادلة بين الطّرفين.

في هذه المرحلة أيقن الروم أن العرب أصبحوا قوة بريّة وبحريّة، حتى إن الملك قسطنطين بعث رسولًا لمعاوية سنة ٤٦هـ/ ٦٦٦م، يطلب منه عدم مساعدة خصمه سابور الذي سيطر على منطقة أرمانيا وسلخها من المملكة[5]. ولكن حلم استعادة السيطرة على الشرق بقي حيًا، ولم يتخلَّ الرّوم عنه خاصةً مع فتك العباسيين بالأمويين، ونقل الثقل العسكريّ من العاصمة دمشق إلى العراق ثُمَّ إلى بغداد. ففي السَّنة الأُولى من حكم المنصور هاجم قسطنطين ملك

---

(١) فُتوح البُلدان، ص١٣٣.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة عز الدّين، بيروت ١٩٩٢، ج٤، ص٤٣٩-٤٤٢.

(٣) تاريخ المنبجي، ص٥٩-٦٠.

(٤) حول هذه المعركة يُنظر: فُتوح مصر، ص٢٥٥-٢٥٧. الخطط المقريزيّة، ج١، ص٢٧٢-٢٧٣. ينظر أيضًا كوثر سرحان، معركة ذات الصَّواري من خلال المصادر الأولية، رسالة ماجستير، الجامعة اللّبنانيّة- بيروت ١٩٩٧.

(٥) تاريخ مختصر الدول، ص١٨٧-١٨٨.

الروم قليقلة فخرّبها وأقام عليها حاميّة روميّة[1]. وكبرَ حلم الرّوم عندما توسعت دائرة حركات الانفصال التي قام بها بعد ذلك بعض العرب والبربر والعجم. وقد رحبت المملكة بكل حركة انفصاليّة قامت ضدّ العباسيين من الداخل وجنّدت شعوب الثغور لصالحها. هذا الأمر استدعى ردّة فعل قاسيّة من العباسيّين إذ بطشوا بكل محاولة انفصال ونقلوا شعوبًا من مواطنها. يقول ابن العبري «أغارَ العرب ساخطين على وادي مرعش إذ بلغهم أن الأهالي هم جواسيس للروم. فأجلَوْهُم وساقوهم إلى بلد الرَّملة[2] وأسكنوهم هناك. وفعلوا نظير ذلك بأهالي سميساط[3]. ويضيف البلاذري أن المنصور عمل على تحصين السواحل (السّوريّة) والثغور الشمالية[4]. ورغم ذلك بقي الخوف قائمًا من التّابعين للروم في بلاد الشام. فقد خرّب المهدي بن المنصور كنيسة الخلقيدونيين في حلب التي كانت تابعة مذهبيًا للقسطنطينيّة[5].

كانت آخر الحملات القوية التي قام بها المسلمون هي حملة ليو الطرابلسيّ[6] البحريَّة ضدّ مدينة ثيسالونيكي في القرن الميلاديّ العاشر. وفي نهاية القرن الميلادي الحادي عشر أنهك الصَّليبيون كلا الفريقين.

رابعًا: تأثير الظروف السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة على العلاقات الثَّقافية بين المسلمين والرّوم:

لمْ يهتمَّ الروم بإقامة علاقاتٍ ثقافيّةٍ معَ المسلمين لثلاثة أسبابٍ:

- أنّ الكنيسة والمملكةَ لم تنسيا يومًا أنَّ الإسلام كان السَّبب في خسارة الشرق وشمال أفريقية، خاصةً أرض فلسطينَ قبلةَ المسيحيّةِ.

---

(١) أخبار الزمان، ترجمة الأب إسحق أرملة، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦، ص٨.

(٢) مدينة بفلسطين، كانت رباطًا للمسلمين. كتاب البلدان، ص٨٩. معجم البلدان، ج٣، ص٦٩-٧٠.

(٣) أخبار الزمان، ص٩.

(٤) فتوح البلدان، ص١٦٧.

(٥) أخبار الزمان، ص١١.

(٦) يسميه المسعودي «غلام زرافة»، مروج الذهب، ج١، ص٣٣٢.

- أنَّ القرآنَ رفَـضَ الإعتراف بالتثليثَ، وهذا- حسب وجهة نظر رجـال الدين- يُعدُّ ضربةً قويَّةً للمذهب الأُرثوذوكسي أمام المذاهب المسيحيَّة المخالفة لفكرة الثَّالوث المُقدَّس.

- أَنَّ المملكة نفسها كانت تعيشُ حالاتِ صراعٍ داخليٍ متجددٍ، خاصةً معَ أتباعِ آريوس والمذاهبِ الأُخرى، ومعَ الرافضينَ للأيقونية، والقائلين بفكرة الخياليّة حول جسد المسيح في المجمع الكنسي الخامس[1]، أي إذا ما كان قابلًا أو لا للآلام والفساد[2]، وأخيرًا معَ العلماءِ الذينَ كانُوا يَحملونَ الفكر والعلومَ اليونانيةَ القديمة التي تتناقض معَ تعاليمِ كنيسةِ القسطنطينيَّة.

وفي ذلك يقول المسعودي: «ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين وبرهة من مملكة الروم، تُعظَّم العلماء وتشرّف الحكماء. وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنَّفس، والتَّعاليم الأَربعة: أَعني الأرتماطيقي وهو علم الأعداد، والجومطريقي وهو علم المساحة والهندسة، والأسترونوميا وهو علم النجوم، والموسيقى وهو علم تأليف اللُّحون. ولم تزل العلوم قائمة... إلى أن تظاهرت ديانة المسيحيَّة النَّصرانيَّة في الرُّوم، فعفوا معالم الحكمة، وأزالوا رسمها ومحَوا سُبُلَها، وطمسوا ما كانت اليونانيَّة أبانته، وغيّروا ما كانت القدماء منهم أوضحته»[3]. هذا الأمر أكده ابن النديم بقوله: «وكانت الفلسفة ظاهرة في اليونانيين والرّوم... فلما تنصّرت الرُّوم مُنعوا منها، وأحرقوا بعضها وخزّنوا البعض، ومُـنع النّـاس من الكلام في شيءٍ من الفلسفة»[4].

أَمَّا الجانِب الإسلاميّ، فإنه كانَ مهتمًا بإقامةِ علاقاتٍ ثقافيّةٍ مع الطرف الرُّوميِّ الذي كانَ يعيشُ ضمنَ الدّولةِ الإسلاميَّةِ، وعلاقاتٍ اقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ معَ القسطنطينيّة.

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج١، ص١٥٦.

(٢) للتوسع ينظر تاريخ مارميخائيل، ج٢، ص١٦٠-١٦٧.

(٣) مروج الذهب، ج١، ص٣٣٣.

(٤) الفهرست، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٦، ص٣٩٥.

على الصعيد الدّاخلي:

١- منذُ وقتٍ مبكرٍ أظهرَ المسلمون، من خلال كتابِ الصلحِ الذي أعطاهُ الخليفة عمرُ بنُ الخطابِ لصفرونيوس بطريركِ القدس، التعايشَ معَ الرّومِ المدنيينَ أي اليونانيينَ. فقد سُمحَ لهم بالعيش داخل القدس شرطَ ألا يتعاملوا مع مملكة الروم[1]. الشيء نفسه فعله أبو عبيدة بن الجراح مع أهل بعلبك[2] وسائر مُدن الشّام.

٢- أظهرت حركة النقل أنَّ المسلمينَ كانوا محبين لثقافةِ اليونانِ القديمةِ دون ثقافة الرُّوم. فقد أولوا اهتمامًا واسعًا بحضارة اليونان التي كانت تتناسب مع متطلباتهم، إذ كانوا معنيّينَ بقراءةِ علومِ الطب والكيمياء والفيزياء والجغرافيا والفلكِ. لقد تحدّث القرآن عنِ الدُّخان والنّجومِ والسّماءِ والبروجِ والشّمسِ والقمرِ والفجرِ وأماكن كانت تحت سيطرة المملكة البيزنطيّة مثل مكان أهل الكهف[3]. كذلكَ كانوا معنيينَ بقراءةِ الفلسفةِ للمقارنةِ بين ما أتى به القرآن وما توصَّلَ إليهِ الفلاسفةُ اليونانيون. يَذكرُ ابنُ النديمِ أنَّ خالدَ بنَ يزيد بنِ معاويةَ كانَ مُحبًا للعلومِ[4]، «فأمرَ بإحضارِ جماعةٍ من فلاسفةِ اليونانيينَ ممَّن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصَّح بالعربيَّة، وأمرهُمْ بنقلِ الكتبِ في الصنعة من اللّسانين اليونانيِّ والقبطيِّ إلى العربيَّة، وهذا كانَ أولَ

---

(١) (... فمن خرج منهم فإنه آمِن على نفسه ومالِهِ حتّى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية). تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٠٤-٣٠٥.

(٢) «وللروم أن يَرعُوا سَرْحَهُم ما بَينهم وبَين خَمسة عشر ميلًا.... ولتجارِهم أن يُسافروا إلى حيث أَرادوا من البِلاد التي صالحنا عَليها، وعَلى من أقامَ مِنهُم الجزيةَ والخراج». فتوح البلدان، ص١٣٦.

(٣) يقول المسعودي: «ومنه (=الملك داقيوس) هرب الفِتية أصحاب الكهف وهم في جبل من جبال الرّوم يعرف بخاوس شرقي مدينة افسيس (=Εφεσος) وهو على نحو ألف ذراع منها». التنبيه والإشراف، ص١١٥. يُنظر أيضًا: مروج الذّهب، ج١، ص٣٣٥-٣٣٦.

(٤) حول حياته ينظر تاريخ مدينة دمشق، ج١٦، ص٣٠١-٣١٥. ياقوت، معجم الأدباء، دار الكتب العلميّة، بيروت١٩٩١، ج٣، ص٢٨٠-٢٨٤.

نقــلٍ في الإسلام[١]. ومنْ أهمِّ الكتبِ التي عُرّبت آنـــذاكَ كتبٌ في الطِّبِ والنجومِ والكيمياء[٢].

وفي عهده، أمر الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ عاملَه على المدينةِ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ بهدم المسجدِ النبويّ وإعادة بنائِهِ، وبعثَ إليهِ مالًا وفسيفساء ورخامًا وثمانينَ صانعًا منَ الرّومِ والقبطِ من أهلِ الشامِ ومصر فبناه وزاد فيهِ[٣].

على صعيد العلاقات التّجاريّة والثّقافية مع القسطنطينيّة.

العلاقات التّجاريّة:

رغمَ الاحتكاكات والتوتراتِ بينَ الطرفينِ، كانت الدولة الإسلامية تعتمد النّقدَ الرُّوميّ، ما يشيرُ إلى اتساع حركةِ التِّجارة بينهما. لكنّ تدهورِ العلاقاتِ السِّياسيَّة والعسكريَّة خاصةً في عهدِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ[٤] أدى إلى اتخاذ الأخير إجراءاتٍ صارمة منها ضرب النقود الدمشقية[٥]، وتعريب الدّيوان الإسلاميّ[٦] الذي كُتِبَ باليونانيَّة منذُ أيامِ معاويةَ[٧]. هذان الإجراءان أثَّرا مباشرةً على العلاقات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة مع القسطنطينيّة وعلى الرُّوم المقيمين في الدَّولةِ الإسلاميَّة من العاملين في الدّيوان. فقد خسر هؤلاء عملهم بالدّيوان الإسلاميّ وكانت رواتبهم تقدر بمليون وسبعمائة وثلاثين دينارًا سنويًا[٨].

---

(١) الفهرست، ص٣٩٦.

(٢) الفهرست، ص٥٤٤.

(٣) فتوح البلدان، ص٢١.

(٤) يذكر المنبجي أن عبدالملك عقد صلحًا مع الملك يوسطنيان لعشر سنين على أن يُخْرِج الأخير الروم الذين في جبل لبنان ويردهم إلى بلد الرّوم على أن يؤدّي عبدالملك إلى «يوسطنيان» في كل يوم ألف دينار وفرسًا وغلامًا. تاريخ المنبجي، ص٧٨. أيضًا يُنظر تاريخ مختصر الدول، ص١٩٤.

(٥) فتوح البلدان، ص٤٥٢.

(٦) نقله للعربية سليمان بن سعد. فتوح البلدان، ص١٩٧.

(٧) يقول ابن النديم «...فأمّا الديوان بالشام، فكان بالروميّة، والذي كان يكتب عليه سرجون بن منصور ثمَّ منصور بن سرجون لمعاوية». الفهرست، ص٣٩٧.

(٨) وظيفة الأردن مائة ألف وثمانون ألف دينار ووظيفة فلسطين ثلثمائة ألف وخمسونَ ألف دينار ووظيفة دمشق أربعمائة ألف دينار ووظيفة حمص مع قنسرين والكور ثمانمائة ألف دينار. فتوح البلدان، ص١٩٧.

العلاقات الثّقافيّة:

جرت محاولات جادة من الطّرف الرّسميّ الإسلاميّ للتعرف على النتاج الثّقافيّ اليونانيّ. ففي عهدِ الخليفةِ العباسيّ المأمون، وفي ظروف أقل حِدّة من عصري عبد الملك بن مروان والمنصور، كتبَ المأمون إلى ملكِ الرّومِ يسألُهُ الإذنَ في إنقاذِ ما يختارُه منَ العلومِ القديمةِ المخزونةِ المدّخرةِ ببلدِ الرّوم، فأجابَ إلى ذلكَ بعدَ امتناع. فأخرجَ المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق، وسُلمَا صاحبُ بيت الحكمة [العبارة قلقة وغير واضحة أرجو التأكد منها وإصلاحها - رائد]، فأخذوا ممَّا وجدوا ما اختاروا[1]. كما إنَّ حنين بن إسحق وغيره جاؤوا بطرائف الكتب، وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقي والطبّ[2]. وقد ظهر في تلك الفترة عددٌ من النّقلة إلى اللّسان العربيّ[3]. أمّا من الطَّرف الرَّسميّ الرُّومي فلم تظهر مبادرات لتقصي العلوم العربيّة الإسلاميَّة. جلّ ما جرى كان بعض المناظرات الدِّينيّة لا العلميّة.

من الجانب الفرديّ، لم يُسجَل أنَّ مؤرخينَ بارزينَ أو جغرافيينَ رّومًا زاروا بلادَ الشامِ ومصرَ والجزيرةِ العربيّةِ كمَا فعلَ قدماءُ الجغرافيينَ اليونانيينَ، أمثال بطليموس الذي نقل عنه عدد من المسلمين كالمقريزي[4] وياقوت الحموي. فثيوفانيس مثلًا، عاش حياته ضمن المملكة، ومعلوماته عن الشَّرق كانت من مصادر مكتوبة وشفويَّة، شأنه شأن نيكوفوروس وزوناراس. يُسجل أن الشخص الوحيد الذي زار الشَّرق كان إيوانيس كامينياتيس وذلك بسبب تعرضه للأسر، وقد كتب عن غزوة ليو الطَّرابلسيّ لمدينة ثيسالونيكي فقط.

جاءت المبادرة الفرديَّة الفعليَّة من الطَّرفِ الإسلاميّ، إذ اهتمّ عددٌ كبيرٌ مِنَ الجغرافيينَ والمؤرخينَ المسلمينَ بجغرافية وتاريخ المملكة.

---

(١) الفهرست، ص٣٩٧-٣٩٨.

(٢) الفهرست، ص٣٩٨.

(٣) للتوسع حول هذا الموضوع ينظر الفهرست، ص٣٩٨-٣٩٩.

(٤) على سبيل المثال ينظر الخطط المقريزية، ج١، ص٢٣٣. معجم البلدان، ج١، ص٢٦٦.

على الصعيد الجغرافي، زارَ مملكةَ الرّوم جغرافيون مسلمون، مثل الشريفِ الإدريسيِّ الذي حاول رسمَ مسالكِ المملكةِ الجغرافية والتّجارية[1]. ويبقى عملُ ياقوتِ الحمويّ «معجمُ البلدانِ» من أَكبرِ المؤلفات الإسلاميّة التي حفظت مقتطفاتٍ من الكتبِ اليونانيّةِ الجغرافيّةِ والتاريخيَّة، كما أنهُ ذكرَ أسماءَ بعض المدنِ التي تحملُ أسماءً يونانيَّة.

ومنَ أبرز المؤرخينَ الجغرافيينَ المسلمينَ الذينَ تعلمُوا وأتقنُوا اللُّغةَ اليونانيّةَ نذكرُ - على سبيل المثال لا الحصر - المسعوديَّ صاحبَ كتابِ «مروجِ الذّهبِ ومعادن الجوهر»، وكتابِ «التنبيهِ والإشرافِ»، فقد أَعطى صورة واضحةَ المعالمِ عن جغرافيةِ المملكةِ وتاريخِها السياسيّ والثقافيّ والدينيّ والعسكريّ، وركّز في كتابه التنبيه والإشراف على البنود العسكريّة الروميّة في القرن الميلاديّ العاشر وعلى الحدود الغربية للمملكة وعلاقتها مع البلغار والقبائل التي سيطرت على منطقة البلقان آنذاكَ أي في القرن العاشر. وفي ذلك يقول: وقد غلبت البرغر (البلغار) وأجناس من التّرك الرحّل يسمّون «الوَلندرية» اضافة إلى مدينة في أقاصي ثغور الرُّوم ممّا يلي المشرق تعرف بولندر وهم بجناك ويجنى وبجغرد ونوكبردة على أكثر هذه البنود الخمسة وذلك بعد العشرين والثلاثمائة، وخيّموا هناك ومنعوا الطريق من القسطنطينيّة إلى روميّة وهي مسافة نحو أربعينَ يومًا وأخربوا أكثر ما هناك من العمائر، واتصلت غاراتهم بالقسطنطينيّة فلا وصول لمن في القسطنطينيّة إلى روميّة في هذا الوقت الّا في البحر، وإنما العمارة بينهما ممّا يلي القسطنطينيّة مسيرة أيام كثيرة[2]. ومن الناحية الشّرقيّة للمملكة ذكر المسعودي تفاصيل البنود العسكريّة في آسيا الصغرى تفصيلًا يتيح لأي باحثٍ أن يرسم خارطة تلك البنود بسهولة[3]. كما تحدّث عن اللّغة اليونانيّة والعلوم وأنساب اليونانيين والرّوم وثقافاتهم. إنهُ بحقّ منْ أهمِ المصادرِ المعاصرةِ للمملكةِ في القرنِ الميلادي العاشرِ.

(١) نزهة المشتاق، ج٢، ص٧٩٠-٨١٩.

(٢) التنبيه والإشراف، ص١٥٣.

(٣) التنبيه والاشراف، ص١٥٠-١٥٣.

إنَّ الصِّراعَ الدينيَّ والعسكريَّ والسّياسيَّ الذي كانَ قائمًا بينَ الطرفينِ لم يترك مجالًا واسعًا لالتقاءِ الحضارتينِ العربيَّة الإسلاميَّةِ والرّوميَّةِ المسيحيَّة بشكلٍ طبيعيّ. فالرّومُ لم يعترفوا بالدّينِ الإسلاميِّ كدين، وروّاد الفكر البيزنطي آنذاك كانوا كنسيين يعتبرون الإسلام هرطقة تريد إلغاء الثالوث المقدس بالقوة، ولم ينظروا للمسلمين يومًا كأصحاب حضارة، بل كبرابرة، وذلك رغم التعاملات التجارية والحرفيّة القائمة بين الطرفين، وإقامة أعدادٍ كبيرةٍ من التجار الروم في دمشق وبغداد والإسكندرية، وأعدادٍ من التجار المسلمين في القسطنطينيَّة، والالتقاء الرومي الشعبي الديني بالمسلمين في مواسم الحج في الأراضي المقدسة في فلسطين. حتّى إن المصادر اليونانيَّة الرُّوميّة لم تنقل اسم «محمَّد» كما هو، بل حرفته إلى «مواميث» «Μουάμεδ=Μωάμεθ». كما إن الرّوم ظلُّوا رافضينَ تقبُّل خسارتِهم شمالَ أفريقية والشرقَ وخاصةً فلسطينَ، قلبِ المسيحيَّةِ، التي تشكل مصدرَ قوة رجال الدين. وهذا يُفسرُ استمرار المحاولاتِ الرُّوميَّةِ لاِستعادةِ السَّيطرةِ على هذه المناطق لخمسة قرون متواصلة. وفي المقابل لم ينفتح المسلمونَ على الثّقافة الرُّوميَّة المسيحيَّة، ولم يقوموا بتعريب ذلكَ التُّراث الكنسيّ الهائل، وإنَّما انفتحوا على الثّقافة العلميّة لليونان الوثنيَّة القديمة.

في ما يتعلق بالنعوت التي ذكرَتْها المصادرُ اليونانيَّةُ، أي السَّراكيني والأغاريني والإسماعليين، يمكن القول إنها ليست سوى ربطٍ لعربِ الجزيرةِ العربيّةِ وسورية وفلسطينَ بإسماعيلَ وهاجرَ والإسلام. وهذا خطأٌ تاريخيٌّ لسببينِ اثنَين:

الأوَّل: أنَّ وجودَ العربِ في الجزيرةِ العربيَّةِ سابقٌ على وجودِ إبراهيمَ وسارةَ وهاجرَ وإسماعيل[1]. فعندما أَسْكَنَ إبراهيمُ هاجرَ وإسماعيلَ مكّةَ – كما يؤكد المطران ابن العبري وعدد كبير من المصادر العربيّة– مرّت بهِمَا

(١) للتوسع يُنظر تاريخ مختصر الدول، ص١٥٨.

قبيلةُ جُرهُمَ العربيّةُ وغيرها فسكنوا مكّةَ معهُمَا[1] وشبَّ إسماعيلُ بينَهم وتعلَّمَ العربيَّةَ وتزوجَ منهم[2]. وعليهِ، فإسماعيلُ منَ العربِ المستعربةِ وليسَ من عربِ اليمنِ العاربة الذينَ شكّلوا السَّوادَ الأعظمَ في حركةِ الفتوحاتِ الإسلاميَّة في بلاد الشام.

الثّاني: أنَّ وجودَ الفلسطينيينَ (οι Φιλισταίοι) والسـريانِ (οι Σύροι) سابقٌ لوجودِ اليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ والإسلامِ... فعندمَا سارَ النبيّ إبراهيمُ وسارةُ منَ العراقِ إلى مصرَ مرّوا بالفلسطينيينَ. وعندما أتى الإسلامُ إلى المنطقةِ كانَ السّوادُ الأعظمُ منَ الفلسطينيينَ والسريانِ مسيحيينْ. وهؤلاءِ اعتنقوا المسيحيَّةَ قبلَ ٣٢٥ سنةٍ من اِعترافِ القسطنطينيّةِ بالدّينِ المسيحيّ. وعليه فإن ربط شعوب منطقة بلاد الشام بالإسلام وبشخصيات محددَّة وبأفكار محددة ما هو إلاّ سلخُ أصالة وحقٍّ تلك الشعوب التاريخيّ بالأرض.

---

(١) مختصر الدُّول، ص١٦١. مروج الذَّهب، ج١، ص٤٢.

(٢) للتوسع ينظر: مروج الذهب، ج٢، ص٥٠-٥٦.

الحج المسيحي من البلقان إلى فلسطين في العصر الوسيط:
البعد الدبلوماسي - السياسي والبعد الديني - الثقافي

عودة رافع الشرعة[1]

مقدمة

مع انتشار المسيحية وتوسّعها بدأت تظهر بوادر الانشقاق، فكان الانشقاق الأول في القرن الخامس الميلادي حيث انفصلت الكنيستان الشرقية والغربية بسبب مجمع (خلقيدونية ٤٥١م) وأصبحت كنائس الشرق تحت قيادة كنيسة الإسكندرية تعرف بالكنائس «الأرثوذكسية» وكنائس الغرب تحت قيادة كنيسة روما وسميت بالكنائس الكاثوليكية إلى أن جاء القرن الحادي عشر حيث انفصلت كنائس القسطنطينية واليونانية وشقيقاتها عن الكنيسة اللاتينية وأصبحت هي الأخرى تعرف بالكنيسة الأرثوذكسية. ونتيجةً للتقارب البلقاني البيزنطي وللنشاط التبشيري البيزنطي انتشرت الأرثوذكسية في القرن التاسع الميلادي على نطاق واسع في منطقة البلقان وبالتحديد في صربيا وبلغاريا. ومع تطور فكرة الحج المسيحي للقدس ازدادت أعداد الحجاج بشكل لافت للنظر، حتى أن الرحالة الأندلسي ابن جبير يحدثنا عن مشاهدته لـ «أزيد من ألفي إنسان من النصارى المعروفين بالبلغريين» وهم حجاج بيت المقدس في السفينة التي ركبها في عكا يوم (السبت ٢٨ جمادى الآخر ٥٨٠هـ/ ٦-١٠-١١٨٤م) في طريق العودة إلى بلاده، ويذكر أنهم كانوا مغمورين بشعور ديني

(١) محاضر في قسم التاريخ بجامعة آل البيت، الأردن.

دفعهم لإنارة المركب بالشموع المتقدة لتصادف أحد أعيادهم وهم على ظهر المركب. وعليه تأتي هذه الورقة لتركّز على الحج الصربي للقدس الذي سيتطور في العصر المملوكي من حج ممثل بالفعاليات الشعبية إلى حج الطبقة الحاكمة الممثلة بملك صربيا وزوجته.

الحج للقدس:

حظيت القدس باهتمام بالغ وكبير من اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام لاحقًا، ويمكن اعتبار فترة حكم الإمبراطور قسطنطين الأكبر (٣٠٦-٣٣٧م)، فترة مهمة في تطور فكرة الحج إلى بيت المقدس[١]. فقد أوقف ذلك الإمبراطور سياسة اضطهاد المسيحيين واتبع سياسة متوازنة تجاه الطوائف الدينية المختلفة في الإمبراطورية الرومانية، وفي عهده ارتحلت أمه هيلينه إلى فلسطين وأقامت كنيسة القيامة في الموضع الذي يعتقد المسيحيون أنها عثرت فيه على الخشبة التي صلب عليها المسيح، وتلا ذلك إقامة عدد من الكنائس والأديرة في بيت المقدس بتشجيع من السلطات البيزنطية والتي كانت فلسطين تحت سلطتها منذ القرن الرابع، كما شجّع البيزنطيون تقديم الخدمات للحجاج حتى إنه صار في المدينة وما حولها بمنتصف القرن الخامس حوالى مائتا دير ونزل خضعت للإشراف الرسمي البيزنطي[٢].

ومن ثم فقد شجّعت الكنيسة فكرة الحج إلى بيت المقدس على اعتبار أنه «نوع من الحج الكبير الذي يساعد في التكفير عن بعض الذنوب الكبيرة. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه عرف نوعان من الحج في العصور الوسطى:

---

(١) الحج في اللغة القدوم والقصد والزيارة، وكلمة حج من الكلمات السامية الأصلية العتيقة، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب السامية، ووردت في التوراة وجميعها تعني زيارة مكان مقدس. صالح درادكة، طريق الحج الشامي في العصور الإسلامية، عمان، (الجامعة الأردنية)، ١٩٩٧م، ص٣٣.

(2) Runciman, S. The **Pilgrimage to Palestine Before 1095 in A History of the** Crusades. Ed. By Setton, Vol. 5, (Pennsylvania, 1969), P.68.

١- الحج الكبير، وهو الذي يُقصد به تكفير بعض الذنوب الكبيرة وكان موجهًا إلى أربع جهات وهي روما وكومبستلا Compostella بإسبانيا والقسطنطينية وبيت المقدس.

٢- الحج الصغير وكان بهدف التكفير عن بعض الذنوب الصغيرة وكان يقتصر على زيارة بعض المزارات وقبور القديسيين(١).

وكان للتجارة بين أوروبا وبلاد الشام أثر واضح في ازدهار حركة الحج لبيت المقدس. فبيزنطة اهتمت بفلسطين دون سائر المناطق الشامية، فشجعت تدفق الأموال إليها على شكل هبات وتبرعات لبناء وتحسين الطرق، وتحصين المدن وحفظ النظام، مما كان له أكبر الأثر في إنعاش الحياة الاقتصادية(٢).

ويُنظر للقرن السابع الميلادي على أنه أكثر الفترات ازدهارًا في تطوّر فكرة الحج إلى بيت المقدس بسبب اتساع الناحية التكفيرية للحج لدى المسيحيين بسبب تزايد تأثير الأديرة(٣) على الحياة الدينية في غرب أوروبا. وفي الدولة البيزنطية كذلك كان لزيادة الصلات التجارية بين أوروبا وبلاد الشام أثر في زيادة الرحلة إلى فلسطين. وقد ظهرت كتابات بعض الرحالة في هذه الفترة والتي كانت أهمها رحلة الأسقف الفرنسي أركولف Arculf الذي زار مدينة القدس حوالى سنة ٦٧٠م، ووصف الآثار المسيحية فيها كما تحدث عن مظاهر الحياة الدينية والاجتماعية في المدينة(٤). ولا مناص من القول إن روح التسامح التي أمر بها الإسلام كانت إحدى أبرز عوامل نشاط الحج المسيحي للقدس.

---

(1) Cross. F.L. The Oxford Dictionary of the Christian Church, (Oxford University Press, 1990), P.338.

(٢) إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العهد الأموي، (عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٩٠م) ص١٦٧.

(٣) عن الحركة الديرية انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، (بيروت، دار النهضة للطباعة، ١٩٧٢م) ١٢٧- ١٤٦.

(٤) محمود عمران، كتابات الرحالة اركولف كمصدر لبلاد الشام في عهد الراشدين، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، م٣، (عمان، الجامعة الاردنية ١٩٨٧م) ٣١١- ٣٣٠.

ومع القرن الثامن الميلادي الذي شهد إعلان الخلافة العباسية في المشرق الإسلامي وقيام الدولة الكارلونجية في فرنسا توطّدت العلاقات السياسية بين الكارلونجيين والعباسيين، ونمت العلاقات الثقافية والحضـارية[1] والتجارية بين الطرفين[2].

وتلقي المصادر التاريخية أضواء على العلاقات في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد والإمبراطور الفرنجي شارلمان حتى ذكر بعضها أن الرشيد أعطى شارلمان حق الإشراف على بيت المقدس وحمايتها مقابل أن يحاول شارلمان الاستيلاء على الأندلس باسم العباسيين. وعلى الرغم من اتفاق المؤرخين المحدثين على أسطورية هذه الروايات المفعمة بالخيال والغموض[3]، إلا أنها تؤكد في جانب من جوانبها على تقارب الشرق الإسلامي مع الغرب المسيحي في هذه الفترة ولو جزئيًا، كما تظهر في الوقت ذاته مدى الاهتمام والرعاية الكبيرة من جميع هذه الأطراف تجاه مدينة القدس باعتبارها المدينة المقدسة للمسلمين والمسيحيين.

ومنذ القرن العاشر الميلادي ظهرت عوامل أخرى للحج حيث أصبح لجنوه وللبندقية ولبيزه مصالح تجارية في موانئ الشرق كموانئ بلاد الشام وبيزنطة، كما تزايد اهتمام دير كلوني (Cluny) بتشجيع ظاهرة الحج عن طريق تقديم المساعدات للحجاج على طول الطريق في غرب أوروبا إلى الساحل الشامي[4].

---

(١) انظر: إيناس حسني، التلامس الحضاري الإسلامي الأوروبي، عالم المعرفة، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة ٢٠٠٩م).

(٢) انظر: محمد حافظ النقر، التجارة الداخلية والخارجية للعالم الإسلامي، ط١، (الأردن، دار المسار، ٢٠٠٢م)

(٣) فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، ط١ (عمان، دار الشروق، ٢٠٠٣)٣٣٤٩. للمزيد انظر: مجيد خدوري، الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان، (بغداد، ١٩٣٩م).

(٤) وائل عبد الرحيم اعبيد، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، ط١، (الأردن، دار مجدلاوي، ٢٠٠٥م) ص١٦٢.

مع القرن الحادي عشر الميلادي يلاحظ تحوّل وانعطاف مهم في حركة الحج. فقد هدم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله كنيسة القيامة وتبع ذلك سياسة مضايقة سكان القدس من النصارى مما أدى لهجرة الكثير منهم إلى المناطق الحدودية. إلا أن الخليفة الظاهر أعاده سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٨م) وهو ما يذكر نصه المقريزي: «وقعت الهدنة بين ملك الروم وبين الظاهر عن ديار مصر والشام، وكتب بينهما كتاب؛ وتفردت الخطبة للظاهر ببلاد الروم. وفتح الجامع الذي بقسطنطينية، وعمل له الحصر والقناديل، وأقيم به مؤذن؛ وعند ذلك أذن الظاهر في فتح كنيسة القيامة التي بالقدس، فحمل إليها ملوك النصارى الأموال والآلات، وأعادوها[1]».

وفعلًا تمّت إعادة فتح الكنيسة وهذا ما يؤكده الرحالة ناصر خسرو الذي زار القدس سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م وقال: «وهذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل وهي عظيمة الزخرف من الرخام الملون والنقوش والصور وهي مزدانة من الداخل بالديباج الرومي والصور وزينت بطلاء من الذهب وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام»[2].

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي استمرت حركة الحج المسيحي بسبب الاقتتال بين الفاطميين وأعدائهم السلاجقة والتركمان. ويعزى التزايد المستمر في حركة الحج إلى البابوية ومن خلفها دير كلوني التي أسهمت في تفخيم ظاهرة الحج بحيث أصبح ظاهرة جماعية يخرج فيها الآلاف من المسيحيين، وظهر بعض كبار رجال الدين في «الحج الكبير» في ألمانيا الذي قاده رئيس أساقفة مينز «Mainz» في عام ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م وبلغ عدد المشتركين

---

(١) أحمد بن علي المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ط١ (القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي ١٩٧١) ج٢، ص١٧٦.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، تحقيق يحيى الخشاب، ط٣، (بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣) ص٧٥.

فيه حوالى عشرة آلاف حاج[١]. وفي سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م، جاءت حملة حج بقيادة روبرت الفلاندرزي Robert of flander واشتركت فيه أعداد هائلة من النبلاء والفرسان إلى جانب العامة[٢].

ثم شهدت فترة الحروب الصليبية قدوم العديد من الحجاج والرحالة الغربيين. وقد دُوّنت رحلات هؤلاء وأهمها رحلة الحاج سايولف Saewulf في الفترة الواقعة ٤٩٥-٤٩٦هـ/ ١١٠٢-١١٠٣م[٣]، ورحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الفترة ٥٠٠-٥٠١هـ/ ١١٠٦-١١٠٧م[٤]، ورحلة الحاج يوحنا فوقاس سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م[٥]، وفتيولس سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م وبروشارد في دير جبل صهيون ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م[٦].

ولم يمض عقدان من الزمن حتى حدثت الحروب الصليبية، وهنا لا مجال للحديث عن الحج لأن الحملات بحد ذاتها كانت تضم بالإضافة إلى أمراء الإقطاع والجنود والتجار الكثير من الحجاج[٧].

لقد كان يتحتّم على الشخص الراغب في الحج منذ ذلك الزمن أن يحصل على موافقة رئيس كنيسته والحاكم الزمني لمنطقته. وكانت هذه الموافقة تُمنح مجانًا من قبل الكنائس، ولكنها أصبحت في القرن السادس عشر الميلادي تمنح مقابل رسوم معينة. وفي كلا الحالتين كان ذلك يتمّ في حفلة دينية خاصة. ومن

---

(1) Joranson, f, «the great german pilgrimage of 10641065-» in the crsades and other essay, (new York 1928) p3 - 43.

(٢) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين،(موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م) ص٢١.

(3) Cf. **Introduction of the Piligrimage of Saewulf to Jerusalem and the Holyland,** (Lodon, by Canon Brownlow, 1892).

(٤) رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي وداود أبو هدبه، ط١(عمان، ١٩٩٢م).

(5) Cf. **Introduction of the Piligrimage of Joannes Phocas in the Holyland,** Translated by Aubrey Stewart,(London, 1889).

(6) Cf. **Introduction of Burchard ofMount sion,** Translated by Aubrey Stewart,(London, 1889).

(٧) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين،(موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م).

كان يسافر من الحجاج دون إذن كنيسته كان يعتبر مخطئًا، وعليه أن يعلن ذلك للكاهن عند وصوله للأرض المقدسة وحضوره أول خدمة كنيسة في يافا أو القدس، وذلك ليحمل الكاهن خطيئته ويسمح له بالزيارة[1].

أما لباس الحج فكان عبارة عن ثياب خاصة يعرف بها، والأغلب أن تكون قباءً أغبر اللون وحزامًا عريضًا أحمر ويحمل عادةً عصا وكيسًا، وقد يسير الحاج حافيًا خصوصًا إذا كان يقوم بالحج بأمر من الكنيسة ككفارة للذنوب، وقد يهدي الحاج عصاه أو كيسه أو ثوبه أو حزامه أو كل ذلك إلى كنيسة بلده بعد عودته. كما كان بعضهم يحمل أحيانًا صلبانًا ومجوهرات يرسلها معه أصدقاؤه وأقرباؤه لوضعها على القبر المقدس للتبرك، وقد يحمل بعضهم سبائك الفضة والذهب ويتفنّن في إخفائها.

لقد كانت طرق الحجاج عادة تنطلق من موانئ إيطاليا كجنوة والبندقية وبيزه أو عن طريق مرسيليا بفرنسا، وذلك عن طريق البحر إلى فلسطين حيث ينزلون على الأغلب في مدينة يافا. ولذلك اهتمت المدن الإيطالية خاصة بهذا العمل، فنظّمت رحلات جماعية لسفن كبيرة، كما ساهم فرسان القديس يوحنا في هذا المجال أيضًا. وقد كانت الرحلة تستغرق ما بين ستة إلى ثمانية أسابيع حيث يقضي الحجاج حوالى عشرة أيام منها في مدينة القدس[2].

وكان الحجاج يلقون الترحيب والتسهيلات من الحكام المسلمين. ولم يكن يتعرض للإساءة منهم إلا القليل النادر نتيجة لاختلال الأمن في بعض الفترات، وكان الحاج يعتبر ضيفًا على من يمر بهم في أديرة وكنائس. أما عن تكاليف الرحلة للشخص الواحد فكانت تتراوح ما بين ما يساوي اليوم «مائة وخمسين دولارًا»، كما يعتقد نقولا زيادة أن حوالى ثلاثمائة من الدوكات (٤٠٠ دولار) كانت كافية لرحلة حجٍ مريحة[3].

---

(١) نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٤٨) ص٤٣.

(٢) رنسيمان ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العربي، ط٢ (دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠) ص٧١.

(٣) رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ص٤٦.

حجّ الصرب:

كان الصرب قد هبطوا مع السلاف الجنوب إلى شبه جزيرة البلقان في نهاية القرن السادس الميلادي واستقروا في مطلع القرن السابع الميلادي (حوالى ٦١٥م) حيث كانت بيزنطة منشغلة بحروبها مع الفرس. وقد اشتهر هؤلاء السلاف في البداية بأسماء العشائر الكبرى، ثم أصبحت البلاد التي استقروا فيها تسمى (بلاد السلاف) Sclavonia دون تمييز. وفيما بعد مع ظهور الدولة البلغارية في شرق البلقان سنة (٦٨١م) أخذ التمايز يتبلور في غرب البلقان بين العشائر الصربية وتلك الكرواتية التي كانت متداخلة ومنتشرة في طول المنطقة. وقد تمركزت العشائر الصربية في المنطقة الممتدة في حوض إيبار Ibar وأعالي نهر مورافا Morava في الشرق وإلى أعالي نهر درينا Drina في الوسط وحتى المرتفعات المطلة على البحر الأدرياتيكي في الغرب، ونظرًا للعبء العسكري المتواصل سواء لأجل الدفاع أو لأجل التوسع، فقد أخذت السلطة المحلية تتركز في يد قواد عشائريين -عسكريين في القرن الثامن[1].

وفي النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، أدرك حاكم بلاد الصرب أن بقاء شعبه على الوثنية يعوق التقدم الحضاري لدولته، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي باسيل الأول (٨٦٧-٨٨٦م) تعلن خضوع الصرب للسيادة البيزنطية ورغبة أهلها في اعتناق المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية (الأرثوذكسية). وكانت الإدارة البيزنطية ترى أن اعتناق دولة الصرب للمسيحية الأرثوذكسية سيؤدي إلى توثيق تبعيتها للإمبراطورية لأن التبعية الروحية لبطريرك القسطنطينية تتضمن من حيث المبدأ التبعية السياسية للإمبراطور. وبالفعل استجابت بيزنطة لمطالب الصرب، ومن المرجح تحول

---

(١) محمد الأرناؤوط، مداخلات عربية بلقانية (في التاريخ الوسيط والحديث)، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م) ص٢٠.

سكان الصرب النهائي للمسيحية الأرثوذكسية قد حدث في الفترة الممتدة من ٨٦٧م، وحتى نهاية سنة ٨٧٤م[١].

ومع ظهور الأمير ستيفان نيمانيا (الملقب الجوبان الكبير) الذي حكم في الفترة (١١٧١-١١٩٦م) فقد وحّد الصرب (إمارتي راشكا وزيتا)[٢]، وتحول أولاده وأحفاده إلى ملوك وأباطرة عرفوا كيف يستفيدون باستمرار من الظروف المستجدة للتوسع على حساب بيزنطة، حتى أنه تمكن من إقناع والده من اعتزال الحكم والقدوم إلى جبل أثوس حيث تحول لاحقًا إلى قديس باسم القديس سيمون. أما الابن الآخر له فقد تولى الحكم باسم ستيفان المتوج الأول Stevan Prvovencani لأنه أول من توج ملكًا على صربيا في ١٢٠٤م[٣]. ولا شك أن سقوط القسطنطينية في يد الصليبيين سنة ١٢٠٤م، قد انعكس على دولة الصرب التي تأرجحت سياستها الخارجية بين المصالح المتنافسة لجيرانها الأقوياء، حيث تحالفت أحيانًا مع حكام بيزنطة المستقرين في نيقية، وأحيانًا تحالفت مع دولة المجر وحكام صقلية. أما من الناحية الحضارية فقد احتفظت صربيا حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي بموقف رسمي بين العالم الغربي اللاتيني الكاثوليكي والعالم البيزنطي اليوناني الأرثوذكسي. فقد قبل الملك ستيفان تاجًا ملكيًا من روما سنة ١٢١٧م[٤]، ثم تمكن أخوه راستكو أو القديس سافا Sava كما أصبح يُعرف من إقناع الإمبراطور البيزنطي وبطريرك القسطنطينية بتأسيس كنيسة صربية مستقلة في ١٢١٩م، حيث بقي على رأسها حتى ١٢٣٤م، وأخذ القديس سافا يحظى بتقديس ديني وصل لحد العبادة عند الصرب[٥].

---

(١) وسام عبد العزيز، البوسنة، الصرب، كرواتيا، قراءة في التاريخ الباكر، ط١، (القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٤م) ص٤٤.

(٢) نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ج٢، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٠م) ص٢٩٦.

(٣) مداخلات عربية بلقانية، ص٢١.

(٤) البوسنة، الصرب، كرواتيا، قراءة في التاريخ الباكر، ص٥٢.

(٥) مداخلات عربية بلقانية، ص٢١.

ويعتبر عهد دوشان الكبير Dushan (استيفان نيمانيتش)١٣٣١-١٣٥٥م، الذروة التي وصلت إليها الدولة الصربية. وقد اتخذ دوشان من بريزرن Prizren عاصمة ثانية له وبنى قربها «دير القديسين» ثم قام في سنة ١٣٤٦م، برفع مكانة الكنيسة الصربية إلى بطريركية مستقلة، فقام البطريرك الصربي الأول بتتويجه «إمبراطور الصرب واليونان». وبعد ضم المزيد من الأراضي «إلى دولته في الشرق (بلغاريا) والغرب (ألبانيا) أصبح لقبه في ١٣٤٨م، «إمبراطور الصرب واليونان والبلغار والألبان» قبل أن يتوفى في ١٣٥٥م، ويدفن في «دير القديسين» الذي بناه في بريزرن[١].

وكما أن صربيا كانت تحرص على أن تستمر طرق اتصالها مع الغرب وخاصة العلاقات التجارية، إذ كان يقيم في البلاد عدد كبير من الغربيين تجارًا وعمالًا في المناجم أو مرتزقة أجانب[٢]، فقد حرصت في الوقت ذاته على دوام العلاقات الروحية مع الشرق، فقد قام القديس سافا-رأس الكنيسة الصربية- بزيارتين إلى (سوريا وفلسطين ومصر)، واتصل ببطارقة الشرق واهتم بشكل خاص بفلسطين. وهكذا قام بالرحلة الأولى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، أي بعدما قام السلطان الأيوبي الملك الكامل بتسليم القدس إلى الفرنجة وذلك حسب المعاهدة التي عقدها مع الإمبراطور فريدريك الثاني في ١٨ ربيع الثاني ٦٢٦هـ/ ٢٧ شباط ١٢٢٨م، ثم قام بالزيارة الثانية بعد تقدّمه في العمر وتخلّيه عن رئاسة الكنيسة لتلميذه أرسنيه Arsennje في ربيع سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م، خلال الحكم الفرنجي الأخير للقدس (٦٢٦-٦٣٧هـ/ ١٢٢٩-١٢٣٩م). وعن سر هذه العودة السريعة ما بين الزيارة الأولى والثانية يفسر ذلك بتوسط القديس سافا بين الإمبراطور البلغاري يوحنا آسن الثاني Asen II (١٢١٨هـ/ ١٢٤١م) وبطاركة أنطاكية

(١) محمد الأرناؤوط، كوسوفو ما بين الماضي والحاضر، ط١(بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨) ص٣٤.

(٢) الإمبراطورية البيزنطية، ص٢٩٨.

والقدس والإسكندرية، وبعدها عاد سافا مريضًا وتوفي بعد توقّفه في ترنوفو Trnovo عاصمة الإمبراطورية البلغارية سنة ١٢٣٦م[١].

إن ما يهم من هذه الرحلات التي قام بها القديس سافا هو انفتاح طريق الحج بين صربيا وفلسطين، خاصة مع بناء دير يحمل اسم مار جرجس يكون نزلًا للحجاج الصرب الذين سيفدون للأرض المقدسة واهتمامه المتزايـد بدير مار سابا[٢] الذي يحـمل اسمه والذي يقال إنه وهبه الكثير من الذهب أثناء زيارته الأولى[٣].

وإذا انتقلنا للعصر المملوكي نجد أن الحج الصربي للقدس يأخذ صفة رسمية. فقد جاءت رسالة سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٢م من ملك الصرب «استيفانوس فراكس»[٤] إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يطلب الإذن في زيارة القدس الشريف وإزالة المعوقات وطلب الأمان وهذا ما ذكره القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، حيث يقول:

«أما بعد حمد الله الذي أمّن بمهابتنا المناهج والمسالك، ومكّن لكلمتنا المطاعة في الأقطار والآفاق والممالك، وأعان على لساننا بدعوة الحق التي تنفي كل كرب حاك وتكفي كل كرب حالك، والشهادة له بالوحدانية التي تنفي المشابه والمشارك، وتفي بالميعاد من الإصعاد على الأرائك، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنجده ببعوث الملإ الأعلى من الملائك، وأيّده بالصون

---

(١) مداخلات عربية بلقانية، ص٢١- ٢٢.

(٢) (مار سابا) مار لفظة سريانية معناها السيد والمولى وسابا لفظة سريانية بمعنى الشيخ الطاعن في السن. دير القديس سابا من الأديرة التابعة للروم الأرثوذكس يقع شرقي مدينة بيت لحم وفي الجنوب الشرقي من بيت المقدس على بعد خمسة عشرة كيلو متر منها، ينسب إلى الراهب سابا الذي ولد في ولاية قبادرقيا في آسيا الصغرى ٤٣٩م، قضى هذا القديس أكثر من خمسين سنة في العبادة والتقشف، ابتنى هذا القديس ديرين أثناء حياته؛ الأول المذكور آنفًا، والثاني على جبل صهيون، توفي سنة ٥٣١- ٥٣٢م ودفن في ديره ونقل جثمانه بعد ذلك ليدفن في فينيا. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فسطين، ج٨، ق٢،(بيروت، ١٩٧٤) ص٥١١.

(٣) مداخلات عربية بلقانية، ص٢٢. بلادنا فسطين، ج٨، ق٢، ص٥١١.

(٤) حسب هذا التاريخ كان ملك صربيا هو دوشان الكبير الملقب باستيفان نيمانيتش، ومن المؤكد أن (فراكس) هي تصحيف وقع به النساخ.

الملازم والعون المتدارك، ووعده أن سيبلغ ملك أمته ما بين المشرق والمغرب وأنجز له ذلك، وعلى آله وصحبه الذين زحزحوا عن المهالك، ونصحوا لله ورسوله وأكرم بأولئك - فإن كرمنا يرعى الوفود، وشيمنا تدعى فتجود، وذممنا بها لحظ الحقوق وحفظ العهود؛ فبخدمنا ينجح كل مقصود، وبنعمنا تمنح الأماني والمنى وهما أعظم نعمتين في الوجود؛ فليس آمل عن أبواب سماحنا بمردود، ولا متوسل إلينا بضـراعة إلا ويرجع بالمرام ويعود.

ولما كانت حضرة الملك الجليل، المكرم، المبجل، العزيز، الموقر، (إستيفانوس فراكس): كبير الطائفة النصرانية، جمال الأمة الصليبية، عماد بني المعمودية، صديق الملوك والسلاطين، صاحب السرب-أطال الله بقاءه- قد شمله إقبالنا المعهود، ووصله إفضالنا الذي يحجز عن ميامنه السوء وينجز الوعود- اقتضى حسن الرأي الشريف أن نيسر سبيله، ونوفر له من الإكرام جسيمه كما وفرنا لغيره من الملوك مسوله، وأن يمكن من الحضور هو وزوجته ومن معهما من أتباعهما إلى زيارة القدس الشريف، وإزالة الأعراض عنهم، وإكرامهم ورعايتهم، واستصحاب العناية بهم، إلى أن يعودوا إلى بلادهم، آمنين على أنفسهم وأموالهم، ويعاملوا بالوصية التامة، ويواصلوا بالكرامة والرعاية إلى أن يعودوا في كنف الأمن وحريم السلامة؛ وسبيل كل واقف عليه أن يسمع كلامه، ويتبع إبرامه، ولا يمنع عنهم الخير في سير ولا إقامة، ويدفع عنهم الأذى حيث وردوا أو صدروا فلا يحذروا إلمامه؛ والله تعالى يوفر لكل مستعين من أبوابنا أقساط الأمن وأقسامه، ويظفر عزمنا المحمدي بالنصر السرمدي حتى يطوق الطائع والعاصي حسامه. والعلامة الشريفة أعلاه حجة فيه؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى»[1].

وقد وجدنا نصًّا عند العمري في «مسالك الأبصار في ممـالك الأمصار» في غاية الأهمية يذكر أن صاحب الصرب بعث برسالة مودة -أو محالفة- ويطلب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون سيفًا يقلده وسنجقًا يقهر أعداءه به فأكرم رسوله، وأعد نزله وجهز له معه خلعة كاملة، طرد وحش مقصب بسنجاب

---

(١) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط١، تحقيق يوسف علي طويل، (دمشق، دار الفكر، ١٩٨٧) ج١٣، ص٣٢٦-٣٢٧.

مقندس على مفرج إسكندري وكلوتة زركش، وشاش بطرزين رقم، ومنطقة ذهب، وكلاليب ذهب وسيف محلى، وسنجق سلطاني أصغر مذهب»[١].

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا التسامح المملوكي لم يحظ به الصرب وحدهم فقد كانت هذه ميزة حتى مع اليهود أنفسهم. فقد رسم الرحالة اليهودي ابن تشيلو الذي زار فلسطين سنة ٧٣٣-٧٣٤هـ/ ١٣٣٣-١٣٣٤ صورة للقدس اتسمت بالحيوية والنشاط الاقتصادي وانفتاح السلطة المملوكي على أهل الذمة وتعاملها معهم بشكل اتسم بالعدل والرعاية والحماية عندما قال: «وهم «اليهود في فلسطين» يعيشون جميعًا هناك في سعادة وراحة كل حسب ظروفه وحسب حظه في سلطة ملكية عادلة وعظيمة، وندعو الله أن يدعمها ويدفعها إلى درجة متقدمة من الازدهار»[٢].

وفي القرن التاسع الهجري سمح السلطان فرح بن برقوق للنصارى سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م ببناء كنيسة بيت لحم وأحضرت الأخشاب من أوروبا لأجل ذلك[٣].

وقدّر فليكس فابري نصارى القدس سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م بحوالى ألف شخص[٤]، وفي سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، أصدر السلطان قانصوه الغوري مرسومًا نقشه على بلاطة ألصقها على باب كنيسة القيامة أمر فيه معاملة النصارى الملكانيين واليعاقبة والقبط معاملة حسنة[٥].

---

(١) أحمد بن يحيى العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد خريسات وعصام هزايمه، (الإمارات، مركز زايد للتراث، ٢٠٠١)، ج٣، ص١٨٤.

(2) Issac Ben Joseph Ben Chelo, **The Roads from Jerusalem Jewish Travelers in the Middle Ages**.(Alken Adler, Zed N.Y.USA. 1987), p. 134.

(٣) أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦) ج٤، ق١، ص١٤٣- ١٤٤.

(٤) نقولا زيادة، «فيلكس فابري في فلسطين»، بحث ضمن المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين»، المجلد الثاني،(عمان، الجامعة الاردنية، ١٩٨٢) ص ١٩٧.

(٥) «بسملة المرسوم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي السيفي أعلاه لله تعالى وشرفه وأنفده وصرفه أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات الملكيين واليعاقبة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم قمامة القدس الشريف أسوة رهبان الكرج والحبوش ولا عند دخولهم إلى مينا يافا ولا عند خروجهم من يافا ولا في مدينة غزة ولا في رملة...» يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، (دمشق، وزارة الثقافة ٢٠٠٩) ص٢٠٠.

وهذه الرعاية والمعاملة الحسنة كان لها أكبر الأثر على علاقات الصرب مع فلسطين. فقد زاد قدوم الحجاج الصرب وزاد خلال القرن الخامس عشر إلى حد أن ديرهم بالقدس اشتهر باسمهم «دير السرب»، بل حتى أن أحد أبواب المدينة في ذلك الوقت (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) واشتهر باسمه «باب دير السرب»[١]، وهو الذي ذكره المؤرخ المقدسي مجيد الدين الحنبلي في كتابه «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»[٢].

البعد السياسي

إذا كانت السياسة تعني المهارة في التوفيق بين المصالح المتضاربة، فإن سياسة الحج لدى المماليك لم تخرج عن هذا النهج. فسلاطين المماليك كانوا يحرصون على حماية الحجاج المحليين والأجانب تحديدًا من الجوع وقلة المياه وهجمات البدو، فهم يشيرون إلى ذلك في المراسيم «... ونوفر له من الإكرام جسيمه كما وفرنا لغيره من الملوك مسوله، وأن يمكن من الحضور هو وزوجته ومن معهما من أتباعهما إلى زيارة القدس الشريف، وإزالة الأعراض عنهم، وإكرامهم ورعايتهم...» [٣]. ومن الثابت أن الدولة المملوكية لم تكن تشعر بالمنافسة من أي طرف آخر في تأمين الحج المسيحي كما شعرت الدولة العثمانية لاحقًا في أحقيتها على رعاية الحج الاسلامي حيث شعرت بمنافسة سلاطين المغول المسلمين وشاهات الدولة الصفوية[٤]. إلا أننا نرجح خشية الدولة المملوكية من ظهور منظمات وهيئات دينية جديدة كالداوية والاسبتارية، تلك المنظمتان اللتان لعبتا دورًا دينيًا وحربيًا في آن معًا وساعدتا على توطيد سلطة الفرنج ليس في القدس فحسب بل في أرجاء المملكة الفرنجية، وبسبب

---

(١) مداخلات عربية بلقانية، ص٢٤.

(٢) عبدالرحمن بن محمد العليمي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، (عمان، دار المحتسب، ١٩٧٣) ج٢، ص٥٦.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج١٣، ص٣٢٦.

(٤) ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين، الحج أيام العثمانيين ١٥١٧-١٦٨٣م (بيروت، دار الجمل، ٢٠١٠) ص٢٣٧.

الامتيازات والهبات التي انهالت عليهما أصبحتا تمثلان دولة داخل دولة وكنيسة داخل كنيسة[1].

لعب السلطان المملوكي دورًا واضحًا في الظهور كحام للحجاج المسيحيين، وكان هذا الدور دون شك يضفي الصفة الشرعية على السلطان في نظر العامة، وعلى الأخص في نظر الحجاج الأجانب، ولعل الحماية الظاهرة الممنوحة لحجاج البلقان من الأرثوذكس كانت الغاية منها كسب الدعم للسلطان المملوكي من الرعايا المسيحيين الأرثوذكس في مواجهة الكاثوليكية التي قادت الحملات الصليبية على الشرق.

كان السلاطـين المماليك يستخدمون ألقابًا دينية[2]، وكانت هذه بكل تأكيد وسيلة لشرعنة السلطان كحام للحج، ويمكن العثور على استخدام أوضح لهذا اللقب في المراسيم المملوكية.

إنه من المؤكد أن تقارب السلطان المملوكي مع ملك الصرب (استيفانوس فراكس) في القرن الرابع عشر لم يكن من قبيل الصدفة، بل كانت حجته أنه يجب الحفاظ على طرق الحج مفتوحة أمام سكان أوروبا الشرقية في مواجهة الفرنج.

إن الدولة المملوكية قد شهدت انفتاحًا في علاقاتها الخارجيـــة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وقامت بالتقارب مع مغول القفجاق منذ أواخر القرن الثالث عشر. فقد بعث الملك طقطا الرسل والكتب الدبلوماسية ليصل إلى حلف مع دولة المماليك من أجل تطويق دولة فارس، فتتيح له هذه الاستراتيجية الحربية في التخطيط العسكري الاستيلاء على ما يريد من أراضي مغول فارس. وبالرغم من أن السلطان المملوكي الناصر لم يوافق على التحالف العسكري إلا أن المراسلات استمرت بين الطرفين،

---

(1) Willian of tyre, a **history of deeds done beyond the sea**, 2 vols. Trans by babcock, e, octagon books, (New York, 1976), vol 11 p, 245..

(٢) على سبيل المثال انظر كتاب جمال عبد الرحيم حسن، **الحرمان الشريفان ودورهما في ألقاب سلاطين المماليك** (الرياض، الندوة العالمية السابعة لتاريخ الجزيرة العربية، ٢٠١٠).

وفي ذلك يقول ابن أبي الفضائل: «وفي هذه السنة ٧١١هـ/ ١٣١١م عاد رسل السلطان الملك الناصر من جهة الملك طقطاي وكانوا نحوًا من ستين نفرًا ومروا بهم على البلاد الساحلية ووصلوا بهم إلى طرابلس الشام وعرضوا بيعهم بها واشتطوا في الثمن وطلبوا ستين ألف دينار، ثم توجهوا إلى بني إياس وعرضوهم على صاحب سيس بهذا الثمن فامتنع عن مشتراهم ثم توجهوا بهم إلى جزيرة المصطكي، فبلغ السلطان ذلك فأمر بالقبض على تجار الفرنج الذين بثغر الإسكندرية والحوطة على أموالهم، والتزم أنه لا يطلقهم ولا يفرج عن أموالهم إلا بعد حضور رسله، فخرج سكران الجنوي التاجر إلى جزيرة المصطكي وخلصهم وأرسلهم إلى الديار المصرية وكان وصولهم في سادس عشر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وسبعماية»[1]. فهذا النص يؤكّد على ما أشرنا إليه سابقًا من أن الدولة المملوكية حاولت أن تتقارب مع الصرب من الشمال والقفجاق من الشرق لزيادة حلفائها.

لقد حرص سلاطين المماليك على وضع العديد من الكتابات المنقوشة على المباني في المدن المقدسة[2]، وعلى إصدار المراسيم التي تأمر بحسن معاملة المسيحيين وإلقاء الرسوم المفروضة على دخولهم إلى كنيسة القيامة[3].

إن كثرة قدوم الحجاج إلى فلسطين كان مما يربك الدولة المملوكية لذا وجدت أن تخصص لهم مكان معين وهو (دير صهيون)، وأن تعطي الرهبان الفرنسيسكان[4] حق رعاية الأماكن المسيحية المجاورة لدير صهيون، وربما

---

(١) ابن أبي الفضائل، تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه E
.Blouchet, Paris, Patrologia Orientalis, XII, XIV, XXII,،1919.

(٢) تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص٢٠٠.

(٣) فيلكس فابري في فلسطين، ص١٩٧.

(٤) طائفة الرهبان الفرنسيسكان تنسب إلى مؤسسها فرانسيس الأسيزي (١١٨٢-١٢٢٦م) الذي نشأ في إقليم Assisi في شمال إيطاليا وكان يدعو الناس لأن يحيوا حياة السيد المسيح بما فيها من بساطة وزهد. عبلة المهتدي، القدس تاريخ وحضارة، (عمان، وزارة الثقافة، الأردن ٢٠٠٩) ص٣٤.

كان النشاط دينيًا من تبشير وحماية لأبناء الطائفة والدفاع عن الحجاج القادمين إلى المدينة هو الذي ميزها عن غيرها من الطوائف[1]، وحرص المماليك على حماية أولئك الرهبان وحماية من ينزل في ضيافتهم من الحجاج وجرى العرف أن يقيم في دير صهيون اثنا عشر مملوكًا بصفة دائمة[2]. ولا بد من الإشارة أن وجود هؤلاء الرهبان لم يكن وليد العصر المملوكي بل ظهر في عهد الأيوبيين. ففي سنة ٦١٨هـ/ ١٢١٩م، طلب الملك الكامل محمد من أخيه السلطان المعظم عيسى بن أحمد في دمشق أن يسمح لهم بالإقامة في مقر متواضع فوق جبل صهيون ينقطعون فيه للعبادة ولحماية الأماكن المسيحية المقدسة القائمة فوق الجبل[3].

البعد الثقافي

كان للحج دور واضح في التلاحم الثقافي بين الغرب والشرق. فمثلًا كانت كتب الرحلات نافذةً غربية على الشرق، حيث اتخذت التجربة والمشاهدة أساسا في كتابتها، وظهر العديد من كتب الرحالة الذين زاروا بيت المقدس في العصر الإسلامي الوسيط، وقدموا لنا وصفًا علميًا مهمًا عن فريضة الحج والمعالم الحضارية والمراسيم والعادات والتقاليد، واهتم العديد من الرحالة بالحديث عن بيت المقدس التي قصدوها والعجائب والغرائب والأساطير، وكرّس بعضهم الاهتمام بالمسالك والمسافات بين المدن والطرق المؤدية إلى طريق الحج، كما وصفوا المدن وساهموا في تقديم تعاريف عن الطرق ومقدار المسافات والمخاطر والعقبات التي تواجه المسافرين والحجاج.

وقد شهدت الأراضي المقدسة زيارة مجموعة كبيرة من الحجاج والرحالة الغربيين خلال فترة الحكم الفرنجي والأيوبي والمملوكي لهذه البلاد،

(١) القدس تاريخ وحضارة، ص٣٤.

(٢) علي السيد علي، القدس في عصر سلاطين المماليك، (القاهرة، دار الفكر للدراسات والترجمة، ١٩٨٦) ص٩٥.

(٣) عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ط١، (عمان، مكتبة الأندلس، ١٩٩٦م) ص٢٥٤.

ونقل لنا هؤلاء معلومات مهمة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية التي كانت سائدة في المنطقة خلال تلك الفترة، وجعل الرحالة والحجاج الغربيون جلّ اهتمامهم منصبًا على زيارة الأماكن الدينية المسيحية ووصفها كما شاهدوها على الطبيعة، ومن أبرز هذه الرحلات - بالإضافة للرحلات التي ذكرت سابقًا- رحلة جون مونديفيل سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م ورحلة حجاج من فلورنسة سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٤م[1]، ورحلة برتراند لابروكيير سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م[2]، ورحلة طافور القشتالي سنة ٨٣٨-٨٤٣هـ/ ١٤٣٥-١٤٣٩م[3]، ورحلة فرانشسكو سورياني سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م[4].

من جانب آخر نجد التأثير الثقافي بفعل الحج يصل إلى حد الموسيقى الكنائسية. فبفعل انفتاح طريق الحج بين صربيا وفلسطين تأثرت الكنيسة الصربية وطبقت المقامات الثمانية التي كانت منتشرة في سوريا[5]، ويبدو من المؤكد عدم تأثر طريق الحج بين صربيا وفلسطين خلال الفترة العثمانية حين أصبحت المنطقة كلها تحت سلطة الدولة العثمانية كان جالبًا للمزيد من التأثر الثقافي، ولكن قلة المصادر هي التي جعلت المعلومات المتوفرة متواضعة وقليلة.

---

(1) Frescobaldi and others, visit to the holy land, trans by bellorini, (jerusalem 1949).

(٢) زايد محمود، رحلة برتراندون الأبروكيير إلى فلسطين ولبنان وسوريا، مجلة أبحاث، ج٣، (بيروت، السنة ١٥، ١٩٦٢).

(٣) بيرو طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٧)

(4) Suriano, f, treatise on the holy land, trans by bellorini, (jerusalem 1949).

(٥) مداخلات عربية بلقانية، ص٢٤.

الخاتمة

بدأ الحج المسيحي إلى القدس منذ القرن الرابع الميلادي على شكل مبادرات فردية دافعها غفران الخطايا والذنوب واللهفة لرؤية الشرق الذي كان يعتبر ساحرًا في مخيلة الغربيين، ودافعها التبرك بالمكان الذي عاش فيه السيد المسيح، ولكن بعد ذلك ظهرت دوافع أخرى للحج أهمها التجارة وعقد الصفقات.

وما من شك أن هذا الحج الذي لم تقرره المسيحية على أتباعها كان ينمّ عن تقدير كبير حظيت به مدينة القدس وما جاورها في قلوب المسيحيين. ومنذ أن دخلت منطقة البلقان للمسيحية على المذهب الأرثوذكسي حرصت على بناء علاقات مع الشرق وبالتحديد مع فلسطين، فكانت الرحلات التي قام بها القديس سافا هي باكورة العلاقات البلقانية- الفلسطينية، وتأكدت هذه العلاقات مع بناء دير السرب الذي أصبح نزلًا يؤوي القادمين الذين يزيدون بشكل مستمر من منطقة البلقان، ووصلت شهرة هذا الدير إلى درجة أن أحد أبواب القدس صار اسمه باب السرب.

من المؤكد أن الحج أحد أهم أشكال التقارب الثقافي، وأنه أحد أهم الطرق التي نفذ منها البلقانيون إلى المنطقة العربية، وبفعل هذا الانفتاح نقلت الكثير من المؤثرات الثقافية، وأحسب أن ما جاء في هذه الورقة ما هو إلا محاولة لإلقاء الضوء على مجال خصب لم يأخذ حقه من الدراسة الوافية.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

١. أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط١، تحقيق يوسف علي طويل، (دمشق، دار الفكر، ١٩٨٧).

٢. أحمد بن علي المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ط١ (القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي ١٩٧١).

٣. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦).

٤. أحمد بن يحيى العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد خريسات وعصام هزايمه، (الإمارات ، مركز زايد للتراث، ٢٠٠١).

٥. بيرو طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٧).

٦. دانيال الراهب، رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي وداود أبو هدبه، ط١، (عمان، ١٩٩٢م).

٧. ابن أبى الفضائل، تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه E.Blouchet .Paris, Patrologia Orientalis, XII, XIV, XXII,1919

٨. عبدالرحمن بن محمد العليمي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، (عمان، دار المحتسب، ١٩٧٣).

٩. ناصر خسرو، سفرنامه، تحقيق يحيى الخشاب، ط٣، (بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣).

المراجع

١٠. إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الإسلام حتى بداية العهد الأموي، (عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٩٠م).

١١. إيناس حسني، التلامس الحضاري الإسلامي الأوروبي، عالم المعرفة، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة ٢٠٠٩م).

١٢. ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين، الحج أيام العثمانيين ١٥١٧-١٦٨٣م (بيروت، دار الجمل، ٢٠١٠).

١٣. جمال عبدالرحيم حسن، الحرمان الشريفان ودورهما في ألقاب سلاطين المماليك (الرياض، الندوة العالمية السابعة لتاريخ الجزيرة العربية، ٢٠١٠).

١٤. رنسيمان ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العربي، ط٢ (دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠).

١٥. زايد محمود، رحلة برتراندون الأبروكيير إلى فلسطين ولبنان وسوريا، مجلة أبحاث، ج٣، (بيروت، السنة ١٥، ١٩٦٢).

١٦. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، (بيروت، دار النهضة للطباعة، ١٩٧٢م).

١٧. عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ط١، (عمان، مكتبة الأندلس، ١٩٩٦م).

١٨. عبلة المهتدي، القدس تاريخ وحضارة، (عمان، وزارة الثقافة، الأردن ٢٠٠٩).

١٩. علي السيد علي، القدس في عصر سلاطين المماليك، (القاهرة، دار الفكر للدراسات والترجمة، ١٩٨٦).

٢٠. فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، ط١(عمان، دار الشروق، ٢٠٠٣).

٢١. محمد الأرناؤوط، كوسوفو ما بين الماضي والحاضر، ط١، (بيروت، الدار العربية للعلوم،٢٠٠٨).

٢٢. محمد الأرناؤوط، مداخلات عربية بلقانية (في التاريخ الوسيط والحديث)، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م).

٢٣. محمد حافظ النقر، التجارة الداخلية والخارجية للعالم الإسلامي، ط١، (الأردن، دار المسار، ٢٠٠٢م).

٢٤. محمود عمران، كتابات الرحالة اركولف كمصدر لبلاد الشام في عهد الراشدين، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، م٣، (عمان، الجامعة الاردنية ١٩٨٧م).

٢٥. مجيد خدوري، الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان، (بغداد، ١٩٣٩م).

٢٦. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فسطين، ج٨، ق٢، (بيروت، ١٩٧٤).

٢٧. ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، (موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م).

٢٨. نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٤٨).

٢٩. نقولا زيادة، «فيلكس فابري في فلسطين»، بحث ضمن المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام» فلسطين»، المجلد الثاني، (عمان، الجامعة الاردنية، ١٩٨٢).

٣٠. نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ج٢، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٠م).

٣١. وائل عبدالرحيم اعبيد، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، ط١، (الأردن، دار مجدلاوي، ٢٠٠٥م).

٣٢. وسام عبدالعزيز، البوسنة، الصرب، كرواتيا، قراءة في التاريخ الباكر، ط١، (القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٤م).

٣٣. يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، (دمشق، وزارة الثقافة ٢٠٠٩).

المراجع الأجنبية

1. Cross. F.L. The Oxford Dictionary of the Christian Church, (Oxford University Press, 1990).
2. Frescobaldi and others, visit to the holy land, trans by bellorini,(jerusalem 1949).
3. Issac Ben Joseph Ben Chelo, The Roads from Jerusalem Jewish Travelers in the Middle Ages.(Alken Adler, Zed N.Y.USA. 1987).
4. Joranson, f, ‹› the great german pilgrimage of 10641065-›› in the crsades and other essay, (new York 1928), p343-.
5. Runciman, S. The Pilgrimage to Palestine Before 1095 in A History of the Crusades. Ed. By Setton, Vol.5,(Pennsylvania, 1969).
6. Suriano, f, treatise on the holy land, trans by bellorini, jerusalem 1949.
7. Willian of tyre , a history of deeds done beyond the sea, 2 vols. Trans by babcock, e, octagon books, (new York , 1976).
8. Cf. Introduction of the Piligrimage of Joannes Phocas in the Holyland, Translated by Aubrey Stewart,(London, 1889).
9. Cf. Introduction of Burchard ofMount sion, , Translated by Aubrey Stewart, (London, 1889).
10. Cf. Introduction of the Piligrimage of Saewulf to Jerusalem and the Holyland, (Lodon, by Canon Brownlow, 1892).

العلاقات بين المغرب ودوبروفنيك
وردود الفعل العثمانية

عبدالرحيم بنحادة[1]

ارتبط المغرب بعلاقات وطيدة ومكثفة مع الدولة العثمانية خلال القرن الثامن عشرن وتبادل الطرفان المراسلات والبعثات، وجلّ هذه المراسلات محفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول، كما إن المبعوثين المغاربة كانوا موضعًا لعدد كبير من السجلات والدفاتر في الإدارة العثمانية، وبعضهم ترك أوصافًا للبلاد العثمانية التي زارها. وقد عكست هذه المراسلات وتقارير المبعوثين إرهاصات «اتحاد إسلامي» غير أن كل ذلك لم يستطع أن يخفي وجها آخر لتلك العلاقات وهو ما سميناه بالصراع الهادئ بين دولة الخلافة العثمانية والمغرب. وقد كانت دوبروفنيك[2]، بحكم موقعها الجغرافي وخصوصية علاقتها بالدولة العثمانية جزءا من هذا الصراع الهادئ.

تقع دوبروفنيك على البحر الأدرياتيكي جنوبي دالماسيا، أُسّست في أواسط القرن السابع الميلادي. وقد أصبحت هذه المدينة مركزًا تجاريًا كبيرًا يؤمه التجار والسفن من مختلف بلدان العالم.

---

(١) مؤرخ مغربي، العميد المشارك لمعهد الدوحة للدراسات العليا.

(٢) سميت دوبروفنيك في الوثائق التي اعتمد عليها البحث تسميات متعددة فتارة نجد الدوبره أو الظوبره وتارة أخرى دوبره بنديق وتارة ثالثة راكوزه أو الراكوزين.

وقد كانت منذ زمن تأسيسها جمهورية مستقلة يحكمها ديوان منتخب من كبار الأسر بها، لكنها ونتيجة لموقعها الجغرافي خضعت دوبروفنيك خلال تاريخها للقوى التالية:

- البيزنطيون منذ تأسيسها إلى سنة ١٢٠٥.
- البنادقة من ١٢٠٥ إلى سنة ١٣٥٨.
- الهابسبورغ من سنة ١٣٥٨ إلى سنة ١٥٢٠.
- العثمانيون من سنة ١٥٢٠ إلى ١٨٠٦.

وبالرغم من خضوعها للدولة العثمانية مدة زمنية تقارب ٣٠٠ سنة إلا أن دوبروفنيك ظلت تحتفظ بديانتها (المسيحية)، نتيجة لطبيعة الوجود في شبه جزيرة البلقان عامة.

وقد كانت دوبروفنيك ترتبط بعلاقات مع كل البلدان التي كان لها حضور في عالم البحر الأبيض المتوسط، مسيحية كانت أو إسلامية، فكانت مركزًا لتجميع المعلومات وإعادة توزيعها ومحطة استخباراتية رائدة تضاهي على هذا المستوى الدور الذي كان للبندقية في علاقاتها بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي.. ولذلك حفظ لنا أرشيفها تراثًا مهمًا لا يمكن الاستغناء عنه في كتابة تاريخ هذه العلاقات، وتاريخ منطقة شبه جزيرة البلقان بشكل عام. وبالإضافة إلى آلاف الوثائق التركية التي يحفظها الأرشيف توجد وثائق عربية أجنبية غاية في الأهمية.

على أن ما يهمنا في هذا المقام هو التعريف بالوثائق المتعلقة بالمغرب التي يحفظها هذا الأرشيف، وقراءتها في إطار ما توصلنا إليه من وثائق أثناء اشتغالنا بأرشيف رئاسة الوزراء في إستانبول(Başbakanlik arşiui)[1].

---

(١) عثرنا أثناء أشتغالنا بأرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول على وثائق تهم هذا الموضوع. ويوجد معظم هذه الوثائق موزعًا على تصنيفين وهما وثائق الخط الهمايوني H.H ودفاتر نامه همايون NHD. ينظر: بنحادة عبدالرحيم، المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي، زغوان – تونس ١٩٩٨.

وتجدر الإشارة إلى بعض الوثائق العربية في أرشيف دوبروفنيك، سبق نشرها وترجمتها إلى الصربية الكرواتية مرتين:

- الأولى سنة ١٩٦٠ حيث نشرها بسيم قورقوت Besim Korkut تحت عنوان «الوثائق العربية في أرشيف دوبروفنيك»[1].

- الثانية سنة ١٩٦٢ حيث أعاد نشر بعض منها في وثائق أخرى فهيم بايراكتاروفيتش Fehim Bajaktarviç[2].

وتعود هذه الوثائق كلها إلى نهاية القرن الثامن عشر ويمكن أن نصنّفها كما يلي:

١. مراسيم سلطانية مغربية وعددها ستة.

٢. رسائل سلطانية موجهة إلى ديوان دوبره وعددها سبعة.

٣. رسائل متبادلة بين الصدر الأعظم العثماني سلحدار محمد باشا (أكتوبر ١٧٧٠- دجنبر ١٧٧١) والوزير المغربي محمد بن أحمد الدكالي بشأن قضايا تهم دوبروفنيك.

٤. رسائل السفير المغربي محمد بن عثمان المكناسي.

٥. رسائل وجهها باي تونس إلى العاهل المغربي سيدي محمد بن عبد الله.

٦. أحكام وشهادات شرعية من ولايات الشمال الإفريقي العثماني.

فما هي المواضيع التي طرقتها هذه الوثائق؟

---

(1) Besim KORKUT, Arapski dokumenti u drazavnom arhivu u Dubrovniku, 2 vol, Sarajevo, 1960.

(2) Fehim BAJRAKTAREVIC, Les Documents arabes Aux Archives D›Etat à Dubrovnik Publication de L›Académie Serbe des sciences et des Arts, Beograd 1962.

وصدرت مؤخرًا في طبعة عربية: بسيم قرقوت، الوثائق العربية في دار المحفوظات بمدينة دوبروفنيك، أعدّ الطبعة العربية وقدّم لها محمد الأرناؤوط، القاهرة (المجلس الأعلى للثقافة)، ٢٠٠٨.

لقد كانت قضية نقل الحجاج المغاربة من بين أهم المواضيع التي تناولتها هذه الوثائق، إذ تعوّد الحجاج على ركوب سفن من ميناء الإسكندرية عند عودتهم إلى المغرب. وكان أهم مشكل يواجه الحجاج المغاربة هو أن السفن التي كانت تنقلهم تتخلى عنهم في مكان ما، ويظهر من خلال الكتابات المتعلقة بالفترة- خاصة هوست القنصل الدنماركي- أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله عندما كثرت هذه المشاكل قام بتوجيه احتجاجات لجميع القناصل الأوروبيين المقيمين بالمغرب. ونفس الاحتجاج عبّر عنه سيدي محمد بن عبد الله في رسالة موجهة إلى ديوان دوبروفنيك بتاريخ ١٠ مايو ١٧٨٠، ومن ضمن ما ورد في هذه الرسالة طلب العاهل المغربي أن يوصل الحجاج إلى «مراسي الإيالة الشريفة»[١]، وقد ترتب عن هذا التوتر أن قامت سفن مغربية باحتجاز سفن راكوزية وأسر ما يزيد عن ستة عشر فردًا.

وقد دفع هذا الأمر ديوان دوبروفنيك بتوجيه شكوى إلى الباب العالي، ويظهر أن الشكوى لقيت آذانًا صاغية. فقد حفظ أرشيف رئاسة الوزراء رسالة من السلطان العثماني مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٤) إلى سيدي محمد بن عبد الله بتاريخ أوائل ربيع الأول ١١٨٠/ أوائل اوغسطس ١٧٦٦، كان موضوعها تخلية سبيل ١٦ شخصًا من طائفة دوبروفنيك[٢]. ويبدو أن الوساطة العثمانية قد أفلحت أيضًا في إقناع العاهل المغربي بتغيير سلوكه إزاء دوبروفنيك.

غير أن قضية نقل الحجاج سرعان ما عاودت الظهور ما بين ١١٩١ و١١٩٤هـ (١٧٧٧- ١٧٧٩م) ففي سنة ١١٩١ هـ/ ١٧٧٧ م حملت إحدى السفن الحجاج المغاربة من أهل سلا وتطوان من ميناء الإسكندرية. وفي سنة ١١٩٣ و١١٩٤ أنزل بعض رؤساء السفن الحجاج المغاربة في سوسة وصفاقس وفروا منهم دون أن يوصلوهم إلى المراسي المغربية. ولما بلغ الأمر إلى العاهل المغربي سيدي محمد بن عبد الله استشاط غضبًا وأمر مراكبه الجهادية بإلقاء القبض على كل سفن راكوزة «وأمرنا مراكبنا أن يقبضوهم»[٣]، ولما وقع أول

(1) KORKUT, 40 - 42.
(2) 542 NHD 8.
(3) BAJATARAVIC, 57.

مركب راكوزي في الأسر من قبل المراكب الجهادية المغربية استعمل ديوان دوبروفنيك كل حنكته الديبلوماسية.

فقد تدخل الباب العالي ثانية لطلب الصفح، غير أن الرسالة التي بعث بها سلحدار باشا إلى العاهل المغربي كانت مكتوبة باللغة التركية، مما جعل أحمد ابن محمد الدكالي يرد برسالة حفظها أرشيف دوبروفنيك، فوقعت الاتصالات هذه المرة عبر تونس التي كانت تربطها علاقات وطيدة مع الطرفين، وعبر قنصل دوبروفنيك في قادس[1].

وكتب باي تونس إلى العاهل المغربي في هذا الشأن بتاريخ أوائل صفر ١١٩٤/ ١٦ فبراير ١٧٨٠: «فقد بلغنا من حاكم الدوبره راكوزين رعاكم الله أنكم عاتبتموه لما أن طرق إلى سمعكم الشريف من أن مركب من جنسه حملت ركابًا مغاربة حجاج من إسكندرية ووضعهم في البر بساحتنا.. ولو بلغنا خبر هذا الواقع وصدوره من رايس المركب لمنعناه وجزرناه على فعله.. وأعلمنا بأمر الدوبره حضرة مولانا السلطان العثماني نصره الله تعالى وعرفنا بواقعهم مع حجاج بيت الله الحرام...»[2].

كما استطاع الراكوزيون الحصول على إشهاد موقع من قبل وجهاء تونس من بينهم شيخ المغاربة، وقد شهدوا أن المركب الذي كان يحمل الحجاج المغاربة من أهل سلا وتطوان بتونس من غير رضاهم كان فرنسيًا ورئيسه فرنسي وليس من دوبروفنيك، وكذلك حصلوا على شهادة من وجهاء الجزائر تبيّن حسن سلوك مراكب الدوبره مع المسلمين، وتقول هذه الشهادة «يشهد جماعة المسلمين أهل الجزائر الواضعين اسمهم عقب تاريخ شهادة تامة أنهم سافروا مع مراكب الدوبره إلى بر الترك وإلى تونس وإلى إسكندرية... فنظروا أن جنس الدوبره يفعل الإحسان مع المسلمين في مراكبهم من أهل الشرق وأهل المغرب ويجعلونهم معززين مكرمين..»[3].

---

(1) KORKUT, 21.
(2) KORKUT, 28 - 30.
(3) BAJATARAVIC, 51 - 52.

وقد حمل هذه الرسائل كلها السفير الراكوزي الخاص انطونيو كازلاري Antonio Kizlari، ولما وصل إلى المغرب بعث برسالة إلى السلطان المغربي للحصول على الإذن بالمثول بين يديه. وقد استطاع سفير راكوز انطونيو كازالاري مع القنصل في قادس كارلو ماريا (Carlo Maria) الحصول على أمر بإيقاف الحرب على السفن الراكوزية، وهو الأمر الذي بدا واضحًا في الرسالة التي بعث بها السلطان سيدي محمد بن عبدالله إلى ديوان دوبره يخبرهم فيها أنه سامحهم وأنه معهم على الصلح والمهادنة.

غير أنه لم تمض سوى بضعة شهور حتى عادت السفن إلى سابق تصرفها مع الحجاج المغاربة. فبعث السلطان العلوي سفيره مكي بركاش مع رسالة تقول «أنكم نقضتم العهد مع الدوبره بسبب ما ذكرتم»[١]. ويبدو أن وساطة باي تونس للتشفع عبر رسالة[٢] طويلة إلى العاهل آتت أكلها، كما أفلحت مساعي قنصل الجهورية في قادس -كارلو مارية- في إقناع السلطان المغربي بالصلح. غير أن سلطان المغرب اشترط على الجمهورية أن تبعث له سفينة في وسقها ألف قنطار «يأتيه كل سنة في المصيف يخدم عنده ستة أشهر»[٣].

ويظهر أن هذا الإجراء لم يرق الإدارة العثمانية ولا الجمهورية وهو الأمر الذي دفع بالسلطان العثماني إلى توجيه رسالة إلى سيدي محمد بن عبد الله بتاريخ ذو القعدة ١١٩٥ (أكتوبر ١٧٨١) يعيب عليه فيها شروطه: «وأما مسألة السفينة التي طلبتموها منهم للخدمة في كل سنة فليس هذا بشيء بين

(1) KORKUT, 31.

(٢) تحمل الرسالة تاريخ أواخر صفر الخير ١١٩٥/ أواخر فبراير ١٧٨١.
KORKUT, 46 - 50

(٣) يقول نص الرسالة: «وقد صفا خاطرنا الشريف عليكم ونحن معكم على المهادنة والصلح التام وجعلناكم تحت أماننا وكما أنكم تحت أمان السلطان العثماني. وقد ألزمناكم أن تبعثوا لنا شيطية تحمل في وسقها ألف قنطا تأتينا كل سنة وقت المصيف وتخدم عندنا ستة أشهر وترجع لموضعها في العام المقابل إن شاء الله...
KORKUT, 52.

الملوك في الممالك الشرقية قاعدة معتبرة من أظهر الرضاء لتغييرها يلحقه نقصة الشأن والعيب، فتلك القاعدة اختصاص تابعيهم في مثل هذه الخدمات لمن تبعوه ومتى أمرهم أحد من الملوك غير مخدومهم ومتبوعهم بشيء قليلًا كان أو كثيرًا يعدّون هذا الأمر كأنه ادعى تصحبهم وحكم عليهم حكم الرعية وأخرج رقبتهم من ربقة أطاعت (كذا) صاحبهم. فذاك المطلب يورث الشين إلينا وأنتم أجدر بصيانة ناموسنا من الأغيار ولا تجوزون سقوط غبار النقص على ذيل فخارنا عند الكبار والصغار ونحن متوجهون إليكم ظاهرًا وباطنًا، ونراعي حقوق جدودنا وجدودكم جليًا، ويجب في آخر الزمان اتحاد الموحدين خصوصًا تعاون سلاطين المسلمين شرقًا وغربًا وتوجه قلوبهم في كل حال بعدًا وقربًا...»[1].

ويظهر أن هذه الرسالة تشكّل نشزًا داخل الرسائل التي تبادلها الطرفان العثماني والمغربي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فهي عبارة عن عتاب لسلوك مغربي مسّ الدولة العثمانية في كيانها. فمطالبة دوبروفنيك بالسفن يعتبر من قبيل «إلغاء» تبعيتهم للدولة العثمانية وتجاهلها، وهي بالإضافة إلى ذلك تذكير للعاهل المغربي بحدود الصداقة وبواجباته اتجاه دولة الخلافة.

لم يكن أمام سيدي محمد بن عبد الله سوى أن استجاب لطلب الباب العالي، إذ بعث الوزير محمد بن أحمد الدكالي إلى الصدر الأعظم رسالة تحمل تاريخ ١٢ ربيع الأول ١١٩٧ /١٥ فبراير ١٧٨٣ يقول فيها:

«لقد بلغ مسطوركم سيدنا ومولانا أمير المؤمنين... متضمنًا لمصلحة أمر جمهور دوبروفنيك وحصل لمولانا المنصور بالله العلم بمضمضة بعد أن قدّمنا لأعتابه الشريفة... يذكر فيه لمولانا أيده الله أمر طائفة دوبروفنيك أنهم تحت حمايته ومستظلين تحت ظله.. فأعفا... طائفة دوبروفنيك من جميع ما شقّ عليهم وصعب من السفينة التي أمرهم بإتيانها لمراسيه السعيدة عن

(1) NHDg, 117.

كل سنة، وأسقطها عنهم وجعل لهم.. ما طلبوه من حمل المسلمين الحجاج في مراكبهم من أي مرسة أرادوا وينزلوهم في أي مرسة أرادوا، وأنعم عليهم مولانا وميّزهم وأكرمهم لوجه السلطان الأعظم والخاقان الأفخم ملك المملكة العثمانية بأن أسقط في مراكبهم واجب المخطاف أينما نزلوا وحلوا في جميع مراسيه... وأسقط على جميع مراكبهم وسفنهم نزول الفلائك لمراكبه السعيدة. ولا يجعلون في مراكبهم سوى سنجق ملك المملكة العثمانية.. وقد أمر نصره الله جميع خدامه في جميع مراسيه أن يميّزوا كل مركب ورد من دوبروفنيك على غيره من أجناس النصارى»[1].

ومنذ ذلك الحين عرفت العلاقات بين دوبروفنيك والمغرب تحسنًا ملحوظًا، ويظهر ذلك في الرسالة التي وجهها ابن عثمان إلى ديوان دوبروفنيك بتاريخ ١٥ جمادى الأولى ١٨/ ١١٩٧ أبريل ١٧٨٣، يثني فيها على قبطان السفينة التي حملته من نابل، يقول ابن عثمان: «ساعفنا في جميع مرادنا.. وجعل لكم بهذه الخدمة التي خدمنا عند سيدنا نصره الله منزلة كبيرة ومحبة كثيرة على كل الأجناس»[2].

بيد أن العلاقات عرفت توترًا في الفترات اللاحقة، فعندما تولى المولى اليزيد الحكم (١٧٩٠-١٧٩٢) بعث إلى ديوان دوبروفنيك بتاريخ منتصف شعبان ١٢٠٤/ ٣٠ أبريل ١٧٩٠، ينعى الراحل سيدي محمد بن عبد الله ويلح على إرسال سفير «لنتكلمو (كذا) معه في بعض الأمور»[3]. وربما كانت هذه الأمور كما يظهر من خلال الوثائق العثمانية السفن الخمس التي طلبها المولى اليزيد...

ويظهر من خلال الوثائق أن ديوان دوبروفنيك حاول تجاوز هذه الأزمة عبر:

---

(1) KORKUT, 55 - 59.
(2) KORKUT, 60.
(3) KORKUT, 66.

أولًا: استغلال وساطة الدولة العثمانية حيث تشير وثائق أرشيف رئاسة الوزراء في إستانبول إلى أن البادشاه تدخل فعلًا فطلب من المولى اليزيد العدول عن طلبه(١).

ثانيًا: في الرسالة التي حملها السفير جياكمولوقا ابـن جواني كيزلاري(٢)، ولا تفصح الرسالة عن الأسباب التي دفعت راكوزة إلى الامتناع حيث أوكلت إلى السفير مهمة إقناع السلطان. لكن الرسالة على ما يبدو لم تصل إلى المولى اليزيد لأنه توفي وعاد السفير على أعقابه إلى بلده.

وتظهر هذه الوثائق أيضًا أن العلاقات بين دوبروفنيك والمغرب قد استمرت متوترة على عهد السلطان المولى سليمان. فعندما اشتكى جول كول ادوبرفنيكي من إيقافه بمركبه في ثغر الصويرة، كان رد السلطان الشخصي سريعًا حيث كتب إليه قائلًا: «إننا لم نقصد بذلك الإضرار ولا قصدنا مركبك بعينه ولكن لنا عوائد على جنسك، وكانوا مستلزمين بها لسيدنا والدنا رحمه الله وذلك أنهم استلزموا بإعطاء المراكب التي يحتاجها لبعض أغراضه ومآربه ومركبك هذا من ذلك..»(٣).

---

(١) وجه السلطان العثماني رسالة إلى المولى اليزيد تحمل تاريخ أواخر محرم ١٢٠٦/ شتنبر ١٧٩٠، ومن بين ما ورد في هذه الرسالة «فالمأمول من سجيتكم الرضية والمسؤول (كذا) من شيمكم المرتضوية أن ينظر إليهم بعين العناية والرعاية وأن لا يطلب السفاين للخدمة كل سنة لأنهم قوم ضعفاء وعتبتنا السلطانية الملتجأ وتعيشهم بتجارة السفاين مقصودة وتحصيل معاشهم الضروري وتكميل انعاشهم المعنوي والصوري بذلك محصورة..». NHD: 73-74
ويعود الديوان العثماني إلى نفس الموضوع في رسالة مطولة حملت تعزية في وفاة السلطان سيدي محمد بن عبدالله.

(٢) مما ورد في هذه الرسالة التي تحمل تاريخ ٦ نونبر ١٧٩١: «تعفوا عنا وتتنازلوا عما أمرتم لنا بواسطة ابن بطرس إليا براتيك من إرسال الخمسة مراكب إلى اساكلاتكم (ويعني مراسيكم) المحروسة فمن جهة هذه الطلبة يشرح لجنابكم الشريفة بالتفصيل ويبرهن أمام سيادتكم العلية الأسباب الموجبة لعجزنا عن ذلك مرسلنا جيكموا كيزلاري. متوسلين ومتضرعين بكل خضوع لقدرتكم السامية الجليلة أن يكون من عطف أنظاركم الشريفة (كذا) على عبدكم.. وأن تعيلوا أذنكم الحليمة لاستماع ما يخضعه تحت أقدامكم المحترمة من طرفنا وباسمنا خاصة...».

(3) BAJAKTARAVIC, 139.

لن نقف عند تحليل هذه الوثيقة وما ترمز إليه في التاريخ الدبلوماسي المغربي، لنشير بسرعة إلى أن الوثائق التي نحن بصددها تشير إلى أن المولى سليمان أصدر أوامره سنة ١٢١٠ باحتجاز كل السفن المسيحية، وقد حدث أن وقعت إحدى السفن الراكوزية ببحارتها ومتاعها. ومرة أخرى لجأ ديوان الدوبره إلى الباب العالي حيث حمل السفير بطرس براتيتش رسائل من السلطان العثماني سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) وقد أفلحت المساعي العثمانية، إذ نجد ضمن هذه الوثاق رسالة من المولى سليمان إلى رئيس ديوان الجمهورية بتاريخ ١٣ محرم ١٢١٠/ يوليوز ١٧٩٥ يقول فيها: «فإنه ورد علينا رسولكم، في شأن مركبكم... وتفاصلنا معه في جميع ما كان فيه رعيًا لسابق معرفتكم بسيدنا الوالد..»[1].

هذه مجمل القضايا التي تثيرها الوثائق المتعلقة بعلاقات المغرب بدوبروفنيك التي تكتسي في نظرنا أهمية خاصة لسببين:

أنها علاقات تربط المغرب ببلد مسيحي لكنها تختلف عن علاقاته مع إسبانيا أو فرنسا، فهي لا تحكمها علاقات دار الحرب بدار الإسلام، باعتباره بلدًا تابعًا للدولة العثمانية.

إن هذه العلاقات خضعت لطبيعة العلاقات السائدة بين المغرب والدولة العثمانية حيث تتبعت من منحنياتها، وعكس السلوك المغربي اتجاه دوبروفنيك مستوى العلاقات بين المغرب والباب العالي.

(1) KORKUT, 75.

أحمد باشا الجزار
من البوسنة إلى فلسطين

صالح علي الشورة[1]

مقدمة

إن الحديث في الفترة التاريخية التي عاشها الجزار في المنطقة العربية هي ليست لجاجة مضنية من حيث إنها انعكاس لفكرة قبول الآخر المصحوب بالأمر السلطاني لدى الإنسان العربي. وهو الأمر ذاته الذي هيّأ للجزار القادم من البوسنة أن يتربّع على عرش بلاد الشام ردحًا من الزمن. وصل أحمد باشا البشناقي نابتًا طريًا إلى المنطقة العربية مغامرًا غريبًا عنها، وتمكن من الوصول إلى ذروة سنام الحكم فيها، وهذا يصب في فكرة الاجتهاد والنصيب، وبتعبير أدق، فكرة التعايش والقبول من أبناء الأرض التي ألقت بظلالها على أبناء المنطقة منذ زمن بعيد، والتي يتقدم فيها الدين والمعتقد على الجذر والعنصر. تمكّن الجزار في فترة بسيطة من السيطرة على بلاد الشام واتخذ من عكا المدينة المحصّنة مركزًا لحكمه، ولم تخامره الهواجس بأنه قادر على هزيمة الغازي الطامح نابليون بونابرت أمام أسوارها، وهذا ما تمّ له فعلًا، فعادت الحملة خائبة هائمة على وجهها، مما دفع الغازي إلى الإسراع في لملمة شعثه والعودة باكرًا إلى فرنسا، فارتفعت أسهم الجزار في البلاط العثماني الذي أنعم عليه بألقاب كثيرة، لكن الأجل كان أسرع.

---

(١) رئيس قسم العلوم الإنسانية في جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن.

المولد والنشأة

ولد الجزار سنة ١٧٣٩ كما يرى الجبرتي والشهابي والبيطار[١] في البوسنة[٢] كما هو شائع[٣] لذلك أطلق بعض المؤرخين عليه لقب أحمد البشناقي[٤]. أقدم الجزار في سنة ١٧٥٦ على اقتراف جرم لم تحدد المصادر كنهه في مدينته تسبَّب في تركه إياها، وكان طفلًا لم تجر عليه المواسي بعد، وتمكن من التسلل إلى إحدى السفن العثمانية في حنادس الليل. وهناك انخرط في سلك البحرية العثمانية، ولكن بسبب عدم تقبله من البحارة ترك هذا العمل بعد عدة شهور، واتصل بدائرة علي باشا حكيم والي مصر سَنة ١٧٥٧، فأسلم هناك وسمّى نفسه أحمد. نشأت صداقة بينه وبين أحد مماليك علي باشا يدعى عبدالله بك فدخل في خدمته الذي علّمه بعضًا من شؤون الفروسية[٥]. تمكّن الجزار من التدرّج في الوظائف في مصر وكانت المخاطر تحفّ حياته منذ وصوله إليها بسبب كثرة الطامعين في الحكم. وبدأت تجربته الفعلية في مصر، حينما تولى كشوفية البحيرة ليقتل من أهلها عددًا كبيرًا انتقامًا لمقتل سيده عبد الله بك، الذي أوصاه بالانتقام له وهو في أنفاسه الأخيرة. ويرصد الجبرتي هذا المشهد بالقول: «أمره عبد الله بك أن ينتقم من الذين قتلوه... فقتل

---

(١) عبدالرحمن الجبرتي، (ت١٢٤١هـ/ ١٨٢٥)- تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ط٣، ٤ مج، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٨م. ص٤٧؛ حيدر الشهابي، (ت ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م)- تاريخ أحمد باشا الجزار، نشره ووضع حواشيه أنطونيوس شبلي وانطانيوس عبده خليفة، بيروت، مكتبة أنطوان، ١٩٥٤م ص٣٧؛ عبدالرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ٢ج، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٩٦١، ص١٢٩.

(٢) كانت البوسنة ولاية من ولايات الدولة العثمانية حين ولادته، وقد بقيت كذلك إلى الاحتلال النمساوي لها في ١٨٧٨، ومن ثم أصبحت جزءًا من يوغسلافيا في ١٩١٨م إلى أن استقلت عام ١٩٩٢.

(3) Huart, Djazzar Pasha. E.I.P. 1033.

(٤) ياسين السويد، التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، ٢ج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥م ص٨٢.

(٥) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، ص٤٧-٤٨.

واحدًا وسبعين من كبارهم»[1]، وهذا ما أعطاه لقب الجزار الذي رافقه حتى مثواه الأخير. تمكّن علي بك من السيطرة على مقاليد الحكم في مصر سيطرة تامة، فأعلن التمرد على الدولة العثمانية وقام بطرد عثمان باشا الكلحي الوالي العثماني المبعوث من قبل الباب العالي، وهذا تطلب منه أن يجمع إليه أكبر عدد ممكن من الرجال الذين يثق بهم، ويعمل على التخلص من منافسيه في السلطة، والموالين للباب العالي. فعزم على القضاء على شريكه في الأحكام والتدابير، وهو صالح بك لكونه لم يكن راضيًا بإجراءاته[2]. وقد طُلب من الجزار القيام بهذه المهمة، ولكن هذا الطلب كان صعبًا على الجزار لما بينه وبين هذا الرجل من محبة ووعود، فاعتذر لعلي بك بأنه متآخ مع صالح بك، وبهذا تقرر مصير الاثنين معًا[3]. فتمكّن علي بك من قتل صالح بك، وتمكّن الجزار التخفي بزي مغربي والفرار إلى بولاق، ومنها سافر إلى الإسكندرية، وبعد ذلك ركب البحر إلى إستانبول سنة ١٧٧٠م[4].

إن بعضًا من التكوينات السياسية لدى الجزار، قد تشكّلت في مصر خلال هذه الفترة، أو خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فمن خلال الصراع الدموي الذي كان يشارك فيه أو يبيع جهده للمشتري خلاله، وطوال فترة امتدت حتى سنة ١٧٧٠م، تشكّلت شخصية الجزار الطموحة السياسية، وتشرّب أحوال مصر جيدًا، فأتقن أسرار اللعبة السياسية فيها، وتمرّس بقوانينها، وكان قريبًا من مواقع صنع القرار السياسي. ولم يكن الذكاء ودقة التدبير والحذق تنقص الجزار على الإطلاق، ولهذا عندما اضطر للفرار من مصر على إثر خلافه مع مماليكها كان بحوزته رصيد طيب ووافر من المعلومات والخطط التي مكّنته من الوصول إلى السلطة في بلاد الشام.

---

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، ص٤٨.

(٢) تاريخ أحمد باشا الجزار، ص٤١؛ جودت، أحمد (ت ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م)- تاريخ جودت، ١مج، ترجمة عبدالقادر الدنا، بيروت، مطبعة جريدة، ١٨٩٠م، ص٣٤٦.

(٣) تاريخ أحمد باشا الجزار، ص٣٥.

(٤) تاريخ أحمد باشا الجزار، ص٤١.

انتقال الجزار إلى بلاد الشام

تمكّن الجزار من الفرار إلى إستانبول وهناك تقرّب من السلطان العثماني وحاشيته، فاكتسب فكرة جيدة عن خبايا السرايا، وبعض الشيء من أسرار السياسة العثمانية، فرحل الجزار إلى الشام[١]، ومنها إلى طرابلس، ثم انتقل إلى بيروت[٢]. عندما وصل الجزار إلى بيروت في كانون الأول ١٧٧٠م، توجه إلى دير القمر[٣]، وكان المتولي لحكم جبل الدروز، في هذه الفترة، هو الأمير يوسف الشهابي، واستطاع الجزار أن يستحوذ على قلب الأمير، فعيّنه هذا في حاشيته، وحدّد له نفقة من جمرك بيروت[٤].

اكتسب الجزار شهرة واسعة، وزاد إعجاب الأمير يوسف به، واتضحت قدرة الجزار القتالية، ومهارته في التخلص من المآزق، والمواقف الصعبة[٥]. فقرَّر الأمير أن ينقل ثروته إلى بيروت، وأن يضع عليها قائدًا يثق به، فاختار الجزار لهذه المهمة[٦]، وعيّن له ثمانمائة (٨٠٠) رجل من الأتراك والمغاربة[٧]. بقي الجزار وحده في بيروت، ونال بوساطة الأمير يوسف لقب «القائد الأعلى» وأغلق المدينة، حيث كانت هذه الفرصة التي ينتظرها[٨]. اهتم الجزار بترميم أسوار المدينة، وبناء أبراجها، وتجديد قلاعها، وهدم قصور الأمراء، كي يستخدم موادها

(١) الشماس انطونيوس، العينطوريني، مختصر تاريخ جبل لبنان، المشرق، مج١، بيروت، ١٩٥٢م، ص٥٢٩.
(٢) مختصر تاريخ جبل لبنان، ص٥٢٩.
(٣) أنطوان المحامي، رواية جديدة عن حياة الجزار، أوراق لبنانية، ج٤، ع٢، ١٩٥٦م، ص٦٥.
(٤) حلية البشر، ص١٢٩؛ ناجي حبيب مخوّل، عكا وقراها منذ أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر، ط١، ٢ج، عكا، مكتبة الأسوار، ١٩٧٩م، ص٧٧.
(٥) قسطنطين بازيلي (ت١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م)، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق ومعراني، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٩م، ص٦١.
(٦) تاريخ أحمد باشا الجزار، ص٥٠.
(٧) منير وعادل إسماعيل، الصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق الدبلوماسية)، ١٥ مج، بيروت، دار النشر للسياسة والتاريخ، ١٩٩٠م، ص١١٣.
(٨) ادوار لوكروى، الجزار قاهر نابليون، ترجمة جورج مرة، بيروت، دار الثقافة، بيروت، ص٥٨.

للتحصينات[1]. وعندما سمع الأمير يوسف بهذه الإجراءات، غضب وطلب من الجزار أن يترك بيروت ويعود إلى الشام، إلا أن الجزار رفض هذا الأمر، وتمرد على الأمير يوسف[2]. وأغدق الجزار على الجنود المغامرين الذين تجمعوا من حوله من كل أنحاء سوريا، ليضمن ولاءهم ومساندتهم له في غايته[3].

حصّن الجزار المدينة تحصينًا كاملًا وأظهر العصيان. وفي غضون هذه الأحداث، وصل مركب لبيروت فيه حرير بمقدار أربعمائة (٤٠٠) كيس ذهب فضبطها الجزار، وبدأ في استخدامها كرشاوٍ لبعض أمراء ومشايخ الجبل، كي لا يعينوا الأمير يوسف عليه. فقدم الأمير يوسف بجيشه، وضرب حصارًا على بيروت، وحارب الجزار، فكاد الجزار أن ينتصر عليه، إلا أن الأمير يوسف، انسحب في الوقت المناسب[4].

طلب الأمير يوسف من عدوه السابق الشيخ ظاهر العمر المساعدة من الحامية الروسية، المرابطة في البحر المتوسط[5]، حيث إنه مرتبط مع الروس بصداقة ومعاهدات. وعندما حضر الروس، وأحضروا عدة مراكب، وبأحجام متعددة، حاصروا بيروت في ٩ تموز ١٧٧٣م، بقيادة كوزاكوف Kozakoff، الذي عهد إليه بإدارة الحملة[6].

عمـل الروس للحيـلولة دون هرب الجزار من بيروت حاملًا غنائمه معه[7]، وهم بذلك طرحوا فكرة عملهم المناهض للدولة العثمانية، واكتفوا

---

(١) بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٦١.

(٢) تاريخ أحمد باشا الجزار، ص٥٢؛ مختصر تاريخ جبل لبنان، الشرق، مج٥، ص٥٢٩.

(٣) الجزار قاهر نابليون، ص٦٧؛ سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني ص٦٢.

(٤) حنانيا المنير (ت ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م)، الدر الموصوف في تاريخ الشوف، تعليل ونشر الأب اغناطيوس سركيس، طرابلس، منشورات جروس برس، ب.ت، ص٣٦٨؛ الجزار قاهر نابليون، ص٧٣.

(٥) إبراهيم العورة (ت بعد ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م)، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل نشر وتعليق الخوري قسطنطين المخلصي، صيدا، مطبعة دير المخلص، ١٩٣٦م، ص٥.

(٦) الجزار قاهر نابليون، ص٧٤.

(٧) الصراع الدولي حول المشرق العربي(الوثائق)، ق١، ج١، ص٥٨.

بطلب الأجر مقابل الحرب، لا الأطماع السياسية والإقليمية في الاستيلاء على بيروت.

بدأ الروس يضربون المدينة بالمدافع من البحر في اليوم الثالث من وصولهم إليها، في حين أن المتاولة[1] والدروز، كانوا يطوقون المدينة من ناحية البر[2]. وقصف الروس أحياء المدينة بشدة وعنف، وقد بلغت طلقاتهم خلال أربع وعشرين ساعة، من ثلاثة إلى أربعة آلاف (٣,٠٠٠ - ٤,٠٠٠) قذيفة مدفع، وكان رد حامية المدينة ضعيفًا[3].

اعتمد الجزار كثيرًا على القوات المرتزقة التي توافرت لديه لمحاربة الروس، فكان عدد الجيش الموجود في بيروت، يتراوح بين اثني عشر إلى خمسة عشر ألف (١٢,٠٠٠-١٥,٠٠٠) مقاتل تركي، إضافة إلى جنود مغاربة يتراوح عددهم بين خمسمائة إلى ستمائة جندي[4]. وبعد عشرة أشهر على إعلان الجزار لاستقلاله ببيروت اضطر المحاصرون إلى أكل الدواب، والكلاب لقلة الموارد[5]. عرض الجزار الصلح، وعرض خدماته، وطلب الأمان له ولمن معه، وأن لا يعاقبوا أهل بيروت بعد خروجه منها، وأن يسلّم نفسه للشيخ ظاهر العمر، فوافقوا على ذلك. ويعلّق قنصل فرنسا «دي توليس De Taules في ذلك الحين على هذه النتيجة بالقول: «لم يكن صمود الجزار في الدفاع، إلا بسبب ضعف الهجوم، ولم يضع نفسه بين يدي الشيخ ظاهر، إلا بسبب فقدان المؤن لديه»[6]. وقد بدا هذا واضحًا من خلال مقاومة الجزار

---

(١) هي جمع متوالي، على غير قياس، مشتقة من تولي، أي اتخذ وليًا ومتبوعًا من ولائهم لأهل البيت النبوي الشريف، (متوليًا لعلي) أنظر أحمد رضا- المتاولة أو الشيعة في جبل عامل، المقتطف، مج٣٦، القاهرة، ١٩١٠م.

(٢) تاريخ جودت، مج١، ص٣٧٥؛ سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٦٢.

(٣) الصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق)، ق١، ج١، ص١٦٠.

(٤) إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج٣، دمشق، مطبعة ابن زيدون، ١٩٣٨م ص١٥٧؛ الصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق)، ق١، ج١ ص١٦٠.

(٥) تاريخ أحمد باشا الجزار، ص٥٣؛ سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص٦٢.

(٦) الصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق)، ق١، ج١، ص١٧٠.

للهجوم الروسي- الدرزي، وتردد هؤلاء في الدخول إلى بيروت لمحاربة الجزار، الذي كان يستغل الفرص في مباغتة الطرفين نظرًا لشجاعته، وكثرة عدد جنوده المغامرين الذين يستمدون صمودهم من المصلحة واليأس[1]، فالمصلحة بالنسبة لهم أن يستقل الجزار ببيروت، وتكوّن الموطن الذي يوفر لهم سبل العيش، في ظل روح المغامرة التي يرغبون بها تحت قيادة رجل يتّصف بصفة المغامر مثل الجزار، واليأس من أن تسقط بيروت بيد الدروز والروس، فتعود الكرة إلى ما كانوا عليه.

بعدما خرج الجزار من بيروت توجّه إلى ظاهر العمر، وأخذ معه نفرًا قليلًا من الجند بالإضافة إلى الأموال الموجودة في بيروت، فاستقبله ظاهر بالبشاشة والإكرام، وأقام عنده أيامًا يسيرة ثم وجّهه ظاهر العمر لجمع الأموال الأميرية من نواحي جبل نابلس[2]. فذهب بهذا الشأن، وجمع الأموال من هناك، وانحاز إليه عسكر غريب من أهل المنطقة، فأرسل له ظاهر أحد أبنائه، كي يقبض عليهم لكن الجزار انتصر عليه وغلبه، وقال له: «إن أباك قدر علي وأعتقني، وها أنا قدرت عليك وأعتقتك، فاذهب وأخبر أباك»[3]. توجّه بعد ذلك إلى إستانبول، وحمل معه الجزء المتبقي من المال الذي تقرب به للباب العالي[4]، وأخبر الدولة عما جرى في بيروت، وعن أحوالها واشتكى من ظاهر العمر[5].

الجزار واليًا على صيدا

عندما وصل الجزار إلى إستانبول أخذ يتقرب إلى رجال الدولة، ويسعى إلى كسب رضى السلطان. ويقول الشهابي عن ذلك: «أخذ الجزار يتقرب إلى الأبواب السامية، ويتوصل لأرباب المراتب العالية، حتى استباح

(١) الصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق)، ق١، ج١، ص١٧٠.
(٢) الدر الموصوف في تاريخ الشوف، ص٢٦٩؛ تاريخ جودت، مج١، ص٣٧٧.
(٣) الدر الموصوف في تاريخ الشوف، ص٣٧٠.
(٤) هيئة الموسوعة - الجزار، الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٩٣.
(٥) الدر الموصوف في تاريخ الشوف، ص٣٧٧.

فيض مواهب السلطان وإنعامه، ودخل بعض رجاله، وخدامه، فقلّده الوزارة السنية، فنبغ بالخدمة الملوكية»[1]. فاستطاع الجزار إثبات جدارته، كضابط يمتلك مواهب خاصة، وأن يكسب رضى السلطان الذي قلده الوزارة[2]. وكان الجزار حازمًا، فطنًا، يتقن استغلال الظروف، والمناسبات للوصول إلى المناصب الرفيعة.

أصدرت الدولة العثمانية، أوامرها إلى القبطان حسن باشا الجـزائري (الذي عُيّن قبطان باشا الأسطول العثماني في سنة ١٧٧١م) بالتوجه إلى الساحل الجنوبي الغربي لبلاد الشام، بعد وفاة والي مصر وفشل في حملته ضد ظاهر العمر[3]. ورافق الجزار هذه الحملة بعد أن رُقّي إلى رتبة بكلر بك طوخين[4].

عُيّن الجزار واليًا على عكا، والسواحل الجنوبية الغربية لبلاد الشام[5]، ومنحته الدولة لقب حامي الساحل السوري. وصل الجزار برفقة حسن باشا إلى صيدا في تموز ١٧٧٥م، حيث قام حسن باشا بتسليم مدينة صيدا، إلى محمد باشا مليك (أحد حكام حلب)، ثم استأنفت حركة الجيش باتجاه حيفا، واستولى عليها في ١٠/ آب/ ١٧٧٥م[6].

كان للجزار دور مهم في إقناع الدولة، بالتخلص من ظاهر العمر، فقد عمل على إقناع أرباب السلطة بإرسال حملة لاستخلاص صيدا وملحقاتها

---

(١) حيدر الشهابي (ت ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م)، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، ٢مج، تعليق فؤاد البستاني، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠م، ص١١٥.

(٢) كتاب اخبار الأعيان، ص١١٥.

(٣) عبود الصباغ، الروض الزاهر في أخبار ظاهر، عمان، مكتبة الجامعة الأردنية، رقم ١٣٥٩ (صورة بالميكروفيلم)، ص٣٣.

(٤) طوخ: ذيل حصان معلق في سارية وفي أعلاه كرة ذهبية، ويحق للسنجق رفع طوخ واحد. أما (البكلر بك أي بك البكوات أو أمير الأمراء وهو لقب إداري عثماني) فله طوخين، والوزراء أو الباشوات لهم ثلاثة أطواخ، والصدر الأعظم خمسة، وأكثرهم رتبة هو السلطان حيث تتقدمه سبعة أو تسعة أطواخ. انظر، موفق بني المرجة- صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة، الكويت، مؤسسة صقر الخليج للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٤م ص٤٥٧.

(5) Huart, Djazzar Pasha, E.I, P.

(٦) الروض الزاهر، ص٢٣٢؛ كتاب أخبار الأعيان ج١، ص١٤٤.

من يد ظاهر العمر[1]. وصل الأسطول العثماني أمام عكا في ١٩ آب ١٧٧٥م وحاصرها، وأمر حسن باشا بقصفها، فحاول ظاهر العمر الفرار، لكن أحد المغاربة أطلق عليه النار فأرداه قتيلا[2]. دخل حسن باشا عكا، بعد مقتل ظاهر العمر، ونادى بالأمان للناس وكان معظم سكان المدينة قد هربوا إلى داخل البلاد عند قدوم حملة حسن باشا، خوفًا من وقوع الحرب، وكان يرافقه الجزار الذي حضر لتسلم منصبه الجديد واليًا لعكا، وعادت المناطق التي كان يحكمها ظاهر العمر إلى ولايتي صيدا ودمشق[3].

عندما باشر الجزار حكمه في عكا، عمل على ضبط أموال أعوان ظاهر العمر[4]، حيث لم يكن لديه مال، واتخذ من سرايا ظاهر العمر المتهدمة مقرا له، وبعض الجنود يقومون وحدهم على حراسة الباب. وكانت الحقول خاربة ولا تعد بموسم طيب، والمدينة التي غادرها سكانها أشبه بمدينة أموات. لكن الجزار كان أقوى من أن يضعف أمام هذه المعطيات، فأخذ يجمع التركة المادية والإدارية التي خلَّفها ظاهر العمر، وأعلن بأنه سيمتلك الأثاث والبضائع مما لا يطالب به أصحابه في ثلاثة أيام، فعاد أهالي عكا إليها ومنعهم الجزار بعد ذلك من الخروج منها[5].

ظلت المنطقة الواقعة خلف عكا في الداخل وأغلب الجليل تحت سلطة أبناء ظاهر العمر، وخشي السلطان العثماني أن يبقى الميناء في عزلة عن المناطق الداخلية، فقرر توسيع سلطة الجزار وترقيته إلى رتبة أعلى. ففي

---

(١) ميخائيل مشاقة (ت١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م)، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، دراسة وتحقيق سهيل ذكار، بيروت، دار حسان للطباعة، ١٩٨٢م، ص٦٦.

(٢) الصباغ، الروض الزاهر، ص٣٦؛ كتاب اخبار الأعيان، ج١، ص١١٣.

(٣) عمر عبدالعزيز، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٢٣م ص١٨١.

(٤) تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، ص٥٩.

(٥) الجزار قاهر نابليون، ص١١٢-١١٤.

شهر كانون الأول ١٧٧٥م، حضر فرمان بترقية الجزار إلى وزير بثلاثة أطواخ[١] وتعيينه واليًا على صيدا بعد عزل محمد باشا مليك، الذي حاول أن يجمع الميري المفروض على جبل عامل لكن المشايخ امتنعوا من إعطائه ما كانوا يدفعونه سابقًا، وهو أقل بكثير مما طلب منهم. فوجدت الدولة بشخص الجزار رجلًا قادرًا على أن يثبت مركزية الحكم العثماني في المنطقة، وأن يقضي على أبناء ظاهر العمر[٢]. وهنا توافقت رغبات الجزار مع مصالح الدولة. وثمة سبب آخر لتعيين الجزار واليًا على صيدا، هو أنه وفّر للدولة موقعًا استراتيجيًا مهمًا في صراعها ضد ظاهر العمر، وذلك باشتراكه في الحروب مع الأمير يوسف ضد ظاهر وأعوانه، واستيلائه على بيروت وإعلانه الولاء فيها للدولة العثمانية ضد ظاهر العمر والروس، حيث يكون الجزار بهذا قد أمّن للسلطات العثمانية في دمشق سبيل الاتصال بإستانبول، حيث كانت بيروت هي الميناء الوحيد المتبقي تحت الإدارة العثمانية على طول الشاطئ من مصر إلى طرابلس[٣]. ونظرًا إلى الخبرة التي اكتسبها الجزار عن السياسة العثمانية، أثناء ترحاله من وإلى إستانبول عملت الدولة العثمانية على توطيد النفوذ العثماني في جنوب غرب بلاد الشام، الذي أصابه التدهور في الفترة السابقة، وركزت الدولة على زيادة الفاعلية الإدارية فيها، مما أتاح للجزار أن يكون الوالي الأقوى في صيدا عبر تاريخها في القرن الثامن عشر[٤].

تمكّن الجزار من السيطرة التامة على الجليل وأن يضبط أموره، وذلك بعد القضاء على أفراد أسرة ظاهر العمر التي كانت تحكم المنطقة،

---

(١) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ط٧، ترجمة عفيفة البستاني، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠م، ص٤.

Volney, Travels, II. P. 183

(٢) جرجي يني، تاريخ سوريا، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٨٨م، ص٨١.

Refeq The province of Damascus 1723 - 173. Khayat, Birut, 1970, P. 308.

(٣) مانتران وآخرون، تاريخ الدولة العثمانية، ط٢، ٢ج، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م، ص٥٧٨.

(٤) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٥٧٨.

قبل تسلمه مهام ولايته لصيدا[1]. استطاع الجزار الوصول إلى السلطة في الفترة التي بدأت فيها الإصلاحات الإدارية في صيدا، وأن يثبت حكمه فيها والمناطق التابعة لها. وبهذا يكون الجزار قد تمكّن من فرض سلطته على ولاية صيدا سنة ١٧٧٦م، فعمل على مد نفوذه في المنطقة. وكان ذلك انعكاسًا للانحطاط الذي أصاب الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، على الصعيدين الداخلي والخارجي، مما أتاح للجزار فرصة إنشاء دولة مصغرة في بلاد الشام داخل جسم الدولة العثمانية، بعدما حكم ولاية الشام وحتى حكم مصر في أواخر حياته.

عندما تولى الجزار حكم ولاية صيدا وتوابعها وجد بأن هذه المدينة لا تصلح لأن تكون مقرًا إداريًا لحكمه، حيث كان مدركًا ما يصيب الولاة العثمانيين حين تشعر الدولة بالحاجة إلى التخلص منهم، لذلك اتجه إلى مدينة عكا التي كانت مركزًا تجاريًا مهمًا في جنوب غرب سوريا بفضل الاهتمام الذي نالته من قبل الشيخ ظاهر العمر، فأصبحت عكا بذلك مركز السلطة في ولاية صيدا في عهد الجزار[2]. ولذلك زاد اهتمامه بها وعمل على تطويرها إلى أن نزع بعض المؤرخين إلى القول أنه حتى عندما كان يُعيّن واليًا على دمشق فإنه كان يحكمها من عكا. ويؤكد كوهن Cohen هذا عندما يصل إلى نتيجة مفادها «أن عكا أصبحت عاصمة فلسطين في القرن الثامن عشر»[3]. وأدى هذا بدوره إلى التقليل من شأن صيدا ولم يبق لها إلا الاسم في المخاطبات والمعاملات الرسمية.

مع كل المعطيات التي توفرت للجزار للاستقلال بمناطق حكمه إلا أنه بقي يمارس سلطته من خلال الدولة العثمانية، وينفذ مطالبها قدر استطاعته، بعكس العصبيات والقوى المحلية التي استبدت بالسلطة في مناطقها ودخلت في منازعات محلية مع جيرانها. وقد شملت رقعة حكم

(1) Cohen, Palestine in the 18th century: Patterns of government and administration, the Manges Press and Hebrw University, P. 98.

(2) Palestine in the 18th century,PP. 134 - 135.

(3) Palestine in the 18th century, P. 134.

الجزار كل فلسطين تقريبًا، ومعظم أراضي لبنان عدا ولاية طرابلس، التي خضعت له في فترات متفاوتة. كما عُيّن على ولاية الشام عدة مرات، حتى إنه صار يلقب بنائب السلطان في سوريا. ولم يكن الباب العالي يتدخل في حكمه إلا في ما يخص إرساله إلى دمشق أو دعوته منها، دون أن يمس نشاطه في سائر باشويته[1].

حملة نابليون على عكا ودور الجزار في صدها

كان نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte مشبعًا بفكرة غزو الشرق، وليس إنجلترا كما يرد في كثير من المراجع. فلدينا إشارات تدل على تفكيره المسبق للقيام بهذه الحملة، ومنها قوله: «سأنفخ روح الثورة في سوريا، التي أرهقتها مظالم الجزار، وأزحف إلى دمشق، فحلب، فينضم المظلومون والموتورون إلى جيشي في كل مدينة وقرية أصل إليها، ثم أدق باب القسطنطينية، وأطيح بالإمبراطورية التركية، وأنشئ في الشرق إمبراطورية عظمى جديدة تكون موضع إعجاب الأجيال المقبلة، وتجدد مركزي في التاريخ، وقد أعود إلى باريس عن طريق ادرنة وفيينا، بعد أن أكون قد قضيت على البيت المالك في النمسا»[2].

قام نابليون باحتلال مصر في آواخر تموز ١٧٩٨ فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على فرنسا في ٢ أيلول من السنة نفسها. وأصدرت الدولة العثمانية أمرًا إلى سائر ولاة بلاد الشام، ومنهم الجزار، بمحاربة الفرنسيين وطردهم من مصر، وأرسل السلطان للجزار سبعمائة (٧٠٠) جندي[3]. إلا أن الجزار كان

(1) Travels through Syria and Egypt: In the years 17832 , 1785-Vol., G.G.J. and robinson, London, 1972, P.183.

(٢) أميل خوري وعادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي: من سنة ١٨٩٨– ١٩٥٨م، ٤ج، بيروت، دار النشر للسياسة والتاريخ، ١٩٥٩م، ص٧٣.

(٣) نعمة الله نوفل (١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م)، كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام، في إقليمي مصر وبر الشام، حققه ميشال أبي الفضل، طرابلس، جروسو برس، ١٩٩٠م، ص٢٢٤.

أحذق من أن يسير إلى مصر متخذًا خطة الهجوم، فأرسل قوة إلى العريش فقط، وأخذ يستعد ويزيد من التحصينات في عكا ويعد ما يلزم من معدات الحرب. وهكذا وجّه الرسائل إلى الأمراء والشيوخ يدعوهم فيها إلى التضامن لمحاربة الفرنسيين، كما منع المراكب القـادمة من الوصول إلى شواطئه[1].

وقد ورد أن الدوائر الاستعمارية الفرنسية أعدت خطة في بداية سنة ١٧٩٨ لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين في مقابل تقديم اليهود قرضًا لحكومة الإدارة الفرنسية، التي كانت تعاني من أزمة مالية خانقة[2]. لذلك كان بونابرت بدوره يمني آمال الأقليات اليهودية التي تقطن المنطقة، فلما نزل سواحل مصر في تموز ١٧٩٨ واتجه صوب بلاد الشام لاحتلالها في شباط ١٧٩٩ [3] أصغى اليهود في بداية الأمر لنداءات نابليون، وبدأوا يتحركون بشيء من الخوف والحذر لاستثمار هذا الحماس الفرنسي لصالحهم. ففي ١٧ فبراير ١٧٩٩ اقترح توماس كوربت Thomas Corpet الضابط في الجيش الفرنسي على عضو حكومة نابليون المسيو بول باراراس Paul Bararas مشروعًا يقترح فيه استثمار الوجود اليهودي في فلسطين، فأعجبت هذه الفكرة بونابرت الذي دعاه بدوره إلى أن يتصل بكبار اليهود في فرنسا، ويثير في نفوسهم تحقيق آمال «أرض الميعاد» التي ما برحوا يحلمون بها. فطلب منهم جمع الأموال لشراء الأراضي في فلسطين، فضلًا عن تجهيز المراكب البحرية، والتدريب العسكري للشباب اليهود للاشتراك في حروب نابليون الشامية. وعاد كوربت مرة أخرى في خطابِه الذي يحمل تفاصيل المشروع إلى باراراس ليؤكد أهمية الاستعانة باليهود في تحقيق آمال نابليون في الشرق، إذ يرى أن مصالح فرنسا تتفق تمامًا

---

(١) سجل محكمة نابلس- رقم ٦، ص٣٤٧؛ سجل محكمة القدس- رقم ٢٨٠، ص٢٢؛ الترك، نقولا (ت١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م)- حملة بونابرت إلى الشرق، ط١، تحقيق أمل بشور، طرابلس، دار جروس برس، ١٩٩٣م، ص١١٧؛ الجزار قاهر نابليون، ص١٨٤.

(٢) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني، ص١٢، الموسوعة الفلسطينية- الدراسات الخاصة، ق٢، مج٦، ص٨٤.

(٣) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص٢٥١.

مع مصالح اليهود في المنطقة. فأموال اليهود، حسب قوله، ستنشط التجارة بين أوروبا وآسيا، كما أن اليهود أنفسهم سيوفرون لفرنسا عنصرًا بشريًا مواليًا يرسخ استعمارها لمصر وبلاد الشام، بل إنه أشار إلى أن اليهود سيقدمون أهم الضمانات لبث الفوضى وإشعال الفتن في الإمبراطورية العثمانية[1].

بادر باراراس بإيصال مشروع كوربت إلى نابليون الذي استحسن الفكرة، فصاغ نداءً إلى اليهود أشار فيه إلى أن فرنسا رغم الصعوبات التي تواجهها فهي بحكم رسالتها لدفع الظلم عن الشعوب مُصرّة على مساعدة اليهود لإعادتهم إلى أرض الميعاد. ومما جاء في هذا النداء: «.. يا ورثة فلسطين الشرعيين إن فرنسا تناديكم الآن للعمل على إعادة احتلال وطنكم، واسترجاع ما فقد منكم... أسرعوا فإن هذه اللحظة لن تعوض قبل آلاف السنين للمطالبة باسترجاع حقوقكم المدنية بين شعوب العالم...»[2].

وهنا يظهر بأن حكومة بونابرت آنذاك قد أُشبعت بالفكرة، وشرعت فعلًا في التعامل معهم على أساس منحهم الأرض التي ما فتئوا يتطلعون إليها لإقامة دولة لهم عليها في فلسطين، خصوصًا وأن ذلك يتضمن تطابقًا في مصالح الطرفين، واتفاقًا في وجهات النظر إزاء المسلمين بتمزيق دولتهم الإمبراطورية العثمانية، وبث بذور الشقاق في أرجائها[3].

ووفقًا للخطة الفرنسية أصدر نابليون فور وصوله إلى الإسكندرية نداءً حثّ فيه جميع اليهود في آسيا وإفريقيا على الالتفاف حول رايته لـ «العودة» إلى القدس، وإعادة بناء هيكلهم من جديد، في مقابل مساعدتهم له في غزو فلسطين. وقد كرَّر هذا النداء أثناء حصار عكا في نيسان ١٧٩٩ باعتبارهم «ورثة فلسطين

---

(١) عبدالله التل، الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، ط١، د.م، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٩٧١م، ص١٨-٢٢.

(٢) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، ص٢٣.

(٣) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، ص٢٢.

الشرعيين» حسب مزاعمه[1]. إلا أن النتيجة كانت مغايرة لما أراده بونابرت حيث لم تظهر الجاليات اليهودية اهتمامًا جديًا بنداء نابليون المتضمن لإقامة وطن لها في فلسطين، وذلك لخوفها من الجزار أولًا، وشكوكها في نوايا بونابرت ثانيًا، هذا بالإضافة إلى أن جل اهتمامها في آخر القرن الثامن عشر يتعلق بتثبيت أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التي تقيم فيها.[2]

اشتهر الجزار في التاريخ بصدّه للحملة الفرنسية عند عكا. فعندما توجه نابليون بونابرت إلى عكا لاحتلالها، والانطلاق منها لاحتلال سوريا بأكملها، قام بنصب الحصار على المدينة واستعد لدخولها لكنه تفاجأ بقوة الجزار وحصانة عكا، فأصيب بفشل ذريع أمام أسوارها. حاول بونابرت أن يستميل الجزار إلى جانبه فوجه له خطابًا نذكر منه: «لست أريد محاربتك، إذ لم تكن عدوي... فإذا أمضيت في حمايتك، لإبراهيم بك، على حدود مصر، فإني أتجه إلى عكا»[3]. لكن الجزار لم يعبأ بالرد، فأردف «بونابرت» رسالة أخرى يقول فيها: «أنني لم آت إلى مصر محاربًا المسلمين، بل جئت لمحاربة المماليك، وأعتقد أنني عملت لصالحك، لأنهم كانوا أعداءك... وقد بعثت إليك بهذا الخطاب مع ضابط يستطيع أن يوقفك على ميولي، في أن أكون معك على صفاء وسلام.. وأؤكد أنه لا يوجد للمسلمين، أخلص صداقة من الفرنسيين»[4]. إلا أن الجزار لم يحفل بجميع هذه المكاتبات.

سارت الحملة الفرنسية تجاه يافا، واستمرت المدافع تقصف أسوارها حتى أسقطتها، فدخل الفرنسيون المدينة واستباح الجند الفرنسي حماها، يقتل وينهب ويسلب الأعراض ويفعل ما يشاء. ويصف «مالو Malo»، وهو شاهد

---

(١) إسحاق جرينفيم، الحركة الصهيونية، ط١، ترجمة جودت السعد، اربد، دار الجاحظ، ١٩٨٣، ص١٨.

(2) Esco Foundation; Palestine A Study of Jewish, Arab and British Policies, PP. 1719-.

(٣) كرستوفر هيرولد، بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد اندراوس، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م ص٣٠٢؛ عوض، أحمد - فتح مصر الحديث، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٢٥م

(٤) فتح مصر الحديث، ص٢٢٦-٢٢٧.

عيان لهذه الحادثة، الموقف بقوله: «كنت تسمع في كل مكان صراخ ابنة تُغتصب وتستغيث عبثًا بأمها، أو والدها الذي يذبح»[٥]. وقال الشهابي عن ذلك: إن الدم جرى في شوارع يافا كالماء»[٦].

وصل بونابرت عكا وضرب عليها الحصار مدة ثلاثة أشهر بدأت في ١٩/ آذار وانتهت في ٢٠ أيار ١٧٩٩ وألقى بثقل عدته وعتاده أمام أسوار عكا، وبدأ بضربها من كل مكان حتى بات الناس يسمعون للأحجار الصم صليلًا وزجلًا، إلا أن آماله تحطّمت على أسوار عكا بسبب بسالة الجزار وإصراره على هزيمة الفرنسيين. فما كان من بونابرت الذي ضاق عطنه عن كتمان ما تحمله نفسه المهزومة إلا أنه أمر يائسا بقذف عكا بجميع ما يملك من مدافع، وخصّ بالقصف في آواخر حصاره لعكا قصر الجزار مدة أربعة أيام متتالية[٧]، وكان هدف بونابرت من هذا القصف إخفاء استعداداته لرفع الحصار، وإصابة المدينة بأبلغ ما يستطيع من أضرار، بالإضافة إلى أن هذا العمل كان سيخفف من هزيمة بونابرت التي دفنت وراء أسوار عكا، ويعلن للملأ أنه دمرها.

برزت صلابة الجزار وتصميمه على دحر القوات الفرنسية حيث كان يلقي برسائل بونابرت وجه الأفق. فاضطر نابليون أن يعود ببقايا جيشه نحو مصر، وهذا بدوره عزّز مكانة الجزار عند الدولة العثمانية، وبين القوى الأخرى المجاورة وأكسبه ألقابًا كثيرة من السلطان مثل: «الدستور المكرّم، المشير المفخّم، نظام العالم، مدبّر الجمهور بالفكر الثاقب، متمّم مهمات الأنام بالرأي الصائب، ممهّد بنيان الدولة والإقبال... والي صيدا الحاج أحمد باشا الجزار أدام الله إجلاله»، وجعل الدولة توجّه له حكم مصر[٨] ولكن الأجل وافاه قبل تسلّمه منصبه الجديد.

---

(٥) الجزار قاهر نابليون، ص١٩٠.
(٦) تاريخ أحمد باشا الجزار، ص١٣٢.
(٧) بونابرت في مصر، ص٤١٢.
(٨) كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام، ص٢٣٩.

بعد انتهاء الحصار عمل الجزار على إعادة بناء عكا وتحصينها من جديد. ومما يدل على تقدير بونابرت لبسالة الجزار في قهر أسطورة الجيش الفرنسي في ذلك الوقت أنه عندما عاد إلى فرنسا أرسل إلى الجزار بندقية فاخرة طاقمها ذهب ملفوفة بقماش من حرير موشح بالذهب[1]. وقد قويت علاقة الدولة العثمانية بالجزار بعد ذلك، فقامت بعزل عبد الله باشا عن ولاية الشام وتولية الجزار على ولايتي مصر والشام وصيدا وطرابلس وسر عسكر الحجاز[2]. وبهذا يكون الجزار قد توصل إلى الحلم الذي طالما بحث عنه وعمل من أجله ويلخص طيباوي علاقة الجزار بالدولة بقوله: «إن الحكومة العثمانية دعمت الجزار في وظيفته لفترة طويلة على نحو استثنائي، حيث نجح في تأكيد سلطته شمالًا إلى طرابلس، وجنوبًا إلى الحدود المصرية، دعمًا استثنائيًا عن غيره، لأنه نجح في تثبيت سلطته بفعالية على الرؤساء المتمردين... ونجح في إرسال الحصة التي تعهد بإرسالها على نحو منتظم إلى الخزانة الإمبراطورية... ووضع الموانئ البحرية مثل طرابلس وبيروت وصيدا وعكا تحت سيطرة الحكومة المباشرة»[3].

أصيب الجزار بمرض الاستسقاء وعانى منه لمدة عشرة أشهر وتوفي بعد ذلك في ٢٣ نيسان ١٨٠٤م. وقد كتبت أشعار كثيرة في الجزار منها ما يرثيه ويمدحه ومنها ما يهجوه ويذمه، ولكن المصادر التي كانت تذمّ الجزار تتحدث بلسان واحد ومن وجهة نظر واحدة بسبب غياب المصادر السنّية عن ساحة التأريخ لشخص الجزار. أحدثت وفاة الجزار فجوة بين صفوف جنده، فظهر بعض القادة العسكريين الذين يسعون لخلافته في الحكم فدبّ الفساد بين الجنود، مما أربك السلطات العثمانية، إلى أن تمكنت في النهاية

---

(١) تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، ص٧٠.

(٢) سجل محكمة نابلس- رقم ٦، ص٣٢٧، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٨٤؛ كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام، ص٢٣٨- ٢٣٩.

(3) Tibawi-A Modern History of Syria, Martin›s press, London, 1969, P.31.

من السيطرة على الموقف بتعيين سليمان باشا العادل، أحد مماليك الجزار، خلفًا له في حكم ولاية صيدا. وقد فرضت وفاة الجزار على الدولة العثمانية أن تبدّل وتغير في سياسة حكمها لعدم وجود من يملأ مكانه، فقامت بفرض نظام الإدارة المركزية المباشرة، وقدمت متصرفية القدس على ولاية دمشق سنة ١٨٧٤ وقامت بربطها مباشرة بوزارة الداخلية بإستانبول، بسبب زيادة النشاط السياسي الأوروبي فيها. وقد استمر هذا الحال إلى حين الاحتلال البريطاني للقدس[1].

(١) الكزاندر شولش، تحولات جذرية في فلسطين. ط١، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٨٣، ص٢٣.

الخاتمة

برزت في المنطقة العربية في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع شخصيات وافدة من البلقان، وذلك في إطار الحكم العثماني المشترك، وقد قيّض لبعض هذه الشخصيات أن تلعب دورًا مهمًا في تاريخ المنطقة العربية مثل أحمد باشا الجزار ومحمد علي باشا.

وقد حاولتُ في هذا البحث أن أسرد قصة الجزار متتبعا سير حياته وحتى وفاته في محاولة منّي للوقوف على أهم المحطات التي مرت على مشواره السياسي، التي تتوّجت في بلاد الشام بهزيمة حملة نابليون بونابرت. ولم أتطرق إلى إجراءات الجزار التفصيلية في ما يتعلق بكثير من النواحي كالاقتصاد والإدارة والجيش وغيرها لأسباب كثيرة أهمها المساحة القصيرة المتاحة للباحث، واشتهار الجزار بغيرها ألا وهي الحملة الفرنسية على الشرق. وأنا هنا أشاطر الجبرتي وصفه لمشهد حياة الجزار حينما قال: «كان من غرائب الدهر وأخباره، لا يفي القلم بتسطيرها، ولا يسعف الفكر بتذكرها، ولو جمع بعضها لجاءت مجلدات، ولو لم يكن من المناقب إلا استظهاره على الفرنسيين، وثباته في محاربتهم له أكثر من شهرين، لم يغفل فيها لحظة، لكفاه»[1].

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، ص٣٤١.

محمد علي باشا بين مصر وألبانيا: لمصلحة مصر أم لمصلحة ألبانيا؟

محمد م. الأرناؤوط[1]

في الوقت الذي كان فيه محمد علي باشا يقود مشروعه لإرساء دولة حديثة في مصر كانت الأوضاع في البلقان تتّسم بتحديات كبيرة تهدد وجود الدولة العثمانية هناك (الانتفاضة الصربية في ١٨٠٤ والحرب الروسية العثمانية ١٨٠٦-١٨١٢ وتمرّد علي باشا يانينا ١٨٢١-١٨٢٢ والثورة اليونانية ١٨٢١ والحرب الروسية العثمانية ١٨٢٨-١٨٢٩). وفي غرب البلقان، وبالتحديد في المناطق ذات الغالبية الألبانية، كان لدينا مشروع مشابه لمحمد علي يقوده علي باشا يانينا في الجنوب خلال ١٨٢١-١٨٢٢ وآخر في الشمال يمثله مصطفى باشا بوشاتلي خلال ١٨٣٠-١٨٣١، بالإضافة إلى انتفاضات محلية من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال خلال ١٨٣٢-١٨٣٥، مما جعل الدولة العثمانية تنشغل هناك بقواتها العسكرية ودبلوماسيتها. ومن هنا يبرز التساؤل عن موقف محمد علي باشا من تلك التطورات، وعن صلاته بالتمردات والانتفاضات ضد الدولة العثمانية في غرب البلقان سواء على مستوى الباشوات أصحاب مشاريع الاستقلال أو على مستوى التمرّدات المحلية. وإذا كانت المصادر المختلفة في ذلك الوقت تجمع على دور ما لمحمد علي باشا في دعم التمرّدات والانتفاضات هناك فإن السؤال الذي طُرح ولا يزال مفتوحًا: هل كان محمد علي باشا يفكر في مشروع ألباني أو آخر أكبر (مشرقي بلقاني) بتعاونه مع الزعماء الألبان في

---

(١) أستاذ التاريخ في جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمّان - الأردن.

غرب البلقان أم انه كان يدعم الألبان لإشغال الدولة العثمانية هناك حتى يضمن النجاح لمشروعه في مصر؟

على الرغم من ألبانيّة محمد علي، التي تُذكر أحيانًا للتشكيك في دوافعه لإنشاء دولة حديثة في مصر، إلا أنه قد يكون من المستغرب أن يُسجّل هنا أن الباحثين الألبانيين لم يهتموا كثيرًا، كما قد يفترض المرء، بمحمد علي ومشروعه في مصر. وهكذا لدينا في النصف الأول للقرن العشرين كتيّب واحد فقط للباحث ألكسندر جوفاني، الذي قضى شطرًا من حياته في مصر، بعنوان «حياة محمد علي باشا المصري» صدر في تيرانا عام ١٩٢١ [1]. وفي هذا الكتيّب الذي يستعرض فيه المؤلف سيرة حياة ومنجزات محمد علي في مصر لأول مرة باللغة الألبانية، وبالتحديد بعد ما أصبح للألبان دولتهم القومية، يرد فيه أن الألبان يشعرون بالاعتزاز لما قام به محمد علي من رفع شأن بلد آخر ألا وهو مصر [2]، التي كانت تحتل آنذاك مكانة مميزة لدى الألبان بسبب دور الجالية الألبانية في النهضة القومية الألبانية [3] والعلاقات المتنامية بين الدولتين المستقلتين حديثًا- مصر وألبانيا [4]. وبعد صمت طويل لدينا في الربع الأخير من القرن العشرين والسنوات الأولى من هذا القرن، أي بعد تأسيس أقسام ومعاهد التاريخ في تيرانا وبريشتينا، لدينا أولى الدراسات الحديثة في اللغة الألبانية عن محمد علي وصلاته مع الألبان في البلقان لبيتريك ثانجيلي [5]

---

(1) A.Xhuvani, Jeta e Mehmet Aliut pashes se Misirit, Tirane 1921

(٢) «مع أن محمد علي عمل لأجل مصر وليس لأجل ألبانيا إلا أنه يجب أن نفتخر بأن ألبانيًا مثله قد كرّم جنسه أمام التاريخ بأعماله العظيمة لأجل مصر»:

Xhuvani, Jeta e Mehmet Aliut, p.8

(٣) للمزيد حول هذه الجالية ودورها انظر: محمد م. الأرناؤوط، «الجالية الألبانية في مصر تودّع كريم حاجيو آخر رموزها التاريخية»، جريدة «الحياة» ٢١/ ٤/ ٢٠٠٣.

(٤) للمزيد حول هذه العلاقات انظر: محمد السيد سليم (محرر)، علاقات مصر بدول رابطة الدول المستقلة وألبانيا والبوسنة والهرسك ومقدونيا ومنغوليا، القاهرة (مركز الدراسات الآسيوية ٢٠٠٠).

(5) Kryengritjet popullore ne vitet 30 te shekullit x1x- Dokumente osmane, pergatitut per botim nga Patrika Thengjilli, Tirane (Instituti i historise)1987;Patrika Thengjilli, Kryengritjet popullore kunderosmane ne Shqiperi 1833 - 1839, Tirane (Instituti i historise) 1981.

وبدروش شيخو[1] ومحمد موفاكو[2] ومحمد بيراكو[3] وكمال مورينا[4] وحتى كتاب شكري نعماني «محمد علي باشا القائد الألباني الذي أعاد لمصر كرامتها» الذي صدر في ٢٠١٢ [5].

وفي هذه الدراسات لدينا جهود لاستقراء المصادر المختلفة (أرشيف الحكومة العثمانية وتقارير الدبلوماسيين الأوروبيين إلى حكوماتهم ومقالات الصحف التي تعتمد على مصادر دبلوماسية وغيرها)، ونتائج مختلفة للإجابة عن السؤال الكبير: ما هو هدف محمد علي من دعم التمردات والانتفاضات في ألبانيا خلال صراعه مع الدولة العثمانية الذي تحوّل إلى فصل مهم من فصول «المسألة الشرقية»، هل هو لأجل ألبانيا أم لأجل مصر؟

وفي الواقع أن تنوّع هذه المصادر (العثمانية والروسية والإنكليزية والفرنسية والنمساوية والإيطالية والصربية والكرواتية) إنما كان يعكس اهتمام ومصالح الدول المختلفة بالخلاف والصراع الذي نشب بين محمد علي والدولة

---

(1) ()Bedrush Shehu, «Shqiptaret dhe ceshtja lindore ne vitet 30 te shekullit XIX», Kosova 3, Prishtine 1974, pp.207219-;Bedrush Shehu, Ceshtja shqiptare ne vite 30 te shekullit XIX, Prishtine (Instituti i historise) 1990.

(2) Muhamed Mufaku, «Roli i shqiptarit Muhamed Ali pasha ne paraqitjen e arabizmit ne boten arabe», Perparimi 5, Prishtine 1977, pp.588.

(3) Muhamet Pirraku, «Kryengritja e Shkodres e vitit 1835 ne driten e shtypit serb e kroat», Gjurmime albanologjike 3334-, Prishtine 20032004-, pp.235 - 255.

(4) Qemajl Morina, «Kreta vendstrehim per kryengritesit shqiptare», Rilindja (Prishtine) 03.03.1979.

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من هذه الدراسات المتخصصة التي نشرت في المراكز العلمية أو في المجلات العلمية فإن شهرة محمد علي بين الألبان آنذاك ارتبطت بالمسلسل الذي نشره الصحفي المعروف نهاد إسلامي في جريدة «ريلينديا» الذي كان مراسلًا لها في الشرق الأوسط:

Nehat Islami, Gjumave te Mehmet Ali pashes dhe ushtrise se tij, Rilindja (Prishtina) 31.07 - 6.08.1977

(5) Shyqri Nimani, Mehmet Ali pasha kapedani shqiptar qe ia ktheu dinjitetit Egjiptit, Prishtine (Ars Albanica) 2012

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المؤلف خصّص الفصل الأول «العَرَض المتناقض للألبان» من كتابه ص٩-٣١ للحديث عن دور الألبان في خدمة الآخرين باعتباره يمثل «عَرَضا مَرضيا» عندهم.

العثمانية والذي قلب التحالفات بين المعنيين بـ «المسألة الشرقية». فحتى مطلع القرن التاسع عشر كان هنالك توافق روسي- نمساوي على تقاسم التركة العثمانية في البلقان، ثم تشكّل توافق أوروبي ضد السلطان العثماني ومحمد علي مع موقعة نافارين ١٨٢٦، ولكن بعد الحرب الروسية العثمانية ١٨٢٨-١٩٢٩ وما أدت إليه من اختراق روسي للبلقان مالت النمسا إلى الحفاظ على الدولة العثمانية. وقد أدى تقدم جيوش محمد علي باشا في بلاد الشام إلى انقلاب الموقف. فروسيا كانت تفضّل أن تبقى في جوارها دولة عثمانية ضعيفة من أن تبرز في جوارها دولة قوية، ولذلك حاولت أولّا أن تقنع محمد علي بعدم التوغل في بلاد الشام، ولكن مع اختراق جيوش محمد علي للأناضول واقترابها من إستانبول تبدّل الموقف الروسي وتمخض عن إرسال ٣٠ ألف جندي إلى إستانبول للدفاع عن عاصمة الدولة العثمانية في شباط ١٨٣٢. ومن المعروف أن وصول القوات الروسية إلى إستانبول دفع القوى الكبرى إلى الضغط على محمد علي للقبول بمعاهدة كوتاهية في ١٨٣٣. ونتيجة للتدخل الروسي أمام تقدم جيوش محمد علي وقّعت الدولة العثمانية في حزيران ١٨٣٣ معاهدة هنكار اسكله سي مع روسيا، التي حصلت بموجبها على امتيازات مهمة، مما دفع إنكلترا وفرنسا بدورهما إلى العمل للحصول على امتيازات مشابهة، وهو ما أثر بدوره على موقف الأطراف من الجولة الجديدة للحرب بين محمد علي والدولة العثمانية خلال ١٨٣٩-١٨٤٠ [1].

وبعبارة أخرى إن مصالح ومواقف هذه القوى الكبرى من الدولة العثمانية خلال ١٨٣١-١٨٤٠ فرضت عليها أن تتابع بكل اهتمام صلات محمد علي بالألبان في غرب البلقان الذي كان يمور بالتحركات والانتفاضات في تلك الفترة، وهو مايظهر معنا في المصادر العثمانية والنمساوية والإنكليزية والروسية وغيرها التي اعتمدت عليها الدراسات الألبانية. وبالاستناد إلى المصادر المذكورة سنحاول هنا تتبع أهم التطورات والمعطيات الواردة فيها التي تتعلق بصلات محمد علي باشا بالتمردات والانتفاضات الألبانية في غرب البلقان.

---

(١) للمزيد حول تطورات المسألة الشرقية ومواقف هذه القوى انظر:
J.A.R.Marriot, The Eastern Question- An Historical Study in European Diplomacy, Oxford (Oxford University Press) 1967.

كان الزعماء المحليون في جنوب ألبانيا، بعد تخلص الدولة العثمانية من علي باشا يانينا في ١٨٢٢، قد أخذوا يعبّرون عن تحفظهم إزاء إصلاحات الدولة المركزية، وخاصة بعد التخلص من الإنكشارية والتوجه لتأسيس جيش جديد، التي رأوها تحد من سلطتهم المحلية، ولذلك فقد بدأوا يتمردون بزعامة زلفتار بودا Z.Poda بعدما رفضوا دعوة الدولة لهم للمشاركة في حربها ضد روسيا خلال ١٨٢٨-١٨٢٩. وقد أدى ذلك إلى تنظيم مجزرة، على نمط مجزرة القلعة في القاهرة، للتخلص من الأعيان الألبان الذين لبوا دعوة الصدر الأعظم محمد رشيد باشا للغداء في آب ١٨٣٠ [١].

وفي الوقت نفسه أخذ مصطفى باشا بوشاتلي، الذي ورث عن أسرته باشوية اشقودرة، في التذمر من إصلاحات الدولة المركزية التي بدأت تمسّ سلطته الواسعة في شمال ألبانيا، وانتقل بدوره إلى التمرد العلني على الدولة في ربيع ١٨٣١ في الوقت الذي كان فيه الصدر الأعظم محمد رشيد باشا يحاول السيطرة في جنوب ألبانيا على الوضع هناك[٢].

وقد شكّل مصطفى باشا تهديدًا حقيقيًا للدولة لأنه سار بقواته في اتجاه إستانبول، كما يقال بناء على اتفاق ما مع محمد علي ينصّ على «اللقاء عند أسوار إستانبول»، فسيطر على سكوبيه في أواخر آذار ١٨٣١ وتمكّن حلفاؤه من السيطرة على صوفيا في أواخر نيسان ١٨٣١. وقد اضطر الصدر الأعظم أن يسارع بقواته من جنوب ألبانيا ليقطع الطريق على مصطفى باشا في مكدونيا، ما بين برليب Prilep وفلس Veles، حيث هُزم مصطفى باشا واضطر إلى الانسحاب إلى معقله في قلعة اشقودره الحصينة. وقد استمر حصاره حتى تشرين الأول

(١) للمزيد حول ذلك انظر:
Miranda Vickers, The Albanians -A Modern History, London -New York (I.B.Tauris) 1995, pp.24 - 25.

(٢) للمزيد حول مصطفى باشا وهذه الباشوية انظر مقالة هيوود في «الموسوعة الإسلامية» حيث لدينا مصادر ومراجع متنوعة عنه:
C.J. Heywood, «Kara Muhamed pasha», The Encyclopaedia of Islam, voll.IV, Leiden (E.J.Brill) 1990, pp.588 - 589.

١٨٣١ حين استسلم بعدما فقد الأمل في وصول المساعدة الموعودة من محمد علي باشا حسب ما يرد في المصادر الإنكليزية[١].

وهكذا في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية مشغولة بقواتها البرية والبحرية بحصار واستسلام مصطفى باشا، كان محمد علي يستعد لانتهاز هذه الفرصة ويفتح جبهة أخرى مع الدولة في بلاد الشام في تشرين الثاني ١٨٣١. ويبدو أن الدولة العثمانية، حسب ماجاء في المصادر النمساوية، كانت تستشعر وجود صلات ما بين مصطفى باشا ومحمد علي باشا إذ إنها أصرّت بعد استسلام مصطفى باشا على أن يُرسل بحراسة مشددة برّا إلى إستانبول، بينما أرسلت أسرته وحاشيته بحرا إلى إستانبول، وذلك خشية قيام محمد علي باشا بعملية لتخليصه في عرض البحر[٢].

وفي غضون ذلك كانت الانتفاضة التي يقودها في جنوب ألبانيا زلفتار بودا قد فشلت أمام القوات العثمانية المتزايدة في آب ١٨٣١ واضطر مع عدد من الزعماء المحليين مثل طفيل بوزي T.Buzi وعبدل كوكا A.Koka وغيرهم للجوء إلى جزيرة كريت عند مصطفى باشا جريتلي، حاكم الجزيرة التي منحت لمحمد علي بعد مشاركته في إخماد الثورة اليونانية، والذي أصبح صلة الوصل منذ ذلك الحين بين محمد علي وبين زعماء الانتفاضات الألبانية حسبما يرد في المصادر العثمانية والروسية وغيرها[٣].

وهكذا في الوقت الذي كان محمد علي باشا يشغل بحربه الدولة العثمانية تمّ إرسال طفيل بوزي مع مجموعة من رجاله إلى جنوب ألبانيا في ربيع ١٨٣٢ ليشعل هناك انتفاضة ويفتح جبهة جديدة مع الدولة العثمانية. وحسب المصادر الفرنسية فإنّ بوزي كان يشيع بين أنصاره في ألبانيا عن قرب وصول «أسطول مصري» إلى الشواطىء الألبانية[٤].

---

(1) Thengjilli, Kryengritjet popullorem, p.24.

هذا «الاتفاق» المزعوم لم يرد في نصّه، بينما لدينا في الوثائق العثمانية إقرار بوجود «مراسلات» بين مصطفى باشا ومحمد علي باشا: Shehu, Ceshtja shqiptare, p.43.

(2) Thengjilli, kryengritjet popullore, p.43.

(3) Shehu, Ceshtja shqiptare, p.156.

(4) Thengjilli, Kryengritjet popullorem, p.60.

ومع أن محمد علي والدولة العثمانية توصلا إلى صلح كوتاهية في أيار ١٨٣٣ تحت ضغوط إنكلترا وفرنسا والنمسا، إلا أن كل طرف أخذ يستعد لجولة جديدة من الحرب. وهكذا يبدو أن محمد علي قد سعى منذ ١٨٣٣ إلى إشغال الدولة العثمانية بالانتفاضات الألبانية. ففي حزيران ١٨٣٣ حاول طفيل بوزي أن يشعل انتفاضة جديدة في جنوب ألبانيا إلا أنه فشل ولجأ ثانية إلى كريت، حيث كان يحظى بالدعم هناك من مصطفى باشا، لينتظر الفرصة المناسبة ليعود ثانية[1]. وقد جاءت هذه الفرصة في صيف ١٨٣٤ حين عاد طفيل بوزي وشاهين دلفينا Sh.Devina بدعم من محمد علي إلى جنوب ألبانيا لإشعال انتفاضة جديدة[2] في الوقت الذي تشير فيه المصادر النمساوية إلى اقتراح لمحمد علي لفيينا ولندن وباريس بعقد تحالف مشترك ضد التحالف الروسي- العثماني[3]. ولكن هذه الانتفاضة لم تنجح هذه المرة بسبب ما قيل عن عدم وصول سفن المساعدة التي وعد بها محمد علي نتيجة التحذيرات التي وصلت له من قبل الدول الكبرى الأوروبية كما يرد في المصادر الفرنسية[4].

إلا أن طفيل بوزي وغيره نجحوا في خريف ١٨٣٤ في إشعال انتفاضة أخرى في جنوب ألبانيا. وقد تمخّضت الانتفاضة هذه المرة عن تشكيل تحالف محلي في بيرات Berat يشمل زعماء الألوية السبع في الجنوب الذين شكلوا مجلسًا واختاروا لرئاسته عباس لوشنيا A.Lushnja بينما اختير طفيل بوزي لإدارة العمليات العسكرية والصلات مع محمد علي في مصر. وقد أثار هذا التطور الدولة العثمانية التي سارعت في تشرين الثاني ١٨٣٤ إلى إرسال أسطول إلى الشواطئ الألبانية لتمنع وصول أية مساعدة محتملة من الأسطول المصري[5].

وقد أدى انتشار هذه الانتفاضة وسقوط قلعة بيرات Berat في أيدي قوات الانتفاضة إلى تراجع الدولة العثمانية عن استخدام القوة وحتى اللجوء

---

(1) Ibid., p.61.
(2) Ibid., p.66.
(3) Ibid., p.87; Shehu, Ceshtja shqiptare, p.211.
(4) Thengjilli, Kryengritjet popullore, p.87.
(5) Ibid., p.90.

إلى الدبلوماسية والتوصل إلى اتفاقية ترضي بعض مطالب زعماء الانتفاضة في كانون الثاني ١٨٣٥[1] . ولكن طفيل بوزي رفض هذه الاتفاقية وأشعل انتفاضة أخرى في جنوب ألبانيا في شباط ١٨٣٥. وفي هذه المرة وجّه طفيل بوزي بيانًا عامًا يطلب فيه من كل الألبان حمل السلاح لتحرير بلادهم وطرد العسكريين والموظفين العثمانيين، وهو ما يعتبر الأول من نوعه في التاريخ الألباني الحديث، كما إنه وجّه باسم الانتفاضة رسالة إلى محمد علي في مصر ليخبره فيها عن استعداد رجال الانتفاضة لتحقيق استقلال ألبانيا عن الحكم العثماني المباشر[2].

ويبدو أن هذه الانتفاضة، التي شاع في حينه أنها جرت بدعم من محمد علي، قد أثارت ردة فعل دبلوماسية على أعلى المستويات. فقد اهتم مترنيخ مستشار النمسا شخصيًا بالأمر، بعدما وصلته مراسلات زعماء الانتفاضة مع مصطفى باشا في كريت، وطلب من سفيره في لندن إثارة الأمر مع الحكومة الإنجليزية وتوجيه قناصلها لكي تنتبه إلى مثل هذه الصلات وعرقلتها، وهو الأمر الذي طلبه أيضًا من قناصل النمسا في المناطق الألبانية[3]. وقد اهتمت بالأمـر كذلك روسيـا، حليفة الدولـة العثمـانية آنذاك، حيث طلب السفـير الروسي في استانبول من القنصل الروسي في الإسكندرية لقاء محمد علي وتوجيه تحذير إليه حول صلاته بالانتفاضة في جنوب ألبانيا[4]. وفي ما يتعلق بالدولة العثمانية فقد أثارت هذه الانتفاضة، وما شاع عن صلات محمد علي بها، الاستنفار فيها وسارعت لإرسال جيشين لإخماد هذه الانتفاضة التي انتهت باستسلام زعيمها طفيل بوزي بعد وعد بالعفو عنه.

---

(1) Ibid., p.95.

(2) L.Mile, ‹Mbi levizjen nacionalclrimitare gjat sundimit turk›, Studime historike 1, Tirane 1965, p.106.

(3) Thengjilli, Kryengritjet popullore, p.111.

وفي التاريخ الرسمي «تاريخ ألبانيا» يرد أن بوزي وجّه رسالة إلى محمد علي باشا يطلب منه المساعدة:
Instituti i historise, Historia e Shqiperise II, Tirane 1984, p.122.

(٤) انظر نص الرسالة في الملحق.

وفي غضون ذلك كانت مشاعر السخط تنتقل إلى ألبانيا الشمالية، وبالتحديد في اشقودرة التي كانت لا تزال تحتفظ بأنصار لمحاولة مصطفى باشا بوشاتلي للاستقلال عن الدولة العثمانية. فقد كان في هذه الناحية عدد لا بأس به من الضباط والجنود الذين يخدمون في جيش محمد علي، والذي يعتقد أن لهم تأثيرًا عليه. ومن ناحية أخرى فقد أخذت تشيع منذ ١٨٣٣ الأخبار هناك عن قرب وصول «سفن مصرية» تحمل المساعدة للألبان على الانتفاضة. وقد بدأت الانتفاضة في نيسان ١٨٣٣، وربطت المصادر النمساوية وغيرها بوجود مبعوثين لمحمد علي في تلك الأرجاء[١]. وقد استمرت هذه الانتفاضة حتى مطلع تشرين الثاني ١٨٣٣، حين وصل الخبر بموافقة الباب العالي على أول شرط لزعماء الانتفاضة الذي يتمثل في عزل الوالي علي نامق باشا.

ولكن بعد هدوء قصير اشتعلت الانتفاضة في اشقودرة مرة أخرى في أيار ١٨٣٥، وبقيت هذه المرة مستمرة حتى منتصف أيلول حيث تمكنت القوات العثمانية المعززة من دخول المدينة في ١٨/ ٩/ ١٨٣٥. وبهذه المناسبة راجت الأخبار من جديد حول صلات محمد علي بالانتفاضة، على الرغم من نفي محمد علي بالإسكندرية في اليوم الثاني لإخماد الانتفاضة لوجود أية صلة له مع طفيل بوزي أو مع الانتفاضة الأخيرة[٢].

وفي هذا السياق نشرت المجلة الرسمية «المراقب العثماني» Ottoman Monitor في ٣٠/ ٩/ ١٨٣٥ تحليلًا موسعًا عن علاقة محمد علي بالانتفاضات الألبانية، وهو ما أعادت نشره مجلة أزمير Journal d› Asmirne بالفرنسية في ٣/ ١٠/ ١٨٣٥ بعنوان: «حول أوضاع ألبانيا ». وفي هذا التحليل عبّرت المجلة عن الموقف العثماني الذي يرى أن القوى الكبرى متفقة على الحفاظ على الوضع القائم، وأن محمد علي بقي تابعًا للسلطان حسب صلح كوتاهية ١٨٣٣ ولو أراد السلطان أن يسترد سلطته في مصر باستخدام القوى لعارضته القوى

---

(١) انظر نص الرسالة في الملحق.

(2) Thengjilli, Kryengritjet popullore, p.149.

الكبرى لأجل الحفاظ على الوقع القائم. ومن هنا فإن محمد علي كان يثير مثل هذه القلاقل للسلطان في ألبانيا حتى يبعد الاهتمام عنه[1].

وعلى الرغم من الهدوء النسبي الذي ساد المناطق الألبانية بعد الانتفاضة الأخيرة في اشقودرة إلا أن المخاوف من النفوذ القوي لمحمد علي، ولإمكانية قيام انتفاضة جديدة، بقيت قائمة حتى خريف ١٨٣٩ كما تعكسها المصادر النمساوية، أي حتى الجولة الثانية من الحرب التي اندلعت بين محمد علي والسلطان العثماني. ففي رسالة إلى مترنيخ مؤرخة في ٣/ ١١/ ١٨٣٩ ومستندة إلى معلومات القنصلية النمساوية في اشقودرة حول المعلومات المتداولة عن وصول مبعوثين لمحمد علي باشا إلى هذه الأرجاء لحضّ الألبان على انتفاضة جديدة يرد أن محمد له من النفوذ والأنصار في هذه الأرجاء (شمال ألبانيا) ما لا يستدعي إرسال مبعوثين، وأنه يكفي لإشعال الانتفاضة هناك أن تقترب من الساحل الألباني سفينة تحمل العلم المصري[2].

ومع ذلك لدينا من الوثائق المصرية في «عابدين» ما يدل على أن جزيرة كريت بقيت حتى صيف ١٨٣٩ تؤيد المتمردين أو المنتفضين الألبانيين، حيث يرد أن محمد علي كان يأمر بصرف رواتب شهرية لهم من خزينة الدولة[3].

وعلى كل حال؛ إن المصادر المذكورة تسكت عن هذه الصلة بين محمد علي والألبان في البلقان بعد ١٨٤٠ وبالتحديد بعدما استقر الأمر لمحمد علي في مصر، وكأنها بهذا تؤكد على أن محمد علي لم تعد له مصلحة في ذلك.

أما بالنسبة للمؤرخين الألبانيين فهناك (باتريكا ثانجيلي) الذي يرى أن محمد علي كان يهدف فيما لو ربح حربه ضد السلطان أن يضم إليه الروملي أيضًا وأن يعيّن عليه رجله الموثوق مصطفى باشا جريتلي بينما يعين على رأس السناجق الألبانية الزعماء المحليين، ولو أن مثل هذا الأمر لم يتحقق لتخلّي

---

(1) Pirraku, Kryengritja e Shkodres, p.251.

(2) Shehu, Shqiptaret dhe ceshtja lindore, p.

وانظر نص الرسالة الأخيرة في الملحق.

(3) Qemajl Morina, Kreta vend strehim, Rlindja (Prishtine) 03.03. 1979.

محمد علي عن الألبان عندما كانوا في أمس الحاجة إلى مساعدته[1]. وهناك (بدروش شيخو) الذي يرى أن الألبان كانوا بحاجة إلى مساعدة محمد علي ولكنهم لم يكونوا مجرد أداة بيده لأنهم كانوا يقومون بالانتفاضات ضد الإصلاحات المركزية وما كان بوسعهم أن يقبلوا بمثل هذه الإصلاحات لو جاءت بواسطة محمد علي نفسه[2]. وما بين هذين الرأيين يكتفي «تاريخ ألبانيا» الرسمي، الذي كان يمثل وجهة النظر الرسمية خلال حكم الحزب الشيوعي (١٩٤٥-١٩٩٢)، بذكر أن محمد علي (الذي لا يذكر أصله الألباني أو علاقته بألبانيا) إنما كان «يهتم كثيرًا بالانتفاضات في ألبانيا لأنه كان يعتبرها عاملًا مهمًا لإضعاف الإمبراطورية العثمانية التي كان في صراع معها[3]. «أما شكري نعماني الذي صدر كتابه مؤخرًا (٢٠١٢) فيعتبر محمد علي نموذجا للعَرَض أو «السيندروم» الألباني الذي يتمثل في استعداد الألبان للعمل في سبيل الآخرين أكثر من العمل لأجل بلادهم[4].

وعلى كل حال؛ إن السؤال حول دوافع الصلات بين محمد علي والألبان في البلقان، وبالتحديد حول دوره في إثارة الانتفاضات الألبانية ضد الدول العثمانية، لا يزال مفتوحًا بانتظار الكشف عن المزيد من الوثائق وخاصة تلك الموجودة في دار الوثائق المصرية[5].

---

(1) P.Thengjilli, «Kryengritjet ne Shqiperi ne vitin 1833», Studime historike 4, Tirane 1978, p.138; Thengjilli, kryengritjet popullore, p.66.

(2) Shehu, Ceshtja shqiptare, p.203.

(3) Historia e Shqiperise II, p.121.

(4) Nimani,Mehmed Ali pasha, p.35.

ومع ذلك نجد أنه بعد استعراضه الوثائق التي تتحدث عن صلاته مع زعماء الألبان المذكورين أعلاه يقول في ص٥٨ إن هذه «تثبت الدعم المعنوي والمادي لاجل تحرير مسقط رأسه».

(٥) تجدر الإشارة هنا إلى جواب المؤرخ المصري خالد فهمي على السؤال الذي طرحه (هل الغرض من إنشاء الجيش في مصر هو القتال في سبيل تحقيق الاستقلال عن الدولة العثمانية) بما يلي: أرى أن الإجابة على هذا السؤال المهم من واقع الوثائق الأصلية المحفوظة بأصلها التركي في دار الوثائق هو النفي:

رؤوف عباس (محرّر)، مصر في عصر محمد علي: إصلاح أم تحديث؟، القاهرة (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٠م، ص٢٧٠.

ملحق (١)

رسالة السفير العثماني في لندن محمد نامق
الى حكومته في ١٨٣٥/٥/٣
حول موقف فيينا ولندن من تدخل محمد علي في البلقان

«لقد دعاني السفير النمساوي في لندن الأمير استراخن وقرأ علي بالحرف بعض الأمور التي تتعلق بالدولة العثمانية الخالدة، نظرًا لأنه جاءته توصية بذلك من الأمير مترنيخ، وهي الأمور التي أعرضها هنا:

إن الدولة النمساوية، شأنها شأن كل الأوروبيين، ترغب في الحفاظ على الأمن والنظام والهدوء في الإمبراطورية العثمانية. ولكن نظرًا لأن محمد علي تدخّل في أرجاء الإمبراطورية العثمانية وخلق لها المتاعب فإن هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق بالشكل الذي يرجوه الجميع. إن السبب في هذه الحالة هو الباشا المذكور. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يهدف إلى أن يثير القلاقل في ألبانيا بواسطة مصطفى باشا حاكم كريت. وفي هذه المرة فقد حرّض وخدع طفيل بوزي. ومع أن الدولة العثمانية كانت حريصة على إخماد هذه القلاقل الواحدة بعد الأخرى إلا أن الوضع لم يستتبّ في تلك الأرجاء. ليس هناك من شك في صدقية الأخبار حول تلك الأوضاع المضطربة. ولإثبات ذلك هناك مراسلات لمصطفى باشا المذكور مع بعض الزعماء الموجودين في ألبانيا. إن الأمير مترنيخ. ويطلب من الأمير فإن السفير (النمساوي- م.الأرناؤوط) سيعرض هذه الأمور على وزير الخارجية الإنكليزي بهدف أن تقوم الدولة بتوجيه قناصلها في اشقودرة وكريت وألبانيا والسفير المفوّض لدى الحكومة اليونانية لكي ينتبهوا ويعرقلوا أي نشاط سيئ لمحمد علي.

هذا ماورد في النص المذكور.

وقد وعدني السفير المذكور أن يثير هذه الأمور مع رئيس الحكومة الإنكليزية، وسينقل لي الجواب الذي سيحصل عليه بعد عدة أيام، وسأقوم بإرساله فور وصوله إليّ».

المصدر:

Kryengritjet popullore ne vitet 30 te shekullit XIX-Dokumente osmane, Tirane(Instistuti i historise)1978, pp.192 - 193

ملحق (٢)

رسالة الصدر الأعظم إلى مشير البلاط في أيلول ١٨٣٥

حول تحذير روسيا إلى محمد علي

«لقد زار البارحة تلماك Telmak وزير الخارجية وأخبره أنه بعد انتشار الخبر قام السفير (الروسي- م. الأرناؤوط(بالكتابة إلى دوهامل القنصل الروسي في الإسكندرية بأنه لو ثبت أن والي مصر له يد في هذه الانتفاضة فسيلحق به الضرر من جرّاء ذلك، ولذا فإن عليه أن يقطع أية صلة بها.

وفي الجواب الذي جاءه الآن من دوهامل ورد أن المذكور (محمد علي) قال له: «لقد قابلت طفيل بوزي مرة واحدة في حياتي. وبعد صلح كوتاهية لم تعد لي مراسلات مع أي رجل آخر باستثناء ممثلي في العاصمة وصرّافي هناك. وحتى طفيل بوزي المذكور فقد زكّاه لي مصطفى باشا سر عسكر كريت، وخصّصت له راتبًا شهريًا مقداره ٥٠٠٠ قرش بسبب ظروفه المادية الصعبة... وفي ما يتعلق بالانتفاضة في ألبانيا فهي ليست بالأمر العظيم بالنسبة لي. إن هذا (ضعف الانتفاضة – م. الأرناؤوط) يثبت أنه ليس لي يد فيها، لأنه لو كان لي يد فيها لما كانت كذلك».

المصدر:

Kryengritjet popullore ne vitet 30 te shekullit XIX-
Dokumente osmane, Tirane(Instituti i historise)178, pp.269 - 270

ملحق (٣)

رسالة إلى الأمير مترنيخ من رئيس مكتب زادار
بتاريخ ٣/١١/١٨٣٦
بالاستناد إلى تقرير نائب القنصل النمساوي
في اشقودرة بتاريخ ٢٠/٩/١٨٣٦

إن مبعوثي محمد علي لم يصلوا إلى هذه الباشوية (اشقودرة- م. الأرناؤوط) ولن يصلوا بالتأكيد للأسباب التالية:

أ. إن باشوية اشقودرة في حالة حرب مستمرة مع سلطة السلطان، سواء بالسلام أو بالأفكار أو برفض الأوامر لتقديم مجندين أو حول تخفيض العملة أو حول ضريبة العشور إلخ.

إن هذا الموقف العدائي معروف لحكومة السلطان، ولذلك فهي تحرص بوعي على مراقبة الأشخاص الأجانب بدقة يمكن أن يُحسد عليها من قبل الدول الأوروبية. ولذلك فإنّ مبعوثي محمد علي يمكن أن يتمّ اكتشافهم بسرعة.

ب. إن حاكم مصر يعرف أن لديه أنصارًا بين الألبان في باشوية اشقودرة. فهو كان يستقبل ويكرّم ويغدق الأموال لكل أولئك المتمردين الذين كانوا يغادرون ألبانيا. وقد أمّن لهم وثائق للعودة إلى بلادهم، حيث إنهم مع وصولهم إلى أشقودرة كانوا يتحدثون عن استقباله لهم، مما كان يزيد في نفوذه هناك.

ج. إن حاكم مصر يعرف أنه له مؤيدين علنيين له في كل ألبانيا وليس فقط بين الألبان الذين عادوا من مصر. وكل أولئك يفرحون لهرب قائد الأسطول العثماني (إلى مصر م. الأرناؤوط)، ويعتقدون أن محمد علي شخص غير عادي، محمي من السماء، حمل مسؤولية حماية الإسلام.

د. أن محمد علي يعرف حقّ المعرفة أنه لا يمكن أن يشعل انتفاضة في اشقودرة بواسطة الوعود الفارغة لمبعوثيه، حيث إن القلعة هناك مليئة بالسلاح

والعتاد ويمكن أن تحوّل المدينة إلى ركام. ولكن الانتفاضة يمكن أن تشتعل هناك حين تأتي سفينة واحدة تحمل العمل المصري وترسي المرساة في ميناء القديس جوفاني أو ميناء أولتشين أو ميناء تيفار، حيث يمكن أن تنزل عددًا قليلًا من الرجال والأهم من ذلك العتاد والمال.

المصدر:

Bedrush Shehu, Ceshtja shqiptare ne vitet 30 te shek XIX, Prishtine (Instituti i historise)1990, pp.212 - 214.

العلاقات المصرية اليوغوسلافية
(١٩٤٤- ١٩٥٩)

محمد عفيفي[(١)]

لا تهدف هذه الدراسة إلى التأريخ لمسلمي «يوغوسلافيا السابقة» في التاريخ المعاصر، أو حتى دراسة الجذور التاريخية للحرب الأهلية هناك، بل تطمح الدراسة إلى معالجة بعض النقاط المهمة المتعلقة بمكانة مصر في العالم الإسلامي، وتطبيق ذلك على حالة مسلمي يوغوسلافيا تحت الحكم الشيوعي. كما تهدف الدراسة أيضًا إلى دراسة المواقف الرسمية والشعبية تجاه مسألة مكانة مصر في العالم الإسلامي، وحساسية التعرّض للأقليات الإسلامية نظرًا لارتباط ذلك الأمر بمبدأ هام وخطير في العلاقات الدولية، وهو التدخل في الشؤون الداخلية. وتحاول الدراسة استقصاء أهمية الدور الإسلامي في السياسة الخارجية لمصر في العهدين الملكي والثوري وطبيعة هذا الدور، والاختلافات حول تطبيقه، إن وجدت، بين العهدين. وأخيرًا تبرز الدراسة مدى انعكاس علو المد الإسلامي والتعاطف مع فكرة «الأخوّة الإسلامية العالمية» على مسألة الوحدة الوطنية في مصر وحساسية غير المسلمين من هذا الأمر حتى أثناء العهد الملكي.

ويرجع التحـــديد الزمني للدراسة إلى الرغبة في دراسة التغـــيرات التي صاحبت انتهاء الحرب العالمية الثانية، والنزاع على السلطة في يوغوسلافيا منذ

---

(١) رئيس قسم التاريخ في جامعة القاهرة، مصر.

عام ١٩٤٤- حتى قبيل انتهاء الحرب- ووصول تيتو إلى الحكم، وتطبيق النظام الشيوعي، وإحداث العديد من التغيّرات في بنية المجتمع اليوغوسلافي تعرض بعضها - كما سنرى- بشكل مباشر للأوضاع الإسلامية في يوغوسلافيا. يضاف إلى ذلك ظروف عدم الاستقرار الدولي حتى بعد انتهاء الحرب وانعكاس ذلك على مسألة الأقليات في يوغوسلافيا.

أما اختيار عام ١٩٥٩ فيعود إلى سببين؛ الأول: الرغبة في دراسة البعد الإسلامي في السياسة الخارجية الناصرية، تطبيقًا على حالة مسلمي يوغوسلافيا. والثاني: دراسة مسألة أوضاع مسلمي يوغوسلافيا وعلاقاتهم بمصر بعد مؤتمر باندونج ونشأة رابطة دول عدم الانحياز، والصلات الوثيقة التي ربطت يوغوسلافيا بمصر وبالعديد من دول العالم الإسلامي. ولقد وقفنا عند عام ١٩٥٩ نظرًا لصعوبة الحصول على وثائق أو معلومات دقيقة حول هذا الشأن بعد هذا التاريخ، فضلًا عن تغيّر أوضاع مسلمي يوغوسلافيا وانفتاحهم النسبي على العالم الإسلامي، وبالتالي اختفاء الكثير من مظاهر الإشكالية محل الدراسة.

أولًا، العهد الملكي:

بدأ الاهتمام المصري مبكرًا- سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي - بأوضاع مسلمي البوسنة والهرسك، وحتى قبل أن تنتهي الحرب العالمية الثانية. وجاء هذا الاهتمام نتيجة اتصالات زعماء مسلمي البوسنة والهرسك المقيمين في الخارج بوزارة الخارجية المصرية، إذ تلقّت الوزارة في منتصف عام ١٩٤٤ العديد من الرسائل من جانب ممثلي مسلمي يوغوسلافيا في إستانبول، ومن بعض رؤساء الجمعيات الدينية وأعضاء المجلس الإسلامي في الخارج. وشرح هؤلاء الزعماء للوزارة ما تعرّض له مسلمو يوغوسلافيا من هجمات من جانب قوات التحرير اليوغوسلافية في خضم أحداث الحرب العالمية الثانية. وقدّر هؤلاء الزعماء عدد من راح ضحية لهذه الهجمات من المسلمين بأكثر من مائتي ألف قتيل فضلًا عن مدى التخريب الشامل الذي تعرّضت له المناطق الإسلامية

في يوغوسلافيا. كما لفت هؤلاء أنظار الخارجية المصرية إلى الأحوال المتردية في مدينة سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك، حيث يوجد أكثر من ٣٠ ألف طفل مسلم يعانون من أوضاع سوء المعيشة. وحثّ هؤلاء الزعماء الخارجية المصرية على التدخل على الصعيد الدبلوماسي لرفع العسف عن مسلمي يوغوسلافيا انطلاقًا من مكانة مصر في العالم الإسلامي.

من هنا قامت الخارجية المصرية ومن خلال قنوات العمل الدبلوماسي بالاتصال بممثلي دول الحلفاء المنتصرة في الحرب العالمية الثانية - بريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفييتي- وأيضًا يوغوسلافيا في مصر لإطلاعهم على مدى قلق الحكومة المصرية مما وصل إليها من أخبار عن حدوث اضطهادات لمسلمي يوغوسلافيا. ودعت الخارجية المصرية ممثلي هذه الدول إلى ضرورة التحرّي عن حقيقة هذه الأوضاع، وفي حالة صحة هذا الأمر، فعلى هذه الدول أن تأخذ على عاتقها التدخل لوضع حد لمثل هذه التجاوزات.

ولم تكتفِ الخارجية في هذا الشأن بالعمل من خلال القنوات الدبلوماسية، وإنما اتجهت إلى الاتصال بجمعية الهلال الأحمر المصري لتتدخل لدى لجنة الصليب الأحمر الدولية لتقصّي أحوال مسلمي يوغوسلافيا. وبالفعل أرسلت لجنة الصليب الأحمر الدولية تقريرًا إلى جمعية الهلال الأحمر المصري تؤكد فيه مدى سوء حالة مسلمي يوغوسلافيا، ولا سيما أهالي مقاطعة سراييفو ومدى حاجتهم إلى إعانات عاجلة من أغذية وأدوية.

ومن ناحية أخرى، وتعبيرًا عن مدى اهتمام الحكومة المصرية بهذا الموضوع، قامت الخارجية المصرية[١] بعرض الموضوع برمّته على مجلس الوزراء في اجتماعه المنعقد في ٢٨ يونيو ١٩٤٤. وبعد تباحث الأمر، وبناءً على حساسية الموضوع لدى الرأي العام المصري، أصدر مجلس الوزراء المصري بيانًا إلى الرأي العام موضحًا فيه كافة تفاصيل الأمر والجهود السابقة

(١) كان مصطفى النحاس يجمع في هذه الأثناء بين رئاسته للوزارة ووزارة الخارجية. انظر يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية، الأهرام، القاهرة، ١٩٧٥، ص٤٤٧، ٤٥٠.

للخارجية المصرية في هذا الشأن. واهتم المجلس اهتمامًا ملحوظًا بالتخفيف من أحوال سوء المعيشة التي يعانيها مسلمو يوغوسلافيا، من هنا وافق المجلس على التبرّع بمبلغ عشرين ألف جنيه لتقديم المساعدات الإنسانية العاجلة لهم، وكان من الممكن أن يوقع هذا الإجراء الحكومة المصرية في أزمة دبلوماسية مع يوغوسلافيا، على أساس أن هذا الأمر يُعتبر تدخلًا في الشؤون الداخلية ليوغوسلافيا. من هنا، عملت الحكومة المصرية على تقديم هذه المساعدات عن طريق منظمات الإعانة الدولية، إذ قامت جمعية الهلال الأحمر المصري بإرسال هذه المساعدات إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر لتقوم بدورها بتولي هذا الأمر.

ويتضح من مجمل الإجراءات التي اتبعتها الحكومة المصرية في هـــذا الشأن حرصها الشديد على اتباع الطرق الدبلوماسية، وأيضًا العمل من خلال المنظمات الدولية غير الرسمية.

وفي الوقت نفسه حرصت الحكومة على إرضاء الرأي العام المصري المشبع بالفكرة الإسلامية، دون أن يأخذ عليها -دوليًا- في بياناتها التي تصدرها أي شبهة للتعصب للإسلام، أو التدخل لدوافع دينية في الشؤون الداخلية ليوغوسلافيا. من هنا كان حرص الحكومة المصرية على حل هذه المعادلة الصعبة من خلال التأكيد في بيانها الخاص بأوضاع مسلمي يوغوسلافيا أنها تتدخل في هذا الأمر «لداعي الإنسانية والأخوّة الإسلامية». وهكذا قدمت الحكومة مصطلح «إنساني» الذي توافق عليه الحكومات الغربية وله صداه لدى الرأي العام العالمي، ثم تلت ذلك بمصطلح «الأخوّة الإسلامية»، وهو المصطلح الذي تخاطب من خلاله الرأي العام المصري الشغوف إلى حث الحكومة المصرية على اتخاذ خطوات إيجابية في هذا الشأن.

على أية حال لم تقتصر المواقف وردود الأفعال تجاه مسلمي يوغوسلافيا على ما اتخذته الأوساط الرسمية المصرية، وإنما امتدت إلى المستوى الشعبي. فقد سارعت جمعية الهلال الأحمر المصري، وهي جمعية أهلية، إلى إصدار نداء إلى الشعب المصري موضحةً فيه مدى المحن الشديدة التي يتعرض لها

مسلمو يوغوسلافيا، وتبرّعت الجمعية لهم بمبلغ خمسة آلاف جنيه. كما قادت الجمعية حملة تبرعات شعبية، إذ دعت كلًا من الهيئات والأفراد إلى التقدم للتبرّع لصالح مسلمي يوغوسلافيا من خلال الجمعية، وأصدرت إيصالات خاصة بذلك. ومن الملاحظ أن جمعية الهلال الأحمر قد سارت على نفس أسلوب الحكومة المصرية في الدقة في اختيار الألفاظ نظرًا لحساسية الأمر. فقد حرصت الجمعية في بداية النداء الذي أصدرته على ذكر لفظ «مسلمي» يوغوسلافيا ولكنها في حثها المصريين على التبرّع استخدمت عبارات أكثر عمومية. فهي كانت تدعو المصريين إلى التبرّع «وفاء لواجبهم الإنساني السامي، وتذكرًا وتقديرًا لأنعم الله عليهم إذ وقاهم شر كثير من المصائب التي حلت في الأرض وتناولت إخوانهم في البشرية»[١].

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية عادت مسألة مسلمي يوغوسلافيا تطرح نفسها من جديد على الساحة المصرية. فقد صاحب ذلك وصول تيتو إلى الحكم وتطبيق المذهب الشيوعي في يوغوسلافيا، حيث ترتّب على هذا الأمر إجراء العديد من التغيّرات في أنظمة الإدارة اليوغوسلافية، وتعرّضت بعض مظاهر الحياة الإسلامية في يوغوسلافيا لهذا النمط من التغيّرات. ففي إطار رغبة النظام الشيوعي في إلغاء كافة مظاهر التعدد والاختلاف بين اليوغوسلاف، وأيضًا انطلاقًا من نظرة النظام الشيوعي اليوغوسلافي إلى الدين[٢]، قامت الحكومة اليوغوسلافية في عام ١٩٤٦ بإلغاء المحاكم الشرعية، حيث حلّت محلّها محاكم أخرى غير دينية. كما عملت الحكومة الجديدة على إعادة تنظيم إدارة الأوقاف وأوضاعها، وهي التي كانت العماد الطبيعي لكافة مظاهر الحياة الإسلامية في يوغوسلافيا[٣]. وتعلّلت الحكومة اليوغوسلافية بسوء حالة إدارة الأوقاف والاختلاسات العديدة في أموالها،

---

(١) جريدة الأهرام، ٢٩ يونيو ١٩٤٤.

(2) Popivic, Alexandre, Médiateurs et métaphors, le cas des musulmons yougoslaves, Paris, 1989, p.17.

(٣) عبد الرحمن زكي: المسلمون في العالم اليوم، ج٥، ط١، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص٨٧.

فضلًا عن شكوى مستأجري عقارات الأوقاف إلى الحكومة من تعسّف إدارة الأوقاف معهم(١).

وصاحب ذلك حملة اعتقالات قامت بها الحكومة اليوغوسلافية لعدد من رموز المجتمع الإسلامي هناك. وقد تعدّدت أسباب اعتقال هؤلاء، إذ اتهمت الحكومة بعض كبار تجار سراييفو بالاتجار بالسوق السوداء فضلًا عن استخدامهم لجامع سراييفو لتخزين البضائع فيه(٢). كما اعتقلت البعض الأخر ومنهم الدكتور حازم بيفتش مدير الأوقاف، فضلًا عن قاسم دوبروجا رئيس هيئة علماء البوسنة، وغيرهم من رموز الاتجاه الإسلامي بتهمة التعاون مع الاحتلال الألماني في أثناء الحرب العالمية الثانية فضلًا عن ولاء هؤلاء الزعماء المسلمين لحكومة كرواتيا التي تشكلت في أثناء الحرب، وكانت من وجهة نظر حكومة تيتو موالية للنازية(٣).

وفي أعقاب هذه الإجراءات طلبت الخارجية المصرية من مفوضيتها في بلجراد ضرورة تحري أوضاع المسلمين في يوغوسلافيا، ودراسة ما قام به النظام الشيوعي الجديد من تغيّرات، وأثر ذلك على المسلمين بها. وقد أشار تقرير المفوضية المصرية إلى نقطة هامة حيث أوضح أن تعسّف الحكومة اليوغوسلافية لم يقتصر على الجانب الإسلامي فحسب وإنما امتدّ ليشمل كافة المؤسسات الدينية، في إطار خطة الحكومة لتحجيم دور المؤسسات الدينية لصالح مؤسسات النظام الشيوعي الجديد.

---

(١) وزارة الخارجية المصرية، المفوضية الملكية المصرية بمدينة بلجراد، محفظة ٢ ملف ٢١٦/٧/١ ج٣، رسالة من القائم بالأعمال في بلجراد إلى وكيل وزارة الخارجية في ٢٠ نوفمبر ١٩٤٦. ومن ناحية أخرى يلاحظ أن مسألة الأوقاف وإدارتها، فضلًا عن مسألة بقائها أو إلغائها كانت مسألة مطروحة آنذاك في مختلف العالم الإسلامي، ولكن هذا لا يقلل من أثر سياسة حكومة تيتو الشيوعية في إضعاف الطابع الإسلامي لمسلمي يوغوسلافيا. عن الأوقاف في يوغوسلافيا انظر: أبو الفتح شرف الدين حجازي، التنظيم الإسلامي ودوره في الحفاظ على الهوية والتراث والحضارة الإسلامية في يوغوسلافيا السابقة، مجلة الدارة، الرياض، ربيع الآخر، ص ١٧٧.

(٢) المفوضية الملكية المصرية ببلجراد، الوثيقة السابقة في ٢٠ نوفمبر ١٩٤٦.

(٣) وزارة الخارجية، المفوضية المصرية ببلجراد، محفظة ٢، ملف ٢١٦/٧/ج٣ في ١٤ ديسمبر ١٩٤٦.

إلا أنه من الملاحظ أن المواجهات الحادة من جانب الحكومة تجاه المؤسسات الدينية تركّزت إلى حد كبير تجاه الجمعيات والرموز الإسلامية، وتجاه الكنيسة الكاثوليكية، التي يتبعها الكروات والسلوفيون بينما كان الصرب- وهم عماد الدولة- من الأرثوذكس[1]. لذلك ظهر الأمر على أنه لون من ألوان التعصب العرقي والديني القديم من جانب الصرب تجاه بقية العناصر اليوغوسلافية.

ولقد اقترح المسؤول عن المفوضية المصرية القيام بزيارة إلى سراييفو للاتصال بزعماء المسلمين بها، وتقصّي أحوال المسلمين هناك. ومن أجل إحاطة هذه الزيارة المقترحة بأكبر قدر من السرية، عمل المسؤول على ألا تكون زيارته في الشتاء، بل في الصيف حتى لا تلفت زيارته الانتباه، وتكون حينئذٍ محط مراقبة الحكومة اليوغوسلافية، كما علّق المسؤول حدوث الزيارة من عدمه، على تأكده قبل القيام بالزيارة بإمكانية حدوث لقاءات سرّية مع زعماء المسلمين هناك، حتى تكون زيارته ذات جدوى.

وفي الحقيقة لا تعد الزيارة المقترحة للدبلوماسي المصري أولى الاتصالات السرّية بين المفوضية المصرية وزعماء المسلمين اليوغوسلاف، إذ أشار تقرير من المفوضية في ديسمبر عام ١٩٤٦ إلى حدوث اتصال سرّي سابق لبعض المسلمين بالمفوضية، وخوف المفوضية على هؤلاء المسلمين إذا عادوا إلى الاتصال بها من جديد. من هنا كان تأكيد المفوضية على أهمية الزيارة المقترحة إلى سراييفو.

لكن الخارجية المصرية تخوّفت من إتمام هذه الزيارة المقترحة والعواقب الدبلوماسية التي قد تنتج عنها، إذا نجحت الحكومة اليوغوسلافية في كشف أمرها. لذلك أرسل وكيل وزارة الخارجية المصرية برسالة إلى المفوضية المصرية في يناير عام ١٩٤٧، مشددًا على ضرورة الامتناع عن هذه الزيارة أو حتى الاتصال بالمسلمين بصفة عامة، إذا كان ذلك سيثير الشكوك من جانب

(١) يلاحظ في هذا الشأن أن الزعيم الشيوعي تيتو كان من أصل كرواتي.

الحكومة اليوغوسلافية. كما نبّه إلى ضرورة أن تكون المفوضية المصرية على جانب كبير من الحذر واليقظة في هذا الشأن[1].

ولم يقتصر الاهتمام الرسمي بأوضاع مسلمي البوسنة والهرسك على وزارة الخارجية فحسب، إذ أبدى القصر الملكي في مصر اهتمامًا ملحوظًا بهذا الأمر. ويأتي ذلك في إطار حرص الملك فاروق على إبراز الهوية الإسلامية للقصر، سواء نظرًا لمكانة مصر في العالم الإسلامي، وحرص القصر على استثمار ذلك، أو لعلوّ المدّ الإسلامي في مصر آنذاك. فعندما التقى الوزير المفوض ليوغوسلافيا في القاهرة بالملك فاروق في عام ١٩٤٦، أبدى الملك اهتمامًا بشأن المسلمين هناك، وطلب مقابلة مندوب الطلبة اليوغوسلاف المسلمين في القاهرة. ووعد الوزير الملك بإتمام ذلك، إلا أن الوزير المفوض سرعان ما أُقيل من منصبه وعاد إلى بلاده مما أدى إلى عدم إتمام الزيارة المقترحة.

لكن الطلاب اليوغوسلاف المسلمين في القاهرة عاودوا المحاولة مرة ثانية، إذ طلب مندوبهم من الديوان الملكي في القاهرة في عام ١٩٤٧ سرعة إتمام المقابلة المقترحة مع الملك، حتى يتم إطلاع الأخير على تطورات أوضاع مسلمي يوغوسلافيا، وأعدّ المندوب مذكرة بشأن الأوضاع المتردية لمسلمي يوغوسلافيا قدمها إلى الديوان الملكي، تمهيدًا لإتمام اللقاء المرتقب. إلا أننا لا نعلم على وجه اليقين إذا كان الملك قد التقى بمندوب الطلبة أم لا. على أية حال هذا الأمر يوضح لنا مكانة مصر بين المجتمعات الإسلامية، وهي المكانة التي حرص مندوب الطلبة على ذكرها في مذكرته للملك فاروق «في الواقع تتجه أنظار الجاليات الإسلامية إلى مصر أكثر من أي بلد آخر»[2]. وفي الوقت نفسه حرص القصر على استثمار هذه المكانة وتدعيمها دون أن يترتب على ذلك أي مشاكل خارجية، لأننا لم نعثر على أية إجراءات إيجابية من جانب القصر في هذا الشأن.

---

(١) خطاب من وكيل وزارة الخارجية المصرية إلى المفوضية المصرية في بلجراد، يناير ١٩٤٧، ملف ٢١٦/ ٧/ ١ سري (محافظ بلجراد).

(٢) وزارة الخارجية المصرية، محافظ بلجراد، تقرير من مندوب الطلبة اليوغوسلاف في مصر مرفوع إلى الفريق عمر فتحي باشا كبير الياوران. في ١٠ مايو ١٩٤٧، بدون أرقام.

وشهد عام ١٩٤٧ تصعيدًا للاهتمام العربي الإسلامي بأوضاع الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا، سواء كرد فعل للحملة العالمية المناوئة للحكومات الشيوعية الجديدة وازدياد انتشار الشيوعية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أو من جراء الاهتمام الملحوظ الذي أبدته جامعة الدول العربية بأحوال العالم الإسلامي، لا سيما وأن رئيس الجامعة عبد الرحمن عزام (مصري الجنسية) كان قد عرف عنه من قبل الاهتمامات الإسلامية[1]. من هنا جرت اتصالات عديدة بين المسلمين في القاهرة - مقر الجامعة- وعبد الرحمن عزام في هذا الشأن، وخاصة في شأن اللاجئين المسلمين اليوغوسلاف في إيطاليا والنمسا وتردي أوضاعهم المعيشية. وطالب هؤلاء الطلاب دول الجامعة العربية بالسماح بإيواء هؤلاء اللاجئين وإقامتهم بها، حتى يتم تنظيم القوى المناوئة للنظام الشيوعي الجديد في يوغوسلافيا تمهيدًا لإسقاطه، ومن ثم يعود هؤلاء إلى يوغوسلافيا من جديد.

وقد أجرى عبد الرحمن عزام العديد من المشاورات مع الدول العربية، أعضاء الجامعة، كما قام بزيارة بعضها من أجل هذا الشأن. وكلّلت بعض هذه المحاولات بالنجاح، إذ قام عبد الرحمن عزام في إبريل عام ١٩٤٧ بزيارة إلى دمشق قابل خلالها الرئيس السوري شكري القوتلي، حيث تباحثا معًا بشأن اللاجئين من المسلمين اليوغوسلاف. وفي أعقاب هذا اللقاء أعلن عبد الرحمن عزام استعداد الحكومة السورية لاستقبال هؤلاء اللاجئين وإقامتهم في سوريا، لكن هذا الأمر كانت تحيط به بعض الصعوبات في ما يتعلق بنقل هؤلاء اللاجئين من أوروبا ونفقات ذلك، وهل تقوم بهذا هيئة الإغاثة والتعمير الدولية المشرفة على شؤون اللاجئين؟ أم ترفض فكرة انتقال هؤلاء اللاجئين للإقامة في البلاد العربية؟

وعلى إثر الإعلان السوري بالموافقة على استقبال هؤلاء اللاجئين، حرص الطلاب اليوغوسلاف في القاهرة على حثّ الحكومة المصرية على

(١) عن عبد الرحمن عزام انظر، جميل عارف: صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية، عبد الرحمن عزام، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٧٧.

اتخاذ إجراءات مماثلة، مذكرين إياها بما قامت به سوريا. من هنا ناشد الطلاب اليوغوسلاف الحكومة المصرية التدخل من أجل إنقاذ بعض اللاجئين المسلمين اليوغوسلاف في إحدى الجزر الإيطالية، والذين ساءت أحوالهم هناك. وكان من ضمن هؤلاء اللاجئين بعض الوزراء من المسلمين الذين شاركوا في حكومة كرواتيا، التي تكوّنت في كنف الاحتلال الألماني ليوغوسلافيا في أثناء الحرب العالمية الثانية، لكننا لا نعرف على وجه الدقة مدى تدخل الحكومة المصرية بشأن هؤلاء اللاجئين، ومسألة نقلهم إلى القاهرة[1].

وإزاء سياسة النظام الشيوعي الجديد في تقليص دور الدين وتحجيم المؤسسات الدينية، وعدم الاهتمام بدور العبادة، تبرّعت بعض أجهزة الحكومة المصرية بمبلغ من المال من أجل إصلاح وصيانة المسجد الكبير ببلجراد، لكن الحكومة اليوغوسلافية اعترضت على هذا الأمر بشدة واعتبرته تدخلًا في شؤونها الداخلية. من هنا أدركت الحكومة المصرية صعوبة الأمر وحرجه وفي الوقت نفسه كان على الحكومة أن تجد مخرجًا تستطيع به إبراز دورها الإسلامي، سواء أمام الشعب المصري، أو مسلمي يوغوسلافيا، دون أن يتسبب ذلك في أزمة دبلوماسية مع الحكومة اليوغوسلافية. من هنا عمدت الحكومة المصرية إلى توجيه هذا المبلغ إلى شراء بعض الكتب الإسلامية، وإهدائها إلى مكتبة «مدرسة الغازي خسرويك» في سراييفو[2].

ولم يقتصر الاهتمام بمشكلة مسلمي البوسنة والهرسك آنذاك على الحكومة المصرية أو حتى الجمعيات غير الحكومية، إنما انتقل الاهتمام إلى قطاعات عريضة من الشعب المصري. وعبّر عن ذلك اهتمام الصحف المصرية على اختلاف اتجاهاتها العلمانية والإسلامية بهذا الشأن، حتى إن صحيفة علمانية

(١) تقرير مندوب الطلاب اليوغوسلاف إلى الديوان الملكي، وثيقة سابقة. على أية حال لم تكن القاهرة منقطعة الصلة بشؤون يوغوسلافيا منذ الحرب العالمية الثانية أو حتى بعدها، إذ أقيم في مصر العديد من معسكرات الإيواء لليوغوسلاف المناوئين للاحتلال النازي ليوغوسلافيا. وتشكلت في القاهرة حكومة وطنية يوغوسلافية ضد احتلال المحور ليوغوسلافيا. وكان لهذه الحكومة راديو موجه من القاهرة. انظر: الأهرام ١٢/ ٨/ ١٩٤٣م.

(٢) وزارة الخارجية، محافظ بلجراد، ملف ٧٠٩/ ٨١/ ج٢، تقرير أعدته إدارة شرق أوروبا في الخارجية المصرية عن أحوال يوغوسلافيا، وتاريخ التقرير ٦ مايو ١٩٥٨.

مثل «المصري» قدمت استعراضًا عميقًا وحماسيًا في الوقت نفسه لأوضاع مسلمي البوسنة والهرسك في ست حلقات. وكتب هذه الحلقات كاتب واحد، ذكر أنه كتبها على إثر زيارة عمل قام بها في البوسنة والهرسك، وناشد الحكومة المصرية والمجتمع الدولي التدخل لإنقاذ مسلمي البوسنة والهرسك[1].

كما أولت جريدة «الأهرام» اهتمامًا إلى حدٍ ما بأوضاع مسلمي يوغوسلافيا، وإن حرصت في الوقت نفسه على التأكيد على أن تعسّف النظام الشيوعي الجديد ليس قاصرًا على المسلمين فحسب وإنما هو موجه أيضًا إلى الكاثوليك. وأبرزت الأهرام مطالبة رئيس أساقفة وستمنستر الكاثوليكي للأمم المتحدة التدخل للتحقيق في جرائم نظام تيتو ضد الكنيسة اليوغوسلافية الكاثوليكية، وأيضًا ضد مبدأ الإنسانية بصفة عامة. ونقلت «الأهرام» ما جاء على لسان الناطق بلسان الفاتيكان من قتل النظام الشيوعي الجديد لحوالى ستين كاهنًا كاثوليكيًا، هذا فضلًا عن إلقاء القبض على البعض الآخر[2]. كما نلاحظ الاهتمام الطبيعي والمُفسَّر من جانب الصحافة الإسلامية في مصر بأوضاع مسلمي يوغوسلافيا[3].

ويبدو أن الاهتمام الرسمي المصري والعربي والحملات الصحفية والشعبية المنددة بسياسة النظام الشيوعي الجديد في يوغوسلافيا قد بدأت تثير الحرج والقلق لحكومة تيتو، ويرجع ذلك إلى عدم استقرار النظام الجديد في يوغوسلافيا، واضطراب موقعه في السياسة الدولية. ففي البداية اعتبر نظام تيتو الشيوعي امتدادًا طبيعيًا للتغلغل السوفيتي في شرق أوروبا في أعقاب الحرب العالمية الثانية. من هنا واجه نظام تيتو عداء شديدًا في البداية من المجتمع الغربي، والذي كان يعدّ العدّة لإسقاطه. ولكن الخلاف سرعان ما دب بين ستالين في الاتحاد السوفيتي وتيتو، وخرجت يوغوسلافيا من دائرة الاتحاد

---

(١) المصري من ٣/ ٩/ ١٩٤٩ إلى ٧/ ١٠/ ١٩٤٩.

(٢) الأهرام ٢٣ إبريل ١٩٤٦ و٢٥ إبريل ١٩٤٦.

(٣) انظر على سبيل المثال: مجلة الإخوان (شهرية) العدد ١١٦، رمضان ١٣٦٥هـ، وأيضًا الاعتصام، ذو الحجة ١٣٦٨هـ.

السوفييتي، وتلا ذلك ميل تيتو نحو الغرب وتعقّد علاقاته مع ستالين. لذلك كانت يوغوسلافيا سواء مع ستالين أو حتى مع الغرب تدرك مدى حساسية موقعها في السياسة الدولية، ومن ثم حرصت يوغوسلافيا دائمًا على تحسين علاقاتها بأكبر قدر ممكن من الدول. ومن هنا عملت يوغوسلافيا على تحسين صورتها لدى الرأي العام الإسلامي والمصري بصفة خاصة في ما يتعلق بأوضاع المسلمين وموقف يوغوسلافيا من الإسلام.

ويتضح ذلك جليًا من دراسة الدبلوماسية اليوغوسلافية وطريقة تعاملها مع مصر الرسمية والشعبية، في ما يتعلق بتحسين صورة أوضاع المسلمين في يوغوسلافيا، حتى توضّح للجميع مدى اندماج المسلمين في النظام الجديد، وإنكار تهمة العرقية الصربية واستئثارها بالمناصب الحكومية. كما لجأت يوغوسلافيا إلى إرسال بعض كبار الشخصيات الحكومية من المسلمين إلى زيارات عمل إلى مصر لتوضيح صورة أوضاع المسلمين في ظل نظام الحكم الجديد[1].

ففي إبريل عام ١٩٤٧ عقد وزير يوغوسلافيا المفوض بالقاهرة مؤتمرًا صحفيًا بمناسبة زيارة رئيس الجمعية الوطنية اليوغوسلافية، الذي اصطحب معه أحد النواب اليوغوسلاف المسلمين وهو السيد درويش طافرو، وردّ هذا النائب على أسئلة الصحفيين بشأن أوضاع مسلمي يوغوسلافيا نافيًا ما تردد عن وقوعهم تحت تعسف واضطهاد النظام الجديد، مؤكدًا تمثيل المسلمين في البرلمان اليوغوسلافي، وانتشارهم في المناصب الحكومية. وردّ درويش طافرو الشائعات الخاصة بسوء أحوال مسلمي يوغوسلافيا، إلى من أسماهم «مجرمي الحرب» وهم المسلمون الذين تعاونوا مع النازي أثناء الحرب العالمية الثانية، والذين فرّ معظمهم إلى خارج يوغوسلافيا، وعملوا على نشر الدعايات المضادة للنظام الجديد، وتحدث رئيس الجمعية الوطنية اليوغوسلافية مؤكدًا هذا الكلام موضحًا أهمية دور المسلمين في بناء يوغوسلافيا الجديدة[2].

---

(١) الأهرام ٢٥ مارس ١٩٤٧.

(٢) الأهرام ٢٠ إبريل ١٩٤٧.

ولم تكتفِ الحكومة اليوغوسلافية في هذا الشأن بالمؤتمرات الصحفية أو إرسال بعض الساسة المسلمين إلى القاهرة، وإنما لجأت الحكومة إلى استخدام العلماء اليوغوسلاف المسلمين في تحسين صورتها لدى القاهرة والعالم الإسلامي. من ذلك زيارة شيخ العلماء المسلمين في يوغوسلافيا لشيخ الأزهر في سبتمبر عام ١٩٤٩، ونشرت عدة صحف مصرية أخبار هذا اللقاء. وفي البداية سأل شيخ الأزهر شيخ العلماء اليوغوسلاف عن أعداد مسلمي يوغوسلافيا فقدّرها الأخير بحوالى مليونين. وتحدث شيخ الأزهر عن ما وصل إليه من تقارير تؤكد وقوع اضطهادات وتعذيب لمسلمي يوغوسلافيا. لكن شيخ العلماء نفى ذلك موضحًا تمتع المسلمين مثلهم مثل بقية مواطنيهم بالحريات الدينية واحتفاظهم بمدارسهم التعليمية والدينية. وأرجع شيخ العلماء إلغاء المحاكم الشرعية في يوغوسلافا إلى رغبة الحكومة في توحيد القضاء، وأن يقف جميع المواطنين أمام المحاكم الوطنية. وفي رأيه أن الحكومة اليوغوسلافية قد احترمت المشاعر الدينية الإسلامية في ما يتعلق بالأحوال الشخصية، إذ خصّصت قضاة مسلمين للنظر فيها. لكن شيخ الأزهر أعلن أنه مع احترامه لوجهة نظر الحكومة اليوغوسلافية إلا أنه كشيخ للأزهر يأسف لإلغاء المحاكم الشرعية في يوغوسلافيا، ويحث العلماء اليوغوسلاف على المطالبة بإعادة المحاكم الشرعية من جديد وعلى أساس سليم.

واستفسر شيخ الأزهر عن مسألة إلقاء القبض على عدد من العلماء المسلمين اليوغوسلاف، ولم ينفِ شيخ العلماء هذا الأمر، ورأى أن القبض على هؤلاء كان بسبب علاقة هؤلاء بالنازي أثناء الحرب العالمية الثانية، أو لمؤامرة بعضهم مع قوى أخرى على قلب نظام الحكم الجديد، وبالتالي فإن القبض عليهم كان لأسباب سياسية وأمنية وليس لأسباب دينية.

وفي إطار حرص يوغوسلافيا على تأكيد احترامها للعقائد الدينية وحرية الممارسة الدينية لمسلمي يوغوسلافيا، وإبرازها لدور الأزهر، طلب الوزير المفوض اليوغوسلافي من شيخ الأزهر موافقته على السماح للحكومة اليوغوسلافية بإرسال بعثات تعليمية من مسلمي يوغوسلافيا إلى الأزهر لتلقي

التعليم الديني به والعودة لشغل هذه المناصب الدينية في يوغوسلافيا، تأكيدًا على احترام يوغوسلافيا للخصوصية الدينية لمسلميها[1].

وكان من الطبيعي إزاء سياسة يوغوسلافيا الرسمية في تحسين صورتها في مصر بالنسبة لأوضاع المسلمين، أن تظهر حملة دعاية مضادة من جانب المعارضة اليوغوسلافية الإسلامية في القاهرة. ففي تقرير أرسله مندوب الطلبة اليوغوسلاف المسلمين في القاهرة إلى الملك فاروق، أوضح المندوب أن النظام الشيوعي اليوغوسلافي درج على إرسال ما أسماه التقرير «ذيوله وأذنابه» إلى القاهرة لتحسين صورة النظام أمام الحكومة والرأي العام المصري، وترى المعارضة الإسلامية أن هؤلاء المسلمين هم أبعد ما يكونون عن الإسلام، إذ إنهم «مسلمون اسمًا لا فعلًا» وهم عملاء للنظام يرددون دائمًا المزاعم الحكومية حول الحرية الدينية في يوغوسلافيا، واندماج المسلمين في النظام الشيوعي الجديد. وأوضح التقرير أن المعارضة الإسلامية في القاهرة واجهت هؤلاء بحملات دعاية مضادة عند زيارتهم للقاهرة[2]، مما يوضّح مدى الحرية المتاحة للطرفين في عرض وجهات نظرهم وكيف كانت القاهرة مسرحًا لذلك.

من ناحية أخرى عملت السياسة الدولية على الاستفادة من مسألة أوضاع الأقليات الدينية في يوغوسلافيا في مناهضة النظام الشيوعي الجديد في إطار السياسة الغربية إزاء الأنظمة الجديدة في شرق أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. من هنا نسمع كثيرًا بعد انتهاء الحرب عن احتضان الغرب للاجئين اليوغوسلاف -وبعضهم من المسلمين- الفارين من النظام الشيوعي. لكن السياسة الغربية تجاه يوغوسلافيا ستتغير كثيرًا بعد الخلاف الحاد بين تيتو وستالين، وخروج يوغوسلافيا من الدائرة السوفيتية في شرق أوروبا.

وستتوطد أواصر الصداقة إلى حدٍ كبير بين الغرب ويوغوسلافيا، ولا سيما مع تزايد العداوة بين الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا، ووصوله إلى

---

(١) المصري وأيضًا الأهرام ٢٢ سبتمبر ١٩٤٩، ولقد قدم الوفد اليوغوسلافي هدية لشيخ الأزهر عبارة عن طقم من القهوة مموَّه بالذهب من مصنوعات يوغوسلافيا.

(٢) تقرير مندوب الطلبة اليوغوسلاف للملك فاروق في أول مايو ١٩٤٧، مصدر سابق.

حد التهديد السوفييتي بغزو يوغوسلافيا. ولا أدل على ذلك من تصريح تيتو لأحد الصحفيين الأمريكيين مجيبًا عن التهديد السوفييتي ليوغوسلافيا، بأنه إذا تعرّضت يوغوسلافيا لهجوم مسلح فإن ذلك سيكون إيذانًا بنشوب الحرب العالمية الثالثة[1].

وتزداد أواصر الصداقة بين العالم الغربي ويوغوسلافيا، حتى أن الغرب يقف بجانب يوغوسلافيا لانتخابها كعضو في مجلس الأمن محل تشيكوسلوفاكيا. حيث كان هذا الأمر بمثابة ضربة قوية من الغرب تجاه السياسة السوفيتية وأتباعها، وجذب يوغوسلافيا نحو الغرب.

من هنا تحسنت علاقة يوغوسلافيا بالغرب وتوقفت الحملات المناهضة لنظام تيتو. من هنا لا نكاد نسمع كثيرًا عن مسألة الحرية الدينية في يوغوسلافيا من جانب الغرب، وحتى في مصر فإننا منذ عام ١٩٤٩ لا تتوافر لدينا المصادر الكافية التي تحدثنا عن مسألة الحرية الدينية لمسلمي يوغوسلافيا، وردود الأفعال المصرية تجاه هذا الشأن. لكن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال هدوء واستقرار أحوال الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا، وإنما يعني تغيّر الأوضاع الدولية وأثرها في غض الطرف عن المسائل الداخلية في يوغوسلافيا. ومما ساعد على ذلك استقرار النظام الشيوعي الجديد وتحوّل الإجراءات والتنظيمات الجديدة في يوغوسلافيا بشأن المسلمين إلى أمر واقع على الأجيال القادمة أن تقبل التعايش معه.

ثانيًا الحقبة الناصرية:

إذا حاولنا تتبع الموقف المصري في الحقبة الناصرية تجاه مسألة الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا، فإننا نرى أن الفهم الحقيقي لطبيعة هذا الموقف قد يحكمه عدة عوامل مهمة، حيث قد تتشابه هذه العوامل في خلال الحقبتين الليبرالية والناصرية في جوانب معينة وتختلف في الكثير من الجوانب الأخرى.

---

(١) الأهرام ١٩ يناير ١٩٤٩.

فبصفةٍ عامة نستطيع القول بثبات الدافع الإسلامي في كلتا الحقبتين، وإن اختلفت المساحة المتاحة لهذا العامل في الحقبة الناصرية سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي، ثم يأتي عامل تغيّر العلاقات الدولية بالنسبة لمصر في الحقبة الناصرية ليضفي أثرًا هامًا على مسألة موقف مصر من الأقلية الإسلامية في يوغوسلافيا كما سيتضح ذلك في ما بعد.

ومهما كان حجم الاختلاف حول البعد الإسلامي في السياسة الناصرية فإن أحدًا لا ينكر وجوده، وإنما المرجّح أن هذا البعد قد تراجع ليفتح مجالًا أمام أبعاد كانت أقل أهمية منه في العصر الليبرالي. فعبد الناصر يؤكد في كتابه «فلسفة الثورة» على أهمية العامل الإسلامي، ولكنه وفقًا لنظرية الدوائر التي حكمت السياسة الخارجية الناصرية، تأتي في المقدمة الدائرة العربية ثم الإفريقية، ثم أخيرًا الدائرة الإسلامية. «أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالمًا إسلاميًا تجمعنا وإياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب وإنما تنشدها حقائق التاريخ»[1].

لكن هذه الرابطة الإسلامية من وجهة النظر الناصرية، لا ينبغي أن تعتدي على السيادة الداخلية للدول التي يعيش بها المسلمون سواء كانوا أغلبية أو أقلية بها «تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة»[2]. ولسنا هنا في مجال تقييم هذا الجانب من السياسة الدولية الناصرية، وإنما مدى انعكاسه على موقف مصر تجاه الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا.

فلقد طرأ على السياسة الخارجية المصرية في العهد الناصري متغيرات عديدة سواء نتيجة التوجه الأيديولوجي للنظام، أو تغيّر الموازين الدولية وتصاعد الحرب الباردة، وما ترتب عليها من ظهور كتلة عدم الانحياز كمتغير جديد على الساحة الدولية. والجدير بالملاحظة هنا الدور الكبير لمصر ويوغوسلافيا في هذه الكتلة، وتوطّد عُرى الصداقة بين ناصر وتيتو.

---

(١) جمال عبد الناصر: فلسفة الثورة، القاهرة، د.ت، ص ٦٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨.

من هنا حكم الموقف الرسمي المصري من مسألة الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا عامل الدائرة الإسلامية التي تكلمت عنها فلسفة الثورة، والعلاقات الخاصة المصرية اليوغوسلافية نتيجة سياسة عدم الانحياز، ويتضح ذلك جليًا عند زيارة ناصر ليوغوسلافيا في صيف عام ١٩٥٨. فقد أعدّت الخارجية المصرية تقريرًا شاملًا عن أحوال يوغوسلافيا والرئيس تيتو لرفعه إلى ناصر قبيل سفره. ويلاحظ في هذا التقرير أن الخارجية المصرية أشارت إلى مشاكل الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا، وموقف الحكومات المصرية في هذا الشأن منذ عام ١٩٤٧، أي منذ قبل الثورة. وانتقل التقرير بعد ذلك لرسم الصورة الحالية لمسلمي يوغوسلافيا موضحًا أنهم يتمتعون بكافة الحقوق السياسية والاجتماعية كبقية مواطنيهم، إلا أنه أشار إلى أن الدين الإسلامي قد أصبح لديهم عبارة عن مجموعة من التقاليد والعادات الاجتماعية أكثر منه دينًا بالمعنى المعروف. وأرجع التقرير ذلك إلى تحريم التعليم الديني من جانب الحكومة اليوغوسلافية، وأثر تطبيق المذهب الشيوعي على تضاؤل النفوذ الديني، وأخيرًا انعدام الصلة بين المسلمين اليوغوسلاف والدول الإسلامية الأخرى.

ولم يحاول التقرير رسم سياسة مصر الناصرية تجاه مسلمي يوغوسلافيا، وإنما أشار إلى أنه من الممكن لمصر أن تستفيد من «علاقات الود والصداقة التي تجمع بين الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس تيتو»، من خلال انتهاز فرصة سفر ناصر ليوغوسلافيا للقيام «بعمل إيجابي» يستفيد منه مسلمو يوغوسلافيا. وألمح التقرير إلى إمكانية القيام بذلك من خلال تقوية الروابط الثقافية والدينية بينهم وبين الأزهر[1]. وهو هنا يتماشى مع السياسة الناصرية في الاستفادة من المكانة الدينية والتاريخية للأزهر في ربط المسلمين بمصر.

وبالفعل أبحر ناصر في ٢٨ يونيو إلى يوغوسلافيا على أساس أن تبدأ المباحثات الرسمية بينه وبين تيتو في ٦ يوليو[2]. وكانت يوغوسلافيا تنتظر هذه

(١) وزارة الخارجية المصرية، التقارير السياسية، إدارة شرق أوروبا، ملف ٧٠٩/ ٨١/ ج٢ القاهرة في ١٥ يونيو ١٩٥٨.
(٢) الجمهورية ٢٧ يونيو ١٩٥٨.

الزيارة بشكل خاص نظرًا لتعقد السياسة الدولية آنذاك والموقف الحاد من جانب الكتلة الشرقية التابعة للاتحاد السوفييتي تجاه يوغوسلافيا، ومحاولة يوغوسلافيا استثارة كتلة عدم الانحياز إلى جانبها[1].

ويبدو أن تعقّد السياسة الدولية والمشاكل الحادة التي ظهرت في تلك الفترة قد خطفت اهتمام ناصر أكثر من مسألة البعد الإسلامي. ففي تلك الفترة عاش العالم فترة قلقة سواء في الشرق الأوسط من خلال وحدة مصر وسوريا وآثارها الدولية، فضلًا عن توتر الوضع الداخلي في لبنان في عهد كميل شمعون، والدور الخفي المصري في أحداث لبنان، وما تلاه من التهديد الأمريكي بالتدخل في لبنان، وانقلاب عبد الكريم قاسم في العراق، والصراع التركي اليوناني في قبرص، ثم تحرش الكتلة الشرقية بيوغوسلافيا.

وفي وسط هذا الخضم من الأحداث العالمية كان لا بد أن يختفي هذا البعد «الإسلامي» الإضافي في السياسة المصرية ليفسح مجالًا أمام البعد الدولي الذي يفضّله النظام الناصري أو الذي كُتب عليه أن يفضّله. ولم يتضمن البيان المشترك عن الزيارة أية إشارة إلى المسألة الدينية أو دور الأزهر تجاه مسلمي يوغوسلافيا[2].

وهكذا نرى كيف اختطف البعد الدولي الأهمية من البعد الإسلامي في السياسة الناصرية لكنه لم يلغه تمامًا، إذ استمرت مصر تلعب دورًا هامًا على الساحة الإسلامية حتى بالنسبة لمسلمي يوغوسلافيا. ففي عام ١٩٥٩ وصل إلى مصر حوالى ٣٥ من مسلمي يوغوسلافيا لأداء الحج، حيث حصلوا على تأشيرات السفر من السفارة السعودية في القاهرة، ثم رحلوا إلى الحجاز بحرًا لأداء الحج، وعادوا بحرًا إلى مصر، ومن القاهرة استقلوا الطائرة إلى يوغوسلافيا[3]. ويرجع ذلك إلى عدم وجود علاقات بين يوغوسلافيا والسعودية، وتدخل القاهرة كوسيط لأداء هؤلاء المسلمين اليوغوسلاف لفريضة الحج.

---

(١) الأخبار ٧ يوليو ١٩٥٨.

(٢) الأخبار والأهرام ١١ يوليو ١٩٥٨.

(٣) عبدالرحمن زكي: المرجع السابق، ص ٧٤.

وعلى صعيد آخر، ارتبطت مسألة أخرى على جانب كبير من الحساسية بموقف مصر من الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا، ربما يدفع البعض إلى تحاشي دراستها أو الخوض فيها. ونقصد بذلك انعكاس ذلك على الأحوال الطائفية في مصر بين المسلمين والأقباط. ففي تلك الآونة، ومع تصاعد التيار الديني في مصر متمثلًا في جماعة الإخوان المسلمين، أجّجت مسألة الأقلية الإسلامية في يوغوسلافيا من المشاعر الإسلامية والإحساس بالأخوّة الإسلامية العالمية في مواجهة الغرب، سواء الغرب «الشيوعي الملحد» أو «الغرب الصليبي».

وإذا أخذنا جريدة الإخوان المسلمين مثالًا على ذلك، نجد أن الجريدة قد أبرزت كيف أدى اضطهاد المسلمين في يوغوسلافيا إلى إعادة ميلاد الأخوّة الإسلامية العالمية من جديد: «إن المسلم في أقصى المشرق ليحس الألم لأخيه في أواسط أوروبا. إن المسلمين لفي دور الانبعاث من جديد». كما ألقت الجريدة اللوم على الغرب الأوروبي الذي لم يهتم جديًا بمسألة مسلمي يوغوسلافيا. ورأت الجريدة أن «الأوروبيين المتعصبين قد صمّوا آذانهم، وتعاونوا على خنق حركات المسلمين وتعمية أخبارهم». وعلت النبرة عندما استرجعت حوادث التاريخ مذكرة بأن أوضاع مسلمي يوغوسلافيا بصفة خاصة ومسلمي أوروبا بصفة عامة ما هي إلا «مأساة الأندلس من جديد»[1].

وفي تلك الأثناء كان هناك في مصر حركة يتزعمها بعض كبار مثقفي الأقباط، ترى أن الأقباط يشكلون في مصر أقلية مهضومة الحقوق والحريات، وتسعى هذه الحركة جاهدةً للحصول على حقوق الأقليات المعترف بها دوليًا، وكان من أهم رموز هذه الحركة سلامة موسى والقمص سرجيوس. وقد أثار ذلك أحد أهم الرموز الشابة -آنذاك- لحركة الإخوان المسلمين، وهو الشيخ محمد الغزالي الذي شنّ حملة شديدة على سلامة موسى، حيث رأى الغزالي أن الأقباط هم أسعد الأقليات في العالم «وأن المسلمين في مصر كالعهد بهم في كل مكان أعظم الناس سماحة، وأبعدهم عن مواطن

---

(١) الإخوان (شهرية) ٦ شعبان ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

التحرش والعدوان». وتمنّى الغزالي أن تظفر الأقليات الإسلامية في أوروبا بنفس الحقوق والحريات التي يتمتع بها الأقباط في مصر، وعنّف الغزالي سلامة موسى مذكرًا إياه بأن الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا تذوب ومن قبلها أُبيدت الأقلية المسلمة في الأندلس[1].

ولم تقف مسألة دخول مشكلة مسلمي يوغوسلافيا في النزاع الطائفي في مصر عند حد الصحافة ذات الطابع الديني فقط، إذ سرعان ما دخلت في هذا الشأن بعض الصحف العلمانية. ففي عام ١٩٤٩ خصصت جريدة «المصري» ست حلقات لمعالجة مسألة أوضاع مسلمي يوغوسلافيا. والحقيقة أن معالجة «المصري» لهذه المسألة لم تختلف كثيرًا عن معالجة صحافة الإخوان المسلمين لها، وربما دفعها إلى ذلك ازدياد تردي أحوال مسلمي يوغوسلافيا بالفعل فضلًا عن تنافس الصحافة في مصر على كسب الشعور الشعبي الإسلامي تجاه هذه المسألة. من هنا كان عنوان هذه السلسلة من المقالات «مأساة مسلمي البوسنة والهرسك، متى يتقدم العالم الإسلامي لنجدتهم؟». ورأى المصري أن الحركات المنادية بحقوق الإنسان في العالم الغربي لا تولي أدنى قدر من الاهتمام لما يعانيه مسلمو يوغوسلافيا تحت الحكم الشيوعي، وأن هذا الأمر ما هو إلا مخطط دولي للعمل على القضاء على مسلمي البلقان[2]. وأخذت المعالجة شكل إسلام ومسيحية «ألا نرى كيف يحاكم قسيس واحد فتقوم الدنيا وتقعد، وهناك مئات الآلاف من المسلمين الأبرياء يقتلون ويذبحون فلا يقوم صوت واحد للدفاع عنهم ولو من أهل دينهم»[3]. وساعد على ذلك خفوت حدة الحملة الغربية المناهضة لتيتو وسياسة النظام الشيوعي في يوغوسلافيا بعد الخلاف الشهير بين ستالين وتيتو، وبالتالي لم يعد الغرب يهتم كثيرًا بمسألة حقوق الأقليات في يوغوسلافيا.

---

(١) المصدر نفسه، ٣ ذو القعدة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

(٢) المصري ٣ سبتمبر ١٩٤٩، كاتب هذه المقالات هو الأستاذ الدكتور كمال الدين سامح، وذُكر أنه مندوب «المصري» الخاص هناك.

(٣) المصدر نفسه، ٦ أكتوبر ١٩٤٩.

وأدت معالجة جريدة «المصري» لمسألة مسلمي يوغوسلافيا، والحلقات الست التي خصصتها لهذا الأمر، والتركيز على الأخوّة الإسلامية، إلى استثارة أحد أهم رجال الدين الأقباط وهو القمص سرجيوس الذي شن حملة شديدة على جريدة «المصري» وعلى معالجتها لمسألة مسلمي البوسنة والهرسك. وأخذ القمص سرجيوس على «المصري» مطالبتها بحقوق الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا، قبل أن تطالب بحقوق الأقلية القبطية في مصر[١].

وهكذا دخلت مسألة موقف مصر من مسلمي يوغوسلافيا إلى منعطف جديد وشديد الخطورة والحساسية، ونقصد به المسألة الطائفية في مصر. والحق أنه لا ينبغي التهويل من شأن مسألة مسلمي يوغوسلافيا ودورها في المسألة الطائفية. فهناك أمور أخرى وراء المسألة الطائفية مثل تصاعد التيار الديني مع ظهور حركة الإخوان المسلمين وارتباط نشأة فكرة العروبة في مصر بالإسلام، فضلًا عن تيار قبطي يدعو إلى فكرة الأمة القبطية. من هنا يمكن تفهُم لماذا استثارت مسألة أوضاع مسلمي يوغوسلافيا الهاجس الطائفي في مصر.

---

(١) المنارة المصرية ١٣ أكتوبر ١٩٤٩.

خاتمة

طمحت الدراسة إلى دراسة مدى أهمية العامل الإسلامي في السياسة الخارجية المصرية، نظرًا لمكانة مصر في العالم الإسلامي. وقد اتضح من الدراسة مدى أهمية هذا العامل في السياسة المصرية سواء على عهد حكومة الأغلبية الوفدية، أو حتى حكومات الأقلية، كما نجد هذه الأهمية سواء في العهد الليبرالي أو حتى في العهد الناصري، وإن اختلفت درجات الأهمية.

كما لاحظنا أن ردود الأفعال الشعبية المصرية كانت أكثر صخبًا من رد الفعل الرسمي المصري، الذي اتسم بالهدوء والدبلوماسية الشديدة وحرصه على عدم الدخول في أزمات دبلوماسية مع يوغوسلافيا. واستكمالًا لهذه النقطة كان رد الفعل الرسمي المصري أكثر هدوءًا وتعقلًا من أنظمة عربية وإسلامية أخرى حرصت على الدعاية لسياستها تجاه مسلمي يوغوسلافيا، ربما بسبب عقدة النقص لدى هذه الأنظمة ومحاولتها اجتذاب الأضواء والبحث عن مكانة في العالم العربي والإسلامي، بينما كانت مصر - وبفضل تراث الأزهر- تدرك ثبات مكانتها الإسلامية، وتعمل على التوافق بينها وبين متطلبات السياسة الدولية.

وأخيرًا، أبرز البحث بعض الآثار الجانبية لعلاقات مصر الخارجية الإسلامية على ما يمكن أن نسميه الوحدة الوطنية، وحساسية إثارة مسألة الأقليات بوجه عام سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي.

العلاقات العربية اليونانية المعاصرة (١٩٤٥-٢٠١٤)

الواقع والآفاق

عارف العبيد[١]

لمحة موجزة

تأسست الدولة اليونانية عام ١٨٣٠ بعد حصولها على الاستقلال من الإمبراطورية العثمانية بمساعدة القوى الأوروبية العظمى[٢]. أما الحدود السيادية اليونانية المعترف بها دوليًا، فقد اكتملت بضم سلسلة جزر الذوذيكانيز إلى اليونان بموجب اتفاقية باريس عام ١٩٤٧ [٣]. وينص الدستور اليوناني على أن شكل النظام السياسي الفعلي هو الديمقراطية البرلمانية، حيث يتم انتخاب رئيس الحكومة من الشعب مباشرة، أما رئيس الجمهورية فهو محدود الصلاحيات[٤]. بالإضافة لذلك تتمتع اليونان بالعضوية الكاملة في الاتحاد الأوروبي، وهي أيضًا عضو في حلف شمال الأطلسي (الناتو) منذ عام ١٩٥٢ كونها خاضعة إلى نفوذ المعسكر الغربي، كما تعتبر البلد جزءًا من منطقة البلقان الجنوبية. يبلغ عدد سكان اليونان ٨, ١٠ ملايين نسمة[٥] والأغلبية الساحقة من اليونانيين تدين بالمسيحية

---

(١) أستاذ العلوم السياسية والتاريخ في الأكاديمية العسكرية بأثينا، اليونان.

(2) Richard Clogg, Short History of Modern Greece, Publishing House ‹Karthamitsa›, First edition, Athens 1984, p.103.

(3) Thanos Veremis, Greek-Turkish relations, Sakkoulas Publishers, Athens, First edition, 1991, p.74.

(4) A. Manesis and G. Papadimitriou, The Constitution of 1975 - 1986, Sakkoulas Publishers, Athens, First edition, 1989, Item 1 p. 28 - 29.

(5) According to the Hellenic Statistical Authority in 2011.

الأرثوذوكسية[1]، حيث يعرفون في العالم العربي بـ «روم أرثوذوكس»[2] على عكس باقي دول الاتحاد الأوروبي ذات الأغلبية الكاثوليكية.

ينقسم العالم العربي إلى ثلاث دوائر أو أحزمة: الدائرة الأولى تتشكل من بلاد المغرب العربي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا)، والثانية تتكون من دول الشرق الأوسط الأقرب للمتوسط (مصر، السودان الشمالي، فلسطين، الأردن، سورية، لبنان، العراق)، بينما تشكل دول الخليج (السعودية، الكويت، البحرين، قطر، الأمارات، عُمان واليمن) الدائرة الثالثة. لذلك فإن طريقة التقارب مع هذه الدول العربية من قبل أي دولة من دول العالم يتم بأسلوب التعاون الثنائي مع كل دولة على انفراد، أو على أساس الدائرة الإقليمية كما هو الوضع في المنطقة الخليجية، مع الأخذ بالحسبان بأن العالم العربي ينقسم إلى ٢٢ دولة، تتمتع كل منها بنشيد وطني مختلف وعلم مختلف وسياسة خارجية وطنية مستقلة.

يشكل العالم العربي كيانًا سياسيًا وجغرافيًا وحضاريًا بين القارات الثلاث أوروبا وأسيا وإفريقيا. فالعرب يمتلكون ثلاثة مكوّنات رئيسة لنشوء الدولة العظمى: أولًا، عنصر السكان الذي وصل إلى ٣١٨,٣ مليون عام ٢٠٠٦ [3] والذي تطغى عليه نسبة الشباب، أما اليوم فيقدر عدد السكان بـ٣٧٠ مليون نسمة[4]. ثانيًا، البترول والغاز الطبيعي وموارد أخرى تجعل من العالم العربي واحدًا من أغنى شعوب العالم، حيث تصل احتياطاته النفطية المؤكدة إلى ٥٧٪

(1) The Constitution of 19751986-, Item 3.

(٢) هناك أقليات يهودية ومسلمة وكاثوليكية متفاوتة الأعداد، ويقطن معظم المسلمين اليونانيين في منطقة تراقيا الغربية، شمال شرق اليونان.

(3) ()Bader Mohamed Badr, The Unified Arab Economic Report, aljazeera.net, (22008/3/).
http://www.aljazeera.net/knowledgegate/books/20082/3//%D8%A7%D984%%D8%AA%D982%%D8%B1%D98%A%D8%B1%D8%A7%D984%%D8%A7%D982%%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D98%A-%D8%A7%D984%%D985%%D988%%D8%AD%D8%AF

(4) http://en.wikipedia.org/wiki/Arab_world#Population.

من الاحتياطي العالمي و٢٩,٥٪ من الغاز الطبيعي. أخيرًا، تصل المساحة الجغرافية للمنطقة العربية إلى ١٤,٢ مليون كيلومتر مربع، أي إنها تشكل حوالى ١٠,٢٪ من المساحة الكلية لليابسة. يسيطر العرب على مساحة كبيرة من الأراضي تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي وعلى طرق ومعابر تجارية مهمة مثل قناة السويس، مضيق عدن، وكذلك المساهمة في الإشراف على مضائق جبل طارق وهرمز.

كانت اليونان حلقة الوصل بين الشرق والغرب وجزءًا من طريق الحرير الذي ربط بين الصين وإيطاليا تجاريًا. وقد كان المؤرخ اليوناني هيرودوت أول من تحدث في سجلاته أو كتبه عن أهمية شبه الجزيرة العربية بالنسبة إلى اليونان في عام ٤٣٠-٤٢٠ قبل الميلاد، فقام كزائر إلى المنطقة العربية بدراسة الشخصية العربية وطبائع المواطن أو الفرد العربي. أما الفترة الثانية للعلاقات العربية اليونانية فانطلقت بسيطرة الإسكندر المقدوني الكبير على شرق المتوسط وسوريا الجغرافية، فتمّ صبغ المنطقة باللون اليـوناني الحضاري منذ ذلك الحين حتى اليوم.

إن العرب يعتبرون الإغريق الغازين أو الفاتحين الوحيدين الذين تركوا بصمات حضارية تسطع حتى تاريخنا الحديث. بعد ذلك كانت هناك انطلاقة جديدة بدأت من العهد الأموي واستمرت في العهد العباسي، عندما قام علماء عرب مثل الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد (المعروف بـ«افيرويس» باليونانية) وابن خلدون، بترجمة وإثراء ونقل الثقافة اليونانية إلى جميع دول العالم باستخدام اللغة العربية التي كانت واسعة الانتشار آنذاك، والتي ما زالت تعتبر واحدة من اللغات العالمية الرسمية في عصرنا الحديث، وتحديدًا في هيئة الأمم المتحدة.

العلاقات العربية اليونانية الحديثة

بعد تورط اليونان في الحرب العالمية الثانية ونتائجها الوخيمة، كان التدخل اليوناني في الشؤون الدولية محدودًا بسبب اندلاع الحرب الأهلية

الدموية (١٩٤٧-١٩٤٩). وبعد الحرب الباردة التي ظهرت في الأفق القريب بين الشرق والغرب، جاء مبدأ الرئيس الاميركي ترومان عام ١٩٤٧ ليحسم الشك باليقين، فأصبحت اليونان جزءًا من المعسكر الغربي، وطرفًا من المساعدات المقدمة في إطار خطة مارشال المقررة في أواخر عام١٩٤٠ [١].

إن الاهتمام بتنمية علاقات دبلوماسية بين العرب واليونان بدأ بعد الحرب العالمية الثانية. ومن أجل تنمية علاقات مع العالم العربي يقول المستشار والعقيد كاراتزانيس خلال عقد جلسات مجلس الشؤون السياسية في وزارة الخارجية اليونانية عام ١٩٤٧: «العرب هم شعب مقاتل، إذا تمّ تدريبه فبإمكانه تشكيل قوة عسكرية لا يستهان بها ويحسب لها ألف حساب، من قبل المجموعات السياسية والعسكرية الرئيسة في منطقة الشرق الأوسط، ويمكن أن تكون هذه القوة مساعدًا وحليفًا قيمًا لليونان»[٢]. بينما الرئيس السوري أمين الحافظ يصف اليونان بمهد الثقافة ومصدر إلهام لشعوب المنطقة[٣].

عمليًا تقرر إصدار أول خطة يونانية من أجل بناء علاقات تعاون مع دول العالم العربي في مجلس الشؤون السياسية المنعقد في ٢٨ تموز من عام ١٩٤٧ [٤]. في البداية كانت فكرة التقارب اليوناني مع العالم العربي تقضي بالاعتماد على الجامعة العربية كاتحاد عربي يسهل عملية التواصل وليس كعشرين بلد منفصلة.

لكن عدم وجود إدارة سياسية موحدة من قبل حكومات الدول العربية للشؤون الخارجية وعدم الاستقرار الداخلي والخلافات بينها[٥] لم تمنح

(1) Eleni Stavrou, Greek- Arab Relations During the Papandreou Era, 19811989-, A Pionnering Vision?, first edition, Athens, Papazissis Publishers, 2010, p. 31 - 32.

(2) Council of Political Affairs of 21 September in 1947, File 125, subfolder 1, Greek Diplomatic and Historical Archive (G.D.H.A).

(3) Document 1586, date 22 /121964/, File 33, Subfolder 9 , Greek Diplomatic and Historical Archive.

(4) See the minutes of the meeting of Political Affairs of 28 July 1947, File 125, subfolder 1,

(5) For example, the conflict between the dynasty of Hashemite in Jordan and Iraq on the one and Saudi Arabia, Egypt and Syria on the other paralyzed the function of the Arab League.

الفرصة لبناء أسس آمنة من أجل سياسة إبداعية في عملية التعاون والعلاقات بين العرب واليونان.

شهدت السنوات الأولى من عقـد الستينيات نشاطًا دبلوماسيًا مكثفـًا ومتبادلًا بين الحكومات العربية والحكومة اليونانية، فتم تعيين السيد أندونوبولوس كأول سفير لليونان لدى العراق(١). في المقابل تمّ تعيين السيد طاهر القرمانلي سفير ليبيا في أثينا(٢)، وتمّ الاعتراف المباشر باستقلال الجزائر من الطرف اليوناني(٣)، كذلك تمّ رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي إلى مستوى سفراء بالنسبة لسوريا والمملكة العربية السعودية، من خلال تعيين السيد محمد عبد الرحمن الطبيشي سفيرًا للرياض في العاصمة اليونانية(٤). وحتى أواخر الثمانينيات اعترفت اليونان تقريبا بمعظم الدول العربية المستقلة حديثًا، ومعها منظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطيني في العاصمة الإغريقية. في الواقع تُعتبر سفارتا اليونان في القاهرة وبيروت من أقدم السفارات في المنطقة العربية. بعد الانفتاح الدبلوماسي بتبادل البعثات الدبلوماسية تمّ التوقيع على عدد من الاتفاقيات مع الدول العربية، وكانت الخيوط الصناعية والمضخات والكابلات الكهربائية، وشفرات الحلاقة والأدوية.. الخ من أهم الصادرات اليونانية إلى العالم العربي(٥).

ومن المؤكد أن قضايا سياسية مثل القضية الفلسطينية والقضية القبرصية والعلاقات بين مصر وبريطانيا والعلاقات بين اليونان وبريطانيا، وأخيرًا

(1) See, Relations Greece-Iraq, document 2057/HA, date 221963/01/. File 34, Subfolder 9, Greek Diplomatic and Historical Archive.

(2) Document A.Π. 27/M/810/, date 1864/2/, also document A.Π. 226, date 2064/2/, File 46, Subfolder 3, Greek Diplomatic and Historical Archive.

(3) See Relations Greece- Algeria, document B60 - 11, date 161962/06/ and document ΔAE4015-, date 131963/03/, File 45, Subfolder 6.

(4) Document ΔΣA40 - 7, date 111963/7/, document 1313/A/1, date 1563/7/, document Π4 - 5674, date 2063/9/, document Π4 - 6120, date 2863/9/, File 46, Subfolder 9, Greek Diplomatic and Historical Archive.

(5) Document 724, date 31964/6/, File 33, Subfolder 9. Greek Diplomatic and Historical Archive.

الائتلاف السلافي كلها أثرت إلى حد كبير في عملية المد والجزر في العلاقات العربية اليونانية.

إن امتناع اليونان عن عملية التصويت لصالح ضم إسرائيل إلى منظمة الأمم المتحدة[1] كان يعني تقاربًا غير مسبوق في العلاقات العربية اليونانية. وأصبح الشعب اليوناني محل تعليقات ونقد إيجابي من جميع الدول العربية والأسيوية تقريبًا[2]. أما في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية، فيقول الدبلوماسي في وزارة الخارجية اليونانية كوندوُماس عام ١٩٤٧: «إن إقامة الدولة اليهودية في الشرق الأوسط ليس من صالح اليونان؛ لأن دولة يهودية في فلسطين يعني فقدان أسواق الشرق التي طالما كانت أثينا تهدف إلى التحكم بها»[3]. على الرغم من ذلك، فإن وجود اليونان في التحالف الغربي دفع بأثينا تحت سياسة الأمر الواقع، والضغط الغربي إلى الاعتراف غير المباشر (دي فاكتو) بإسرائيل في عام ١٩٥٠ [4]، وتحول هذا الاعتراف المبدئي إلى اعتراف كامل (دي جور) عام ١٩٩١ بتبادل السفراء[5].

على الرغم من الموقف الفاتر لفرنسا وإنكلترا، فإن قبول ترشيح اليونان كعضو في اللجنة الاقتصادية للشرق الأوسط التابعة لهيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٤٨، بدعم من الدول العربية الأعضاء في الجمعية العامة للأمم المتحدة بـ ١٠ أصوات مقابل صوت رافض واحد (روسيا)، كان دليلًا مهمًا على تطور العلاقات بين العرب واليونانيين[6].

إن دعم ترشيح عضوية ليبيا للمجلس التنفيذي في منظمة الصحة العالمية[7]، وتقديم المساعدة المالية للاجئين الجزائريين[8] وضحايا الزلزال

(1) The Greek delegation to the UN, New York, document 2790, date 121949/05/, File 110, Subfolder 4.

(2) Greek newspaper ‹Phos›, date 141948/6/, Arabs and Greeks, File 137, Subfolder 1.

(3) Council of Political Affairs of 21 September in 1947, File 125, subfolder 1. (G.D.H.A).

(4) Middle East – Arab states, document 1869, date 121950/05/, File 92- subfolder 2.

(5) Eleni Stavrou, p. 38.

(6) Document 5010, date 271948/05/. also document 3685, date 191948/04/, File 137, Subfolder 1. Greek Diplomatic and Historical Archive.

(7) Document A.Π.22895/13/, date 2864/5/ and ΔΛΥ40 - 23 date 464/3/ File 46, Subfolder 3.

(8) See, Relations Greece - Algeria, document 1654/ Δ2, date 251962/7/ and document 1268/AAΓ, date 271962/07/, File 45, Subfolder.6.

من البلد نفسه، وتقديم معونة لحوالى ٥, ١٣ طنًا من الأدوية لمصر لمواجهة وباء الكوليرا[١]، توفر لنا أدلة عن دفء العلاقات اليونانية-العربية خلال فترتي الخمسينيات والستينيات. علاوةً على ذلك، فإن المساعدة التقنية لليبيا لتدريب الكهربائيين الليبيين[٢]، والاستجابة اليونانية لطلب تطوير صيد الإسفنج في مياه ليبيا[٣] وتونس[٤] بالتعاون مع غواصي الإسفنج اليونانيين والمنح الجامعية للطلاب السوريين[٥] والأردنيين[٦] واللبنانيين[٧]، فضلًا عن توفير المنح الدراسية من قبل الكليات العسكرية اليونانية للطلاب العسكريين، من الجزائر والسودان ومصر وتونس والمغرب والكويت[٨] وليبيا[٩] والأردن[١٠] والمملكة العربية السعودية[١١] وسوريا[١٢]، ونقل المنتجات العربية إلى الأسوق العالمية من قبل ملاك السفن اليونانية التجارية، مثل رجل الأعمال المشهور إيوانيس لاتسيس، كل هذه المعطيات تشير إلى الاهتمام اليوناني بالمنطقة العربية خلال فترة الخمسينيات

---

(1) Ministry of Health of Greece 1949, document 145, date 12 / 02/ 1948, The problem of cholera in Egypt and the actions of the Greek, File 156, Subfolder 4, As the Secretary of Health of Egypt Mohamed Sadek Fahmy thanked Greece in the name of the Egyptian people in Association of Egypt-Europe for humanitarian and medical assistance during a cholera epidemic. document 2114, date 091948/03/, Greek Diplomatic and Historical Archive.

(2) Document A. Π. 472, date 8/ 4/ 64, File 46, Subfolder 3.

(3) Greeks in Libya, Greek Consul in Tripoli, document A.E.Π. 72, file 152, Subfolder 5.

(4) Administration of economic Affairs, document 7320 ΔΙΣ, date 6/ 7 / 1950, File 152, Subfolder 5, Greek Diplomatic and Historical Archive.

(5) See, Relations Greece-Syria 1964, document 1352/Δ/15, date 17 / 7 / 1963, File 33, Subfolder 9.

(6) See, Relations Greece-Jordan, document ΔΡΔ/40 - 34, date 27 / 1 / 1964, File 48, Subfolder 3.

(7) See, Relations Greece-Lebanon, document 1138/Z/1, File 35, Subfolder 7.

(8) 1965 Students from Jordan, Tunisia and Libya in military schools of Greece, document PPΔ46 - 133, date 765/8/, File 33, Subfolder 10.

(9) Document of Ministry of Foreign Affairs of Libya No.29894/3//AD (in Arabic), administration of international relations, 2765/07/. Tripoli.

(10) Document 2310/Z/6, date 1165/8/, File 33, Subfolder 10.

(11) Document of Embassy of Saudi Arabia in Athens, No. 10224/4/, date 2365/8/.

(12) For the academic year 1966 - 1967 the number of Arab military students reached 224, See document of Greek ministry of defense No. F. 1715 / 10 / 504, date 20/ 09 / 1965.

والستينيات. بالإضافة إلى ذلك، فقد تمّ تكريم عدة شخصيات عربية بارزة من قبل المملكة اليونانية في ذلك الحين؛ لدورهم في تعزيز وتوطيد العلاقات العربية اليونانية، مثل السودانيين محمد نصر عثمان[١] ويوسف أحمد يوسف[٢]، والأردنيين حابس المجالي[٣] وداوود أبو غزالة[٤] وأنطوان عطا الله[٥]، واللبنانيين حليم أبو عز الدين[٦] وممدوح قدورة[٧]، وأخيرًا المصري محمد عواد[٨].

بالإضافة إلى ذلك، كانت الجاليات اليونانية في البلدان العربية تتمتع بوجود ونشاط قوي[٩]، وازدهرت المدارس اليونانية في مدن الإسكندرية والخرطوم وبيروت ودمشق وطرابلس وبنغازي[١٠]. أيضًا كان هناك حديث لأول مرة عن قاعة يونانية في الجامعة الأميركية في بيروت[١١].

في المقابل، فإن طلب الجزائر من ملاك السفن اليونانيين المساعدة في بناء أسطولها التجاري[١٢]، ومطلب تونس مشاركة اليونان في بناء موانئها البحرية وتنظيم سياحتها[١٣]، ونقل الحجاج التونسيين[١٤] والليبيين إلى جدة بواسطة

(1) See, Relations Greece- Sudan, The Sudan Daily 23 / 9 / 1964, File 40, Subfolder 3.
(2) See, Relations Greece- Sudan, document PΣΔ/40 - 28, date 25 /6/ 65, File 35, Subfolde.7.
(3) See Relations Greece- Jordan, document 1922/I/I, date 7 / 10 / 1963, File 48, Subfolder 3.
(4) See, Relations Greece- Jordan, document 1352/Δ/15, date 23 / 10 / 1963, File 48 Subfolder 3.
(5) See, Relations Greece- Jordan, document 83/Δ/15, date 25 / 1 / 1964, File 48, Subfolder 3
(6) See, Relations Greece- Lebanon, document E 341 - 23, date 16 / 4 / 1964, File 35, Subfolder 7.
(7) See, Relations Greece- Lebanon, document 2149/ 1/ 1, date 6 / 10 / 64, File 35, Subfolder 7.
(8) See, Relations Greece-Egypt, document 1552, date 29 / 10 / 1965, File 46, Subfolder 7.
(9) During 19281932- the Greek leader Eleftherios Venizelos increased diplomatic ties with Arab area in order to provided added security and protection for the large Greek Orthodox communities in Arab World, see Eleni Stavrou, p. 33.
(10) Greeks in Syria 1950, document 28903, date 7 / 06 / 1950, File 152, Subfolder 9,
(11) See, Relations Greece-Lebanon, document 2649/Z/I,date 81964/12/, File 35, Subfolder 7.
(12) See, Relations Greece-Algeria, document Φ1050AE-3, date 24/ 05 / 1963, File 45, Subfolder.6.
(13) See Relations Greece–Tunisia, document 338, date 1 / 2 / 1964, File 47, Subfolder 7.
(14) See Relations Greece–Tunisia, document 2044/TN, date 21 / 10 / 1963 and document A.Π. Φ1050 - 288, date 6 / 11 / 1963, File 47 Subfolder 7.

السفن اليونانية(١)، وتوفير المنح الدراسية للمسلمين اليونانيين من الأزهر كأعلى مؤسسة دينية للتعليم في مصر(٢)، وتسوية أهم القضايا العالقة بين الطرفين مثل قضية صيد الأسماك والإسفنج(٣) بطريقة حضارية سلسة، ودعم ومناصرة العالم العربي للقضية القبرصية(٤)؛ كل ذلك يوضّح الاهتمام العربي المتبادل تجاه اليونان والعلاقات المميزة بين الجهتين.

خلال فترة عقدي الخمسينيات والستينيات كانت هناك بعض القضايا التي أثقلت التقارب العربي اليوناني، بدون أن تحيد عن الطريق الودي والدبلوماسي. من هذه المسائل يمكن ذكر المخاوف العربية من احتمالات إنشاء قواعد عسكرية للناتو في الجزيرة القبرصية(٥)، وتشريع قوانين جديدة بخصوص وضع المواطنين الأجانب المستقرين في بعض الدول العربية(٦)، وتأمين البنوك والشركات الصناعية(٧)، وموقف أصحاب رؤوس الأموال المحليين من العنصر الأجنبي، وكذلك حرمان اليونانيين الذين قاموا بزيارة إسرائيل من دخول الأراضي العربية(٨). وفي المقابل، تمّ منع أي مواطن عربي من دخول اليونان في حال كان على جواز سفره ختم جمهورية قبرص الشمالية.

(1) See Relations Greece-Libya, document A.Π. 217 ΔΙΣ, date 17 / 2/ 64 and document A.Π. 606, date 14/ 5/ 64, File. 46, Subfolder 3.

(2) See, Relations Greece-Egypt, document Δ9253 - 19, date 15/ 4/ 1965, File 46, Subfolder 7.

(3) See Relations Greece-Libya, document A.Π. 390, date 25 / 3/ 64, File 46, Subfolder 3.

(4) Statement of General Secretary of Arab League Abdel Khaleq Hassouna «Arab countries will vote in favor of the Cypriot application to the General Assembly, File 48, Subfolder 3, document 171/Δ/18, date 02/ 27/ 1963.

(5) See, Relations Greece- Lebanon, document 686/Γ/7, date 1164/8/, File 35, Subfolder 7.

(6) Although this measure was general and focuses on those who hold Egyptian citizenship, however, the Greek expatriate, expel their Egyptian nationality to obtain or to recover the Greek, required within a set time to leave Egyptian territory and lose their rights, See, Relations Greece-Egypt, document 6189, date 19/ 10/ 65, File 46, Subfolder 7. Considering that the Greek constitution at that time did not allow to Greek citizens to have two nationalities.

(7) Remarkable was the case of Sudan see Relations Greece-Sudan, document Π.336, date 22 / 5 / 1965 File. 35, Subfolder.7.

(8) See, Arab League, Saudi Arabia, Egypt, Greece relations, document 2847/Γ/2, date 2964/12/, File. 46, Subfolder 9. Characteristic example was the refusal of accreditation of Greek diplomat Pantermali from Saudi Arabia because he was a diplomatic representative of Greece in Israel, File 32, Subfolder 1 document PΣA40 - 22, date 16 / 2 / 65.

اتصفت العلاقات العربية اليونانية خلال الفترة الواقعة ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٤ بالركود؛ بسبب قلب النظام الديمقراطي للبلد من قبل مجموعة عسكرية يرأسها الجنرال يورغوس باباذوبولوس. أما فترة ١٩٧٥-١٩٨٠، فكان الاهتمام الرئيسي لحكومة رئيس الوزراء المنتخب قسطنطينوس كارامليس منصبًا على إعادة عمل النظام الديمقراطي للبلاد، والقضية القبرصية، واستكمال عملية انضمام اليونان إلى السوق الأوروبية. على الرغم من تلك الظروف، فقد كان التعاون السياسي بين العرب واليونان إيجابيًا في القضيتين الفلسطينية والقبرصية. فالحكومات العربية دعمت قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالمسألة القبرصية (١٨٦-٣٥٣-٣٣٩٥) طبعًا لصالح قبرص اليونانية، بينما دعمت حكومة أثينا الفلسطينيين في نضالهم في منظمة الأمم المتحدة بالتصويت الإيجابي على القرارين ٢٤٢ و٣٣٨. ومما يستحق الذكر أن العرب واليونانيين هم من أوائل الحكومات في العالم في احترام وتطبيق نصوص القانون الدولي.

إن فوز حزب «الباسوك» الاشتراكي بقيادة اندرياس باباندريوس، أطلق العنان لتقارب اقتصادي وسياسي تاريخي في العلاقات العربية اليونانية خلال الأعوام ١٩٨٠-١٩٨٩؛ فأصبحت منطقة الشرق الأوسط السوق الاقتصادي الثاني للمنتجات والصادرات اليونانية بعد السوق الأوروبية[1]. هذا التقارب غير المسبوق بدأ تدريجيًا بالانحسار بعد سقوط الحكومة الاشتراكية، واستلام السلطة من قبل حزب الديمقراطية الجديدة (١٩٩٠-١٩٩٣) بقيادة قسطنطينوس ميتسوتاكيس المعروف بميوله الغربية غير المحدودة. بعد ذلك جاءت حكومة رئيس الوزراء الاشتراكي كوستاس سيمّيتيس، لتكون فترة حكمه (١٩٩٦-٢٠٠٤) الأكثر جمودًا وركودًا في سجل العلاقات العربية اليونانية.

يمكن القول إن التراجع الكبير في حجم التعاون الاقتصادي بين الدول العربية واليونان خلال عقدي التسعينيات والألفين يعود إلى عدد من العوامل:

أولًا: الانضمام أو الاندماج التدريجي لليونان ضمن منظومة الاتحاد الأوروبي.

---

(1) Eleni Stavrou, p. 172.

ثانيًا: الركود في الاقتصاد اليوناني وخصوصًا القطاع الصناعي.

ثالثًا: نمو وتطور القطاع الصناعي في الدول العربية، والقدرة على إنتاج منتجات وسلع قادرة على المنافسة.

رابعًا: صعود قوى اقتصادية عالمية جديدة مثل الصين وماليزيا.

خامسًا: ظهور جماعات المصالح واللوبيات في محاولة لمنع أي نوع من التقارب بين الطرفين(١)؛ وأخيرًا هناك عاملٌ جديد وهو دخول تركيا بقوة إلى منطقة الشرق الأوسط، ومحاولتها الحصول على حصة كبيرة من الأسواق العربية(٢).

قاد استلام كوستاس كارامنليس الشاب السلطة عام ٢٠٠٤ إلى تحسّن جزئي أو طفيف في مستوى تعاون العلاقات الاقتصادية بين العرب واليونان(٣)، فقد تبلورت السياسة الخارجية اليونانية على ثلاثة محاور: الأول، تعزيز الاتحاد المتوسطي كحلقة ربط بين أوروبا ودول شمال أفريقيا والشرق المتوسط، من أجل توثيق التعاون والتنمية الاجتماعية والاقتصادية؛ ثانيًا، تعزيز وتشجيع الحوار المتوسطي في إطار منظمة الأمن والتعاون في أوروبا، وأخيرًا تشجيع المبادرات

---

(1) Service of interests through the financing of some journalists, politicians and professors from a great power (Greek newspaper «Ethnos» date, 5/ 12 / 2010) Raises questions whether Arab entrepreneurs are desirable or not in Greek market in case of friction about interests with this great power?.

(2) Turkish-Arab economic relations and the political reflections, (14/ 12/ 2008), BBC,http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_7451000/ 7451049. stmThe latest available figures show that Turkish exports to Arab markets increased from $3 billion in 2000 to around $11 billion in 2006 and then an average of $25 billion in 20092012-, or by fold over a ten-year period. Arab exports to Turkey on the other hand rose from less than $3 billion to an average of around $9 billion during the same period or by nearly threefold. Prospects for the continued fast growth of Arab-Turkish trade are certainly positive, with the Turkish minister of science, industry and technology estimating that the total size of such trade will rise to $100 billion over the next five years. See Announcement, of the Turkish-Arab Financial Markets Forum, http://www.iktissadevents.com / news /120630 / 024303

(3) Korfiatis Christos, To VIMA (economy), date 062006/08/. http://www.tovima.gr/finance/article/?aid=174930

الثنائية من أجل دعم نشاط الأعمال والتجارة للنساء والجيل الجديد. إضافة إلى ذلك، أدى انفجار الأزمة الاقتصادية في اليونان إلى سقوط حكومة كارامنليس عام ٢٠٠٩، وانهيار النظام السياسي ذي الثنائية القطبية الذي حكم البلاد منذ عام ١٩٧٤، وإلى استلام السلطة بعد سلسلة انتخابات من قبل ائتلاف أحزاب متـعددة تحت إدارة رئيس الوزراء الحالي أندونيس ساماراس عام ٢٠١٢.

قامت الحكومة الجديدة بعدد من الإصلاحات الجذرية في معظم قطاعات الدولة، بهدف تحويل اليونان إلى بلد مستقطب للاستثمارات، فكانت الصين وإسرائيل وقطر ومن بعدهم السعودية من الدول التي أبدت اهتمامًا بالسوق اليونانية.

في الحقيقة يواجه الاهتمام العربي وخصوصًا من دول الخليج العربي بالسوق اليونانية بعض العقبات منها: أولًا، ردود فعل الأوروبيين السلبية تجاه المستثمرين العرب لكونهم منافسين لهم، فيقول خوسي اسيمبيو المهندس الإسباني ومستشار رئيس الوزراء اليوناني ساماراس: «دولة قطر وحدها تستطيع استثمار ٤ مليارات يورو في منطقة المطار القديم المسماة بـ«إيلينيكوس»، ولكنّ الألمان لديهم اعتراضات كونهم يموّلون الأزمة الاقتصادية اليونانية»[1]. ثانيًا، غياب المقترحات اليونانية للأعمال الاستثمارية، حيث يزعم السيد باتريك ثيروس رئيس مجلس الأعمال القطري الأميركي «أن غياب المقترحات الجدية اليونانية المصممة والمخطط لها جيدًا للمنشآت الكبرى، يخلق عقبات أمام تنفيذ أعمال استثمارية في اليونان من قبل القطريين»[2]. ثالثًا، صعود اليمين المتطرف بقيادة حزب الفجر الذهبي[3] الذي يعتبر الإسلام تهديدًا للأمة اليونانية[4]، وهذا في حد ذاته يشكل مشكلة؛ لأن الأغلبية الساحقة من سكان دول الخليج هم من

(1) Geek newspaper ‹To Vima› date 12 / 06/ 2011 p.57/A41.

(2) Geek newspaper ‹kyriakatiki Eleftherotypia›, date 6 / 3/ 2011.

(3) For the first time in the history of Greece, the extreme right in 2012 manages to win 6.97% of voters and control 18 seats of the Greek Parliament.

(4) Andreas Banoutsos, Islam vs Radical Islam and Greece, http://www. rimse.gr/2013/05/vs_13.html.

المسلمين. ومن الجدير بالذكر أن حصول حزب الفجر الذهبي على نسبة ٧٪ من أصوات الناخبين، لا يعني بالضرورة بأن هؤلاء قد تبنّوا أفكار أو أيديولوجية هذا الحزب المتطرف، بل إن عملية التصويت جاءت كردة فعل على تدابير التقشف الحكومية والفساد وعدم المحاسبة، والمس بالسيادة الوطنية اليونانية من قبل اللجنة الأوروبية بالتعاون مع صندوق النقد الدولي والمسماة بالترويكا، وهي التي تراقب وتشرف على الاقتصاد اليوناني. إضافة لذلك هناك مجموعة من الكتّاب والصحفيين الذين ينظرون بعين الشك والرهبة تجاه النشاط العربي الاستثماري في السوق اليونانية. فعلى سبيل المثال يعلق الكاتب اندرياس بانوتسوس مساهمة الأمير السعودي الوليد بن طلال بن عبد العزيز في مؤتمر الإيكونوميست، الذي عقد تحت عنوان «أوروبا والعالم العربي» بالشكل التالي: «السعوديون لا يستثمرون في أي بلد غربي بدون تحقيق بعض الاعتبارات ذات الطبيعة السياسية والدينية». كذلك يذكر بأن انفتاح حكومة ساماراس نحو رجل الأعمال السعودي «ربما يقود في المستقبل متوسط الأجل إلى انتشار الوهابية في اليونان، ما يسهم في أسلمة البلاد»[1].

بالتأكيد هناك مجموعة من المجتمع اليوناني المسيحي مازالت متأثرة بفترة الحكم العثماني التي استمرت أكثر من ٤٠٠ عام، وبالتالي يربط بعض اليونانيين فترة «الاحتلال» العثماني بالإسلام فيعتبرون كل مسلم تركيًا.

آفاق ومقترحات لتعزيز العلاقات الاقتصادية العربية اليونانية هناك مجالات كثيرة ومتعددة لتحسين وتطوير الاقتصادية الثنائية والتعاون المشترك منها:

١-الزراعة: إن كليتي الزراعة في جامعتي أثينا وسالونيك تعتبران من الأفضل على المستوى الأوروبي، وبالتالي يمكن أن تلعبا دورًا مهمًا في جذب طلاب من الدول العربية من أجل الدراسة الجامعية، ويمكن لهذه الكليات ذات الخبرة الواسعة أن تحتكر التعاون العلمي

(1) Radical Islam Monitor in Southeast Europe (RIMSE), http://www.rimse.gr/2014 / 05/ blog-post_7.html

مع جميع الكليات الزراعية في معظم الدول العربية، والأهم من ذلك هو أن اليونان تنتج منتوجات زراعية متوسطية عالية الجودة، وذات قيمة غذائية ثمينة، ويمكن أن تكون جذابة لأسواق دول الخليج بسبب الفارق الكبير في المناخ. إضافة لذلك تعتبر تجارة المبيدات والأدوية الزراعية والأبحاث العلمية استثمارات بالقدر نفسه من الأهمية.

٢- السياحة: إن التبادل السياحي ذا الجودة العالية مع دول الخليج العربي، واستغلال التجربة والخبرة اليونانية السياحية في الدول العربية، وتطوير برامج السياحة العالمية، بحيث تمنح السياح القدرة على زيارة بلدين أو ثلاثة بلدان في الوقت نفسه، كذلك إنشاء الجامعة الدولية للسياحة والسياحة الدينية، هذه المجالات تعتبر من المناطق الاستثمارية الاستراتيجية بين العرب واليونانيين، والتي يمكن استغلالها بسهولة.

٣- الصناعات الدفاعية العسكرية: تفرض الأزمة الاقتصادية في اليونان على إدارة الصناعات الدفاعية أن تكون المحور الأساسي الداعم للاقتصاد الوطني. كما إن السوق العربية تعتبر من أكثر الأسواق العالمية استيرادًا للسلاح؛ بسبب التوترات الإقليمية المتعددة والمتجددة التي تجتاح المنطقة. ويمكن لليونان بسبب موقعها الجيوسياسي المهم، أن تكون مصدر تصدير للأسلحة الدفاعية والمعدات العسكرية، باستثناء أسلحة الدمار الشامل. في المقابل فإن السوق العربية يمكن أن تتعاون مع اليونانيين لتنمية هذا القطاع، ولكن للأسف حتى هذه اللحظة تفتقر أثينا للتكنولوجيا المتطورة والإنتاج التنافسي، لتغطية حاجات السوق العربية مقارنة بالدول الأخرى، التي تمتلك هذه الإمكانيات مثل روسيا والولايات المتحدة الأميركية. وعلى الرغم من ذلك، يجب الأخذ بعين الاعتبار أن اليونان يمكن أن تشكل مصدرًا مستقرًا وآمنًا من أجل التصنيع العسكري، الذي يلتزم بمعايير وتعاليم ولوائح الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو. لذلك فالتعاون في الإنتاج المشترك يمكن أن يمنح فرصة استثمارية مهمة للطرفين.

٤-قطاع التشييد والبناء: لعبت شركات المقاولات اليونانية دورًا مهمًا خلال فترة الثمانينيات في بناء وتشييد مشاريع ضخمة في العالم العربي عامة، ودول الخليج العربي خاصة، أن ذلك كان يجري بموجب معاملة تفضيلية للشركات اليونانية على الشركات الأوروبية التي كانت أقوى من اليونانية. لكن منذ فترة التسعينيات بدأ هذا القطاع بالتراجع؛ بسبب المنافسة القوية وغياب الدبلوماسية الاقتصادية اليونانية. واليوم يمكن لليونان استرداد ما فقدته بمساعدة شركات البناء اليونانية للعودة إلى الأسواق العربية؛ بسبب الفرص العديدة التي ستظهر بعد انتهاء الحروب والتوترات، من خلال إعمار العراق وسوريا وليبيا وفلسطين (بعد قيام الدولة).

٥-قطاع التدريب والتعليم الأمني: يمكن للتعاون في هذا المجال أن يكون مفيدًا في التدريب العسكري والبحري، وتدريب الشرطة ورجال الأمن، كذلك يمكن لشركات الأمن اليونانية الخاصة أن تسهم في تعزيز التبادل والعلاقات الاقتصادية بسبب كثرة التوترات في المنطقة العربية.

٦- الشحن البحري: تمتلك اليونان أكبر أسطول تجاري في العالم، فهي تسيطر على ٢٧٪ من حركة الشحن البحري نظرًا لموقعها الجغرافي، وعادةً ما يقوم هذا الأسطول بنقل البترول والغاز ومنتجات كثيرة أخرى بين الدول العربية والأسواق العالمية. إن تحسين العلاقات مع العالم العربي سيساعد في تسهيل عمل هذا القطاع وتوسيع أنشطته. إن تحقيق السلام في المنطقة العربية سيكون له أثر إيجابي من خلال تقوية وتعزيز عمل قطاع النقل البحري وتحصينه من بؤر التوتر والصدامات.

٧- قطاع الطاقة بأنواعها ومصادرها المتجددة: يمكن أن يكون التعاون في قطاع الطاقة بين اليونان والعرب مفيدًا للغاية؛ نظرًا لتجربة البلدان العربية الخليجية الكبيرة كدول منتجة للنفط. وعلاوة على ذلك، فإن

دراسة ووضع خطط لبناء خط أنابيب من مصر إلى جزيرة كريت اليونانية، أو من ليبيا إلى جزيرة كريت، من شأنها ضمان الاحتياجات الوطنية اليونانية وزيادة مكانتها الجيوسياسية مقارنة مع الشركاء الأوروبيين الآخرين. في المقابل، تضمن لهذه الدول العربية إمكانية توصيل آمن وفرصة وصول بطريقة أسهل للأسواق الأوروبية. إضافة لذلك، يمكن لليونان، بفضل التكنولوجيا العالية والخبرة التقليدية، أن تكون مفيدة للدول العربية بشأن مسألة مصادر الطاقة المتجددة.

٨- القطاع الثقافي: هذا القطاع له القدر نفسه من الأهمية، ويمكن أن يُنظر إليه بأسلوب إيجابي إذا تعاونت اليونان مع بعض الدول العربية، في مسألة إعادة القطع الأثرية المسروقة من قبل الدول التي تحتفظ بها في متاحفها الوطنية مثل فرنسا وبريطانيا.

٩- التجارة وقطاع الأعمال: تعتبر السوق العربية من أكثر الأسواق استهلاكًا على المستوى العالمي، ويمكن أن تمنح الدافع لتطوير الصناعة اليونانية، وخاصة قطاع المواد الغذائية والتكنولوجيا العليا، التي يمكن لليونان أن تحصل عليه بسهولة من بلدان الاتحاد الأوروبي.

الاستنتاجات:

إن موضوع العلاقات العربية اليونانية بحاجة إلى دراسات علمية جديدة مبنية على قواعد سليمة، يكون عمادَها باحثون مختصون، وعلى معرفة بتاريخ المنطقة؛ بهدف بحث وتحليل هذه العلاقات من المنظور اليوناني وليس الغربي. إضافة لذلك، يجب الأخذ بالاعتبار الموقف الكنائسي اليوناني من خلال حوار ديني سنوي متبادل مع السلطات الدينية في العالم العربي. إن تأسيس معهد أو مركز للدراسات العربية اليونانية هو ضرورة ملحة، من أجل تسهيل وتوضيح جوانب مهمة عن الطابع الاجتماعي للعرب بفهم أمور كثيرة ما زالت غامضة أو مجهولة عنهم في المجتمع اليوناني، بسبب غياب الأبحاث العلمية والمختصين

الواقعيين. ما يستحق الذكر هو أن الشعوب العربية تعتبر اليونان مصدر الحضارة العالمية ذات الأفق الفكري والحضاري الكبير وإلهام للشعوب الأخرى، فصورة اليونان هي أكثر إيجابية[1] لدى الشعوب العربية، مقارنة بصورة الدول الأوروبية الاستعمارية بحملاتها الصليبية التي مزقت المنطقة العربية.

إن السوق العربية الكبيرة والقريبة جغرافيًا من اليونان، تجعل من عملية تعزيز التجارة الاقتصادية حقيقة ممكنة بين هذا البلد الإغريقي وبلدان الجامعة العربية، ولكنها تتطلب دبلوماسية اقتصادية نشطة. إضافة لذلك، فهناك عوامل مثل بطريركيات الشرق الأرثوذكسية والمواطنين من جذور يونانية، والذين ما زالوا جزءًا من الاهتمام اليوناني، ويمكن لهؤلاء أن يسهموا بشكل إيجابي في عملية التقارب العربي اليوناني، بشرط احترام السيادة الوطنية لكل طرف. كذلك على الرغم من التعاون اليوناني الإسرائيلي الأخير، إلا أن أثينا كانت من الأوائل في اعتراف عضوية دولة فلسطين في منظمة الأمم المتحدة، وهذا الأمر يمنح اليونان عاملًا إيجابيًا يمكن أن يستثمر من أجل حل النزاع العربي الإسرائيلي بقيام دولة فلسطينية على حدود عام ١٩٦٧.

وأخيرًا إن التقارب العربي من هذا البلد الإغريقي يمكن أن يكون سهل المنال؛ لأن اليونان لها خصوصياتها المميزة، فهي كبلد أوروبي تتمتع برئتين: واحدة غربية، والأخرى شرقية.

(1) Newspaper Al Ahram, date 20 / 12 / 64 «peace is the basis of the foreign policy of Greece», document 768, date 30/ 12 / 64, File 46, Subfolder 7. Sheikh Hassan Maamoun, President of Al-Azhar, said that Greece is a country who respects all religions and abides by the principal of religious freedom, See Newpapers Phos and Tachidromos, date 22 / 12 / 1964, document 6006, date 07 / 01 / 1965, File 46, Sufolder 7.

ضوابط وتحوّلات العلاقات
بين العالم العربي ومنطقة البلقان

خالد شيات[1]

مقدمة

تُعتبر منطقة البلقان جغرافيًا منطقة أوروبية، سواء بالمفهوم الجغرافي أو الاستراتيجي، لكنها أيضًا كانت وما زالت منطقة تماس حضاري مع الثقافة الإسلامية. فقد كانت منذ فترة الحكم العثماني تابعة للنفوذ الثقافي الإسلامي ديانة وممارسة، مع التأكيد على الخصوصيات التي كفلها الإسلام كديانة سمحة لتفرد الثقافات المحلية. ومن هذا المنطلق شهدت هذه المنطقة قلاقل سياسية عديدة، مرتبطة أساسًا بالصراع الحضاري بين الثقافتين الإسلامية التي يحملها عدد من المجموعات البشرية القاطنة بالمنطقة والثقافة الغربية المسيحية بكل تحولاتها، على اعتبار أن التواصل الحضاري كان في شق قليل منه يرتبط بمفهوم الخضوع الذي مثلته السلطة، ولاسيما في إطار الدولة الوطنية بعد صراعات سياسية مريرة.

والحروب التي كانت المنطقة مسرحها تاريخيًا عديدة، وهي قائمة في مجملها على محرك النوع المتمثل في التفرّد الثقافي المبني على البعد الديني، أي الاختلاف النمطي بين الدين الإسلامي والدين المسيحي؛ فالقبول الذي ووجهت به المسيحية باعتبارها ديانة قارة لم يحظ به الدين

---

(١) أستاذ العلاقات الدولية في كلية الحقوق- جامعة وجدة، المغرب.

الإسلامي لاعتبارات عدة، أهمها توازيه مع مفهوم الفتح الذي رافق مرحلة الهيمنة الإمبراطورية العثمانية، ثم كان مشجبًا لتصورات شوفينية ضيقة، في الصراعات التي عرفتها المنطقة في بداية تسعينيات القرن العشرين. لذلك، بقيت العلاقات التي تجمع المنطقة مترنحة بين بعدين منذ آخر حرب «استرداد» أوروبية في بداية القرن العشرين أو حرب البلقان الأولى[1]؛ فمن جهة، هناك العنصر الثقافي «الإسلامي» الذي يميل لتكريس التوازن مع القوى المحلية بالاتجاه نحو الدول الإسلامية، وهناك من جانب آخر العنصر «المسيحي» الذي يرى في الامتداد الثقافي الأوروبي حماية من التآكل، الذي يمكن أن يمسّ نسيجه الثقافي العام المرتبط بمصالح متداخلة رعتها على العموم قوتان: القوة الروسية لاعتبارات ثقافية ضيقة، والقوى الأوروبية بعد الوحدة التي تقوم بالأساس على قيم سلمية، في حين استمرت تركيا الحامي والوسيط الثقافي الذي يحمي المجال الثقافي الإسلامي، مع التأكيد على أن التفرقة بين الإسلامي والمسيحي ليس تفريقًا دينيًا، بل هو تمييز ثقافي صرف. ولقد كانت الدول العربية على العموم متأثرة بهذا النسق، وهو ما جعلها لا تطور بشكل كبير ومتناسق علاقات مترابطة مع «فضاء» البلقان.

لقد كانت دائمًا الحرب والهوية منطلقًا لتحليل الترابط داخل هذا الفضاء والمنطقة، التي كانت في قلب الصراع الأوروبي سواء في الحرب العالمية الأولى أم في الحرب العالمية الثانية، مع تراجع الدور الذي قامت به القوة العثمانية لحماية الثقافة الإسلامية. بعد ذلك اختل التوازن لصالح القوى «المسيحية»، ولم يلطف من الصراع سوى تحول المجموعات البشرية إلى كيانات سياسية أي دول، حيث تفوقت مفاهيم الوطنية على المفاهيم الهوياتية التقليدية بما فيها الدين. فالانصهار في قالب الدولة الوطنية جعل الصراع الحضاري على أساس

---

(١) الحرب التي دارت سنة ١٩١٢ بين الدولة العثمانية وقوى أوروبية إقليمية، والتي فقدت فيها الدولة العثمانية غالبية أراضيها في أوروبا، وقيام دويلات جديدة منها ألبانيا، قبل أن تستعيد جزءًا يسيرًا من خسارتها في حرب البلقان الثانية سنة بعد ذلك أي سنة ١٩١٣.

ديني يتراجع بشكل حاد، مع غلبة مفاهيم المواطنة كقيمة للدولة الوطنية، خاصة في إطار الحرب الباردة[1].

لكن الحرب، في بعدها الحضاري السابق، ستعود مع الحرب التي واكبت تفكك الاتحاد اليوغسلافي السابق مع انهيار المعسكر الشرقي، وأصبحت بذلك تتداخل براديغمات التحليل بين معطيين مستقرين: المعطى «الثقافي» الذي حد من البعد الحضاري المبني على الصراع الديني بين المسلمين وغيرهم في المنطقة، والمعطى المصلحي الذي تفاعل داخليًا لبناء الدولة الوطنية من جهة، وخارجيًا في تفاعل مع توجهات متباينة وغير واضحة لقوى دولية وإقليمية، كالاتحاد الأوروبي وروسيا والولايات المتحدة وحتى تركيا، في حين بقيت الدول العربية بعيدة عن التأثير الفعلي في الأحداث، وهو الأمر الذي أثر على سياساتها بعد ذلك في المنطقة، وأثر على درجات الترابط المتفاوتة بين دولة عربية وأخرى وبين المنطقة والدول العربية ككل.

لم تتراجع الدواعي الحضارية للصراع، ولا يمكن أن نمزج على قدر متساو، في ما يخص براديغم التحليل، بين هذا المعطى والمعطى المصلحي؛ لأن المصالح لا تفسر كل السياسات. بل يمكن القول إن العلاقات بين منطقة البلقان والعالم الإسلامي عمومًا والعالم العربي على وجه التحديد يقوم على فرضية «الحتمية الثقافية»، ذلك أننا نلاحظ أن التقارب يشتد مع التأزم الثقافي ويتراخى مع الاستقرار السياسي بالمنطقة، وتكون أدواته في الغالب ثقافية واقتصادية، لكن مع الإقرار بدور ثانوي لتعميق الترابط الاستراتيجي مع

---

(١) لقد كان ما يمكن تسميته بحرب الاسترداد بالنسبة للثقافة الأوروبية عاملًا محوريًا في تفسير الحرب، لكنه تحول في بداية القرن العشرين قبيل الحرب العالمية الأولى، وأصبحت له معايير متعددة تدور بالأساس حول المصالح المرتبطة ببناء الدول القومية، التي كانت تسبح في محيط الإمبراطوريات المتعددة؛ لقد كان التحالف بداية بأسس حضارية صرفة حيث جمع كلًا من صربيا واليونان وبلغاريا والجبل الأسود، لصد العثمانيين من المنطقة، وما لبث أن تحول مع عدم الرضا بالتوزيع الجغرافي بعد دحر القوة العثمانية من المنطقة إلى المعطى المصلحي الصرف، وقد كان رد فعل العثمانيين بعد ذلك باستغلال التفرقة الإثنية ومعاودة التواجد بعدما فقدت الإمبراطورية أجزاء من أراضيها.

القوى الإقليمية والدولية، خاصة الاتحاد الأوروبي وروسيا وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية.

وهذه الفرضية تحتم علينا كباحثين مقاربة العلاقات العربية- البلقانية في بداية القرن الواحد والعشرين، من خلال فهم معطيات التشابك بين الجانبين ليس بعيدا كل البعد عن معطى الانتماء الحضاري، الذي فرض ترابطات ثقافية تاريخية وهوياتية فعالة، جعلت من خلالها المنطقة جسرًا للعلاقات بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية من جهة، ورابطًا للتواصل الحضاري العام من خلال تجاوز مفهوم الأزمة لتدبير العلاقات بين الجانبين، لكن ليس بالاعتماد فقط على هذا البعد لوحده، بل لا بد من التركيز أيضًا على الجوانب المصلحية لهذه العلاقات، لاسيما في بعدها الاقتصادي.

هل تستطيع الدول العربية، فرادى وجماعات، أن تجدد تصوراتها ومقارباتها لتحديد سياسة خارجية مبنية على أسس صلبة، تقوم على المزج بين الإطار التقليدي القائم على التقارب الثقافي والانتماء الهوياتي، خاصة أن البلقان منطقة لا تمثل فقط الهوية الثقافية الإسلامية، بل هي أيضا مستقبل التقارب الحضاري القائم على الأبعاد السياسية والاقتصادية والثقافية، والبعد المصلحي؟

أولًا: محدّدات الترابط بين العالم العربي ومنطقة البلقان

أثرت الحرب على الترابط بين العالم العربي ومنطقة البلقان بشكل كبير، بحيث إن التاريخ العربي الحديث يبدأ مع المواقف التي استدعتها الصراعات القائمة في هذه المنطقة. من جهة مثلًا كانت فكرة جامعة الدول العربية «تحريفًا» للتصوّر الذي كان يراود بعض المفكرين في مسألة الوحدة الإسلامية، خاصة بعد التآكل الذي طال الإمبراطورية العثمانية وزوالها نهائيا. فقد كان أول أمين عام للجامعة العربية عبدالرحمن عزام (١٩٤٥-١٩٥٢) قد سافر إلى تركيا، وعمل مراسلًا صحفيًا، وشارك في حرب البلقان مع قوات الدولة العثمانية عند قيام الحرب العالمية الأولى. كما إن استعداد الدولة العثمانية لخوض

الحروب بالبلقان قبيل الحرب العالمية الأولى، دفعها للتخلي عن الإمارات العربية لصالح بريطانيا منذ سنة ١٩١١ وحتى توقيع اتفاقية لندن بتاريخ ٢٩ يوليو (تموز) ١٩١٣، وهو ما يعد بداية لتشكل العالم العربي بعد انتهاء السيطرة العثمانية ودخوله في مرحلة جديدة آنذاك.

وتُعتبر المنطلقات الأساسية للترابط بين العالم العربي ومنطقة البلقان، أهم محدد يضبط العلاقات بين الجانبين، وهي محددات تتروح بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي؛ بين المحدد الهوياتي والمحدد الاستراتيجي.

١. المحدّد الهوياتي

كان العامل الهوياتي الأساسي للترابط بين العالم العربي ومنطقة البلقان هو الدين، ولا سيما الدين الإسلامي بالنسبة للعالم العربي، ودون الخوض في التفاصيل التاريخية لهذا الترابط، يمكن القول إنه ما زال محركا لفهم الصراع القائم في البلقان، على الأقل من وجهة نظر العالم العربي، ولا يعني ذلك أنه محرك وحيد.

يمكن اعتبار أن جزءًا من المعركة في البلقان هو في إقرار وضع إثني يساير التوجهات الثقافية المتعددة، بحكم عامل القوة والضعف كمحدد للصراع وخدمة لمصالح آنية ومستقبلية خاصة في البعد الاقتصادي. فبتتبع المسار الخاص بالمنطقة، يلاحظ بوضوح استعمال «الخلفية الإثنية» لتحديد مسار الصراعات؛ في المرحلة العثمانية تمّ إقرار الديانة الإسلامية وإعانتها ونشر تعاليمها، رغم أن الدين الإسلامي لم يصل للمنطقة عن طريق «الفتح». وفي مراحل الصراع الحديث سعت الطوائف إلى مفهوم الاستيطان والتطهير العرقي، بحيث استعمل الصرب في آخر صراع حول كوسوفو السلاح نفسه، وكان عدد المهجرين الصرب إلى كوسوفو حوالى ٧٠٠ ألف شخص، في حين تمّ إبعاد حوالى ٨٠٠ ألف من المسلمين، وهي مسألة تشير إلى أهمية اعتماد سياسة استباقية إثنية بالخصوص، للتأثير على الجغرافيا وعلى المسار العام للصراع. والحقيقة أن الأمر لا يعدو أن يكون استعمالًا إثنيًا بعيدًا عن

الفهم الديني العميق، الذي لا يجيز مثل هذه التصرفات، وبالتالي يمكن اختزال الصراع في الطبائع الثقافية التي تحدد التقسيم السكاني داخل المنطقة. وبذلك يـزاح مفهـوم الحرب الدينيـــة عــن الصــراع ويعـوض بوصـف الحرب ذات المرتكزات الثقافية أو الهوياتية (Identity).

والمقصود بالبعد الهوياتي هو الترابط الذاتي بين القضايا التي شغلت المجال الجغرافي البلقاني، والتفاعل الوجداني الذي كان يقابل به، وهو ما أثر على فهم الصراع داخل العالم العربي؛ وهو يقوم على بعدين:

١- البعد الرسمي الذي يتأثر بالمحددات الاستراتيجية، التي سنتناولها لاحقًا، وبالتالي يضبط سرعة ومجال التفاعل داخل هذه المؤثرات. ومن أمثلة ذلك التفاعل الدبلوماسي، خاصة داخل منظمة التعاون الإسلامي (المؤتمر الإسلامي حينها)، حيث تمّت الدعوة لاستعمال القوة ضد التطهير الذي مارسه الصرب في إطار الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة في اجتماع بجدة في ديسمبر ١٩٩٢، لكن القوة الموازية المتمثلة أساسًا في المصالح القوية لليونان وبعض الدول الأخرى، ولا سيما روسيا، حدّ من تفاعل الدول الإسلامية والعربية ضمنها مع مسألة الانخراط الرسمي لهذه الدول في حرب بالبلقان.

النجاح الوحيد تمثل في الدفع الذي استطاع أن يحدثه موقف مجموعة من الدول العربية والإسلامية، وبعض الدول غير المنحازة التي كانت أعضاء في مجلس الأمن آنذاك، والمتمثل في توسيع قوات الحماية الدولية لتشمل مناطق أخرى غير تلك التي كان يؤطرها مشروع «فانس-أوين»، والذي كان يكرّس التطهير العرقي لتشمل المناطق المسلمة الثلاث، وبذلك استطاعت هذه الدول أن تساهم في هذه القوات ومنها دول عربية، وهي المغرب وجيبوتي ودول أخرى منها الرأس الأخضر وفنزويلا.

٢- أما البعد الشعبي، أو غير الرسمي، فقد كان هو البعد المباشر لتفاعل العرب مع المنطقة؛ لكونه لا ينضبط للمعطيات الاستراتيجية، وبالتالي أقرّ واقعًا

وتفاعلًا خاصًا بعيدًا عن المراقبة أو التحكم السياسي في المجالين التاليين على الأقل:

- الانخراط العسكري المباشر في المعارك التي خاضتها المنطقة تحت راية الدفاع عن الدين، وضد «المعتدين على المسلمين» في المنطقة خاصة الصرب منهم(١).

- الإعانات المباشرة عن طريق تقديم مختلف أنواع التضامن الإنساني المحصور في الجانب الذي يتأطر بالبعد الديني(٢).

والتساؤل الذي يطرح في هذا النسق هو: هل يصلح البعد الديني وحده أن يؤطّر المجال الهوياتي للترابط؟ وهل يمكن أن يكون عائقا للتواصل ومحددا مؤسساتيا أو استراتيجيا للتعامل مع منطقة البلقان؟

---

(١) تشكلت لجنة لسحب الجنسية التي أعطيت للمقاتلين العرب بعد اتفاقية دايتون للسلام الموقعة رسميا في باريس في ١٤ ديسمبر ١٩٩٥، وقد كان من مهام هذه اللجنة سحب جنسية حوالى ١٥٠٠ شخص ممن سموا «عرب البوسنة».

وقد كان الهاجس هو تحول المنطقة بفعل تأثير العرب إلى مجال للتطرف، حتى إنه هناك من ادعى أن هجمات ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة تم التخطيط لها في البوسنة.

وقد جاءت العبارات واضحة فيما يخص المقاتلين الأجانب وأسلحتهم في اتفاقية دايتون التي تمهلهم مدة شهر لمغادرة منطقة النزاع:

«Article III: Withdrawal of Foreign Forces

All Forces in Bosnia and Herzegovina as of the date this Annex enters into force which are not of local origin, whether or not they are legally and militarily subordinated to the Republic of Bosnia and Herzegovina, the Federation of Bosnia and Herzegovina, or Republika Srpska, shall be withdrawn together with their equipment from the territory of Bosnia and Herzegovina within thirty (30) days».

(٢) من ذلك مثلًا حجم المساعدات التي قدمتها المملكة العربية السعودية والتي ناهز «حجم التبرعات التي قدمتها لمسلمي البوسنة والهرسك عن طريق الهيئة السعودية العليا إلى ذلك التاريخ بلغت ١٦٧٥٣٠٣٧٢٧ ريالًا سعوديًا، منها ١٤٢٩٥١٨٠٨١ ريالًا سعوديًا تبرعات نقدية، و٢٤٥٧٨٥٦٤٦ ريالا سعوديا القيمة النقدية للتبرعات العينية. كما بلغت جملة التبرعات النقدية التي قدمتها حكومة خادم الحرمين الشريفين عن طريق وزارة المالية والاقتصاد الوطني والأجهزة الأخرى في السعودية والهيئات والمؤسسات الخيرية العامة والخاصة ٤٢٨٥٦٥٢٩٤ ريالًا سعوديًا».

راجع حوار السفير السعودي السابق فهاد عبد الله الزيد مع جريدة الشرق الأوسط بتاريخ: ٠٣ غشت ٢٠٠٢.

والجواب هو أن الدين ليس هو المحدد الوحيد للهوية بالبلقان، وكان في الغالب مجرد منطلق لتحديد هوياتي للصراع مادي صرف. فهو من جهة مع المجموعات المسلمة لا يحمل الصفات الثقافية نفسها، وغالبًا ما يتسم بكثير من التحرر رغم تأثره بالاتجاه السنّي عمومًا، ويبقى إطارا للتقارب في مستويات روحانية ولكن أيضًا يمكن أن يكون من الناحية الاستراتيجية بعدًا معيقًا للتواصل؛ نظرًا لما يلحق بالدين الإسلامي من صفات، ونظرا لعامل القرب الجغرافي الذي يمثله مسلمو البلقان عمومًا في أوروبا. ولذلك يجب استبعاد الدين وحده من المقاربات السياسية مع المجموعات المسلمة بالمنطقة، والعمل على إيجاد بدائل حقيقية قائمة على أبعاد حضارية فعلًا لكن بمقومات واقعية.

أما العامل الثاني فهو صعوبة الاستئثار بالبعد الديني لتأثير ذلك على التوازن الذي يمكن أن تقوم به الدول العربية، خاصة تلك التي كان لها مواقف معتدلة تجاه المجموعات الثقافية غير المسلمة، في المنطقة مستقبلًا.

٢. تأثير أدوار ووساطة القوى الإقليمية

من العوامل الاستراتيجية المحددة للعلاقات العربية البلقانية وجود ما يمكن أن نسميه بالوساطات التي تتمثل في بعض القوى الإقليمية بالخصوص. ودون التفصيل في كل المتدخلين الدوليين الذين يعتبرون المنطقة فضاء يعد امتدادًا لتصوراتهم الاستراتيجية الكونية، وخاصة الاتحاد الأوروبي وبعض دوله، والولايات المتحدة الأمريكية، يمكن القول إن المؤثرين الكبيرين في تحديد اتجاهات السياسة الخارجية بالمنطقة قوتان إقليميتان مازال لهما تأثير كبير لا يمكن تفاديه لتنزيل أي سياسة خارجية عربية بالمنطقة، وهما كل من تركيا وروسيا.

آ. مستقبل الدور الروسي

تعتبر روسيا البلقان فضاء تابعًا من الناحية الاستراتيجية، فبالإضافة إلى الارتباط الثقافي والاجتماعي والديني، هناك روابط استراتيجية ومصلحية كبيرة بين الطرفين، ظهرت أكثر في مراحل النزاع الأخيرة باعتبار روسيا قوة إقليمية،

وأيضا باعتبارها عضوًا دائمًا في مجلس الأمن، حيث كانت قراراتها داعمة ومتناغمة مع مصالحها الحيوية بالمنطقة.

واعتبارًا للموقع الاستراتيجي الذي تمثله منطقة البلقان بالنسبة لروسيا، فإنها تعتبر السيطرة والتفاعل الاستراتيجي مع المنطقة مسألة حيوية ومصيرية، وتتمثل أهم الخصائص التي تأخذها روسيا بعين الاعتبار في علاقتها بالمنطقة في التالي:

- التماس الجغرافي بين الحدود الجنوبية الغربية لروسيا والمنطقة.
- اعتبارها منطقة للمياه الدافئة التي تمثل متنفسًا استراتيجيًا على المستويين الاقتصادي والعسكري.
- الارتباط الجغرافي مع دول الاتحاد الأوروبي الذي تعرف علاقاته مع روسيا مدًا وجزرًا، عبر التحولات التي تعرفها رؤية روسيا للقضايا الاستراتيجية للمنطقة عمومًا.
- الارتباط الثقافي الكبير القائم على الجانب الديني المتمثل في الديانة المسيحية الأرثودكسية.

لقد تعددت الأدوار الروسية في القضايا التي تعرفها ما بين الدعم الذي تتبناه لبعض حلفائها التقليديين بالمنطقة، باعتبارها قوة عسكرية أو باعتبارها عضوًا دائمًا بمجلس الأمن، وهو ما حقق لها حضورًا قويًا أسس لتوازن مع القوى التقليدية الأخرى، كبعض دول الاتحاد الأوروبي أو الاتحاد الأوروبي نفسه، ومع قوى دولية أخرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية[1].

ويُعدّ الحضور الاقتصادي الروسي وازنًا ومحددًا كبيرًا لطبيعة التأثير الذي تمارسه على المنطقة، وتُعد الطاقة واحدة من المنافذ المهمة في هذا الميدان؛ فبالإضافة إلى أنابيب الغاز وخطوط الطاقة الأخرى التي تمثل الشريان الوحيد

---

(١) لقد كان حضور روسيا القوي بمجلس الأمن، واعتراضها على استعمال القوة ضد يوغوسلافيا في قضية كوسوفو، عاملًا محددًا لتوجه الولايات المتحدة الأمريكية لضرب يوغسلافيا «خارج الشرعية الدولية» وخارج قرارات مجلس الأمن واللجوء إلى قوة حلف الناتو.

لبعض دول المنطقة، خططت روسيا لإقامة مشروع أكبر يسمى «يوجني توك» أو «خط الجنوب» بشراكة مع حليفتها صربيا، التي تملك خزانًا مهمّا من الفحم، وهو موجه لكامل أوروبا بما فيها دول البلقان، وتريد روسيا أن تستغل عامل الطاقة للدفع بمصالحها نحو أقصى المنافع[1].

وستكون روسيا في حاجة أكبر لسياسية الطاقة مقابل المصالح الاستراتيجية، خاصة مع التصور الذي يحمله الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، والذي من خلاله يمكن أن تحافظ على مكتسباتها أو تضيف مكتسبات جديدة من خلال الضغط بورقة الطاقة خاصة في ظل تصاعد الأزمة حول أوكرانيا.

وبالمقابل، يلاحظ أن الدول العربية لم تقدم أي مشروع بديل باعتبار قربها الجغرافي النسبي للمنطقة، وباعتبار التأثير القوي لذلك على مسار الأحداث مستقبلًا وعلى مصالحها عمومًا. ولعل ذلك راجع لضعف التصور من جهة، وللخوف من ردود الأفعال الروسية تجاه تبني أي تحد مماثل، وربما أيضًا للأوضاع غير المواتية التي تعرفها بعض دول العبور كالعراق وسوريا.

إن إخراج عامل الطاقة من معادلة العلاقات العربية البلقانية عمومًا ومع دول القرب الحضاري خاصة، إلا ما يدخل في برامج القوى الإقليمية التقليدية، يجعل التأثير المستقبلي للدول العربية على مسار الأحداث بهذه المنطقة الاستراتيجية القريبة من أوروبا محدودًا جدًا، في حين يبقى الدور الروسي الحالي والمستقبلي محددًا لطبيعة التفاعلات السياسية بهذه المنطقة الحساسة، ناهيك عن الدور التركي بالمنطقة.

ب- تأثير الوساطة التركية على العلاقات العربية البلقانية

تجمع تركيا علاقات متميزة بدول البلقان، ويُعدّ ذلك استمرارًا لطبيعة العلاقات التقليدية مع الفضاء الحضاري الإسلامي من زمن الدولة العثمانية، وتدور هذه العلاقات في فلك العديد من الميادين كالميدان الثقافي

---

(١) مشروع «خط الجنوب» (South Stream) هو مشروع تملك فيه الشركة الروسية «غاز بروم» (Gazprom) ٥٠٪ بينما تتقاسم النصف الباقي شركة إيطالية (ENI) وفرنسية (EDF) وألمانية (BASF). راجع الخريطة رقم ١ الملحقة بهذا البحث.

والاقتصادي والاجتماعي وغيره. والسؤال الذي يطرح نفسه بعيدًا عن العوامل التقليدية: هل تتناغم السياسة الخارجية التركية عمومًا، وسياستها الطاقية على الخصوص، مع توجه تحسين العلاقات مع الدول العربية أم هي في تقابل مع هذا النسق؟

لدى تركيا أنساق متعددة للترابط مع دول البلقان؛ فمن الناحية الاجتماعية هناك جماعات من أصل تركي بهذه المنطقة، في الوقت الذي يعيش فيه في تركيا جماعات من أصل بلقاني، وهو الأمر الذي يؤثر على السياسات الخارجية التركية بشكل يقوم على ضمان الاستقرار الذي يعني استقرار تركيا أيضًا.

من الزاوية السياسية، وبعد استقرار الأوضاع في المنطقة بتشكيل جمهورية الجبل الأسود سنة ٢٠٠٦، وجمهورية كوسوفو سنة ٢٠٠٨، سعت تركيا إلى تبنّي سياسة تصفها بسياسة «الانتماء الإقليمي» و«الشمولية» مع الفضاء في منطقة البلقان، والتي تكمن غاياتها في تحقيق اندماج وتكامل اقتصادي يحقق غايات متعددة، على رأسها إيجاد مصوغات للتقارب والاندماج في الاتحاد الأوروبي من طرف تركيا، أو الحضور الأمني.

لقد انعكست هذه السياسة على الجوانب الأمنية، وهو مفهوم الشمولية الذي تتبناه تركيا في المنطقة، بحيث ظهر ذلك جليًا من خلال آليتين على الأقل:

- التصويت لصالح إقرار وضع يراعي المصالح التركية في إطار الأمم المتحدة ولاسيما الجمعية العامة.
- المشاركة في القوات العسكرية لحفظ الأمن في المنطقة والتي تجلت في كل من قوات حفظ السلم في كوسوفو(KFOR)، وقوات حفظ السلم التابعة للاتحاد الأوروبي(EUFOR)، وبعثة الأمم المتحدة للإدارة المؤقتة في كوسوفو (UNMIK)، وبعثة سيادة القانون في كوسوفو التابعة للاتحاد الأوروبي (EULEX) [١].

---

(١) انظر موقع وزارة الخارجية التركية، القسم العربي: العلاقات التركية مع دول البلقان:
http://www.mfa.gov.tr

ومن الإبداعات السياسية التركية ما يسمى بآلية الاستشارة الثلاثية بين تركيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك من جهة، وأيضًا بين تركيا وصربيا والبوسنة والهرسك من جهة أخرى[1]، وهو ما يستنتج من خلاله حرص تركيا على ضمان التوازن السياسي بين مختلف الأطراف بالمنطقة، رغم أهمية العلاقات مع البوسنة والهرسك في مقابل باقي الدول الأخرى.

من جانب مقابل، لا تتوفر في العالم العربي نفس الروابط التي تملكها تركيا مع دول البلقان؛ من الناحية الاجتماعية والثقافية تشكلت بعض الترابطات إبان الحرب التي دارت حتى أواسط تسعينيات القرن الماضي، لكن في المستوى السياسي ليس هناك تصور «مندمج» سواء لدولة أو مجموعة دول لمقاربة هذا الفضاء، ولعل ذلك راجع للعوامل التالية:

- عدم إمكانية استخدام الفضاء في البلقان كأداة لتنزيل سياسات للتقارب مع الدول الأوروبية؛ نظرًا لكون العالم العربي عمومًا، وشمال إفريقيا على وجه التحديد، هي مجالات لتنزيل الرؤية الاستراتيجية الأوروبية وليس العكس، بحيث تنضبط مثلًا هذه الدول للتعاون المتوسطي أو للتعاون في إطار خمسة زائد خمسة أو غيرها من البرامج والاستراتيجيات الأوروبية.
- ضعف الوسائل الاقتصادية غير الطاقية لتفعيل سياسة خارجية بأبعاد متعددة.
- تنافر المصالح العربية سواء في المستوى العام، أي بين المشرق والمغرب، أو في المستوى الثنائي.

في مستوى آخر، يجمع العالم العربي ومنطقة البلقان مشروع «نابوكو» (Nabocco)[2] الذي ينطلق في الأصل من إيران ويمر على كل من العراق

---

(١) راجع نفس المرجع.

(٢) راجع بعض تفاصيل المشروع المالية في جريدة *Le Figaro, 13 Juillet 2009* المشروع بطول ٣٣٠٠ كلم، وبطاقة استيعابية تصل إلى ٣١ مليار متر مكعب، وبتكلفة ٧,٩ مليار أورو. راجع الخريطة رقم ٢ الملحقة بالبحث.

وسوريا في اتجاه تركيا، ومنها إلى دول البلقان وبعض الدول الأوروبية. ومن المفترض أن يكون هذا الخط وسيطة توازن مع الدور الروسي ومنطلق للسياسات الطاقية العربية، باعتبارها احتياطيًا طاقيًا في حالة تأزم العلاقات مع روسيا خاصة، لكن الملاحظ هو أن دور الدولتين العربيتين من المفترض أن تلتحقا بهذا المشروع، أي العراق وسوريا، ضعيف في هذا الخط الطاقي من جهة، ولا يؤثر في المسار الأصلي المنطلق من إيران والمتجه نحو البلقان وأوروبا، نظرًا للأوضاع السياسية الصعبة التي يمران بها معًا.

وتعتبر تركيا، التي وافقت على المشروع كما وافقت على المشروع الروسي قبل ذلك، واحدة من الدول المستفيدة منه بشكل مباشر. لذلك يبقى أن نذكر أن التأثير لا يكون بمجرد إرسال الطاقة عبر الأنابيب، بل أيضًا بوضع رؤية استراتيجية متكاملة تجمع الجوانب السياسية والاقتصادية باعتبار ذلك بدائل تساعد على تنويع الشراكات على المستوى الخارجي للدول العربية.

ومن الملاحظ أيضًا أن الدول العربية المصدرة للنفط بدأت تفقد هذه الخاصية لصالح قوى أو جماعات أخرى، كما هو الحال في حالتي تصدير النفط من منطقة كردستان بالعراق عير تركيا، ابتداءً من ماي ٢٠١٤، أو في حالة استغلال السوق السوداء للنفط من طرف الجماعات الإرهابية، كما هو حالة «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، وهو أمر يعني أن قوة تأثير هذه الطاقات بالنسبة للدول العربية أصبحت تتقلص بشكل متواتر.

وجوابًا على السؤال الأصلي في هذا المحور، يمكن القول إن الوساطة التركية ليست بالطهرانية التي يمكن أن نتصورها؛ لكونها تسعى لبناء فضاء في ظل تصور خاص، ويمكن أن تدمج فيه بعض الدول العربية، لكن بوجود سياسات بديلة ومؤثرة على المنطقة وعلى السياسة التركية نفسها، في حين اختارت دول عربية أخرى مجابهة الاستراتيجية التركية بالمنطقة، والتعاون مع صربيا في المجال العسكري والاقتصادي كما فعلت الإمارات العربية المتحدة، فيما يمكن اعتباره سياسة غير فعالة وغير «أخلاقية» أحيانًا، باعتبار أن صربيا منطقة تدخل في نفوذ الاتحاد الأوروبي الذي يسعى إلى ضمها قريبًا، وهو ما

يعني بناء أسس لن تستفيد منها الإمارات العربية المتحدة. وأيضًا نظرًا لكون التعاون العسكري يصب في صالح تكريس قوة صربيا في المنطقة على حساب الدول الأقرب حضاريًا كما أسلف.

٣. غياب تصور موحد أو جماعي عربي تجاه منطقة البلقان

ظهر من خلال الأزمات التي عرفتها منطقة البلقان أن الدول العربية ليس على مسافة واحدة من دول هذه المنطقة، سواء من الناحية السياسية أو المصلحية، وقد كان أكبر تجل هو الحرب على يوغسلافيا في أزمة كوسوفو، حيث تراوح الموقف منها في اتجاهين متناقضين: اتجاه داعم لضربات حلف الناتو الجوية وتدمير القدرات اليوغسلافية، والذي تبنته دول مجلس التعاون لدول الخليج، وموقف مناوئ تبنته خصوصًا كل من العراق وليبيا وبشكل أقل سوريا والجزائر.

ويعتبر ذلك دلالة على استحالة مقاربة العلاقات العربية البلقانية من زاوية عربية واحدة؛ ذلك أن التعدد هو السمة الكبرى لذلك، ولعل من أهم الأسباب في ذلك:

- كون الدول العربية لا تملك في العموم حرية التعبير عن رأيها خارج المصالح المترابطة مع دول وقوى دولية أو إقليمية.
- أن هناك دولًا لا ترى في إبداء موقفها سوى تعبير عن موقف مجاني بدون تبعات مصلحية حقيقة، ولا يكاد ذلك سوى أن يشفي غليل بعض الاتجاهات الإسلامية الداخلية لتلطيف العلاقات معها على الخصوص.
- أن هناك من الدول من يعتبر أن الخصوصيات التاريخية للعلاقات بين الطرفين محدد أساسي، باعتبار أن يوغسلافيا من الدول المؤسسة لعدم الانحياز، أو لموقفها الثابت من الثورة الجزائرية وقضايا التحرير في العالم العربي خصوصا القضية الفلسطينية.

وبذلك تكون الدول العربية مجالات متناقضة في تصوراتها للعلاقات مع البلقان اعتبارًا لتأثير العوامل التالية:

- محدد القرب الاستراتيجي.
- محدد المصالح الاقتصادية.
- محدد التبعات والعلاقات الاجتماعية والثقافية.
- محدد التأثير الممارس من طرف قوى إقليمية ودولية.
- محدد الأوضاع السياسية الداخلية للدول العربية.

ثانيًا: محدّدات السياسات المستقبلية بين الدول العربية ومنطقة البلقان

من الوضع الذي تتأطر به العلاقات بين العالم العربي ودول البلقان، يبدو أن السياسة العربية الخارجية تجاه هذه المنطقة يجب أن تنضبط لمحددات أساسية، وهي في عمومها ذات أبعاد استراتيجية واقتصادية، وحضارية.

آ- المرتكز الاستراتيجي

يقوم هذا المرتكز على فرضيتين: استحالة إقامة سياسة مباشرة تجاه المنطقة، وعلى عدم الاعتماد على المقدرات الذاتية أو الثنائية لبناء علاقات متميزة مع الفضاء في البلقان من جهة، وعلى ضرورة المرور من سياسات واستراتيجيات القوى الإقليمية والقوى الكبرى لتنزيل السياسات الخارجية.

وهذا يعني أن الدول العربية مجتمعة لا يمكن أن تعتبر منطقة البلقان منطقة استراتيجية؛ لكونها منطقة نفوذ تاريخي سابق ومجال استراتيجي حالي لقوى محلية وكبرى.

وبذلك يمكن التساؤل على السياسات التي يمكن أن تجمع الدول العربية مع فضاء البلقان، في مجال شامل أو عام منخرط في تصورات استراتيجية لقوى خاصة أو في المستوى الثنائي؟

يمكن، من جهة، تعزيز هذه العلاقات في سياسات الاتحاد الأوروبي في منطقة المتوسط. صحيح أن الاتحاد الأوروبي يفرق في استراتيجياته بين شمال المتوسط وجنوبه، بحيث يسعى لإدماج دول الشمال، أو تلك التي لم تدمج بعد على الأقل[1]، في حين يعتبر دول الجنوب مناطق حماية استراتيجية من ثلاثة تهديدات أساسية:

- الهجرة غير القانونية.
- التطرف والإرهاب.
- الجريمة المنظمة.

وكل هذه البرامج تدخل في إطار مبادرات خاصة يقدمها الاتحاد الأوروبي لدول المتوسط بما فيها الدول العربية، لكن يبقى أن تفكر الدول العربية في استخدام هذه المحددات لتنزيل سياسة إقليمية متوازنة في أبعاد أمنية، لكن بإضافة أبعاد تنموية تقحم دول البلقان باعتبارها أقل نموًا.

تعتبر دول المغرب العربي من الدول الأقرب للتفاعل مع سياسات تتناغم مع هذا التوجه الاستراتيجي من بين الدول العربية كلها.

يمكن للدول العربية مجتمعة أو منفردة أن تضع سياسات اقتصادية، تقوم على تمويل مشاريع تنموية ذات أبعاد متعددة مع تركيا في المنطقة، وبالتالي تستفيد من الوجود المكثف للدور التركي بها، وبذلك يمكن أن تتجاوز الدور التنافسي أحيانًا الذي يطبع بعض المشاريع في علاقتها مع التصوّر التركي بالمنطقة، وتبقى الدول العربية الأكثر قربًا من تركيا بعض دول الخليج ولا سيما قطر ودول عربية أخرى، لكن يبدو أن هذا التوجه قد يصطدم ببعض العراقيل ذات الطابع السياسي والاستراتيجي، منها التحولات الكبيرة في العالم العربي نفسه.

---

(١) دول البلقان الأعضاء في الاتحاد الأوروبي هي سلوفينيا سنة ٢٠٠٤ وكرواتيا سنة ٢٠١٣، ومقدونيا والجبل الأسود وصربيا وألبانيا لهم الوضع الرسمي للمترشح للانضمام، وتبقى البوسنة والهرسك وكوسوفو في الانتظار.

القوة الروسية أيضًا لها حضور قوي، كما ذُكر، وتبقى وسيطًا متميّزًا لتنزيل السياسات العربية بالبلقان، لا سيما أن هناك العديد من الدول العربية من تحتفظ بسياسات متمَيّزة مع روسيا، كسوريا وليبيا والجزائر.

العلاقات المتميّزة والوضع المتقدّم الذي تعرفه بعض الدول العربية مع حلف الناتو، يمكن أن يكون مرتكزًا للعلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية على المستوى الأمني خاصة، فالولايات المتحدة الأمريكية تعتبر هذه المنطقة مجال تماس مباشر مع طموحات روسيا الاقتصادية والاستراتيجية والأمنية، وبذلك تعطيها أولوية خاصة[1].

ب- البعد الاقتصادي

العولمة جاءت بتحـولات متعددة في البلقان كـما بـاقي الدول التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفياتي السابق، لكنها لن تغير من المعادلات التي تحكم جيوسياسية منطقة البلقان بين عشية وضحاها، ولا يـمكن تجاوز عاملين محددين للعلاقات الاقتصادية مع المنطقة على الأقل:

- عامل استمرار تأثير الغاز والطاقة الروسية، حيث إقرار توازن حقيقي سيستدعي قدرات وسياسات كبيرة من طرف كل من يريد أن يضع قدمه في المنطقة، وبذلك لا يمكن الاعتماد سوى على معايير الربح والخسارة المرتبطة بالرأسمال الذي لا يغامر خارج التصورات الاستراتيجية للقوى الكبرى، من أجل غايات سياسية واقتصادية بعيدة المدى.

---

(١) راجع إعلان قمة شيكاغو الذي جمع رؤساء الدول والحكومات المشاركة في اجتماع مجلس شمال الأطلسي بتاريخ ٢٠ ماي ٢٠١٢م والذي جاء فيه: «١٢- يواصل الحلف التزامه الكامل بتحقيق الاستقرار والأمن في منطقة البلقان ذات الأهمية الاستراتيجية. ونعيد التأكيد على دعمنا الكامل لقوة كوسوفو، التي تواصل العمل بعناية وحزم وحيادية وفقًا لتفويض الأمم المتحدة الخاص بها المحدد في قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة (UNSCR) رقم ١٢٤٤. وستواصل قوة كوسوفو دعم تنمية السلام والاستقرار وثقافة تعدد الأعراق في كوسوفو...». متوفر على شبكة الإنترنت بموقع الحلف.

- عامل الارتباط المتتابع مع الاتحاد الأوروبي، فهناك دول من البلقان انضمت لهذا الاتحاد، وهناك دول أخرى في طريقها إلى ذلك، لذلك الاتحاد الأوروبي لا يؤسس لفضاء يمكن أن يتنافس فيه مع قوى إقليمية جديدة، بما فيها التأثير الذي يمكن أن تقوم به الدول العربية، لا سيما باستعمال عنصر البترول أو الغاز في المعادلة. فالاتحاد الأوروبي حريص على تحييد روسيا من المنطقة، ويتمادى لتفعيل ذلك لتمويل الصراع المسلح ضدها كما هو الحال بأكرانيا.
- والاتحاد الأوروبي من جهة أخرى قد استثمر بقوة في المنطقة لتعديل المؤشرات الاقتصادية لبعض الدول تيسيرًا لانضمامها مستقبلًا، فهو في عشر سنوات قام بضخ ما يناهز ملياري دولار في صربيا وحدها وصولًا لهذه الغايات، وسدًا للتوجهات الاقتصادية لروسيا والصين[1].

إن كل ذلك يفسر طبيعة الاستثمارات العربية في منطقة البلقان، فهي ذات بعدين:

- من جهة هي أحادية ترتبط بكل دولة بدون توجهات استراتيجية جماعية.
- ومن جهة أخرى هي غير مؤثرة استراتيجيًا وتهم قطاعات صغيرة، وباستثمارات مالية متواضعة مقارنة مع المقدرات المالية لبعض الدول العربية.

وعمومًا يمكن ذكر بعض أهم التوجهات الكبرى في الاستثمارات العربية:

- المشروع القطري لإمداد الغاز لدول البلقان، والذي يحاول أن يوازن مع المشروع الذي يمر عبر تركيا من بحر قزوين والمتجه نحو دول البلقان. ويظهر أن قطر تهتم أكثر بالمنطقة استراتيجيًا، باعتبار أنها سعت لإقامة بعثة ديبلوماسية بتيرانا عاصمة ألبانيا سنة ٢٠١٣، وذلك تمهيدًا لوضع مشاريع اقتصادية طاقية وتنموية بهذه الدول عمومًا، بما فيها كرواتيا التي ستستقبل مشروعًا على جزيرة «كرك».

(1) Georges-Marie chenu, Balkans occidentaux: Espace géopolitique convoité, Revue de Géopolitique, 09 décembre 2012.

- علاقات الإمارات العربية مع صربيا مثلا تراجعت بعد انسحابها من بعثة حفظ السلام سنة ٢٠٠١، ومع انسحاب البعثات الإنسانية، لكنها عادت في المستوى الاقتصادي حيث تعد مثلًا الخطوط الجوية الصربية من فروع خطوط الاتحاد الإماراتية[١]، وقد جاء ذلك عقب توقيع اتفاق عسكري كبير بين البلدين، أو ما يسمى بالاتفاق الكبير مع صربيا[٢]، والبدء في التفكير في إقامة مشاريع تنموية موازية. ورغم ضخامة الاستثمار الإماراتي إلا أنه غير محسوب استراتيجيًا كما أسلفنا.

- للإمارات علاقات مالية متميّزة مع اليونان يمكن أن يكون منطلقًا لبعث العلاقات مع هذه الدولة، ومع مجموعة من دول المنطقة، وذلك عن طريق المجموعة البنكية «مارفين»[٣]، وأيضًا بعض المشاريع الكبرى بهذه الدولة ومنها مشروع (Olympic Airways) أو (Skaramanga) بواسطة مجموعة (Abu Dabi Mar)[٤].

يظهر من الأمثلة القليلة المذكورة أن هناك دولًا عربية تحاول نسج علاقات استراتيجية في الفضاء البلقاني، لكنه يبقى مع ذلك بتأثيرات محدودة؛ لكونها لا تشمل رؤية شاملة ومندمجة تأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد، ولا تنسج في إطار جماعي.

ج- البعد الحضاري

البعد الحضاري هو الروح التي من المفترض أن تمكن للعلاقات العربية مع دول البلقان في مستوياتها المستقرة، وبأبعادها الاستراتيجة التي تستهدف

---

(١) تمتلك السلطات الصربية ٥١ بالمائة من رأسمال الشركة، في حين تملك شركة الاتحاد الباقي أي ٤٩ بالمائة.

(٢) يشمل هذا الاتفاق إنتاج صواريخ متطورة، هو الأول لصربيا بعد تفكك الاتحاد اليوغسلافي.

(٣) وهو بنك قبرصي تحوز فيه الإمارات على نسبة كبيرة من رأسماله.

(٤) ذكره:

Renaud Dorlhiac, Clotidle Goujart, «Balkans et le monde arabe; de nouveaux partenariats», Pages Europe, La documentation française , 23 Juillet 2013.

جني المصالح مع المنطقة، وللمنطقة عمومًا، ووضع أواصر للتواصل والثقافي والتعاون البناء في إطار يخول نسج سياسات منطقية ومستمرة.

ويمكن أن نقسم بين عاملين حضاريين يمكن استخدامهما لتنمية العلاقات البينية والجماعية:

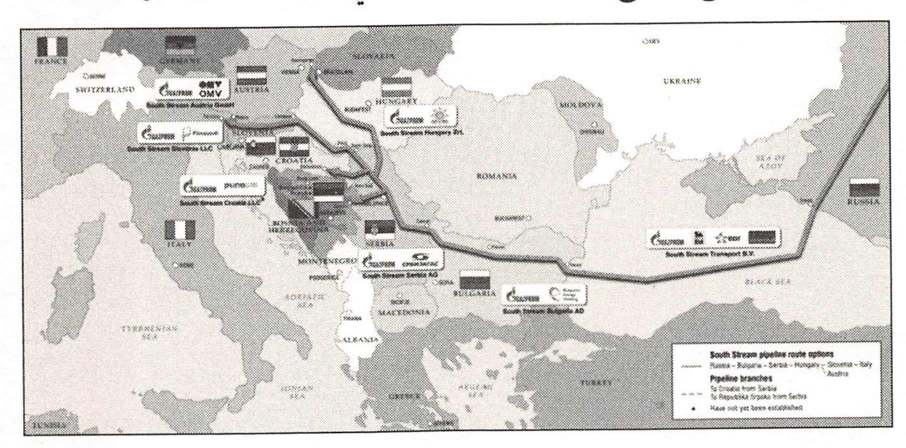
- من جهة هناك البعد الثقافي المرتبط بجزء منه بالديانة الإسلامية، باعتبارها عاملًا محركًا للمستويات الحضارية مع كيانات خاصة بالمنطقة، سواء كانت دولًا أو مجموعات أخرى.
- وهناك الترابط التاريخي الذي نسج بين بعض دول العالم العربي ودول بلقان غير مسلمة، لا سيما صربيا، والتي تقوم على الدعم المتبادل في القضايا العادلة، ومن هذه الدول الجزائر وليبيا وفلسطين وسوريا والعراق.

وعمومًا تبقى السياسات العربية تجاه البلقان مجالًا احتياطيًا لاعتبارات تتحكم فيها المقومات الاستراتيجية، التي تقوم على مصالح متضاربة أو متناغمة لقوى محلية وإقليمية ودولية، وهو اعتبار لا يمكن تجاوزه ما دام لم يتم التماهي في هذه العلاقات مع الحتمية الثقافية، التي تجعل من مناطق أقرب من أخرى في وضع تصور استراتيجي للعلاقات بين المنطقتين، أو بين إحدى الدول العربية ومنطقة البلقان.

الملحق:

الخريطة رقم ١:

خريطة توضح مشروع خط أنابيب الغاز الروسي الموجه لأوروبا عبر البلقان

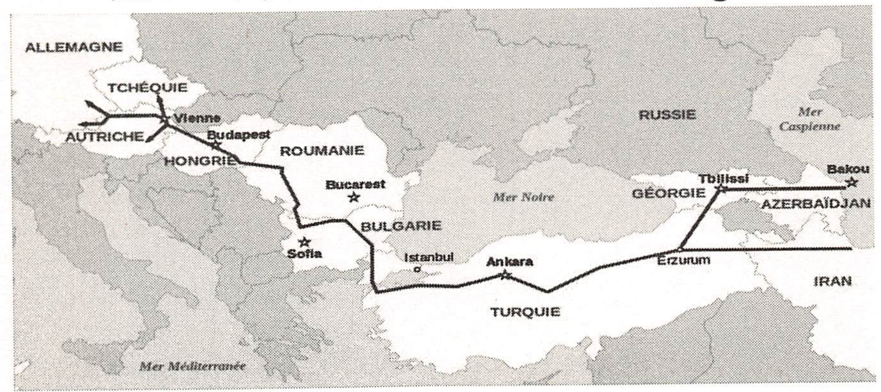


المصدر: شركة Gazprom الروسية:

http://www.gazprom.com/about/production/projects/pipelines/south-stream/

الخريطة رقم ٢:

مشروع «نابوكو» المنطلق من إيران وأذربيجان نحو البلقان وأوروبا



المصدر: The Economist, July 17th, 2009

العلاقات العربية البلقانية
بعد الحرب الباردة

هاني صلاح[1]

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وخلال عقود الحرب الباردة بين المعسكرين الدوليين الشرقي والغربي، وحتى مطلع التسعينيات من القرن الماضي؛ ارتبطت العلاقات العربية البلقانية بطبيعة الأنظمة التي تحكم دول المنطقتين وتوجهات حكوماتها.

ولعل أسباب ذلك تعود إلى أن العلاقات بين الأنظمة التي حكمت المنطقتين، كانت قد ارتبطت بالمحور/ الحلف الذي تدور فيه كل دولة، وتوجهات زعمائها سواء نحو الشرق/ وارسو، أو باتجاه الغرب/ الناتو.

وتركّزت العلاقات بين الدول العربية ودول البلقان بين الحكومات والأنظمة بشكل رئيسي، ولم تتوسع دائرتها كثيرًا بين شعوب المنطقتين؛ لذا فقد انحصرت في المجال السياسي لحدٍ كبير. ويتضح ذلك من خلال ضعف أو غياب العلاقات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية بين الشعوب العربية والبلقانية.

ومع ذلك، فقد برز اتجاه ثالث سعى جاهدًا لتحقيق نوع من الاستقلال عن حالة الاستقطاب الدولية، تمثل في اتجاه عدم الانحياز. ولعل دول العالم الثالث وجدت فيه فرصة لعدم الاستسلام للمعادلة الدولية «الثنائية» القائمة في ذاك الوقت إما مع الغرب أو الشرق، كما عزز

---

(١) باحث مصري في شؤون البلقان، رئيس قسم الشؤون الدولية في جريدة «الأمة» الإلكترونية.

من ذلك طموحات قادة بعض الدول في تحقيق إنجازات لهم بشكل خاص ولبلدانهم بشكل عام.

وتزعّم هذا الاتجاه الجديد/ الحياد، ثلاث دول «محورية» في ثلاث مناطق جغرافية متباعدة، مصر/ الشرق الأوسط، والهند/ جنوب آسيا، ويوغسلافيا/ البلقان، وهو ما أتاح الفرصة لتطوير العلاقات السياسية «على الصعيد الدولي» بين هذه الدول الثلاث.

ومن هنا برز تواصل خاص بين زعماء تلك الدول الثلاث «المحورية» في مناطقها الإقليمية، الذين استشعروا «مكانتهم الإقليمية»؛ فسعوا لقيادة الدول المجاورة لهم باتجاه سياسة عدم الانحياز.

وفي هذا الإطار الجديد/ المشترك؛ نشأت علاقات سياسية «خاصة» بين كل من بلجراد والقاهرة، وتواصلت هذه العلاقة «التاريخية» في مرحلة ما بعد «يوغسلافيا» عبر جمهورية صربيا. وكان لـ«تجديد» هذا التواصل بين مصر وصربيا، انعكاسات على المواقف السياسية لمصر إزاء المتغيرات التي جرت في منطقة البلقان خلال العقدين الماضيين.

لذلك، فإنه لا يمكننا فهم طبيعة العلاقات العربية/ البلقانية دون فهم المتغيرات التي طرأت على الساحة الإقليمية البلقانية بعد انتهاء الحرب الباردة. والتي كان أبرزها اندلاع الحروب البلقانية- البلقانية، التي غيّرت من الخريطة السياسية للمنطقة.

وتسعى هذه الورقة البحثية لفهم وتقييم طبيعة العلاقات العربية –البلقانية الحالية، بهدف استشراف آفاقها المستقبلية والمتوقعة بشكل متــوازن

ومنطقي، دون التقليل من أهميتها لدول المنطقتين، وفي الوقت نفسه دون وضع آمال عليها أكثر مما يمكن توقعه.

١ـ المعادلة القائمة

تغيّرت معادلة «التوازن» الدولية التي هيمنت على منطقة البلقان الاستراتيجية لعقود متتالية، بانتهاء الحرب الباردة؛ فلم تصبح المنافسة على

المنطقة بين الشرق/ وراسو، والغرب/ الناتو كما كانت في السابق؛ بل برز تنافس جديد بين حلفاء الأمس أنفسهم (الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية)، إثر غياب منافسهم التاريخي (روسيا).

إلا أن هذه الحالة «الاستثنائية» لم تدم طويلًا؛ فمع مطلع القرن الحادي والعشرين، تبرز قوى دولية وإقليمية جديدة/ صاعدة تطمع في استرجاع نفوذها السابق «التاريخي» في المنطقة. فقد سعت كل من روسيا وتركيا تدريجيًا إلى إعادة نفوذهما إلى المنطقة عبر «حلفاء الأمس» (تركيا: ألبانيا-البوسنة) و(روسيا: صربيا).

ودشّن العقد الأول من القرن الحالي ٢١، بدايات فقط لمرحلة جديدة من إدارة «الصراع السياسي» بين القوى العظمى «خارج البلقان»، والمتنافسة فيما بينها على النفوذ وبسط الهيمنة على دول المنطقة، وهو ما انعكس على العلاقات الإقليمية بين دول المنطقة بعضها ببعض من جهة، وبينها وبين دول العالم من جهةٍ أخرى.

وفي ضوء هذه المعادلة الجديدة/ الحالية فإن العلاقات العربية-البلقانية، لن تصبح اليوم أو تكون مستقبلًا بمعزل عن علاقات دول البلقان «الاستراتيجية» بالدول العظمى الحليفة لها.

٢ - التغييرات التي طرأت على منطقة البلقان بعد انتهاء الحرب الباردة

بسقوط الأنظمة الشيوعية في دول البلقان، وبالتزامن مع ظـهور دول جديدة في غرب المنطقة، إثر تفكك الاتحاد اليوغسلافي السابق؛ بدأت المنطقة بأكملها تشهد مرحلة جديدة من تاريخها اتّسمت بالانفتاح على العالم وخاصة على الغرب، سعيًا وراء تحقيق حلمها «الجديد» بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

إلا أن تفجّر الحروب الإقليمية بين الدول الجديدة التي انبثقت عن الاتحاد اليوغسلافي السابق أخّر أي خطوات عملية لتحقيق هذا الحلم

لنحو عقد من الزمان. فقد انشغلت المنطقة، ومعها انشغل العالم بخمسة حروب إقليمية ونزاعات مسلحة متتالية على مدار عقد كامل ١٩٩٢-٢٠٠١، وما إن تتوقف واحدة حتى تبدأ أخرى[1]، مما دفع بيروكسل إلى القناعة أخيرًا بأن ضمّ دول البلقان إلى المنظومة الأورو-أطلسية أصبح أمرًا حتميًا لاستقرار المنطقة، ومن خلال الاشتراط المسبق على دولها بتحسين علاقات الجوار فيما بينها.

ومن جهة أخرى، فإن ضمّ دول المنطقة للاتحاد الأوروبي، استهدف أيضًا إبعاد نفوذ القوى الدولية الأخرى (خارج القارة الأوروبية)، الساعية لمد نفوذها إلى المنطقة عبر التدخل في الصراع المتواصل بين دولها، سواء أكانت هذه «القوى» من المنافسين لأورربا في شرق المنطقة (تركيا/ روسيا)، أو حتى من حليفتها في الغرب (واشنطن)، نظرًا للتخوفات الأوروبية من تضارب مصالحهما المشتركة مستقبلًا حال وضع أقدامها في المنطقة.

لذا، دعا الاتحاد الأوروبي إلى عقد مؤتمر في عام ١٩٩٩ - فور انتهاء حرب كوسوفا ـ لبحث الخطوات العملية لـ«تأهيل» دول البلقان للانضمام إلى المؤسسات الأورو-أطلسية، من خلال القبول بتنفيذ أجندة الإصلاحات الدستورية والإدارية والاقتصادية اللازمة لذلك، مقابل قيام الاتحاد الأوروبي بدعم اقتصادياتها، وتيسير حصولها على المساعدات والقروض من المنظمات والجهات المعنية، سواء الأوروبية أو حتى الدولية.

وبالفعل تمّ تدشين ميثاق الاستقرار لجنوب شرق أوروبا في عام ١٩٩٩ كأول استراتيجية شاملة من المجتمع الدولي/ الغرب، تهدف إلى تعزيز جهود بلدان جنوب شرق أوروبا في تعزيز السلام والديمقراطية، واحترام حقوق الإنسان والازدهار الاقتصادي ومنع نشوب الصراعات مجددًا[2].

---

(١) ثلاث حروب، هي: صربيا-سلوفينيا، وصربيا-كرواتيا، وصربيا-البوسنة. ونزاعان مسلحان، هما: صربيا: الصرب-ألبان كوسوفا، مقدونيا: المقدون-ألبان مقدونيا.

(٢) معاهدة جنوب شرق أوروبا كولونيا، ١٠ يونيو ١٩٩٩.

http://www.stabilitypact.orgHYPERLINK «http://www.stabilitypact.org/"/

لذلك شهد مطلع القرن الحادي والعشرين خطوات ملموسة على الأرض لتسريع وتيرة الإصلاحات في دول البلقان، وهو ما أسفر عن انضمام بعضها في شرق البلقان (بلغاريا) أولًا لحلف الناتو عام ٢٠٠٤، ثم للاتحاد الأوروبي عام ٢٠٠٧ [١].

إلا أن المشكلة تتمثل في غرب البلقان «بؤرة التوتر»، والتي مازالت تعاني من ملفات شائكة وعالقة بين دولها، في كل من صربيا وكوسوفا والبوسنة ومقدونيا، حيث ما زالت عناصر التوتر وعوامل الانفجار متـوفرة ولـم تعالج حتى اليوم.

كما يُضاف إلى تلك الدول «الأربع» السالفة الذكر، والتي كانت ضمن الاتحاد اليوغسلافي في السابق، أيضًا دولة ألبانيا نظرًا لحالة عدم الاستقرار التي شهدتها، خصوصًا في منتصف التسعينيات، وظاهرة المعارضة المسلحة التي كانت سببًا في سقوط الحكومة الألبانية في مارس عام ١٩٩٧م؛ إثر إعلان شركات توظيف الأموال عن إفلاسها.

وكان ذلك سببًا في اندلاع ثورة شعبية استثمرتها المعارضة «المسلحة» لصالحها واستطاعت إسقاط النظام وقتها، الأمر الذي كانت له تبعات سلبية على الاقتصاد الألباني لسنوات تالية، تمثل في خروج كثير من المستثمرين الأجانب من ألبانيا، وإجحاف كثيرين غيرهم عن القدوم للاستثمار فيها، في وقت تُعدّ الدولة الأشد فقرًا في أوروبا.

لذلك شهد العقد الأول من القرن الحادي والعشرين حالة من التردد في القرار الأوروبي تجاه تلك الدول التي لم تستقر بعد؛ إلا أن مستجدات على الساحة الإقليمية في منطقة جنوب شرق أوروبا (البلقان) حسمت هذا التردد، وبات الأمر مسألة وقت فقط لكي تنتهي عملية ضم من تبقى من دول غرب البلقان إلى الاتحاد الأوروبي.

---

(١) الصفحة الخاصة بدولة بلغاريا على موقع الاتحاد الأوروبي.
http://europa.eu/about-eu/countries/member-countries/bulgaria/index_en.htm

وليس دليلًا على ذلك أوضح من السماح لبعض لمواطني بعض دولها، التي لم تنضم بعد للاتحاد، بالسفر إلى دول الاتحاد دون الاحتياج لتأشيرة دخول، في مسعى لتخفيف حالة الغضب المتصاعدة من حكومات وشعوب تلك الدول إزاء الاتحاد الأوروبي «المتردد» في قراره بضمها إليه. وتمّت على مرحلتين، حيث أعطيت في المرحلة الأولى في عام ٢٠٠٩ لمواطني كل من صربيا ومقدونيا والجبل الأسود، ثم في المرحلة الثانية في ديسمبر ٢٠١٠ أعطيت لمواطني كل من ألبانيا والبوسنة والهرسك[١].

فأوروبا تدرك جيدًا بأن أطول حروب البلقان الخمس (آخر ثلاث حروب)، توقفت فقط بضغط من المجتمع الدولي/ الغرب، ومن خلال فرضه لثلاث اتفاقيات دولية أوقفت الصراع بين الأطراف المتنازعة؛ وواحدة منها لم توقع حتى اليوم إلا من طرف واحد فقط، وهي المتعلقة بقضية استقلال كوسوفا. وهو ما يشير إلى هشاشة حالة الاستقرار السياسي في منطقة غرب البلقان حتى اليوم[٢].

وهذا معناه أن الإنجاز الذي تمّ من قبل المجتمع الدولي/ الغرب (الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة الأمريكية)، تمثّل فقط في «وقف القتال» بين الأطراف المتصارعة، وليس في «تحقيق السلام» بين شعوب المنطقة؛ مما يعني أن «الأسرة الأوروبية»، ومعها الحليف الأمريكي «شبه المحايد»، سيظلان يمثلان «الضمان الوحيد» لاستمرار حالة الاستقرار/ الهدنة الحالية بين دول البلقان.

وبالرغم من «التأخر» الأوروبي في إنجاز هذا الهدف بإدخال كامل المنطقة ضمن المنظومة الأوروبية، إلا أن التصريحات المتكررة والصادرة

---

(١) جريدة «شيب» الألبانية اليومية ٢٨/ ١٠/ ٢٠١٢

Ministrat e BE-së: Lëvizja e lirë e ballkanasve të pezullohet, azilantët në rritje. http://goo.gl/nl4SgJ

(٢) الاتفاقيات الثلاث: «اتفاقية دايتون للسلام» حرب البوسنة ١٩٩٢/ ١٩٩٥، «اتفاقية اهتساري» النزاع المسلح في كوسوفا ١٩٩٨/١٩٩٩، «اتفاقية أوهريد» النزاع المسلح في مقدونيا ٢٠٠٠/٢٠٠١.

عن العواصم الأوروبية، تؤكد بأن مستقبل المنطقة بات فقط «ضمن الأسرة الأوروبية».

وكان «أهم» آخر هذه التصريحات، ما صدر عن سيجمار جابرييل وزير الاقتصاد الألماني في كلمته الافتتاحية، خلال اللقاء الذي عقدته كل من المستشارة الألمانية ومسؤولين بالاتحاد الأوروبي مع ٨ من رؤساء حكومات غرب البلقان، في برلين في ٢٨/ ٨/ ٢٠١٤، حينما أكد بأن مستقبل دول البلقان «يتركز فقط داخل الاتحاد الأوروبي»[1].

هذا اللقاء «النوعي» انعقد في ذكرى مرور مائة عام على الحرب العالمية الأولى، وصدر عنه بيان من ١٨ نقطة أكد من خلالها على بدء مرحلة جديدة لدول غرب البلقان، مدتها أربع سنوات من العلاقات الوثيقة بدول الاتحاد الأوروبي، وبهدف الوصول في ختامها إلى الانضمام الفعلي للاتحاد، وأكد بأن كل من ألمانيا وفرنسا والنمسا سوف تشرف وتراقب الإنجازات التي سوف تتم خلال هذه الفترة.

إلا أن الأمر أعقد وأعمق مما تقدم؛ فمنطقة البلقان مازالت تقف بأكملها ودون استثناء على حافة «بركان خامد» حاليًا، إلا أنه يمكن أن ينفجر في أي لحظة؛ فالصراعات القديمة بين دول وشعوب المنطقة مازالت حاضرة في دوائر صنع القرار، حتى تلك الدول التي لم تشهد صراعات فيما بينها منذ عقود، لم تستقر علاقاته السياسية فيما بينها، ولم تشهد بعد علاقات حسن جوار.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فما زالت العلاقات بين دولة ألبانيا وجارتها الجنوبية متوترة بشكل دائم؛ فاليونان لم ترسم بعد حدودها الشمالية مع ألبانيا، ومازالت لا تعترف بتلك الحدود ـ التي اعترف بها المجتمع الدولي ـ وهذا يفسر عدم إلغاء اليونان لـ«قانون الحرب» مع ألبانيا، والذي كان قد أعلنه ملك اليونان خلال الحرب العالمية الثانية، وصدر به قانون من البرلمان

(1) Zbardhet deklarata përfundimtare e Konferencës së Berlinit: Ja 18 pikat kryesore http://www.telegrafi.com/lajme/zbardhet-deklarata-perfundimtare-e-konferences-se-berlinit-ja-18-pikat-kryesore-2 - 49939.html

عام ١٩٤٠، وهو ما يعكس «هشاشة» السلام والاستقرار بين دول البلقان عامة ودون أي استثناء[1].

ولعل أحد أسباب التوجه الأوروبي بضرورة حسم ملف انضمام دول البلقان المتبقية إليه في أقرب وقت، شعور الاتحاد الأوروبي بتحرّك قوى إقليمية ودولية في منطقة البلقان، كمنافسين له في بسط السيطرة والهيمنة على المنطقة، وهو ما يخشى أن تتجه من جديد بعض دول البلقان للتحالف مع قوى عظمى أخرى بعيدًا عن شراكتها مع الاتحاد الأوروبي. لذا أكد «الاتحاد» عبر موقعه الإلكتروني والتقارير الصادرة عنه بأنه يعمل على مسار ثابت مع دول غرب البلقان، تهدف لضمها في نهاية الطريق لمؤسساته الأوروبية[2].

فقد ظهرت من خلال الأحداث رغبة الولايات المتحدة في العمل بشكل مستقل عن الاتحاد الأوروبي، في ما يتعلق ببسط نفوذها في المنطقة ومن بينها بناء قواعد لها فيها، وهو الأمر الذي بات يقلق «الشريك» الأوروبي، الذي تحالف معه في السابق حينما كان لهما منافس مشترك آخر «روسيا».

كما إن روسيا الجديدة/ البوتونية، وبعد تعافيها من أزمتها الاقتصادية، بدأت تسعى إلى لعب دور أقوى في المجال الإقليمي والدولي على السواء، وبدأ النفوذ الروسي يتصاعد مجددًا في بلجراد، حتى انقسم الشارع الصربي بين مؤيد للشراكة مع الاتحاد الأوروبي، وراغب في استمرار «الشراكة التاريخية» مع روسيا «حامية أرثوذكس البلقان»، كما كانت تعلن موسكو مرارًا[3].

---

(١) هاني صلاح، السياسة اليونانية التوسعية في ألبانيا.. «صناعة الأقلية»، مركز الجزيرة للدراسات، ٩يونيو٢٠١١م.
http://studies.aljazeera.net/reports/2011201192116295818752 8/.htm#.UGDCBQ32YZo.facebook

(2) EU relations with the Western Balkans
http://eeas.europa.eu/western_balkans/index_en.htm

(٣) محمد م. الأرناؤوط، كوسوفو ما بين الماضي والحاضر، الطبعة الأولى (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨م، ١٣٢).

إلا أن المعادلة السابقة على الساحة «البلقانية» لم تعد «ثنائية» كما كانت في حقبة الحرب الباردة، بل ظهر منافس «إقليمي» جديد/ تركيا، تلك القوة الاقتصادية والسياسية الصاعدة تدريجيًا على المستوى الإقليمي والدولي معًا، والتي بدأت تنظر إلى «حديقتها الخلفية» في البلقان، باعتبارها «العمق الاستراتيجي التاريخي» لدولتها الحديثة في القرن الحادي والعشرين، ولذا بدأت تركيا منذ عام ٢٠٠٩ تحديدًا إلى لعب دور فاعل في البلقان خاصةً مع دول غرب المنطقة[1].

كل هذه التطورات والمتغيرات التي طرأت على المنطقة تباعًا على مدار العقدين الماضيين، تشير إلى أن المنطقة سوف تشهد حالة من الاستقطاب مجددًا، وأن قوى عظمى سوف تسعى لجذب حلفاء الأمس إليها عبر إغرائها بالمساعدات والقروض، التي تعد دول المنطقة في أحوج ما تكون إليها خلال مرحلتها الانتقالية، التي ما زالت مستمرة حتى اليوم منذ انتهاء الحرب الباردة وسقوط أنظمتها الشيوعية في بدايات التسعينيات من القرن الماضي.

٣ ـ العلاقات العربية البلقانية على مستوى الدول

كان من المفترض أن تمثل التغييرات التي حدثت في البلقان بعد انتهاء الحرب الباردة، وسقوط الأنظمة الشيوعية في دولها وانفتاحها على العالم،

---

(١) أورهان توربدار، النشاط التركي الجديد في غرب البلقان: الطموحات والعوائق، مجلة الأبحاث الفصلية «رؤية تركية»، ٢٢ديسمبر (٢٠١٣)، الملخص.
http://rouyaturkiyyah.com/%D8%A7%D984%%D986%%D8%B4%D8%A7%D8%B7-%D8%A7%D984%%D8%AA%D8%B1%D983%%D9%8A-%D8%A7%D984%%D8%AC%D8%AF%D98%A%D8%AF-%D9%81%D98%A-%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D984%%D8%A8%D984%%D982%%D8%A7%D986-%%D8%A7%D92-84%HYPERLINK «http://rouyaturkiyyah.com/%D8%A7%D984%%D986%%D8%B4%D8%A7%D8%B7-%D8%A7%D984%%D8%AA%D8%B1%D983%%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%AC%D8%AF%D98%A%D8%AF-%D981%%D98%A-%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D984%%D8%A8%D984%%D982%%D8%A7%D986-%%D8%A7%D92-84%/»/

مدخلًا لبدء تواصل جديد بين دول المنطقتين العربية والبلقانية على المستوى الحكومي الرسمي، أو على الأقل فرصة لتطوير العلاقات «الفاترة» القائمة بالفعل بين بعض دول المنطقتين، كمصر وليبيا سوريا على سبيل المثال، وهي الدول التي كانت تربطها علاقات سابقة بدول البلقان في سياق علاقاتها التاريخية بروسيا والكتلة الشرقية.

ولكن ما حدث بالفعل يشير إلى عكس ذلك؛ فقد شهدت هذه العلاقات تراجعًا على المسار السياسي لمدة تزيد عن ١٥ عامًا. وبدا واضحًا أنه لم يكن بوسع حكومات الدول العربية -لأسباب غير معلنة- اتخاذ قرارات سياسية في ملف علاقاتها بدول البلقان بمعزل عن التحرك الدولي الذي انشغل بمعالجة أزمات المنطقة.

وربما كان وقوع المنطقة في قلب أوروبا جعل هناك خطوطا حمراء «غير معلنة» إزاء أي موقف من أحداث المنطقة، من جانب الدول التي تقع خارج القارة الأوروبية. لذلك، لم نشهد تغييرات ملحوظة على مستوى العلاقات السياسية بين دول البلقان والدول العربية، خلال عقد كامل على الأقل من بدء التغييرات السياسية في المنطقة.

وهنا نلاحظ اختلافات بين «نمطين» من الدول العربية في علاقاتها السياسية بدول البلقانية:

أ ـ الدول العربية «ذات العلاقات القديمة»:

وهي الدول العربية التي كانت تربطها علاقات سابقة بدول البلقان خلال فترة الحرب الباردة؛ وفي مقدمتها مصر وليبيا وسوريا. فقد تراجعت (مصر)، أو استمرت هذه العلاقات على الوتيرة نفسها (سوريا) في فترة ما بعد انتهاء الحرب الباردة، والتي كانت في معظمها تقتصر على التعاون فيما فيه مصلحة الحكومات التي تحكم تلك الدول في المنطقتين، وبما يدعم من نفوذها السياسي على المستويين الدولي والإقليمي.

نموذج: مصر- صربيا

ونشير إلى نموذج لهذه الدول «التقليدية»، على سبيل المثال لا الحصر. فبعدما أن شهدت العلاقات بين كل من مصر ويوغسلافيا فترة ازدهار غير مسبوقة في عقدي الخمسينيات والستينيات إبّان حقبة حركة عدم الانحياز، وما صاحبها من روابط وثيقة بين الزعيمين ناصر وتيتو، إلا أن تفكك يوغسلافيا السابقة وما شهدته المنطقة من حروب في عقد التسعينيات انعكس على مستوى العلاقات بين الدولتين وشهدت تراجعًا كبيرًا، حيث تمّ تخفيضها إلى دون مستوى السفير مرتين في تلك الفترة[(١)].

ولم تبدأ تشهد هذه العلاقات تحسنًا «محدودًا» ومتدرجًا وبطيئًا للغاية إلا بعد مرور نحو ١٥ عامًا على تفكك يوغسلافيا السابقة، وتحديداً في عام ٢٠٠٥، الذي شهد أول زيارة وزارية من مصر إلى صربيا، والتي تلتها مباشرة زيارات لمسؤولين مصريين على المستوى الوزاري.

ومع ذلك، عكست الأرقام الصادرة عن المؤسسات الرسمية محصلة هامشية لهذه الزيارات المتبادلة والاتفاقيات الموقعة بين الجانبين. ولم تثمر عن تطور حقيقي في علاقات البلدين الذين ربطتهما علاقات تاريخية سابقة[(٢)].

وتحليلًا لموقف تلك الدول العربية، والتي كانت غالبيتها تسير في الفلك الروسي، يمكن القول بأن العلاقات «التاريخية» التي كانت تربطها بدول البلقان الرئيسة كانت لـ«الخارج»، بهدف تدعيم نفوذ الأنظمة التي تحكم هذه الدول على الساحة الدولية، ولم تكن لـ«الداخل» لدعم «مصالح شعوبها»، عبر توثيق العلاقات الاقتصادية والثقافية وغيرها فيما بينها.

---

(١) صفحة العلاقات بين مصر وصربيا على الموقع الإلكتروني لوزارة الخارجية المصرية.
http://www.mfa.gov.eg/Arabic/EgyptianForeignPolicy/EgyptianEuropeanRelation/BilateralRelations/Serbia/Pages/History.aspx

(٢) المصدر السابق نفسه.
http://www.mfa.gov.eg/Arabic/EgyptianForeignPolicy/EgyptianEuropeanRelation/BilateralRelations/Serbia/Pages/MutualVisits.aspx

ولعل من أمثلة ذلك عدم اعتراف تلك الدول العربية بـ«إقليم» كوسوفا الذي أعلن استقلاله عن صربيا من جانب في عام ٢٠٠٨م، بعد أخذه الضوء الأخضر من المجتمع الدولي (الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية)، وإثر توقيع كوسوفا على خطة سلام المبعوث الدولي «مارتي اهتساري». وعلى الرغم من اعتراف غالبية دول الاتحاد الأوروبي باستقلال كوسوفا، إلا أن تلك الدول العربية رفضت ذلك حرصًا منها على علاقاتها «التاريخية» مع «يوغسلافيا السابقة» التي تمثلها «صربيا الحالية».

كما إنه ليس أدل على ذلك من تغيير الموقف الرسمي لبعض تلك الدول بعد تغيّر النظام، كما حدث في مصر حينما اعترفت باستقلال كوسوفا في عام ٢٠١٣، بعد نحو ٥ سنوات من إعلانها الاستقلال، وذلك بعدما تغير النظام الحاكم فتغيرت معه مواقفة السياسية، واقتربت أكثر من الموقف الشعبي الداعم لاستقلال كوسوفا. والأمر نفسه تكرر مع كل من اليمن وليبيا.

وهنا نلاحظ مدى الفجوة بين المواقف الشعبية في تلك الدول المتعاطفة مع تطلعات الشعوب لنيل حرياتها، خاصةً تلك الشعوب التي تشاركها الهوية كما هو الحال في كوسوفا، ومن قبلها البوسنة، وبين مواقف حكوماتها من تلك المستجدات على الساحة البلقانية، حيث راعت مصالحها السياسية التاريخية مع تلك الدول البلقانية «صربيا»، ولم تقبل أن ترضخ لتوجهات شعوبها لتغيير مواقفها الثابتة من تلك المستجدات على الساحة البلقانية.

ب- الدول العربية «صاحبة العلاقات الحديثة»:

أما في ما يتعلق بالدول العربية التي سعت لإقامة علاقات لأول مرة مع دول البلقان، خاصةً الدول الناشئة حديثًا، والتي ظهرت على الخريطة السياسية بغرب منطقة البلقان إثر تفكك الاتحاد اليوغسلافي، فقد ظهر بوضوح حرص تلك الدول العربية - وغالبيتها من دول الخليج كالكويت والسعودية وقطر والإمارات - على إقامة علاقات متوازنة مع كافة دول البلقان، دون أن تميل لجانب على حساب آخر، وهو ما يفسر اعترافها باستقلال كوسوفا تدريجيًا،

ولكن بعدما اعترفت بها أغلب دول الاتحاد الأوروبي وكثير من دول العالم بها، وفي الوقت نفسه حرصت على إقامة علاقات سياسية طبيعية مع صربيا أو حتى غيرها من بقية دول البلقان.

وكان واضحًا بأن هذا «الفريق الجديد» الذي يدخل منطقة البلقان ويقيم علاقات سياسية مع دوله لأول مرة، كان حريصًا على الاستفادة من أخطاء الماضي، أو بمعنى أدق عدم توريط نفسه في أي صراعات إقليمية بالوقوف مع جانب ضد آخر، وإنما سعى لتدعيم علاقاته السياسية مع دول المنطقة، والانطلاق من خلالها إلى تعزيز العلاقات الاقتصادية أيضًا مع تلك الدول وفقًا لمبدأ المصالح المتبادلة للجانبين.

وقد تزامن هذا التقارب بين دول البلقان والدول العربية، وتحديدًا الخليجية، في سياق سياسة «إعادة التوازن» للعلاقات الدولية من قبل دول البلقان، والتي ارتمت في أحضان الاتحاد الأوروبي خلال فترتها الانتقالية التي ما زالت مستمرة حتى اليوم.

وربما دفعها لذلك ضعف التمويل أو تراجعه من الاتحاد الأوروبي للمشروعات المتزايدة التي تحتاجها، وهو ما دفعها للبحث عن تمويل من جهات أخرى سواء مؤسسات دولية أو دول مختلفة.

وهنا بدأت دول البلقان تدرك أهمية تصحيح خطأها «التاريخي» بتجاهل

أو عدم إعطاء الأهمية اللازمة لعلاقاتها مع الدول العربية بشكل عام، والخليجية بشكل خاص، خلال العقدين الأولين بعد انتهاء الحرب الباردة.

وبالفعل، ومع مطلع العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، بدأت دول البلقان تسعى لتحسين علاقاتها بالدول العربية، وتحديدًا دول الخليج؛ سعيًا للحصول منها على قروض وتمويل لمشروعاتها الاقتصادية خاصةً في مجال البنية التحتية.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد قدمت دولة الكويت قرض بـ(٥) مليون يورو إلى ألبانيا، في ١٣ نوفمبر ٢٠١٤، لتمويل مشروعات ذات أولوية قصوى

للحكومة الألبانية، تأتي في إطار الإصلاحات التي تتطلبها عملية انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي. ويأتي هذا القرض في سياق سعي ألبانيا للحصول على تمويل من دول الخليج، لتغطية نفقات مشروعات ضرورية في مجال تحسين بنيتها التحتية[1].

وبشكل عام، من الملاحظ أن الدول العربية الجديدة (الخليجية)، والتي اهتمت بتوثيق علاقاتها مع دول البلقان لأول مرة في تاريخها؛ كان توجهها السياسي واضحًا منذ البداية، كما كانت مواقفها أكثر إيجابية تجاه الدول الجديدة، خاصةً ذات الأغلبية أو الكثافة المسلمة (كوسوفا والبوسنة) بالإضافة إلى ألبانيا. وكانت السياسة الحكومية تتناغم من توجهات وجهود شعوبها لدعم تلك الدول البلقانية.

وهنا نرى أنه من المناسب التطرق لنموذج «حالة» مثالية من العلاقات بين دولة عربية ودولة بلقانية، ونتطرق في هذا المثال للعلاقات القطرية الألبانية، التي شهدت خلال السنوات الأخيرة تقاربًا تدريجيا، نموذجًا على الرغم من أنه ما زال في بدايته حتى اليوم.

نموذج: قطر ـ ألبانيا

تُعدّ قطر من أبرز الدول التي كان لها تحرك إيجابي واسع نحو تدعيم علاقتها بدول منطقة البلقان، حيث سعت للتحرك على المسار السياسي والاقتصادي معًا، بعدما استثمرت خبرات وثمار الدور الإنساني/ الخيري لشعب قطر، ثم الدور الإعلامي الذي قامت به شبكة الجزيرة، والتي تمثل القطاع الخاص في مجال الإعلام، ليتم تتويج كل هذا بالدور الحكومي وبدء علاقات دبلوماسية مع دول المنطقة.

وعلى الطرف الآخر؛ فقد خرجت ألبانيا محطّمة من النظام الشيوعي الذي سقط في بدايات التسعينيات من القرن الماضي، ورفع أنصار التغيير

---

(١) وزارة الخارجية القطرية ـ جمهورية ألبانيا:
http://www.mofa.gov.qa/ar/ForeignPolicy/BilateralRelations/Pages/AL.aspx

شعار «دمروا كل شيء»، على اعتبار أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تساعدهم في بناء بلادهم من جديد، وهو ما دفع بمئات العمال لتحطيم المصانع، ونتج عن ذلك بطالة كبيرة بين الشعب الألباني، أسفرت عن موجات هائلة من الهجرة لدول أوروبا الغربية وفي مقدمتها إيطاليا واليونان، قدّرت بنحو مليون ألباني من إجمالي عدد السكان البالغ وقتها نحو ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة.

وبذلك اكتملت الصورة في منطقة غرب البلقان؛ دول تبدأ في بناء نفسها من جديد، وهي الدول التي اشتهرت بدول غرب البلقان (ألبانيا ومعهما الجمهوريات التي خرجت من عباءة الاتحاد اليوغسلافي السابق)، وباتت هذه الدول في أشد الحاجة للمساعدات والقروض لإعادة بناء بنيتها التحتية، وتشغيل مصانعها التي توقف الكثير منها جراء الأحداث التي شهدتها المنطقة.

وقد نظرت هذه الدول للعالم العربي/ الخليجي باعتباره منبعاً للحصول على مساعدات، وليس فرصة لتوفير فرص استثمارية تقوم على المصلحة المتبادلة بين الطرفين.

لذلك، كان لافتًا للنظر الفجوة الكبيرة بين التصريحات الرسمية للمسؤولين في ألبانيا والواقع العملي على الأرض. فقد تواصلت نداءات الحكومات الألبانية المرحبة بالاستثمار العربي، ولكن لم تقدم تلك الحكومات أي ضمانات حقيقية لرؤوس الأموال العربية، لتشجيعها على الحضور والاستثمار في البلاد بشكل آمن.

وقد شهدت فترة التسعينيات حالة من التخبّط الشديد لدى الحكومات الألبانية المتعاقبة، اتسمت بالتراجع عن التزامات سابقة عند تغير كل حكومة، وأضحت السياسات التي اتبعتها تلك الحكومات الألبانية المتعاقبة، بما يمكن أن نصفه بـ «سياسة حزبية» وليس بـ«سياسة وطنية»، وقد أضرّت بالبلاد أكثر مما أفادتها، وهو ما مثّل حالة «غير عادية» من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والمجتمعي في البلاد.

من جهته، وكغيره من الشعوب العربية، بدأ تواصل الشعب القطري مع شعوب البلقان وخاصة المسلمة منها. وعلى الرغم من الحضور المتأخر عن غيرها من مؤسسات العمل الأهلي الخيري العربي الخليجي؛ إلا أن الدور الذي لعبته «جمعية قطر الخيرية» بدءًا من منتصف التسعينيات في كل من دولتي البوسنة وألبانيا كان متميّزًا. وكان واضحًا المنهج العلمي في تنفيذ وإدارة مشروعاتها الخيرية، وكان لأول مرة نرى دورات تدريبية لمسؤولي مكاتبها الخارجية بدول العالم كل عام في الدوحة، وهو ما لم نشاهده مع مؤسسات خيرية أخرى إلا نادرًا.

كما برز هذا الدور بقوة مجددًا خلال حرب كوسوفا ١٩٩٨/ ١٩٩٩ وكانت للشعب القطري بصمات أكثر وضوحًا في تقديم المساعدات، سواء للاجئين الكوسوفيين في ألبانيا أو للشعب الألباني نفسه. وقد تعدى هذا دور جمعية قطر نفسها، ولكن من خلالها ومن خلال التنسيق معها نظرًا لحجم المأساة التي فاقت كافة التوقعات، وأدت لهجرة أكثر من مليون ألباني من كوسوفا لدول الجوار، وتحديدًا إلى كل من ألبانيا ومقدونيا في فترة قصيرة وقياسية أسفرت عن مأساة إنسانية كبيرة.

ثم تطور الدور الشعبي لقطر من خلال الآلة الإعلامية التي بدأت في الاهتمام بمنطقة البلقان، في سياق اهتمامها العالمي بمختلف المناطق الإقليمية التي لها علاقات مع المنطقة العربية، وتطور باستمرار هذا الدور وتصاعد إلى أن تم عقد ندوات متخصصة عن البلقان بمركز الجزيرة للدراسات في عام ٢٠١١، والإعلان عن مشاريع إعلامية لمنطقة البلقان تمثلت في «الجزيرة بلقان» باللغة الصربية - الكرواتية - البوسنية؛ ثم الجزيرة التركية، وتزامن هذا مع تحرك سياسي على أعلى مستوى من قبل رؤساء حكومات كل من قطر وألبانيا في الوقت نفسه.

وشهد مطلع العقد الثاني من القرن الحالي تطورات إيجابية على مستوى العلاقات الثنائية بين قطر وألبانيا، على المستويين السياسي والدبلوماسي، وتحديدًا خلال عامي ٢٠١١-٢٠١٢، حيث قام أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة

آل ثاني، بزيارة لألبانيا عام ٢٠١١، تلتها زيارة الرئيس الألباني صالح بريشا للدوحة عامي ٢٠١١ و٢٠١٢، بالإضافة إلى زيارة عمدة تيرانا لولزيم باشا لدولة قطر عام ٢٠١٢.

وكان من ثمار هذه الزيارات المتبادلة توثيق العلاقات الثنائية على المستوى الدبلوماسي، حيث قدّم سفير ألبانيا لدى دولة قطر أوراق اعتماده عام ٢٠١١، كما قدّم سفير قطر لدى جمهورية ألبانيا أوراق اعتماده عام ٢٠١٢.

كما تمّ توقيع اتفاقيات ومذكرات تفاهم تصدّرتها اتفاقية في مجال الطاقة، تمهيدًا لشراكة قطرية ألبانية في مجال الغاز الطبيعي، مع اتفاقيات أخرى في المجالات الإعلامية والثقافية والسياحية.

وكان واضحًا أن الحافز الاقتصادي هو الذي دفع الطرفين لمد جسور التواصل بينهما. فدولة ألبانيا تنظر للمنطقة العربية على أنها بوابة للحصول على المساعدات والقروض، بينما الدول العربية الخليجية ومن بينها قطر، تسعى للبحث عن أسواق جديدة واعدة لاستثمار أموالها، ويعكس ذلك أن المحور الرئيسي في أي لقاءات ثنائية بين المسؤولين في الجانبين كان الاقتصاد، خاصةً في مجال الطاقة[1].

وكان واضحًا أن دولة قطر قد اعتمدت على الخبرات السابقة في دراسة المنطقة والتعرف عليها، وبحث المشروعات التي تحقق مصالح استراتيجية متبادلة يستفيد كل طرف منها بشكل عادل.

٤ ـ العلاقات العربية البلقانية على مستوى الشعوب

بالرغم من ضعف أو غياب العلاقات السياسية على مستوى الحكومات بين دول المنطقتين العربية والبلقانية؛ فقد شكلت التغييرات السياسية التي حدثت في البلقان، وخاصةً في غربها في تسعينيات القرن الماضي، مدخلًا

---

(١) الكويت تقدم ٥ مليون يورو إلى ألبانيا ـ توب تشنال ـ ١٣/ ١١/ ٢٠١٤.
Kuvajti 5 milionë euro Shqipërisë - 132014/11/ -Top Channel
http://top-channel.tv/new/lajme/artikull.php?id=287761#.VGVUT zbsu3o. facebook

لتواصل جديد ـ لم يكن موجودًا من قبل ـ بين الشعوب العربية والبلقانية، من خلال عدة أدوار نشير إليها سريعًا.

أ- الدور الإنساني:

فقد برز دور جديد للشعوب العربية كان «أسرع وأجرأ من حكوماتها»، تمثّل في الدور الخيري والتنموي الذي ركّز على المساعدات الإنسانية والإغاثية، نظرًا للأحداث التي شهدتها المنطقة.

وفي هذا الإطار، تكاد تكون العلاقات العربية البلقانية، في العقد الأخير من القرن العشرين، قد اقتصرت على الدور الشعبي، والذي اتسم بمراعاة البعدين الإنساني والديني، بينما اتسم الدور العربي الرسمي/ الحكومي برعاية الحد الأدنى من المصالح السياسية المشتركة للأنظمة التي تحكّم دول المنطقتين.

وهنا يجب الإشارة إلى عدة حقائق متعلقة بالدور الشعبي العربي في المجال الإنساني/ الخيري بمنطقة البلقان:

إن الدور الشعبي العربي كان مرحبًا به من قبل الحكومات العربية، أو على الأقل لم تسع لمنعه أو التضييق عليه في غالب الأحوال، في محاولة لتحقيق شيء من التوازن في علاقاتها الخارجية مع دول وشعوب البلقان المتصارعة فيما بينها، ولحين وضوح الرؤية النهائية لخريطة المنطقة السياسية الجديدة.

وفي الوقت الذي لم تعوّق أنظمة عربية ـ كمصر على سبيل المثال ـ شعوبها عن تقديم المساعدة للشعوب المسلمة في البلقان، والتي كانت ضحية للسياسة العدوانية الصربية في المنطقة كما حدث في البوسنة وكوسوفا، لم تقبل تلك الأنظمة العربية أي مساس بعلاقاتها مع صربيا. وكأن لسان حال تلك الأنظمة العربية كان يقول: إن للشعوب خيارتها «الإنسانية/ الدينية»، ولكن للحكومات خيارتها الأخرى أيضًا «السياسية/ المصالح المشتركة»، فهذه طبيعة العلاقات السياسية الدولية المعاصرة.

كان هناك دور حكومي عربي رسمي أثناء حروب البلقان، ولكنه غير منفرد، ولكن من خلال المجتمع الدولي فقط، وتمثّل بالمشاركة في قوات حفظ السلام في البوسنة وكوسوفا. وهنا من المهم التسجيل للتاريخ بأن القوات العربية لحفظ السلام، والتي كانت من دول عربية مختلفة مثل مصر والأردن والإمارات وغيرها، لعبت دورًا «إنسانيًا» رائدًا باهرًا في فترات صعبة أثناء عمليات حفظ السلام. وقد شهد بذلك الجميع، وترك ذلك بصمات إيجابية على صورة الشعوب العربية ومن ضمنها الجيوش العربية؛ حينما تتاح لها الفرصة للمساعدة الإنسانية للشعوب المظلومة[١].

ـ بالرغم مع أن الدور العربي في نهاية القرن العشرين كان طابعه «شعبياً خيريًّا»، إلا أنه شهد محاولات لتطوير نفسه إلى أدوار أخرى بمرور الزمن، ومثّل البداية الحقيقية لمد «جسور جديدة» من التواصل، تنشأ لأول مرة بين دول عربية «خليجية» ودول بلقانية ناشئة حديثًا.

فقد تطور «الجسر الإنساني» الذي مدته الشعوب العربية/ الخليجية إلى منطقة البلقان، وتحول تدريجيًا بمرور الوقت إلى جسور سياسية/ دبلوماسية بين الدول العربية ودول البلقان. وذلك بخلاف الدول العربية التقليدية التي كانت لها علاقات سابقة مع دول المنطقة.

ب- الدور الاستثماري:

كما أنه من المهم الإشارة إلى دور آخر ـ وإن كان محدودًا ولم يستمر ـ تمثل في جذب رؤوس الأموال العربية للاستثمار في البلقان. إلا أن الدور فشل وعجز عن تحقيق هدفه، وربما يعود ذلك لسببين: أما الأول فيتمثّل في غياب «قرار سياسي» من الحكومات العربية لدعم هذا الدور «الخاص» لرجال الأعمال

---

(١) قابلت بنفسي بعضًا من جنود قوات حفظ السلام المصرية في سراييفو خلال مرورهم على العاصمة الكرواتية زغرب عام ١٩٩٣م، والتي كنت أعمل خلالها بمكتب إعلامي تابع لهيئة الإغاثة الإنسانية المصرية، وتطرق الحديث حول الدور الإنساني والإغاثي الذي قامت به الوحدة المصرية لمساعدة سكان سراييفو خلال حصارهم على مدار سنوات الحرب.

العرب. ويتمثّل العامل الثاني في عدم فهم رجال الأعمال العرب لطبيعة المنطقة؛ وتجاهل أهمية «الشراكة» في مشروعاتهم واستثماراتهم؛ وانتهاجهم لأسلوب الاحتكار والسيطرة، وهذا لا يصلح لمنطقة تقع في أوروبا وتخضع لنفوذ الدول الغربية، وفي الوقت ذاته تعد منطقة للتنافس والصراعات بين القوى الدولية منذ عقود وربما قرون.

ج- دور المثقفين:

وهذا الدور قام به عدد من المثقفين من الجانبين سواء العرب أو الألبان- لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة ـ وتحديدًا أولئك الذين سافروا إلى بلدان المنطقة الأخرى، وأضحوا بمثابة جسور ثقافية وإعلامية للتواصل بين الشعوب العربية والبلقانية.

على الرغم من أن هذا الدور «نادر جدًا» و«محدود للغاية»؛ إلا أن أهميته تتمثّل في استمراره حتى اليوم، على الرغم من الصعوبات التي تواجهه، كما تتمثّل أهميته في كونه يمثل الأمل في خلق الوعي بأهمية تطوير العلاقات العربية البلقانية لدى شعوب المنطقتين.

وفي الواقع أن تلك الطبقة المثقفة وفي خضام أحداث البلقان وخاصةً مع حدث استقلال كوسوفا عن صربيا ـ سعت لتطوير دورها الثقافي إلى دور سياسي للتعريف بقضية كوسوفا لدى الشعوب العربية، في مسعى لتشكيل رأي عام يضغط على صنّاع القرار في العواصم العربية للاعتراف باستقلال كوسوفا الدولة الوليدة حديثًا في البلقان.

وعلى حين أنه من الجانب الألباني يبرز اسمان في هذا المجال (محمد موفاكو وبكر إسماعيل)، إلا أنه في ما يتعلق بالجانب العربي في البلقان لم نشاهد إلا بعض الجهود الذاتية والنادرة، وتمثّلت في كتابات من مرّوا على المنطقة من الكتاب العرب، ومن ضمنها كتيّب نشره أحد الكتّاب الإعلاميين (د. مجدي سعيد)، وكان قد زار ألبانيا لمدة شهر في بداية عام ١٩٩٣، وسجل مشاهداته وانطباعاته في كتيّب أصدره حينما عاد إلى القاهرة. وتكمن أهمية الكتاب أنه

توصيف وتوثيق لمشاهدات وانطباعات في فترة زمنية مهمة في بداية المرحلة الانتقالية، التي ما زالت تمر بها ألبانيا حتى اليوم[1].

وربما يكون كاتب هذه السطور قد أسهم ولو بجزء بسيط، من خلال عشرات التقارير التي نشرت منذ أكثر من عقد من الزمان عن منطقة البلقان، في مختلف المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية. ومن خلال المشاركة في عدد من المؤتمرات المتعلقة بمنطقة البلقان خلال السنوات القليلة الماضية، في كل من الدوحة وصوفيا وكوسوفا وغيرها.

٥ - مستقبل العلاقات العربية البلقانية

في عصر «العولمة» لم يصبح بمقدور أي نظام تجاهل أهمية العلاقات الخارجية مع مختلف دول العالم، خاصةً الأقرب منها، سواء التي تتواجد في محيطه الإقليمي أو تلك التي تقع على أطرافه بمناطق إقليمية مجاورة.

لذا، نرى أن مستقبل هذه العلاقات يبدأ من معالجة أسباب ضعفها، فمعالجة الأسباب تمثّل الخطوة الأولى نحو الانطلاق إلى علاقات عربية بلقانية «متوازنة» تحقق طموحات شعوب المنطقتين وتدعم حكوماتها على الصعيد الإقليمي والدولي.

ونعتقد بأن المفتاح السحري لنجاح أي علاقات مستقبلية بين دول المنطقتين العربية والبلقانية، يتمثّل في أهمية فهم كل دولة لطبيعة المنطقة الأخرى بشكل عام، ثم لخصوصية كل دولة فيها بشكل خاص، فكثيرًا ما كانت سياسة التعميم سواء في التفكير أو القرار سببًا في فشل التواصل أو عدم الرغبة فيه منذ بدايته.

كما إنه من الضرورة وضع اعتبار أن العلاقات بين دول البلقان والدول العربية لن تستطيع أن تكون بمعزل عن «القوى» الدولية والإقليمية المتنافسة

(١) د. مجدي علي سعيد، «ألبانيا.. بين الآمال والمخاطر»، سلسلة هموم المسلمين في العالم، الطبعة الأولى، (مصر: مركز الإعلام العربي) ١٩٩٤، ج٣.

على المنطقة، فدول البلقان بأمس الحاجة لدعم القوى الدولية والإقليمية لها لبناء اقتصادها الجديد. وهو ما سيجعلها تضع أي علاقات خارجية مع دول العالم، ومن بينها الدول العربية في المرتبة الثانية بعد علاقاتها مع تلك الدول العظمى، وبشرط ألا تتعارض معها.

كما إنه لابد من تفعيل دور الشعوب في تطوير العلاقات العربية-البلقانية، ونعتقد بأنه مثل أحد أخطاء حكومات الدول العربية في عدم دعمهم للدور المدني الإنساني، الذي قامت به شعوبهم عبر المؤسسات الأهلية الخيرية العربية لمساعدة شعوب البلقان، وكانت الفرصة موالية لتطوير هذا الدور وتفعيل التواصل بين شعوب المنطقتين العربية والبلقانية في كافة المجالات. فلدينا ثمار ونتائج مثمرة لجهود الغرب في البلقان، حيث تجد المؤسسات الأهلية الغربية دعمًا مقبولًا من حكوماتها، وهو ما انعكس على تقارب شعوب البلقان مع الشعوب الأوروبية والغربية.

ومن اللافت للنظر غياب تام لأي مراكز أبحاث أو دراسات عربية متخصصة في شؤون البلقان، تكون بمثابة دعم لصنّاع القرار العرب في رسم سياستهم الاستراتيجية ومواقفهم السياسية إزاء مختلف القضايا المتعلقة بدول البلقان.

وبناءً على ما سبق، فإن مستقبل العلاقات العربية البلقانية مرهون بـ«قرار سياسي» تتخذه السلطة الحاكمة في الدولة التي ترغب في إحراز تقدّم في علاقاتها مع نظيراتها في المنطقة الأخرى، وهو الأمر الذي نعتقد بأنه تمّ بالفعل في عدة دول خليجية ومنها دولة قطر، وتدلل على ذلك الأيام والاتفاقيات العديدة والمتواصلة التي تتم بين الحكومة القطرية ودول البلقان المختلفة، ولذلك، تُعد قطر نموذجًا رائدًا للدول العربية الأخرى في مسألة تطوير علاقاتها بدول البلقان.

العلاقات العربية - البلقانية:
نحو شراكات جديدة

عمار جفال[1]

مقدمة يقوم مضمون الدراسة على تشخيص واقع العلاقات العربية-البلقانية؛ بهدف الوقوف على أبرز التحديات التي تواجه توثيق أواصر التعاون بين هذين الفضاءين، واستشراف آفاق هذه العلاقات التي تُبنى على أسس ومصالح جديدة. وتأتي أهمية الدراسة في وقت اشتد فيه التنافس الإقليمي والدولي على التموقع في البلقان، خاصة من قبل الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وروسيا وتركيا والصين وإسرائيل، في المجالات الأمنية والاقتصادية والعسكرية، مقابل تراجع واضح لحجم العلاقات العربية بدول المنطقة مقارنة بالعقود الماضية.

وتنطلق الورقة من عدة افتراضات أهمها:

- إن واقع عدم الاستقرار الداخلي بالمنطقتين العربية والبلقانية يجعل من تحليل مستقبل هذه العلاقات مسألة معقدة.
- إن العلاقات العربية-البلقانية التي تتّسم حاليًا بالضعف وانعدام الأطر المؤسساتية الجامعة للطرفين على مختلف المستويات مقارنة، قابلة للتقويم والتطوير من خلال وضع أطر اجتذاب قادرة على تجسيد التعاون، ومبنية

---

(١) أستاذ في كلية العلوم السياسية بجامعة الجزائر ٣، ومدير مختبر البحوث والدراسات في العلاقات الدولية.

على خدمة مصالح الطرفين، على اعتبار أن الروابط العربية- البلقانية ممتدة في مختلف النواحي الحضارية، الجغرافية، الاقتصادية والروحية، وخالية من الرواسب التاريخية المعيقة مثل ما هو الحال مع قوى إقليمية أخرى[1]. إضافة إلى توافر مجموعة عوامل اقتصادية مساعدة، أهمها الحاجة المتبادلة إلى توظيف الاستثمارات الخليجية.

وبالعودة إلى المرحلة التاريخية الممتدة منذ الحرب العالمية الثانية، يمكن إيجاز تطور العلاقات العربية - البلقانية المعاصرة في مرحلتين: تميّزت الأولى (مرحلة النظم الشيوعية في أوروبا الشرقية) بهيمنة العامل الأيديولوجي والصراع شرق- غرب على مختلف مكوّنات العلاقة البينية بين الطرفين العربي والبلقاني، وتمحورت بقوة حول الموقف من القضية الفلسطينية وتعقيدات الصراع العربي- الإسرائيلي؛ في حين يتم رسم المرحلة الثانية في ظل أوضاع داخلية غير مستقرة، وظروف إقليمية ودولية متنافسة جدًا، انعكست في انتهاج حكومات الطرفين سياسات الحذر والمراجعة والبراغماتية. وبرزت هذه السمات في التغيرات التالية:

أ. تحرر السياسات الخارجية لدول البلقان، واشتداد التنافس الإقليمي والدولي في المنطقة.

ب. مراجعة الدول البلقانية لمواقفها من القضية الفلسطينية في اتجاه ما يصطلح عليه بإقامة علاقات متوازنة بين الطرفين.

ج. تبلور مواقف وتوجهات متباينة لدى الدول البلقانية تجاه المنطقة العربية حسب ظروف كل حالة.

د. تبلور علاقات خليجية- بلقانية مستقرة سياسيًا وواعدة اقتصاديًا.

وعليه، تهدف هذه الورقة إلى الإلمام بالبيئة التنافسية في المنطقة البلقانية، كإطار محدد للعلاقات العربية البلقانية. وتوسيع الدراسة في النقاط السالفة

---

(١) عانت شعوب البلقان الورادة في الورقة من سيطرة واضطهاد عدة قوى مجاورة، منها الإمبراطورية العثمانية وإيطاليا الفاشية ثم ألمانيا النازية، وأخيرًا الهيمنة السوفييتية.

الذكر، مع التطرق طبعًا إلى أهم العوامل المعيقة والعوامل المساعدة على تطوير العلاقات العربية- البلقانية، ولا سيما ما يتعلق منها بمحور العلاقات الخليجية- البلقانية، على اعتبار أنه المحور المرشح بقوة للتطور إيجابيًا.

التنافس الإقليمي والدولي في منطقة البلقان:

شهدت العلاقات الدولية البلقانية منذ الحرب العالمية الثانية مرحلتين بارزتين[1]: مرحلة القطبية الثنائية، ومرحلة انهيار الأنظمة الشمولية وعودة الحراك الدولي والإقليمي إلى البلقان.

فقد أدت الحرب العالمية الثانية إلى اختزال عدد القوى الأجنبية الفاعلة في البلقان، وإلى عملية توزيع حادة لمناطق النفوذ بين القوى الكبرى المنتصرة في الحرب. فقد قفزت إلى الحكم في كل من رومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا أنظمة مؤيدة للاتحاد السوفييتي. كما أسفرت الحرب الأهلية في اليونان ومحاولات السوفييت بسط السيطرة على المضايق إلى تدخل حاسم للولايات المتحدة سنة ١٩٤٧، بإعلان معارضتها للتمدد السوفييتي، وإصدارها مبدأ ترومان الذي تضمن تقديم مساعدات عسكرية ومالية كبيرة لليونان وتركيا، وتأطير ذلك باتفاقيات دفاعية ثنائية. وهكذا أصبحت المنطقة البلقانية جزءًا لا يتجزأ من مخططات الصراع على المسرح الأوروبي بين حلف الناتو وحلف وارسو. وعليه، تمّ تجميد الخريطة السياسية بالمنطقة إلى غاية الثمانينيات من القرن الماضي، حيث شهدت موجة من التململ الاجتماعي الذي بدأ في تفجير التناقضات الإثنية والدينية، ودفعت التغييرات الدولية مع انهيار جدار برلين إلى دخول منطقة البلقان مرحلة تاريخية جديدة.

اتّسمت المرحلة الثانية بتحولات سياسية عميقة؛ نتيجة انهيار الأنظمة الاشتراكية والدخول في مراحل انتقالية صعبة، لإقامة نظم تعددية واقتصاديات

---

(١) للمزيد من التفاصيل حول مراحل التنافس الدولي بالمنطقة البلقانية، انظر: مصالح الدول الكبرى في منطقة البلقان، مجلة الدفاع الوطني (الموقع الرسمي للجيش اللبناني):
http://www.lebarmy.gov.lb/ar/news/?4362#.VBVdPZR_tnM

ليبرالية. أما على المستوى الخارجي فقد استعادت دول المنطقة حرية التعاون، ورسم السياسة الخارجية كل حسب مصالحه. كما سارعت العديد من القوى الدولية والإقليمية إلى التموقع سياسيًا واقتصاديًا في المنطقة البلقانية. ويمكن تصنيف هذه القوى حسب الأهمية إلى مجموعتين، تضم المجموعة الأولى: الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وروسيا، بينما تضم الثانية: تركيا والصين وإسرائيل[1].

حرص الاتحاد الأوروبي، في إطار الطموح الهادف لبناء المشروع القاري، على التمدد نحو منطقة البلقان، حيث اعتمد مبكرًا انضمام سلوفينيا سنة ٢٠٠٤ ثم كرواتيا سنة ٢٠١٣، كما وافق على ترشيح مقدونيا والجبل الأسود وألبانيا، وتبقى فقط دولة البوسنة - الهرسك وكوسوفو خارج المشاريع الحالية للاتحاد لأسباب سياسية داخلية وإقليمية معقدة. والواقع أنه إذا كان التحاق منطقة البلقان بالمجموعة الأوروبية يتقدم بنجاح، لأنها ترى أن استقرار البلقان يصب بالدرجة الأولى في استقرار كافة القارة الأوروبية[2]، فإن حضور وتنافس قوى أخرى يزيد من قلق المؤسسات الأوروبية العاملة على دفع مسار الاندماج بالمنطقة.

في هذا السياق، يأتي الدور الأمريكي داعمًا إلى حد بعيد لتوسّع الاتحاد الأوروبي، لكنه يتميز عنه بالطابع العسكري، ويندرج ضمن إستراتيجية أمريكية واسعة، تجعل من دول البلقان مواقع تمركز وعبور بهدف أساسي، يتمثّل في محاصرة النفوذ الروسي ودعم المصالح الأمريكية المتنامية في البلقان ومناطق مجاورة مثل: البحر الأسود والقوقاز وآسيا الوسطى.

ويتمحور الاهتمام الأمريكي على ضمان إمدادات الطاقة من بحر قزوين. وهي الرؤية التي عبّرت عنها صحيفة واشنطن بوست في مطلع ١٩٩٩: «لقد

---

(١) يتناول جون فرانسوا لودو هذه المرحلة بقدر كبير من التحليل المفصل والمعمق، انظر الكتاب:
Jean François Loddo, Le nouvel ordre du puzzle des Balkans: zone pivot de l'échiquier géostratégique mondial du XXI siècle, Série Diplomatie et stratégie, ed l'Harmattan Paris 2009; 220 pages.

(٢) للمزيد حول ظروف تقارب البلقان مع المجموعة الأوروبية، انظر: هاني صلاح، مسيرة دول البلقان نحو الاتحاد الأوروبي، المصدر: السياسة الدولية
digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=96013.

أصبح الشرق الأوسط منطقة هشّة جدًا، ولذلك سنكون في حاجة ماسة إلى قواعد وتسهيلات للطيران عبر البلقان لحماية نفط بحر قزوين»[1].

ضمن هذا التوجه، عملت الإدارات الأمريكية بالتعاون مع حلفائها في البلقان على تطوير شبكة قواعد عسكرية، بدأت بمحاصرة صربيا «المتمردة» والموالية لروسيا، بإنجاز قاعدة «سيجيدين» على الحدود بين هنغاريا وصربيا أيام القصف على صربيا سنة ١٩٩٩، ثم واصلت الانتشار العسكري في المنطقة بوتيرة سريعة جدًا، حيث أنجزت منذ سنة ٢٠٠١ قاعدتين في بلغاريا، و٥ على تراب رومانيا. لكن بالنظر إلى المواصفات والحجم، تحتل القاعدة العسكرية الأمريكية «بلوندستيل»[2] والمنجزة شرق جمهورية كوسوفو مكانة محورية[3]، ضمن عملية تنفيذ الانتشار العسكري الأمريكي حول البحر الأسود، وبديلًا مستقبليًا للقاعدة الجوية الأمريكية في آفيانو (Aviano) بإيطاليا.

بالمقابل، تتوفر روسيا (المنافس العنيد للقوى السابقة الذكر)، على روابط تاريخية وثقافية قوية بالمنطقة. ورغم أن مكانتها الإقليمية بالبلقان قد تراجعت بحدة في السنوات الأخيرة، وأُهينت من طرف القوى الغربية عندما عجزت عن دعم حلفائها الصرب، فإنها تعود بقوة عن طريق مشاريع الطاقة. فمنذ القمة الروسية- البلقانية حول الطاقة في جوان ٢٠٠٧ بعاصمة كرواتيا، رسمت موسكو هدفها الاستراتيجي المتمثل في ضرورة احتلالها مركز الصدارة في إمدادات الغاز إلى أوروبا الغربية، واستعمال منطقة البلقان كمعبر رئيسي لذلك[4]. وتحتل صربيا مكانة محورية في المشروع الروسي؛ ذلك لأنها مرشحة

---

(١) نقلا عن:

Troude Alexis, Le Kosovo au Coeur de la question des frontières dans les Balkan. www.strategicsinternational.com/38_11.pdf, page: 138

(٢) بلوندستيل = Blondsteel

(٣) للمزيد من التفاصيل حول تزايد القواعد الأمريكية بالمنطقة وحجم قاعدة بوندستيل (Bondsteel) انظر نفس المصدر السابق: ص١٣٧.

(٤) للمزيد حول أهداف المشروع الروسي وانعكاساته الاستراتيجية على علاقات روسيا بالبلقان وأوروبا الغربية، انظر كتاب:

Marina Glamotchak (chercheuse en analyse stratégique, politique et économique): L'enjeu énergétique dans les Balkans, Technip, Paris, 2013

لحيازة أطول مسافة من خط الغاز الجنوبي (ساوث ستريم)[1]، بالإضافة إلى مقر الخزان الاستراتيجي الذي سيقام لضمان استقرار الإمدادات. وانطلاقًا من مشروع الغاز الذي يعبر بلغاريا وصربيا وهنغاريا، يتمّ العمل على ضمان تموين كرواتيا والبوسنة وسلوفينيا[2]. كما أحرزت روسيا مكانة قوية في الصناعة النفطية الصربية، وتتجه نحو شركات الكهرباء. وتراهن موسكو كثيرًا على نفوذها بصربيا من خلال الدعم المالي الواسع، والقروض[3] الموجهة لتطوير البنية التحتية في اتجاه التأسيس لشراكة إستراتيجية بين البلدين. واستكمالًا لهذا النشاط، عملت روسيا على إحياء تقاليدها الدبلوماسية التاريخية مع جمهورية الجبل الأسود، والسيطرة على ما يقارب نصف اقتصاد البلد لضمان موقع مطل على بحر الأدرياتيك، وبالتالي ضمان الوصول إلى المياه الدافئة[4]، وهو الأمر الذي يمثّل الهدف التاريخي لروسيا منذ ٣ قرون.

وهكذا تنظر روسيا إلى عودتها إلى البلقان كضرورة حيوية لدعم مكانتها القارية والبحرية بالوصول إلى البحار الدافئة عبر الجبل الأسود، أي في الجوار

---

(١) الخط الجنوبي أو «ساوث ستريم» (South Stream) هو أنبوب نقل الغاز من روسيا وآسيا الوسطى إلى أوروبا الغربية ابتداء من سنة ٢٠١٥، ويمتد عبر القوقاز والبحر الأسود وبلغاريا وصربيا وهنغاريا وسلوفينيا وإيطاليا في اتجاه فرنسا، ويتضمن أنابيب فرعية لربط اليونان من بلغاريا وربط كرواتيا بأنبوب من صربيا.

(٢) انظر: سيتم تموين البوسنة عبر أنبوب فرعي يربط بالأنبوب الرئيسي في كرواتيا:
Diplomaties gazières dans les Balkans: la Russie et l'Union européenne par Marina Glamotchak.
http://www.cairn.info/resume.php?ID_ARTICLE=GEOEC_069_0083

(٣) قدمت روسيا قرضا استثنائيا بمليار دولار إلى صربيا، كما أبدت استعدادها لتقديم الدعم الكافي في حالة تدهور الوضع المالي لصربيا. لمزيد من التفاصيل حول العلاقات الروسية-الصربية انظر جورج ماري شيني:
http://www.diploweb.com/Balkans-occidentaux-espace.html
Balkans occidentaux: espace géopolitique convoité Par Georges-Marie CHENU , le 9 décembre 2013.

(٤) انظر:
Les Balkans sur l'échiquier americano-russe:
http://mastercarrieresinternationales.wordpress.com/201219/09/

المباشر لكوسوفو التي تمثل - كما هو مشار إليه سابقًا - مركز التموقع الاستراتيجي الأمريكي في المنطقة البلقانية.

والواقع أن الساحة البلقانية تشهد تنافسًا استراتيجيًا حادًا بين القوى الثلاث: روسيا، والولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي. وبالنظر إلى الظروف السياسية الداخلية وتعدد أسباب النزاعات، تبدو المنطقة مرشحة لفترة مفتوحة من التنافس الحاد وتغير الولاءات، وبالتالي احتمال اندلاع نزاعات كامنة أو مجمّدة.

تأتي تركيا في مقدمة المستوى الثاني من القوى المتنافسة، فقد أدّت الحروب الأهلية في يوغوسلافيا وما رافقها من مآسٍ إنسانية إلى نوع من إعادة الاعتبار للوجود التركي بالمنطقة، على اعتبار أنّ الإمبراطورية العثمانية نجحت على امتداد عدة قرون في فرض تعايش بين مختلف الهويات البلقانية. وبالفعل، سارعت أنقرة إلى القيام بمراجعة عميقة لسياسة الجمود الكمالية، في اتجاه تثمين الميراث التاريخي، بالاعتماد أساسًا على الحيوية الاقتصادية، وشبكة علاقاتها الإنسانية بالمنطقة. وعلى هذا الأساس أقامت تركيا دبلوماسية «بلقانية» نشطة ومعتدلة، وانتهجت سياسات مصرة على المساعدة في حل النزاعات وتقديم الخبرة والإمكانيات. وهكذا أصبحت عضوًا في جميع المؤسسات الإقليمية البلقانية، كما لعبت دور الوسيط في العديد من النزاعات منها: النزاع بين اليونان ومقدونيا، والخلافات الدينية في صربيا، وتقريب المواقف بين صربيا والبوسنة[1].

والواقع أن انتهاج القادة الأتراك لقدر كبير من الواقعية والاعتدال، قد مكّنهم من بناء جسور التواصل مع مختلف مكونات المنطقة، بدءًا بالمؤسسات

---

(١) حول السمات الجديدة المميزة للسياسة الخارجية التركية، وأوجه النشاط الاقتصادي والدبلوماسي التركي في المنطقة البلقانية انظر الورقتين:

L'émergence d'une politique de «bon voisinage»

http://www.ritimo.org/article64.html.

Luce Ricard ; La Turquie dans les Balkans: relents d'ottomanisme.

http://www.nouvelle-europe.eu/la-turquie-dans-les-balkans-relents-d-ottomanisme

التركية العاملة في تطوير مطار «سراييفو»، وتهيئة الطرق في إقليم السنجق بصربيا، وشراء مصانع الحديد والصلب في الجبل الأسود. ويمتد النشاط التركي إلى الميادين الثقافية والدينية من خلال بناء المدارس، وفتح المراكز الثقافية في ألبانيا وكوسوفو والبوسنة، وتوزيع المنح الدراسية وترميم الأضرحة والمساجد. وعمومًا يشهد النشاط الدبلوماسي والاقتصادي التركي بالمنطقة البلقانية تجاوبًا واسعًا، يوحي بإمكانية تحول تركيا إلى شريك رئيسي لدول البلقان[1]. ومن الواضح أن تركيا عازمة على ترسيخ مكانة متميّزة لمصالحها في البلقان، خاصة في حالة عدم قبولها في المجموعة الأوروبية ضمن الآفاق التي حددتها بسنة ٢٠٢٥. وفي هذه الحالة ستكون تركيا قد نجحت في الحصول على مكانتها كقوة إقليمية وسيطة بين أوروبا الغربية وروسيا والشرق الأوسط.

من المظاهر الجديدة والبارزة لتطور التنافس وتعدد الأطراف الفاعلة على الساحة البلقانية، ظهور نشاط اقتصادي صيني يتطور بوتيرة سريعة جدًا، بدءًا بالاستثمار في الموانئ اليونانية التي أصبحت بوابة الصينيين في اتجاه السوق الأوروبية. ويسير ضمن إستراتيجية اقتصادية منسجمة تتمحور حول هدفين: أولهما، مضاعفة فرص التسويق للصادرات الصينية، بإقامة مؤسسات تجارية وصناعية بالمنطقة سرعان ما تتحول إلى زبائن، والبحث عن شركاء اقتصاديين في البلقان الغربي، وبالتالي الوصول إلى السوق الأوروبية؛ وثانيهما: البحث عن مصادر للمواد الغذائية والتحكم في سلسلة إنتاجها بهدف تموين الطلب الداخلي للصين[2].

ويستفيد النشاط الصيني كثيرًا من النزاعات القائمة. وفي هذا الإطار، تدعم الصين (وروسيا) موقف صربيا الرافض لاستقلال كوسوفو، وتقف ضد مسعى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، الأمر الذي سهّل كثيرًا على

---

(١) انظر المصدر السابق بعنوان:

Balkans occidentaux: espace géopolitique convoité, le 9 décembre 2013. Georges-Marie CHENU ,

(٢) يعمل القادة الصينيون منذ سنوات على دعم الاستثمار الصيني الزراعي في العديد من البلدان، وذلك بهدف ضمان غذاء الشعب الصيني على المدى المتوسط والبعيد.

الصينيين الوصول إلى الاستثمار في قطاعات عديدة منها الطرقات والكهرباء والطاقة والنقل.

وإلى الغرب من صربيا، يحظى النشاط الصيني بسمعة جيدة سمحت له بمنافسة الشركات الروسية في جمهورية الجبل الأسود، وبداية التواصل مع كرواتيا بافتتاح معهد كونفوشيوس في جامعة زغرب.

أخيرًا، كان من المتوقع أن تسارع إسرائيل إلى التغلغل بالمنطقة البلقانية. فقد عملت تاريخيًا على إقامة علاقات جيدة مع دول الحزام المحيط بالعالم العربي، وضمن هذه الإستراتيجية تمّ خلال الـ ٦٠ سنة الماضية بناء علاقات وطيدة بإيران (في عهد الشاه) وتركيا وإثيوبيا، لكن إسرائيل خسرت هذه المواقع تباعًا، وكان آخرها تدهور علاقاتها مع تركيا. ولذلك سارعت إلى استغلال الفرص المتاحة في الفضاء السوفييتي سابقًا مستفيدة من ثلاثة تغيرات مهمة:

أ. أتاح سقوط جدار برلين فرصة تاريخية في العلاقات الإسرائيلية البلقانية. صحيح أن معظم دول البلقان اعترفت بإسرائيل سنة ١٩٤٨، لكن علاقاتها تطورت جيدًا مع العالم العربي والإسلامي لدرجة قطع العلاقات مع الكيان عام ١٩٦٧، والاعتراف بدولة فلسطين المعلنة بالجزائر عام ١٩٨٨، إلا أن انهيار جدار برلين وتفكك الاتحاد اليوغوسلافي سمح برسم خريطة سياسية جديدة، سمحت لإسرائيل بعودة قوية إلى المنطقة[1]. فقد تمّ ربط المواقف السابقة من القضية الفلسطينية بالأنظمة الديكتاتورية، ودفعت الأنظمة الجديدة المدعومة من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي إلى القيام بمراجعة كبيرة لتوجهاتها الخارجية، ومنها الموقف من القضايا العربية نحو ما يُسمى «الاعتدال»، وأحيانا تأييد الكيان الصهيوني مباشرة.

---

(١) من الأمثلة على هذه التحولات في الموقف البلقاني: الموقف السلبي لكرواتيا من تقرير جولدستون وتصويت رومانيا وبلغاريا والبوسنة ضد انضمام فلسطين للأمم المتحدة، والمواقف المترددة لمقدونيا والجبل الأسود...الخ. انظر دراسة الأستاذ الدكتور محمد م. الأرناؤوط المختص في شؤون البلقان بعنوان: التغلغل الإسرائيلي في دول البلقان:
http://studies.aljazeera.net/reports/201120117218205571805/07/.htm

ب. توظيف الرواسب التاريخية والإسلاموفوبيا: عملت إسرائيل دبلوماسيًا وإعلاميًا على التموقع ضمن الدول المهددة بالعمليات الانتحارية، والتطرف الديني المنسوب إلى العديد من الحركات الإسلامية. وضمن هذا التموقع السياسي، يتم الخلط طبعًا بين حركات المقاومة المشروعة (مثل حماس) والتنظيمات الإرهابية، كما يتم التشكيك بقوة، وعلى مستوى إعلامي واسع في أوجه النشاط والدعم العربي والإسلامي للشعوب المسلمة في البلقان[١].

وفي إطار هذا التموقع دائمـًا، يتم توظيف تدهور علاقة إسرائيل بتركيا ضمن هدف كبير يجمع بين الرواسب التاريخية والإسلاموفوبيا. فقد بات في حكم المؤكد كما يقول صالح النعامي: «إن إسرائيل توظف فزاعة عودة العثمانيين الجدد في محاولاتها بناء تحالفات جديدة بدول البلقان»، ويعترف بذلك سفير إسرائيل في بلغاريا عندما يصرح قائلًا: «إن إسرائيل باتت تركز على الإرث التاريخي والثقافي في تحفيز دول البلقان بشكل عام لتطوير العلاقات البينية»[٢]. والمقصود بالإرث التاريخي هو استغلال الرواسب التاريخية المترتبة عن وقوع اليونان وبقية دول البلقان تحت الحكم العثماني لمئات السنين. ويتجه التركيز الإسرائيلي في هذا المجال إلى:

- تنشيط عمليات ومظاهر إحياء الذاكرة المتعلقة باليهود في دول البلقان[٣].

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى قضايا التشكيك والمساءلة التي تتعرض لها الجمعيات الخيرية والبنوك الإسلامية بدعوى ارتباطها بالإرهاب. وهي عمليات تخضع في الغالب للتوجهات السياسية للحكومات، وبالتالي من الصعب التأكد من مصداقيتها.

(٢) صالح النعامي: فزاعة العثمانيين الجدد: تكتيك إسرائيل لجذب البلقان. بحوث ودراسات الأربعاء ٢٦ شعبان ١٤٣٢ الموافق ٢٧ يوليو ٢٠١١.
http://islamtoday.net/bohooth/artshow-13153891-.htm

(٣) نذكر من هذه النشاطات: موافقة ألبانيا على تعيين حاخام، وتوقيع الجبل الأسود على اتفاقية صلح (Concordat) مع الجماعة اليهودية، المشاركة مع صربيا في إحياء ذكرى المقابر الجماعية التي خلفها النازيون في كرواتيا، إقامة نصب تذكاري «للهولوكوست» وسط عاصمة مقدونيا. وللمزيد حول هذا النشاط انظر:
Renaud Dorlhiac, «Israel, un acteur mésestimé dans les Balkans?» Pages@Europe, 1er octobre 2012–La Documentation française , DILA. Paris.

- بناء شراكات تعاون حول قضايا الإرهاب والسلاح والطاقة مع كل من كرواتيا وبلغاريا ورومانيا واليونان وقبرص، والتي تشكل قوسًا مهمًا لحصار تركيا.
- العمل على ربط دول المنطقة ولا سيما اليونان وقبرص بمشاريع الغاز المكتشف شرق المتوسط(١).

العلاقات العربية- البلقانية:

علاقات ومصالح سياسية في مرحلة مراجعة كبيرةضمن هذه البيئة الإقليمية المتنافسة جدًا، تتشكل العلاقات العربية-البلقانية المعاصرة. ويمكن تصنيف البلدان البلقانية من حيث تطور مواقفها تجاه القضايا العربية إلى مجموعتين(٢): أولًا مجموعة الدول البلقانية التي لم تكن جزءًا من الاتحاد اليوغسلافي وهي: بلغاريا واليونان وألبانيا، وثانيًا: مجموعة الدول المنبثقة عن تفكك الاتحاد اليوغسلافي وهي: مقدونيا والجبل الأسود وصربيا وكوسوفا والبوسنة-الهرسك وكرواتيا.

وإذا كانت المجموعة الأولى قد أبدت تقاربًا كبيرًا مع الكيان الصهيوني في السنوات الأخيرة، وعلى حساب مواقفها السابقة المؤيدة للقضية الفلسطينية، فإن معظم بلدان المجموعة الثانية قد حافظت على قدر كبير من العلاقات الجيدة مع البلدان العربية(٣)، ولو أنها أصبحت لا تتمحور حول الصراع العربي الإسرائيلي، بل تتضمن بالنسبة للطرفين مصالح وقضايا عديدة، وذلك لأن يوغوسلافيا السابقة كانت حاضرة في العالم العربي سياسيًا واقتصاديًا، وأقامت علاقات صداقة نخبوية واسعة مع دوائر صنع القرار.

---

(١) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر المصدر السابق نفسه ص٦٠.

(٢) انظر: فريد موهيتش (ترجمة كريم الماجري): خارطة علاقات دول البلقان وشعوبها مع إسرائيل: حدودها وطبيعتها (الجزء ١+٢)، مركز الجزيرة للدراسات:
studies.aljazeera.net/issues/201220121167182548859/11/.htm

(٣) انظر الحوار المرفق مع مجموعة من الخبراء الصرب:
Les investisseurs arabes à l'assaut de la Serbie: illusion ou réalité? armlandgrab. org/ post/ view/ 22501- Published: 03 Sep 2013

استمر تمحور العلاقات العربية - البلقانية (باستثناء ألبانيا)، حول الموقف من الصراع العربي- الإسرائيلي إلى غاية نهاية الحرب الباردة، لكن هذا الوضع تغير تدريجيًا في اتجاه مراجعة واسعة لمواقف البلدان البلقانية. ففي خريف ٢٠١١ و٢٠١٢ خرج تصويت البلدان البلقانية من انضمام فلسطين إلى اليونسكو والأمم المتحدة عن المعتاد، حيث صوتت صربيا واليونان إيجابيًا وصوتت سلوفينيا إيجابيًا للانضمام إلى اليونسكو فقط، في حين فضلت بقية الدول الامتناع عن التصويت. وكان التبرير العام لهذا الموقف هو تشجيع مسار السلام في الشرق الأوسط، لكن التوجه إلى هذه المقاربة «المتوازنة» في إعادة صياغة المواقف السياسية البلقانية، كانت تعكس في الأساس تراجع العامل الأيديولوجي الذي تحكم بها على امتداد عقود من الزمن، لصالح مواقف براغماتية بعيدة عن المبادئ، وغير متأثرة حتى بالروابط الدينية وبالرواسب التاريخية المؤلمة[1].

ففي السنوات الأخيرة، أحدث إعلان استقلال كوسوفو في شهر فبراير ٢٠٠٨، بدون موافقة الأمم المتحدة، حراكًا دبلوماسيًا واسعًا من طرف سلطات كل من صربيا وكوسوفو وألبانيا، عبر أطر وقنوات ثنائية ومتعددة. وفي هذا السياق، شهدت الجامعة العربية نشاطًا مكثفًا لجميع الأطراف. وتوجهت ألبانيا إلى محاولة كسب تأييد العالم الإسلامي باستغلال عضويتها في منظمة المؤتمر الإسلامي[2]، في حين لجأت صربيا إلى علاقاتها التاريخية بحركة عدم الانحياز، وذلك بمحاولة إعادة إحياء الحركة سنة ٢٠١١ وتنظيم الذكرى الخمسين لتأسيسها. والواقع أن جهود صربيا في هذا الاتجاه بقيت معزولة، حيث فضّلت

(١) وقفت ألبانيا ذات الأغلبية المسلمة إلى جانب سياسات الكيان الصهيوني، وفي السنوات الأخيرة اتجهت الدول البلقانية التي شهدت اضطهادًا وتصفية واسعة لليهود وكنوع من التعويض التاريخي إلى إظهار نوع من العداء الواضح للمسلمين والعرب لصالح تقرب مستمر من الكيان الصهيوني. وللمزيد من التفاصيل حول التطورات الغربية للمواقف البلقانية، انظر الورقة المفصلة حول هذا الموضوع والمنشورة على جزأين بمركز الجزيرة للدراسات. للكاتب فريد موهيتش (ترجمة كريم الماجري) مصدر سابق.

(٢) أصبحت ألبانيا عضوًا بمنظمة المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٩٢.

بقية دول الاتحاد اليوغوسلافي السابق المحافظة على علاقاتها القوية مع النظم العربية القائمة آنذاك، ومنها نظامي ليبيا وسوريا.

الربيع العربي: عقبة أم فرصة جديدة أمام العلاقات العربية-البلقانية؟

أثّرت المصالح الاقتصادية القائمة والعلاقات التقليدية بين النخب الحاكمة في المنطقتين بشكل واضح على مواقف البلدان البلقانية من موجات الربيع العربية. وتجلّى ذلك في المواقف المترددة من الانتفاضات الشعبية التي اجتاحت المنطقة العربية، على امتداد الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط، بدءًا بتونس ثم مصر وليبيا واليمن وسوريا الخ. والظاهر أن غالبية الدوائر الحاكمة في البلقان، كانت مقتنعة بأن موجة التغيير السياسي في البلدان العربية ستنعكس سلبًا على مصالحها، مهما كانت طبيعة التوجهات السياسية للسلطات الجديدة المنبثقة عن هذه الانتفاضات الشعبية. وكان هذا «المأزق» سببًا واضحًا في الصعوبات التي واجهتها السلطات البلقانية للتكيف مع قرارات المجموعة الأوروبية.

في هذا السياق، نلاحظ موقف كرواتيا المؤيد للثورة في ليبيا بسبب قرب انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي، واعترافها بشرعية المجلس الوطني الانتقالي، بل وإعلان مشاركتها في عمليات المراقبة تحت إشراف حلف الناتو. بالمقابل أعلنت سلوفينيا التي كانت تربطها علاقات جيدة بالزعيم الليبي رفضها التام الاعتراف بالمعارضة الليبية، واعتبرت التدخل الأجنبي في ليبيا عملًا غير شرعي، لكن هذا الموقف تغير تدريجيًا خاصة مع صدور قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٧٣ في مارس ٢٠١١.

كما شهدت المواقف البلقانية من الأزمة السورية مسارًا مماثلا تقريبًا للحالة الليبية. فقد سارعت كرواتيا إلى توقيف نشاط شركاتها العاملة في سوريا، وفي مقدمتها الشركة العمومية «إينا» (INA) العاملة في ميدان التنقيب عن النفط في سوريا، وذلك بهدف الانسجام مع قرارات الحظر التي أقرّها الاتحاد

الأوروبي ضد النظام السوري في شهر سبتمبر ٢٠١١. كما بادرت زغرب إلى إرسال شحنات من الأسلحة إلى المعارضة السورية[1]. أما بقية الدول البلقانية فقد فضّلت الحذر الكبير من مختلف مراحل الحراك العربي لدرجة السقوط في وضعيات متناقضة أحيانًا، كما هو الحال بالنسبة لليونان التي كانت مرتبطة بشراكة اقتصادية مهمة مع طرابلس منذ ثمانينيات القرن الماضي، ولذلك حافظت على علاقات وطيدة مع نظام القذافي، وأخّرت الاعتراف بالمجلس الانتقالي إلى آخر لحظة. لكن في الوقت ذاته وضعت اليونان قواعدها الجوية في جزيرة كريت وشبه جزيرة المورة تحت تصرف التحالف الدولي، كما عملت على الانضمام إلى مجموعة الاتصال العاملة على تسوية الأزمة الليبية من جهة، والوقوف ضد رفع التجميد عن الأرصدة الليبية من جهة ثانية.

واتّبعت اليونان السياسية «المزدوجة» نفسها تجاه الأزمة في سوريا، حيث سايرت الموقف الأوروبي من جهة، وكانت رافضة من جهة أخرى لقرارات الحظر على الفوسفات السوري، الذي تعتمد عليه الزراعة في اليونان بنسبة عالية.

برّرت بعض دول البلقان، وفي مقدمتها صربيا واليونان، مواقفها المترددة هذه بحجم وخطورة التيارات الإسلامية الفاعلة في مسارات الربيع العربي، وما يمكن أن تشكّله هذه التيارات من تهديد وجودي لأتباع الديانات الأخرى في البلدان العربية المعنية. والواقع أن العديد من التطورات الميدانية والممارسات المتطرفة في سوريا وليبيا والعراق، قد أعطت لهذا التبرير قدرًا من المصداقية، لكنه يبقى مبررًا عامًا ومناسبًا للتهرب من اتخاذ مواقف واضحة إلى جانب طموح شعوب المنطقة العربية في الحرية والكرامة. وشكل التوافق العام للمواقف البلقانية والأوروبية حول ضرورة الدعم الإنساني للمدنيين ضمانة معنوية للتعويض عن ضعف الالتزام السياسي. تجدر الإشارة هنا أن اليونان، وبسبب تجربتها مع التداعيات الإنسانية للنزاع في المناطق الكردية بالعراق

---

(١) أدى نشر هذا الخبر من طرف صحيفة نيويوك تايمز إلى إسراع زغرب في فيفري ٢٠١٣، بطلب عودة جنودها العاملين تحت علم الأمم المتحدة في الجولان؛ وذلك خوفًا من العمليات الانتقامية التي قد تصدر عن النظام السوري.

وتركيا، كانت دائما متخوفة جدًا من تدفق اللاجئين إلى أراضيها من مناطق النزاع في الشرق الأوسط، مثل العراق وسوريا، في حين ما زالت صربيا وبسبب تجربتها القريبة مع العقوبات حساسة جدًا تجاه هذه المسألة.

تتميز ألبانيا في السياسات الخارجية البلقانية بصفات خاصة، إذ إنها أبقـت دائمًا على علاقات محدودة مع العالم العربي ولا تستفيد (مثل صربيـا)

من العلاقات التقليدية التي تمّ ترتيبها على امتداد سنوات ضمن حركة عدم الانحياز، والأكثر من ذلك أنها تمسكت دائمًا بمواقفها المؤيدة للكيان الصهيوني. وقد انعكس هذا الوضع بشكل واضح على علاقاتها بالعالم العربي لفترة طويلة، ويرز ذلك لفترة معينة في عدم اعتراف البلدان العربية باستقلال كوسوفو وفشل المساعي الألبانية (المدعومة من تركيا) في تجنيد التضامن الإسلامي إلى جانبها. ولذلك اعتبر الربيع العربي بمثابة فرصة تاريخية أمام ألبانيا وكوسوفو للحصول على تأييد العالم الإسلامي. والواقع أن اعتراف مصر بدولة كوسوفو في جوان ٢٠١٣ جاء ليؤكد هذا التحليل، خاصة وأن نظام مبارك كان رافضًا تمامًا لأي اعتراف بالكيان السياسي الجديد.

شجع هذا التغير في الموقف المصري سلطات ألبانيا وكوسوفو على الاهتمام أكثر بالتطورات الجارية، واتخاذ مواقف مؤيدة صراحة للمبادرات الغربية والأممية تجاه ليبيا وسوريا، وهذا عكس العديد من البلدان البلقانية التي حافظت على مواقف محتشمة تجاه مراحل الربيع العربي ومخرجاته السياسية.

البلدان العربية-الخليجية: فاعلون جدد وشراكات واعدة شهدت العلاقات العربية- البلقانية تطورًا إيجابيًا ونوعيًا في السنوات الأخيرة بالتأسيس لعلاقات واعدة مع دول مجلس التعاون الخليجي، بعدما كانت محصورة نوعًا ما في الدول العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط. ويؤكد الاعتراف الجماعي لبلدان مجلس التعاون بكوسوفو دولة مستقلة، والشروع في توثيق العلاقات مع ألبانيا على هذا التوجه[1] القائم على تلاقي مصالح الطرفين حول العديد من القضايا.

---

(١) بالإضافة إلى اعتراف دول مجلس التعاون، قررت كل من مصر واليمن والأردن الاعتراف بدولة كوسوفو.

لكن مهما كانت أشكال التضامن السياسي بارزة حول جمهورية كوسوفو الفتية، فإن الحوافز العميقة لهذا التقارب تتضمن تطلعات اقتصادية واعدة تتمحور حول قطاعات إستراتيجية أهمها: الطاقة والاستثمارات المالية.

١- رهانات الطاقة:

دخلت قضايا الطاقة بقوة في العلاقات الخليجية-البلقانية. وفي هذا السياق، قفزت العلاقات مع ألبانيا من مجرد التواجد الرمزي بمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، إلى الشروع في جلب الاستثمار السعودي وإنجاز منشآت قاعدية وطاقوية مهمة. كما بادرت قطر إلى فتح سفارة لها بتيرانا. وبالنظر إلى مكانتها العالمية في سوق الغاز، تطمح هذه الأخيرة إلى المساهمة الفاعلة في رسم خريطة الاستثمارات الطاقوية في البلقان. ومما لا شك فيه، أن ترسيم خط النفط «نابيكو»[١] من أذربيجان إلى أوروبا الغربية عبر دول البلقان، قد شجع كثيرًا دولة قطر على دعم استثماراتها في ميدان الطاقة في عدة دول بالمنطقة. ويأتي هذا المشروع العملاق كمنافس كبير للمشروع الروسي السالف الذكر: الخط الجنوبي (ساوث ستريم).

من جهتها، تطمح الدول البلقانية أيضًا إلى الاستفادة من قدراتها في ميادين الطاقة المتجددة (المائية والشمسية)، حيث كثفت من تواجدها بالقمة السنوية لطاقات المستقبل بدبي، كما تقدم حوافز جمة للشركات الخليجية، وفي مقدمتها الوكالة الدولية للطاقات المتجددة بالإمارات[٢].

٢- الاستثمارات:

امتدت العلاقات الاقتصادية الخليجية-البلقانية خارج ميدان الطاقة، وشهدت توسعًا إلى العديد من الميادين ذات الأهمية الحيوية، مثل الإعلام والبنوك والطيران والموانئ الخ.

---

(١) يمتد أنبوب نابيكو (Nabucco) من حوض بحر قزوين (أذربيجان وإيران) إلى أوروبا الغربية، مرورا بجورجيا وتركيا وبلغاريا ورومانيا وهنغاريا والنمسا أي يتفرع نحو تشيكيا وألمانيا وبلدان غربية أخرى.

(٢) الوكالة الدولية للطاقات المتجددة (IRENA).

فقد عملت قطر على تأسيس بنك الاستثمار وشراء المطار القديم بأثينا. وطورت علاقات جيدة مع ألبانيا ومقدونيا بهدف إنجاز العديد من المشاريع أولها المشاركة في رأسمال شركة إنتاج الكهرباء بمقدونيا.

لكن ما يميز التحرك الاستثماري القطري في المنطقة هو دخول قطاع الإعلام بإنشاء قناة «الجزيرة- بلقان». فقد شكل افتتاح القناة في يناير ٢٠١١ نقلة نوعية كبيرة في خريطة الاستثمارات العربية بالمنطقة البلقانية، تؤشر لحدوث انعكاسات إيجابية على مستوى العلاقات السياسية والمعنوية بين شعوب البلقان أولًا، وبينها وبين العرب ثانيًا، نذكر منها ما يلي:

قناة عابرة للحدود والقوميات: اختارت القناة المدينة- الرمز سراييفو مقرًا لها، وشرعت قناة الجزيرة – تركيا في الإرسال باللغة التركية في اتجاه المناطق الناطقة بها، وقناة الجزيرة- بلقان باللغة المشتركة لمجموع دول يوغوسلافيا سابقا (اللغة الصربية-الكرواتية- البوسنوية). وبذلك فهي تراهن على حوالى ٣٠ مليون مشاهد من شعوب البلقان وجالياتها في أوروبا، خاصة من شعوب الاتحاد اليوغوسلافي سابقًا، كما إنها تطمح إلى التموقع كأداة تواصل إخبارية عابرة للحدود. وكما يقول مدير التحرير غوران ميلتيش: «نحن نراهن على المقاربة الجهوية التي تمّ التخلي عنها منذ مطلع ١٩٩٠ بسبب الحرب والأحقاد التي تولدت عنها. والآن أصبح العديد من سكان المنطقة يتطلعون إلى معرفة ما يجري من أحداث وتطورات خلف الحدود المجاورة». ويضيف قائلًا: «إن قناة الجزيرة- بلقان هي الوحيدة المؤهلة للقيام بهذا الدور ومقارنة المعلومة والأحداث من بلد بلقاني إلى آخر»[١].

قناة احترافية مستقلة: تطمح القناة إلى حيازة مكانة متميزة في المشهد الإعلامي بالمنطقة، «فالاستقلالية المالية والاحترافية والسمعة العالمية لمؤسسة

---

(١) تصريح لرئيس تحرير قناة: الجزيرة- البلقان نقلا عن وكالة الأنباء الفرنسية، انظر: http://lexpansion.lexpress.fr/actualites/1/actualite-economique/al-jazira-balkans-commencera-a-diffuser-son-programme-en-septembre_973429.html. Par AFP, publié le 17 / 03 / 2011 à 16:25

الجزيرة»، كما يقول ماركو بافلوفيتش المعلق الاقتصادي بالقناة، «كلها عوامل لها صدى إيجابي عند المشاهد في المنطقة... ومجرد الظهور على استوديو الجزيرة يعطي مكانة خاصة لضيف الحلقة... وهذا ما يميز القناة».

ويؤكد السيد بوركا ريديس[1] على مسألة الاستقلالية قائلًا: «إن القنوات المتواجدة بالمنطقة مرتبطة بشكل أو بآخر بجهات سياسية مثل الأحزاب أو مراكز نفوذ تمارس ضغوطًا دائمة وقوية على الصحفيين»[2].

قناة «فيدرالية» جامعة: انطلقت القناة بإستراتيجية احترام التعدد والتأكيد على ما يجمع سكان المنطقة، فهي تضم هيئة تحرير متعددة الأعراق والثقافات ومراسلين منتشرين عبر أنحاء البلقان، ويتمحور هدفها، حسب تصريح الشيخ أحمد بن جاسم آل ثاني مدير الشبكة في نوفمبر ٢٠١١، على إعادة التواصل وبناء النسيج الاجتماعي بين أعداء الأمس؛ «لأننا نريد أن تكون الجزيرة- بلقان منبرًا حقيقيًا مفتوحًا للحوار والنقاش الحر لجميع سكان المنطقة»[3]. كما أكّد على أن القناة الجديدة لن تكون منحازة لأي طرف، بل هي «لكل الأفكار والأديان والمذاهب، وتطمح إلى مد جسور الحوار والتفاهم ما بين مكونات العالم العربي والبلقان»[4].

والواقع أنه رغم العوامل الإيجابية السالفة الذكر، يبقى الاستثمار الإعلامي للجزيرة يواجه تحديات عديدة، أهمها ضرورة نجاح القناة في إبعاد الصفة الدينية (قناة إسلامية) عنها، حيث تتهمها بعض الأوساط الصربية والكرواتية بخدمة المشروع الديني الإسلامي في المنطقة، ويربطون ذلك باختيار مدينة

---

(١) الأمين العام لجمعية الصحفيين في البوسنة والهرسك.

(٢) انظر تصريح رئيس تحرير القناة غوران ميليتش (Goran Milic) على الموقع:
http://www.slate.fr/story/62153/al-jazeera-balkans

(٣) انظر نفس المرجع السابق نفسه:
http://www.slate.fr/story/62153/al-jazeera-balkans.

(٤) نقلا عن تقرير الدكتور محمد م. الأرناؤوط بعنوان: ورشة الدوحة عن منطقة البلقان: الواقع والتحديات. انظر:
http://www.almustaqbal.com/v4/Article.aspx?Type=np&Articleid=453405

سرايفو[1] كمقر لها، وقيام الدول والتنظيمات الخيرية الخليجية في السنوات الأخيرة بتمويل بناء المساجد وترميمها.

من جهتها، بادرت الإمارات العربية المتحدة إلى توسيع نشاطها الاستثماري، باليونان بشراء الشركة الوطنية اليونانية للطيران (Olymic Airways)، والدخول إلى الساحة المالية للبلد عبر المجموعة البنكية القبرصية «مارفن». والأهم من ذلك الحصول على الاستثمار الضخم الذي حققته «مجموعة أبو دبي مار» بشراء الورشات البحرية في «سكارامونجا». وتراهن صربيا كثيرًا على الإمارات العربية المتحدة في تطوير العديد من المشاريع التي تمتد إلى قطاعات اقتصادية حيوية عديدة، حيث وصفها وزير الدفاع الصربي فوفيتش قائلا: «اتفقت صربيا والإمارات العربية المتحدة على عقود واستثمارات هي أفضل ما حققناه على الإطلاق حتى الآن في العلاقات الثنائية مع دولة أخرى»[2]. ولتأطير ذلك سياسيًا، توصل البلدان إلى توقيع شراكة إستراتيجية تتضمن على الخصوص:

- حذف التأشيرة بين البلدين لحاملي جوازات السفر الدبلوماسية والرسمية وتبادل البعثات الدبلوماسية والقنصلية.

- موافقة الإمارات على تقديم دعم استثماري ضخم في ميدان صناعة الأسلحة، يهدف إلى تطوير وإنتاج الصواريخ، ووصفت الصفقة على أنها أكبر عقد وقعته صربيا مع دولة أخرى منذ قيامها على أنقاض الاتحاد اليوغوسلافي. وتم إبرام العقد بين الشركة الصربية العمومية للأسلحة «يوغوامبورت» (Yugoimport SDPR) وبين الشركة الإماراتية القابضة للبحوث المتقدمة والتكنولوجيا. وتتعلق الصفقة بالاستثمار في النظام الصاروخي الصربي (ALAS)، وهو نظام متعدد الأغراض مضاد للدروع بفعالية تصل إلى ٦٠ كلم قادر على تدمير

(١) اشتهرت المدينة تاريخيًا بتعدد الأعراق والديانات ويسكنها حاليًا ٤٩ بالمائة من المسلمين و٣٠ بالمائة من الصرب وعدد من الهويات الدينية والعرقية.

(٢) نقلًا عن وكالة الأنباء بيتا انظر: صربيا تتوقع استثمارات بمئات الملايين من الدولارات:
http://ara.reuters.com/article/businessNews/idARACAE9B232D20130111

كل نماذج الدبابات في العالم. وبالنظر إلى محتوى الصفقة وحجمها، فقد أثارت جدلًا واسعًا حيث ذهبت بعض التحليلات إلى إعطائها أبعادًا جيو-إستراتيجية أهمها مقاومة النفوذ التركي والروسي في المنطقة[١].

- قيام شركة طيران الاتحاد الإماراتية بشراء ٤٩ بالمائة من شركة الطيران الصربية (JAT). وبهذا الاستثمار المتميز تأسست شركة طيران جديدة (الخطوط الجوية الصربية Air serbia) على أساس تكفل الطرف الإماراتي بالتخطيط والتسيير والتكوين الخ[٢]. وتطمح الشركة الجديدة إلى احتلال مكانة رائدة على مستوى منطقة تضم ١٠٠ مليون نسمة.

- دعم الاقتصاد الصربي بقرض ميسر يبلغ مليار دولار، علق عليه وزير الخارجية الصربي قائلا: «إن صربيا ترى في الإمارات العربية المتحدة صديقًا وشريكًا مهمًا... وإن القرض المقدم لنا سيساهم بدرجة كبيرة في دعم استقرار صربيا اقتصاديًا وماليًا»[٣].

- إنعاش القطاع السياحي بإنشاء مدينة سياحية في ضواحي العاصمة بلغراد، وصفت بأنها أكبر مشروع سياحي في منطقة البلقان[٤]، وتتضمن إنشاء

---

(١) أثارت الصفقة آنذاك زوبعة كبيرة من التعاليق والتحاليل انظر منها:
http://balkans.courriers.info/article21835.html
Blic. Serbie: accord de coopération et gros contrats en vue avec les Émirats arabes unis.
ميدل إيست آي» يكشف سر استثمارات الإمارات في صربيا لندن- عربي ٢١ السبت، ١٦ أغسطس ٢٠١٤م
http://arabi21.com/Story/769478

(٢) للمزيد من التفاصيل حول الشراكة الإماراتية الصربية في ميدان الطيران انظر:
http//:balkans.courriers.info/article25425.html Pescanik.net

(٣) لمزيد من التفاصيل حول القرض وأهدافه، انظر:
http://voiceofserbia.org/fr/content/la-signature-de-plusieurs-accords-entre-la-serbie-et-les-emirats-arabes-unis La signature de plusieurs accords entre la Serbie et les Emirats arabes unis Pet, 0316:40 - 2014/14/ -- MRS

(٤) انظر: صربيا.. الإمارات: إقامة مدينة سياحية في بلغراد:
http://www.alqabas.com.kw/node/845080

بحيرات صناعية ومسابح وفنادق راقية على جانبي نهر الدانوب الذي يمر بالعاصمة الصربية.

- يحتل الاستثمار الخليجي في الزراعة بدول البلقان حيزًا مهمًا من الروابط البينية المتنامية، ورغم أنه يشكل مثار جدل وانتقاد من بعض الأوساط السياسية والإعلامية في صربيا وسلوفينيا، إلا أنه يتطور بشكل ثابت(١).

وتعد الكويت من الدول الخليجية الحاضرة في الاستثمارات القاعدية بألبانيا، ولا سيما في ميدان شق الطرقات. كما إنها تتعاون مع كرواتيا وصربيا وسلوفينيا في تطوير سلاح الدبابات الذي حصلت منه الكويت على كميات معتبرة غداة انهيار يوغوسلافيا.

---

(١) انظر: صربيا تتوقع استثمارات إماراتية بمئات الملايين من الدولارات.
http://ara.reuters.com/article/businessNews/idARACAE9B232D20130111, Fri Jan 11, 2013 5:33pm GMT

كما يمكن العودة أيضًا إلى المرجع السابق:
Les investisseurs arabes à l'assaut de la Serbie: illusion ou réalité ? Published: 03 Sep 2013 , op cit.

خلاصة

تتضمن العلاقات العربية البلقانية المعاصرة محاور عديدة، يمكن حصرها في السياسة والطاقة والاستثمارات الاقتصادية. وعلى غرار الشراكات الناشئة بين دول البلقان والعديد من البلدان ذات الاقتصاديات النشطة، فإنها تعكس تراجعًا واضحًا للقضايا السياسية الكبرى، التي هيكلت السياسة الخارجية لبلدان المنطقتين: العربية والبلقانية. والواقع أنه في ظل مناخ دولي يتسم بزوال القطبية الثنائية، ومخلفات الحروب المؤلمة بين مكونات يوغوسلافيا (السابقة)، تبين جليًا أن محاولات إحياء أشكال التضامن التقليدية غير ناجحة، سواء ما يتعلق منها بإطار عدم الانحياز أو منظمة المؤتمر الإسلامي. وبرز هذا التحول بوضوح في التطور السريع للموقف البلقاني من ثورات الربيع العربي، فقد كان متأثرا جدًا بالعلاقات التقليدية مع العديد من رموز الأنظمة العربية في مصر وليبيا وسوريا... الخ، لكن هذا التردد سرعان ما تطور إيجابيًا تحت ضغط المجموعة الأوروبية إلى موقف مؤيد لمطالب الانتفاضات الشعبية العربية، وانعكس هذا التطور واضحًا في أشكال من المشاركة في العمليات العسكرية ضد قوات القذافي في ليبيا، وفي إعادة صياغة المواقف السياسية من الصراع المسلح في سوريا في اتجاه تأييد قوى المعارضة المعتدلة.

وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى تحديات جدية تواجه مستقبل العلاقات بين المنطقتين أهمها:

- استمرار المكانة المهمة للاتحاد الأوروبي و«الناتو» كشركاء متميزين بالمنطقة البلقانية.
- تتسم بعض الاستثمارات بالطابع التنافسي بين الدول الخليجية ذاتها، مما قد يؤثر سلبًا على تطورها العام في المنطقة.
- إن هذه الشراكات وبالرغم من حجمها وطموحها الكبير، إلا أنها تتعامل مع بيئة سياسية هشة نوعًا ما، فالأنظمة البلقانية جديدة وما زالت تعاني عدم الاستقرار وضعف المؤسسات، وبمعنى آخر فإنها مرتبطة في الغالب بعلاقات شخصية؛ مما يجعل هذه الاستثمارات غير آمنة.

لكن الملاحظ أن الأزمة المالية التي يعيشها الاتحاد الأوروبي، وما تتسم به العلاقات البلقانية مع القوى الأخرى من تعقيدات سياسية، كلها عوامل مشجعة على بناء شراكات اقتصادية خليجية- بلقانية متينة. ومن مؤشرات هذا التوجه، أن بعض الاستثمارات العربية في البلقان تتميز بالنوعية وبالأهمية الكبرى للاقتصاديات المحلية. فالاستثمار في ميادين حيوية مثل الطاقة والتسلح مهم جدًا، كما يشكّل الاستثمار القطري في ميدان الإعلام نقلة نوعية ذات أبعاد معنوية وسياسية وثقافية مهمة، بالنظر لمكانة الإعلام ودوره الحاسم في التعريف الإيجابي بين شعوب المنطقتين. وقد تصنع المؤسسات الخليجية الكبرى المستثمرة في المنطقة صورة إيجابية، تعبّر عن نجاح المؤسسة الاقتصادية العربية. وبذلك يؤسس الاستثمار الخليجي في قطاعات حيوية مثل الطاقة والطيران لشراكات مفتوحة للمدى الطويل.

بناءً على هذه المعطيات، يمكن القول بوجود مؤشرات عديدة تنذر بتبلور علاقات خليجية -بلقانية مستقرة سياسيًا وواعدة اقتصاديًا. ويرجع ذلك إلى تلاقي مصالح الطرفين، خاصة في ما يتعلق منها بجلب الاستثمارات الخليجية. بالإضافة إلى مجموعة عوامل مساعدة أهمها: الأزمة المالية العميقة التي تجتاح منطقة «اليورو»، وانعكاساتها السلبية على الاقتصاديات الهشة لدول البلقان، وبالتالي حاجتها الماسة إلى الاستثمارات المالية الخليجية، هذا بالإضافة طبعًا إلى غياب الرواسب التاريخية المؤلمة بين شعوب المنطقتين.

أخيرًا تجدر الإشارة إلى ضرورة مبادرة الطرف العربي والخليجي على الخصوص إلى اقتراح أطر مؤسساتية وهياكل دائمة تجمع الطرفين[1]، وتشكل فضاءات للتواصل على جميع المستويات ولطرح الاهتمامات والتعريف بالفرص الاقتصادية المتاحة.

---

(١) على غرار اتفاق التعاون الذي وقعته دول مجلس التعاون مع الاتحاد الأوروبي سنة ١٩٨٨.

العلاقات الخليجية الكوسوفية
في القرن الحادي والعشرين:
رؤية مستقبلية

أحمد محمد طاهر[1]

تمهيد في إطار ما يشهده النظام العالمي من تحولات عدة على الأصعدة كافة مع بدء القرن الحادي والعشرين، خاصة وأن بداياته شهدت عودة جديدة لسياسات الاستعمار الأجنبي، التي ميّزت القرنين الثامن والتاسع عشر، وذلك باحتلال أفغانستان (٢٠٠١) ثم العراق (٢٠٠٣)، تحت شعار «محاربة الإرهاب» في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. على الجانب الآخر، شهدت بدايات القرن أيضًا تفكّك العديد من الدول، وحصول بعض أجزائها على استقلالها، ولعل ما جرى في منطقة البلقان يمثّل نموذجًا جليًا لهذا الأمر، وإن كانت هذه الأحداث ترجع في بدايتها إلى نهاية القرن العشرين مع انهيار المنظومة الاشتراكية.

ومن دون الدخول في تفاصيل بشأن ما يشهده العالم من تغيرات وتحولات ما زالت تبعاتها قائمة ومستمرّة حتى اليوم، على غرار ما يجري في المنطقة العربية من انقسامات، ليس فقط مع ما سمي بالربيع العربي، بل ربما قبله كما حدث في السودان، وإنما أيضًا ما ترتّب على هذا الربيع من تغيرات عدة ما زالت نتائجها لم تتضح بعد، وإن حدثت بعض التراجعات والانتكاسات على غرار ما يجري اليوم في ليبيا وسوريا واليمن وما يتعرض له العراق. كما لم

(١) باحث مصري في الشؤون الدولية، القاهرة.

يقتصر الأمر على العالم العربي فحسب، بل ما جرى في أوكرانيا بانفصال شبة جزيرة القرم وانضمامها إلى روسيا، وما قد يستتبعه من انفصال لأجزاء أخرى في الشرق على غرار ذلك. كل هذا يؤكد على أن ثمة قراءة جديدة غير متوقعة ينتظرها العالم بصفة عامة، والمناطق ذات الأهمية الاستراتيجية والحيوية على وجه الخصوص.

وفي هذا المضمار، تبرز منطقتا الخليج العربي والبلقان كونهما من المناطق ذات الأهمية الحيوية والجيواستراتيجية، فضلًا عن أهميتهما الاقتصادية، ليشهدا تحولات غير منظورة في الأجل القريب؛ بسبب سياسات القوى الكبرى والفاعلة في النظام الدولي الجديد الذي يمر بمرحلة سيولة لم تتحدد ملامحها بعد.

وفي إطار علاقات التاريخ الممتدة بين المنطقتين، تبرز الحاجة الماسة اليوم إلى محاولة قراءة هذا التاريخ، للاستفادة من حقائقه وأحداثه بهدف استقراء الحاضر واستخلاص دلالاته لبناء المستقبل وطموحاته.

وغني عن القول إن العلاقات الخليجية البلقانية مرت بمراحل عدة، بعضها شهد تقاربًا بين الطرفين وبعضها الآخر شهد تباعدًا. ومن دون الدخول في تاريخية هذه العلاقات والمحطات التي مرت بها صعودًا وهبوطًا، تتناول هذه الدراسة العلاقات الخليجية مع دول منطقة البلقان مع بدايات القرن الحادي والعشرين، من خلال تناول علاقات دول مجلس التعاون الخليجي مع إحدى هذه الدول، وهي تحديدًا كوسوفا، لأنه من الصعوبة بمكان أن تتناول الدراسة علاقات كل دول مجلس التعاون الخليجي مع دول منطقة البلقان، بعد تفككها مع انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك المنظومة الاشتراكية، والتي كانت منطقة البلقان واقعة في إطارها، حيث دخلت هذه المنطقة القرن الحادي والعشرين وهي دول مستقلة.

ومن ثم، تتناول هذه الدراسة العلاقات الخليجية مع إحدى دول منطقة البلقان، وهي دولة كوسوفا كآخر دولة بلقانية تحصل على استقلالها وذلك عام ٢٠٠٨.

ونظرًا لدور دول مجلس التعاون الخليجي في دعم كوسوفا للحصول على استقلالها عام ٢٠٠٨، واستمر هذا الدور من خلال تقديم الكثير من المساعدات إلى الشعب الكوسوفى لإعادة بناء دولته، فالسؤال الذي تطرحه يتمثل في ما يلى: ما هو مستقبل العلاقات الخليجية الكوسوفية؟ ويرتبط بهذا التساؤل مجموعة من التساؤلات الفرعية، منها: ما هو دور دول مجلس التعاون الخليجي في استقلال كوسوفا؟ إلى أي مدى يمكن أن يكون لعلاقات الطرفين رغم صغر مساحة الدولة الكوسوفية، دور في رسم ملامح النظام الدولي في ضوء الأهمية الاستراتيجية والحيوية التي يشغلها الطرفان؟ إلى أي مدى يمكن أن تمثّل كوسوفا بوابة لتعميق العلاقات الخليجية البلقانية.

استقلال كوسوفا

ظلت كوسوفا خاضعة للحكم العثماني طيلة خمسة قرون، منذ أن فتحها السلطان العثماني مراد الأول عام ١٣٨٩ حتى هزيمة الدولة العثمانية في الحرب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣م[1]. ومع مؤتمر لندن ١٩١٢-١٩١٣م، آل الإقليم رسميًا في نهاية المطاف إلى صربيا وأصبح جزءًا منها.

وأثناء الحرب العالمية الثانية، ضُمّت كوسوفا إلى ألبانيا التي كانت خاضعة بدورها لإيطاليا، لتنتهي الحرب بضم إقليم كوسوفا إلى يوغسلافيا الاتحادية عام ١٩٤٥. ولم يدم الأمر طويلًا حيث حصلت كوسوفا في عهد

(١) يذكر أن الحكم العثماني تمكن في جزيرة البلقان بصورة نهائية بعد معركة كوسوفا الشهيرة، التي قاد فيها السلطان العثماني مراد الأول الجيش الإسلامي بنفسه، وقبيل انتصار الجيش الإسلامي استشهد السلطان مراد وتسلم القيادة السلطان بايزيد الذي انتصر على الجيوش المتحالفة الأوروبية، وقتل الملك لازار الصربي وذلك سنة ١٣٨٩م-٩٣٨هـ. فبعد هذه المعركة الحاسمة خضعت كوسوفو وصربيا للحكم العثماني ما عدا مدينة بلغراد، فإنها فتحت في عهد السلطان سليمان القانوني وذلك في ٢٦ من شهر رمضان المبارك سنة ١٥٢١م- ٩٣٨هـ. للمزيد انظر:
http://islamstory.com/ar/%D8%A3%D8%B5%D984%_%D988%%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D98%A%D8%AE_%D983%%D988%%D8%B3%D988%%D98%1%D8%A7_%D985%%D984%%D981%_%D983%%D988%%D8%B3%D988%%D981%%D8%A7

الرئيس اليوغسلافي جوزيف بروز تيتو على الحكم الذاتي، ضمن إطار اتحاد الجمهورية اليوغسلافية وذلك بمقتضى دستور ١٩٧٤. واستقرت الأوضاع على هذا النحو حتى أواخر الثمانينيات وتحديدًا عام ١٩٨٩ عندما ألغى ميلوسيفيتش الحكم الذاتي الذي كان يتمتع به الإقليم.

وقد ردّ ألبان كوسوفا على إلغاء الحكم الذاتي بإجراء استفتاء حول استقلال الإقليم في سبتمبر عام ١٩٩١، حيث صوّت كل الألبان تقريبًا لصالح الاستقلال، وترتب على هذه النتائج إجراء انتخابات رئاسية، وصل فيها إبراهيم روجوفا -الأكاديمي السابق في جامعة برشتينا- إلى سدة الحكم، ممهدًا الطريق أمام حلم الألبان الكوسوفيين بالاستقلال بطريق التفاوض السلمي وعبر القنوات الدبلوماسية[1]. إلا أن صربيا وقفت ضد هذا المسار بالقوة العسكرية، فتشكلت مليشيات أطلقت على نفسها تسمية «جيش تحرير كوسوفا»، تكوّنت أساسًا من مجاميع من الشباب الكوسوفيين ذوي الأصول الألبانية.

وشرع هؤلاء في خوض حرب عصابات ضد القوات المسلحة الصربية، التي تكثف وجودها في الإقليم خلال عام ١٩٩٨ و١٩٩٩، وقد ردّت صربيا بحملات قمع شديدة في المناطق التي تعتقد أن مليشيا «جيش تحرير كوسوفا» كان ينطلق منها.

وتدخلت الولايات المتحدة وأوروبا في هذا الصراع لصالح الكوسوفيين الألبان، بعد إخفاق جهود الوساطة السلمية رغم ما طرح من مبادرات عدة في هذا الخصوص[2]، وكان آخرها مفاوضات رامبوييه بفرنسا في فبراير ١٩٩٩، حيث وافق الطرف الألباني على الخطة الدولية لإحلال السلام في كوسوفا، التي كان من أفكارها الرئيسة وضع كوسوفا لفترة من الوقت تحت إدارة الأمم المتحدة، لكن الصرب رفضوا الخطة.

---

(١) إبراهيم قاعود، كوسوفا..استقلال تحت حماية الغرب، مجلة آخر ساعة، دار المعارف، مصر، ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٨، ص ٢٢.

(٢) الكس جورج، أدرين سفرين، نزع بلقنة منطقة البلقان: استراتيجية سلام دائم في كوسوفا، ترجمة مكي على محمد، قراءات استراتيجية، العدد الأول، يناير ٢٠٠٨، ص١١- ١٩.

وفي صباح الرابع والعشرين من مارس عام ١٩٩٩، شن سلاح الجو التابع لحلف الأطلسي، وبدرجة رئيسة للقوات الجوية الأمريكية، حملة جوية ضد القوات الصربية لإرغامها على الانسحاب من كوسوفا، وبعد ٧٨ يومًا من الغارات المتواصلة وتحديدًا في ٩ يونيو، نجحت قوات الناتو البرية دخول كوسوفا وإجبار الصرب على الانسحاب[١]، وقد تبعه إصدار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار رقم (١٢٤٤)، الذي أقرّ منح كوسوفا حكمًا ذاتيًا موسعًا تحت إشراف الإدارة المدنية الدولية المؤقتة بإشراف الأمم المتحدة، مدعومة بقوة تابعة لحلف الناتو قوامها نحو ٥٠ ألف جندي[٢].

وفي عام ٢٠٠٦، أجرى المبعوث الخاص للأمـين العام إلى كوسوفا، الرئيس الفنلندي السابق مارتي أهتساري، مفاوضات بشأن مستقبل الدولة، إلا أن حكومتي الأغلبية من أصل ألباني في كوسوفا وصربيا ظلتا على خلاف تام. وقد رفضت صربيا اقتراح التسوية الشاملة الذي قدمه المبعوث لاستقلال كوسوفا تحت إشراف دولي، وواجه انقسامات شديدة في مجلس الأمن.

---

(١) يذكر أن ثمن هذا التحرر كان غاليًا، فوفقًا لإحصائيات لجنة حقوق الإنسان الكوسوفية، فإنه قد تم:
- قتل أكثر من ١٢ ألف ألباني (العدد كل فترة يتزايد باكتشاف المزيد من المقابر الجماعية).
- تدمير وأحراق ١٢٨ ألف منزل.
- فقدان حوالى ٣٢٠٠ ألباني.
- اغتصاب أكثر من ٣ آلاف فتاة وسيدة.
- تعذيب عشرات الآلاف في معسكرات جماعية. للمزيد انظر: محمد عبد العاطي، مرجع سابق، ص ٣.

(٢) حيدر البطاط، كوسوفا: التاريخ والجغرافيا والاستقلال، بي بي سي، ١٦/ ٢/ ٢٠٠٨.
http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/world_news/newsid_72490007249070/.stm
ويذكر أنه وفقًا للقرار الأممي، فقد تشكلت قوى دولية تعرف باسم «كيفور» مؤلفة من خمسين ألف جندي ينتمون إلى ٣٩ دولة، ويتوزعون على خمس مناطق تتولى قيادتها خمس دول، هي: الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا. وتتلخص مهامها في ما يلي: ضمان الأمن، مراقبة الحدود، تسهيل عمليات الإغاثة الإنسانية. كما تشكلت إدارة مدنية تتولاها هيئة متخصصة تعرف باسم «أونميك» يترأسها ممثل عن الأمم المتحدة، يعد هو الحاكم الفعلي للإقليم، وتنقسم هذه الإدارة إلى أربعة فروع: الأمن، المساعدات الإنسانية، بناء المؤسسات وترسيخ الديمقراطية، الاقتصاد. للمزيد انظر: كوسوفا: الطريق نحو تقرير المصير، ص٤.

وكانت الدول الغربية قد تقدّمت في الحادي عشر من مايو ٢٠٠٧ بمشروع قرار إلى مجلس الأمن الدولي، يقرّ بحقّ إقليم كوسوفا في الاستقلال، وجدّد المشروع تأكيد «التزام المجلس تجاه كوسوفا ديمقراطية ومتعددة الأعراق». كما أقرّ فكرة تعيين مندوب مدني يمثل الاتحاد الأوروبي، ويكون مكلفًا بمراقبة تطبيع الأوضاع. وأشار مشروع القرار إلى «الظروف المحددة التي تجعل من كوسوفا حالة خاصة، خصوصًا الإطار التاريخي لتفكك يوغوسلافيا بشكل عنيف وغير ودي».

وفي أغسطس ٢٠٠٧، رحب الأمين العام للأمم المتحدة «بان كي مون» بالاتفاق على تشكيل مجموعة ثلاثية تتألف من الاتحاد الأوروبي والاتحاد الروسي والولايات المتحدة، تتولى زمام إجراء المزيد من المفاوضات بشأن مركز كوسوفا في المستقبل، إلا أن الأطراف المعنية لم تتمكن من التوصل إلى اتفاق في هذا الشأن.

وفي العاشر من ديسمبر ٢٠٠٧، انتهت المفاوضات طويلة الأمد التي جرت بين صربيا وكوسوفا، الأمر الذي دفع بقادة الإقليم نحو سلسلة من التحركات الدبلوماسية على طريق إعلان الاستقلال، وقرر المشرف الدولي على محادثات الوضع النهائي لكوسوفا «مارتي أهتيساري»، عدم إمكانية التوصل إلى اتفاق بين الأطراف المعنية، وأنه لا بديل عن استقلال الإقليم. وقبيل إعلان كوسوفا استقلالها، عزّز الناتو قواته العاملة في الإقليم، ونشر كتيبة من ٥٦٠ جنديًا إيطاليًا لتلحق بـ ١٦ ألف جندي للحلف في الإقليم[1].

وبعد ٩ سنوات من خضوعها لإدارة الأمم المتحدة، أعلنت كوسوفا استقلالها من جانب واحد في ١٧ فبراير ٢٠٠٨، حيث سبقه بيوم وتحديدًا في

---

(١) د.عبد الله صالح، الخروج الآمن: تحديات استكمال السيادة في كوسوفو:
http://www.siyassa.org.eg/NewsContent/22723/100//%D8%AA%D8%AD%D984%%D98%A%D984%%D8%A7%D8%AA/%D8%B4%D8%A6%D988%%D986%%D8%AF%D988%%D984%%D98%A%D8%A9/%D8%A7%D984%%D8%AE%D8%B1%D988%%D8%AC%D8%A7%D984%%D8%A2%D985%%D986%%E280%%AE%E280%%AC.aspx

١٦ فبراير ٢٠٠٨، أن أعطى هاشم ثاتشي، رئيس وزراء كوسوفا، إشارة واضحة بأن كوسوفا ستستقل عن صربيا في اليوم التالي، وهو اليوم الذي وافق فيه البرلمان على الاستقلال، حيث جاء إقرار البرلمان للقرار بإجماع الحاضرين وعددهم ١٠٩ من النواب، الذين حضروا الجلسة التي غاب عنها نواب الأقليات وعلى رأسهم النواب الصرب (وعددهم ١١ نائبًا)(١).

وقد تضمّنت أهم بنود إعلان الاستقلال ما يلي:

- كوسوفا دولة ديمقراطية أوروبية.
- الالتزام بسياسات حسن الجوار.
- لا توجد مشاريع توسعية.
- كافة الأقليات ستحظى بالحماية.
- تأمين عضوية كوسوفا بالاتحاد الأوروبي.

وغني عن القول إن وجود معارضة من جانب البعض لاستقلال كوسوفا، كما هو الحال في مواقف بعض البلدان وعلى رأسها صربيا التي تتمتع بمساندة روسية واسعة النطاق، إضافة إلى دول أخرى عديدة، مثل جورجيا والصين وأسبانيا، التي رفضت الاعتراف خشية أن يشجع الإجراء الحركات الانفصالية على أراضيها للمطالبة بالاستقلال. ولم تعد هذه المعارضة تتفق مع الرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية(٢)، الذي يؤكد بوضوح تام أن إعلان استقلال كوسوفا لا ينتهك القانون الدولي ولا القرار (١٢٤٤)، وكان من المفترض أن يضع رأي المحكمة حدًا للنقاش الذي استمر منذ إعلان الاستقلال(٣).

(1) http://www.marefa.org/index.php/%D983%%D988%%D8%B3%D988%%DA%A4%D988%

(٢) الصادر في ١٢ تموز/ يوليو ٢٠١٠.

(٣) بدرخان السندي، استقلال كوسوفا نقطة تحول تاريخي في قضايا الشعوب المضطهدة، ٧/ ٨/ ٢٠١٠:

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=224963

العلاقات الخليجية الكوسوفية ما قبل الاستقلال

لعبت دول مجلس التعاون الخليجي دورًا مهمًا ومحوريًا في دعم ومساندة قضية كوسوفا، سواء من خلال تقديم المساعدات المختلفة أو من خلال التواجد الفعلي على أراضي الدولة قبل استقلالها، كجزء من المساهمة في إعادة الأمن والاستقرار لبعض مناطقها، وهو الدور الذي امتد بصورة أكبر في مرحلة ما بعد الاستقلال، حيث تنوّعت صور الدعم والمساندة الخليجية للدولة الوليدة.

وفي ضوء استعراض العلاقات الخليجية الكوسوفية ما قبل الاستقلال، حيث يمكن القول إن العلاقات بينهما قد انحصرت في مجالين أساسيين، هما:

١- تقديم المساعدات المالية والعينية للشعب الكوسوفي

لم يشهد هذا المجال توسعًا كبيرًا خاصة في بداية الحرب نظرًا للموقف الدولي الذي لم يكن مساندًا للشعب الكوسوفي منذ البداية، وكذلك بسبب سياسات النظام الصربي المحتل وممارساته التي حالت دون وصول مثل هذه المساعدات، ولذا لم يسجل التاريخ سوى نماذج محدودة من حجم المساعدات الخليجية إلى الشعب الكوسوفي. ومن ذلك على سبيل المثال تقديم اللجنة الكويتية للإغاثة في عام ٢٠٠٠ مساعدات مالية للشعب الكوسوفي، بلغت نحو مليون و٣٢١ ألف دولار أمريكي، شملت شراء مدافئ لمواجهة البرد القارس، إضافة إلى أغذية وبطانيات وملابس وأحذية وحافلات لنقل اللاجئين، فضلًا عن إنشاء مركز صحي في المجمع السكني الكويتي لخدمة سكان المجمع والقرى القريبة التي تحيط به. كما قامت اللجنة بكفالة الأيتام وتسقيف المنازل التي تضررت في الحرب. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كان للجنة دور مهم في بناء عدد من المساجد، وصل حتى نهاية عام ٢٠٠٣ إلى (٣١) مسجدًا[١].

(١) وكالة الأنباء الكويتية، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٣ :

http://www.bna.bh/portal/news/10586.

كما قامت هيئة الهلال الأحمر الإماراتية بإنشاء عدد من المباني السكنية لإيواء الأسر الفقيرة التي تضرّرت بسبب الحرب، حيث افتتحت الهيئة في عام ٢٠٠٧ مبنى الإمارات السكني رقم (١) في مدينة «استوغ» ويتكوّن من أربعة طوابق تضم ٢٢ وحدة سكنية بتكلفة بلغت مليونًا و٨٣٥ ألف درهم إماراتي[١].

على الجانب الآخر، حرص المسؤولون الكوسوفيون على القيام بزيارات مستمرة إلى دول مجلس التعاون الخليجي، للحصول على المساعدات التي تستهدف إنقاذ حياة الشعب الكوسوفي، منها قيام وزير الصحة الكوسوفي بزيارة إلى المملكة العربية السعودية في ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٢، التقى خلالها الأمير سلطان ابن عبد العزيز آل سعود، النائب الثاني لمجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، تمّ خلالها الاتفاق على أن تتكفل المملكة بإنشاء مركز الأمير سلطان لجراحة المناظير في بريشتينا لمدة خمس سنوات مقبلة وتأمين جميع متطلباته[٢]، وهو ما تمّ خلال عام ٢٠٠٣، حيث تمّ إنشاء المركز وضمّ داخله كادرًا طبيًا متخصصًا[٣].

وفي الإطار ذاته، قام رئيس المشيخة الإسلامية الكوسوفية المفتي نعيم ترنافا بزيارة إلى الكويت في ١٣ ديسمبر ٢٠٠٣، طالب خلالها المستثمرين الكويتيين لزيارة كوسوفا للتعرّف عن قرب على مجالات الاستثمار التي تزخر بها بلاده؛ وذلك بهدف دعم إعادة بناء اقتصادها المنهار نتيجة للحرب خاصة في ظلّ ما تتمتع به بلاده من ثروات طبيعية مختلفة وأيدٍ عاملة رخيصة[٤].

---

(١) وكالة أنباء الإمارات (وام)، ١٩/ ١٠/ ٢٠١٠:

http://www.wam.ae/ar/news/emirates-international/1395240904075.html.

(٢) د.شبكشي: المملكة على استعداد تام لتقديم ما يحتاجه الشعب الكوسوفي من مساعدات طبية، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٢:

http://www.alriyadh.com/Contents/25002-09-/Mainpage/LOCA L 1_17 77. php

(٣) مركز الأمير سلطان لجراحة المناظير في كوسوفا يجري عمليات جراحية، ٢٠/ ١/ ٢٠٠٣:
http://www.bna.bh/portal/news/154.

(٤) رئيس المشيخة الإسلامية في كوسوفا يشيد بدور الكويت المميز في إعادة إعمار كوسوفا، ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٣.

http://www.kuna.net.kw/ArticleDetails.aspx?language=ar&id=1389441.

كما قام نائب رئيس وزراء كوسوفا آدم صالحي بزيارة دولة الإمارات العربية المتحدة في ٢٦ فبراير ٢٠٠٦، التقى خلالها الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء الإماراتي، تمّ خلالها بحث إمكانية فتح مكتب تجاري كوسوفي في الإمارات؛ بهدف تعزيز مجالات التبادل التجاري والاقتصادي بين البلدين، فضلا عن تقديم الإمارات للخدمات الصحية والعلاجية لعدد من المرضى الكوسوفيين[١].

٢-مشاركة بعض دول الخليج في قوات حفظ السلام في كوسوفا

شاركت دولة الإمارات العربية المتحدة في قوات حفظ السلام الدولية «الكيفور»، ويذكر أنها الدولة العربية والإسلامية الوحيدة التي شاركت في هذه القوات، وقد هدفت من مشاركتها حرصها على رفع المعاناة عن الشعب الكوسوفي، ومساعدته في إعمار المنازل التي تمّ هدمها، فضلًا عن دورها في حفظ النظام والأمن والاستقرار في المناطق التي يشرف عليها[٢]. وغني عن القول إن عدم مشاركة بقية دول الخليج لا يعني أنه قد غاب عنهم أهمية تواجدهم، وإن كان على مستوى المتابعة من خلال تنظيم زيارات إلى مقر هذه القوات، وتفقد قدراتها والوقوف على إمكاناتها وحجم عملها. ومن أبرز هذه الزيارات تلك الزيارة التي قام بها وفد عسكري من القوات المسلحة القطرية إلى القوات المسلحة الإماراتية العاملة في كوسوفا في ٧ يونيو ٢٠٠١، هدفت الزيارة إلى الاطلاع على تجربة قوة عربية خليجية هي قوة دولة الإمارات العربية المتحدة، المشاركة ضمن القوات الدولية للمحافظة على الأمن والاستقرار ونشر السلام في منطقة حساسة وغير مستقرة في قلب أوروبا. كما تستهدف معرفة حصيلة الخبرات والمهارات المكتسبة، سواء على الصعيد التنظيمي أو

---

(١) دولة الإمارات وكوسوفا، وكالة أنباء الإمارات، ٢٦ فبراير ٢٠٠٦.
http://www.bna.bh/portal/news/69805?date=2011 - 04 - 9

(٢) جريدة البيان الإماراتية، ١٣ نوفمبر ١٩٩٩.
http://www.albayan.ae/across-the-uae/19991.1231433-13-11-

التعبوي أو الإنساني إثر العمل مع قوات دولية لها تاريخ عسكري عريق وباع طويل في عمليات حفظ السلام الدولية[1].

ومن الأهمية بمكان القول إنه كما قد يبدو للبعض أن الدور الخليجي كان محدودًا في مساندة الشعب الكوسوفي لنيل استقلاله، وهو أمر قد يكون صحيحًا في جزء كبير منه، إلا أن الحقيقة أن طبيعة هذه المساندة ونوعيتها، بغض النظر عن حجمها وكميتها، كانت موجودة وربما كان لها أثر إلى حد كبير في مساعدة الشعب الكوسوفي لنيل استقلاله. فمواقف بلدان مجلس التعاون في المنظمات الدولية كالأمم المتحدة، وكذلك الإقليمية كمنظمة التعاون الإسلامي (المؤتمر الإسلامي سابقًا)، كان لها دور بارز في تأييد ومساندة حق الشعب الكوسوفي في تقرير مصيره، والحصول على استقلاله في مواجهة الاحتلال والغطرسة والإرهاب الذي مارسته دولة صربيا بحقه.

وغني عن القول إن محدودية الدور الخليجي في كوسوفا قبل الاستقلال قد يجد مبررًا له في بعدين:

الأول: أن المجتمع الدولي لم يول اهتمامًا كبيرًا في البداية لقضية كوسوفا، في ظل تعدّد وتنوع القضايا التي كانت تشغل الدول الكبرى آنذاك، خاصة وأن الأزمة تفجّرت مع تحول النظام الدولي من ثنائي القطبية إلى أحادي القطبية، وما لذلك من تداعيات على ترتيب أجندة اهتمامات القوى الكبرى، وتحديدًا الولايات المتحدة، حيث جعل من قضية كوسوفا رغم محوريتها في هذا التحول قضية ثانوية، لم تكن تشغل دول العالم بصورة ضرورية مع بدايتها، خاصة وأنها تفجرت بعد حسم قضية البوسنة والهرسك بمقتضى اتفاق دايتون للسلام في منتصف التسعينيات من القرن المنصرم، وأن تكرار ذات الأزمة المتعلقة بمطالبة طرف آخر بالانفصال، أثار توجسًا لدى العديد من دول العالم التي رأت في تلبية مثل هذه المطالب بدايات غير مطمئنة في تفكيك الدولة الوطنية، التي تضم بين

---

(١) وفد عسكري قطري يزور مقر قوات الإمارات في كوسوفو، جريدة البيان الإماراتية، ٧ يونيو ٢٠٠١.
http//:www.albayan.ae/across-the-uae1.1201777-07-06-2001/.

جنباتها أقليات متباينة عرقيًا ودينيًا وطائفيًا. ولذا، كانت هناك معارضة واسعة لما يجري في كوسوفا كما سبق الإشارة. ومن المعلوم أن عدم اهتمام الدول الكبرى والأطراف الفاعلة في النظام الدولى بقضية ما، يجعلها تتراجع في جدول أعمال المنظمات الدولية واهتمامات وسائل الإعلام المختلفة، وهو ما ينعكس سلبًا على اهتمام الدول الإقليمية، كما هو الحال في دول مجلس التعاون الخليجي بهذه القضية رغم خطورتها. كما ساعد على عدم الاهتمام أيضًا أن العالم لم يكن على هذه الدرجة الحالية من التقارب والتشابك، بفضل التقدم الهائل في وسائل الاتصالات والمواصلات، كي يتفاعل بصورة كبيرة مع حجم المجازر والانتهاكات التي ارتكبتها القوات الصربية بحق الشعب الكوسوفي. ولذا، فقد اقتصر دور دول مجلس التعاون على مجرد مساندة لمواقف الأطراف الأكثر فعالية في الأزمة، وتحديدًا الموقف الأمريكي المساند لحق تقرير المصير للشعب الكوسوفي.

الثاني: من المعلوم أن جذور الأزمة في كوسوفا تعود إلى بداية التسعينيات من القرن العشرين، وإن تفاقمت مع نهايتها وبدايات القرن الحادي والعشرين، وهو ما تزامن مع ما تعرضت له منطقة الخليج العربي من أزمات مصيرية، بعضها تعلق بمحاولة محو دولة خليجية من على الخريطة، كما حدث في احتلال العراق للكويت في بداية التسعينيات، صحيح أن الأزمة انتهت بدخول القوات الدولية واستعادة استقلال الكويت، إلا أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، بل ظلت تداعياتها مستمرة على أمن واستقرار دول الخليج جميعها، خاصة وأن هذه الأزمة (حرب الخليج الثانية) كانت بداية لتواجد أجنبي عسكري على الأراضي الخليجية، من خلال وجود قواعد عسكرية أمريكية وأوروبية في بلدان الخليج، وما صاحب ذلك من تداعيات سلبية على قضايا المنطقة برمتها. ولم يقتصر الأمر على مجرد وجود مثل هذه القواعد، بل وصل الأمر إلى احتلال مباشر أمريكي/ بريطاني للعراق عام ٢٠٠٣. ومما زاد الأمر سوءًا أن تزامن مع هذا التواجد الأجنبي توغل إيراني في الشأن الخليجي عبر البوابة العراقية بشكل مباشر، وعبر بعض أدواتها الأخرى بشكل غير مباشر، وهو التوغل الذي ظل مستمرًا حتى اليوم.

وعليه، يمكن القول إن ما تعرضت له منطقة الخليج خلال العقد الأخير من القرن العشرين والأول من القرن الحادي والعشرين، وهو عمر الأزمة الكوسوفية، كان كفيلًا بتراجع اهتمام دول الخليج بالأوضاع في كوسوفا، في ظل انشغالهم بالأوضاع المتردية سواء أكانت داخل مجتمعاتهم أم في المنطقة برمتها.

العلاقات الخليجية-الكوسوفية ما بعد الاستقلال

شهدت العلاقات الخليجية الكوسوفية نموًّا مطردًا مع حصول كوسوفا على استقلالها، بل وحتى قبل اعتراف دول الخليج بهذا الاستقلال، حيث استمر الدعم والمساندة الخليجية للدولة الوليدة، وإن شهد توسعًا كبيرًا ما بعد الاعتراف الخليجي بالاستقلال، وهو ما قوبل بترحيب كوسوفي واسع النطاق، وصل إلى حد إعفاء مواطني دول الخليج من الحصول على تأشيرات دخول إلى كوسوفا اعتبارًا من ١/ ٧/ ٢٠١٣.

وفي إطار استعراض العلاقات الخليجية الكوسوفية ما بعد الاستقلال، يمكن تناولها من خلال عدة مؤشرات تعكس مدى التقارب والاهتمام المتبادل بين الطرفين، وذلك على النحو التالي:

١- الاعتراف باستقلال جمهورية كوسوفا:

مثّل الاعتراف من جانب بلدان دول مجلس التعاون الخليجي خطوة أولى في سبيل تعزيز العلاقات الخليجية الكوسوفية. صحيح أن هذه الخطوة شهدت تأخرًا من جانب دول المجلس، مقارنة بحجم الاعتراف الدولي بالدولة الجديدة، إلا أنه من الصحيح أيضًا أن دول الخليج كانت أولى البلدان العربية التي اعترفت باستقلال كوسوفا. فقد كانت الإمارات العربية المتحدة أول دولة عربية وخليجية تعترف بجمهورية كوسوفا في ١٤ أكتوبر ٢٠٠٨، أي بعد ما يقرب من ثمانية أشهر من إعلان الاستقلال، وجاء في بيان اعترافها بأنه: «انطلاقًا من إيمان الإمارات العربية المتحدة ومبادئها الثابتة الداعمة للشعوب في حقها الشرعي في تقرير مصيرها، تعلن الإمارات اعترافها بجمهورية كوسوفا

كدولة مستقلة ذات سيادة»، ثم كانت المملكة العربية السعودية الدولة العربية الثانية التي اعترفت بالاستقلال في العشرين من أبريل ٢٠٠٩، حيث جاء في خطاب الاعتراف بأنه: «تقديرًا من حكومة المملكة العربية السعودية للروابط الدينية والثقافية بشعب كوسوفا، واحترامًا منها لإرادته بالاستقلال، فإن المملكة تعلن عن اعترافها بجمهورية كوسوفا... إن المملكة تأمل أن تسهم هذه الخطوة في تعزيز أمن واستقرار وازدهار كوسوفا والدول المجاورة لها»[1]، وفي العام ذاته، اعترفت مملكة البحرين باستقلال كوسوفا وتحديدًا في ٢٠ مايو ٢٠٠٩، حيث في بيان وزارة الخارجية البحرينية أنه: «انطلاقًا من ما يربط شعب مملكة البحرين بشعب كوسوفا من روابط دينية وثقافية واحترامًا لإرادته بالاستقلال، فإن حكومة مملكة البحرين تعلن اعترافها بجمهورية كوسوفا دولة مستقلة»[2]. وبعد أكثر من عام وتحديدًا في ٤ مايو ٢٠١٠ جاء الاعتراف القطري باستقلال كوسوفا، ليضيف مزيدًا من التقارب الكوسوفي الخليجي، ثم جاء الاعتراف الكويتي بعد ما يزيد عن عام من الاعتراف القطري، حيث اعترفت الكويت باستقلال كوسوفا في ١١ أكتوبر ٢٠١١، ويذكر أن هذا الاعتراف جاء بعد يوم واحد من زيارة وفد كويتي- رأسه رئيس مجلس الأمة السابق جاسم الخرافي إلى دولة كوسوفا.

---

(١) من الجدير بالذكر أن الموقف السعودي كان بارزًا في دعم استقلال دولة كوسوفا، حيث شارك السفير السعودي عبد الله بن عبد العزيز الشغرود لدى هولندا أمام محكمة العدل الدولية في ٢ ديسمبر ٢٠٠٩، وذلك في المداولات أمام المحكمة بخصوص كوسوفا، والتي تنظر قضية الاستقلال بناء على طلب الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك والموجه إلى محكمة العدل الدولية، لإبداء رأيها الاستشاري حول مدى اتساق قرار كوسوفا بالاستقلال مع قواعد القانون الدولي. حيث أكد السفير السعودي على أن اعترافها بكوسوفا يأتي احترامًا منها لرغبة شعبها المسلم في الاستقلال وتحقيق مصيره، ودعمًا من المملكة لجهود المجتمع الدولي الساعية إلى إحلال السلم والأمن، وتحقيق التنمية والتقدم في كوسوفا وفي دول منطقة البلقان. جريدة الاقتصادية السعودية، ٤/ ٩/ ٢٠٠٩.
http//:www.aleqt.com/04/12/2009/article.310721_html.

(٢) البحرين تعلن اعترافها باستقلال كوسوفا:
http://www.islammemo.cc/akhbar/arab/200982264/20/05/.html.

٢- الزيارات المتبادلة بين الطرفين (الكوسوفي- الخليجي):

شهدت الأعوام الخمسة الماضية منذ حصول دولة كوسوفا على استقلالها عدة زيارات متبادلة من المسؤولين في الجانبين، هدفت إلى تعزيز علاقاتهما وتنميتها، ومن أبرز تلك الزيارات ما يلي:

أ- زيارات المسؤولين الكوسوفيين إلى بلدان مجلس التعاون الخليجي:

- زيارة المفتي العام ورئيس المشيخة الإسلامية الشيخ نعيم ترنافا الكويت خلال الفترة ٧-١٢ يناير ٢٠١١، تلبية لدعوة من وزارة الأوقاف الكويتية، تمّ خلالها عقد عدة اجتماعات مهمة مع مسؤولين رسميين وغير رسميين، خاصة مع ممثلي المؤسسات الخيرية التي تهتم بتنفيذ مشروعات في الدول المختلفة، بهدف الحصول على دعمهم ومساندتهم في بناء الدولة الجديدة[1].

- زيارة رئيس الوزراء الكوسوفي هاشم ثاتشي إلى المملكة العربية السعودية في الرابع عشر من يونيو ٢٠١٢. ويُذكر أنها أول زيارة له منذ حصول الدولة على الاستقلال، بما يؤكد المكانة المتميزة التي تحظى بها منطقة الخليج في السياسة الخارجية الكوسوفية بصفة عامة، والمملكة العربية السعودية على وجه الخصوص. ويُذكر أن الوفد ضم مسؤولين سياسيين منهم نائب رئيس الوزراء وكبار رجال الأعمال الكوسوفيين. وقد التقى رئيس الحكومة الكوسوفي خلال الزيارة العاهل السعودي الملك عبد الله ووزير الخارجية سعود الفيصل، كما زار الغرفة التجارية السعودية بهدف حثّ رجال الأعمال السعوديين للاستثمار. كما التقى الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي «أكمل الدين إحسان أوغلو». وقد بحث الوفد خلالها العلاقات الثنائية وسبل

---

(١) زيارة مفتي جمهورية كوسوفا إلى الكويت، ٢٠/ ١/ ٢٠١١:
http://www.alukah.net/world_muslims/029152//.

تعزيزها بين الطرفين، بالإضافة إلى العلاقات الإقليمية والدولية ذات الاهتمام المشترك[1].

- زيارة رئيسة جمهورية كوسوفا عاطفة يحيى آغا الإمارات للمشاركة في فعاليات الدورة الأولى لأسبوع أبوظبي للاستدامة، خلال الفترة من ١٣ إلى ١٧ يناير ٢٠١٣، حيث تمّ خلالها لقاء الفريق أول الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة. واتفق خلالها الجانبان على توسيع نطاق العلاقات الاقتصادية، وإتاحة الفرص أمام المستثمرين للمساهمة في المشاريع والمبادرات المشتركة التي تخدم تطلعات الدولتين، وخاصة في مجالات الطاقة المتجددة[2].
- زيارة أديتا طاهري نائبة رئيس مجلس الوزراء في جمهورية كوسوفا دولة قطر في ٢٩ يناير ٢٠١٣، التقت خلالها مع «أحمد بن عبد الله آل محمود» نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء القطري، جرى خلال الاجتماع بحث العلاقات الثنائية بين الدولتين وكيفية تطويرها وتعزيزها في مختلف المجالات[3].
- زيارة وفد المشيخة الإسلامية الكوسوفية برئاسة الشيخ نعيم ترنافا دولة قطر في ٢٩ أبريل ٢٠١٣، التقى خلالها وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية القطري الدكتور غيث الكواري، وذلك للمشاركة في المؤتمر العاشر الذي ينظمه «مركز الدوحة لحوار الأديان»[4].
- زيارة ميموزا كوساري ليلا رئيسة بلدية جاكوفا ونائبة رئيس وزراء كوسوفو السابقة دولة الإمارات العربية في ١٣ أبريل ٢٠١٤،

---

(١) محمد م. أرناؤوط، زيارة رئيس الحكومة الكوسوفية للسعودية عززت النقاش بشأن هوية الدولة، جريدة المستقبل، لبنان، ع٤٤٢٣، ٧/ ٨/ ٢٠١٢،
http://www.almustaqbal.com/v4/Article.aspx?Type=np&Articleid=533704

(٢) سمو ولي عهد أبوظبي يستقبل رئيسة جمهورية كوسوفا، وكالة أنباء الإمارات، ١٤/ ١/ ٢٠١٣
http://www.bna.bh/portal/news/541875

(3) http://www.alarab.qa/details.php?issueId=1875&artid=227742

(4) http://www.assakina.com/politics/news-muslims/24283.html #ixzz 351h0ilJi

التقت خلالها «محمد حاجي الخوري» مدير عام مؤسسة خليفة بن زايد آل نهيان للأعمال الإنسانية، والتي قدّمت العديد من المشاريع التنموية في كوسوفا، خاصة في مجالي التعليم والصحة، وهو ما يتماشى مع رؤيتها ورسالتها وأهدافها الإنسانية التي تستهدف المجتمعات ذات معدلات النمو المنخفضة[1].

- زيارة رئيسة جمهورية كوسوفا عاطفة يحيى آغا دولة الإمارات في ٢١ أبريل ٢٠١٤، منحت خلالها ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة الفريق أول الشيخ «محمد بن زايد آل نهيان» وسام الاستقلال، وهو أرفع وسام في كوسوفا يمنح لكبار الشخصيات العالمية، وذلك تقديرًا لإسهامات دولة الإمارات في حفظ السلام في كوسوفا، وعرفانًا بالدعم المستمر الذي تقدمه الدولة إلى كوسوفا[2].

ب- زيارة مسؤولي بلدان دول مجلس التعاون الخليجي إلى كوسوفا:

- زيارة وفد بحريني إلى الغرفة التجارية الكوسوفية في ١٩ يوليو ٢٠٠٨، تمّ خلالها بحث سبل التعاون المشترك في مختلف المجالات، ومناقشة سبل التبادل التجاري بين البلدين[3].

- زيارة المهندس سلطان بن سعيد المنصوري وزير الاقتصاد الإماراتي على رأس وفد اقتصادي جمهورية كوسوفا في ١١ يونيو ٢٠١٣، اتفق خلالها الجانبان على بدء المفاوضات بشأن اتفاقيات تجنب

---

(١) يذكر أن ما حققته دولة الإمارات على صعيد العمل الإنساني أهلها لأن تحصد المرتبة الأولى، كأكبر دولة مانحة للمساعدات الخارجية حسب الإعلان الصادر في باريس عن منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، حول الدول المانحة للمساعدات عالميًا لعام ٢٠١٣. للمزيد انظر: مؤسسة خليفة الإنسانية وكوسوفو تبحثان التعاون في مجالي التعليم والصحة، جريدة الاتحاد الإماراتية، ١٤/ ٤/ ٢٠١٤:

http://www.alittihad.ae/details.php?id=32689&y=2014.

(٢) محمد بن زايد يستقبل رئيسة كوسوفا ويتسلم منها وسام الاستقلال، ٢١ أبريل ٢٠١٤:

http://www.24.ae/Article.aspx?ArticleId=74168.

(3) http://www.alukah.net/world_muslims/03000//#ixzz351hglkOf

الازدواج الضريبي، وحماية وتشجيع الاستثمارات بينهما، باعتبارها الإطار القانوني المناسب والفاعل لضمان وتحفيز تدفق الاستثمارات المتبادلة. كما تمّ الاتفاق خلالها على تنظيم وتبادل زيارات وفود رجال الأعمال والمستثمرين بين الدولتين؛ من أجل التعريف بالمقومات الاقتصادية لكل دولة والفرص الاستثمارية والتجارية الموجودة[1].

- زيارة وزير الخارجية الإماراتي الشيخ عبد الله بن زايد جمهورية كوسوفا في ١٢ مارس ٢٠١٤، التقى خلالها «عاطفة يحيى آغا» رئيسة الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير الخارجية، وتم خلال الزيارة التوقيع على اتفاقية حول الطيران المدني تتيح تفعيل مطار بريشتينا الدولي، الذي يُعدّ الآن من أكبر مطارات غرب البلقان[2]. كما تمّ خلالها الاتفاق على تبادل فتح السفارات في عاصمتي الدولتين. إضافة إلى تنظيم منتدى لرجال الأعمال في أبوظبي، يبحث فرص الاستثمار في كوسوفا[3]. يذكر أنه خلال هذه الزيارة، قام رئيس بلدية مدينة بريزرن الكوسوفية «رمضان مويا» منح وزير الخارجية الإماراتي لقب «المواطن الفخري لمدينة بريزرن».

- زيارة أعضاء لجنة الصداقة البرلمانية السعودية الكوسوفية في مجلس الشورى السعودي، برئاسة رئيس اللجنة الدكتور «عبد الله بن حمود الحربي» في ١٠ مايو ٢٠١٤، التقوا خلالها بكل من رئيس جمهورية

---

(١) وزير الاقتصاد يبحث تعزيز العلاقات مع كوسوفا، ١١/ ٦/ ٢٠١٣.
http://www.economy.gov.ae/arabic/Pages/Publications.aspx.

(٢) جريدة المستقبل، لبنان، ع ٤٩٨٧، ٢٥/ ٣/ ٢٠١٤.
http://www.almustaqbal.com/v4/article.aspx?Type=NP&ArticleID=610828

(٣) الإمارات وكوسوفا تتفقان على تبادل فتح السفارات، وكالة الأنباء القطرية، ١٣ مارس ٢٠١٤.
http://www.qna.org.qa/News/14031310540044/%D8%A7%D984%%D8%A5%D985%%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA%D988%%D983%%D988%%D8%B3%D988%%D981%%D8%A7%D8%AA%D8%AA%D981%%D982%%D8%A7%D986%%D8%B9%D984%%D989%%D8%AA%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D984-%%D981%%D8%AA%D8%AD%D8%A7%D984%%D8%B3%D981%%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA.

كوسوفا «عاطفة يحيى آغا»، ورئيس البرلمان «يعقوب كراسني نيتشي»، حيث تمّ التباحث في سبل دعم علاقات التعاون بين البلدين، خاصة في العمل البرلماني، مع تفعيل دور لجنتي الصداقة البرلمانية في المجلسين. كما اجتمع الوفد أيضا مع وزير التنمية الاقتصادية «فاضل إسماعيلي»، ووزير الصحة «فريد أغاني»، حيث تمّ البحث في مجالات التعاون في ميادين الاقتصاد والتجارة والصحة[1].

ج- المشاركة في جهود إعادة الاعمار وتأهيل البنية التحتية:

شاركت دول مجلس التعاون الخليجي في جهود إعادة الإعمار وتأهيل البنية التحتية التي تأثرت بالأحداث التي واجهت جمهورية كوسوفا ما قبل الاستقلال، حيث قدمت المزيد من الدعم والمساعدات والمنح في مجالات مختلفة، ومن أبرزها ما يلي:

مشاركة المملكة العربية السعودية في مؤتمر الدول المانحة «لدعم كوسوفا»، والذي انعقد في العاصمة البلجيكية بروكسل في ١١ يوليو ٢٠٠٨، وتعهّدت فيه عدة دول بتقديم نحو مليار و٢٠٠ مليون يورو لكوسوفا، وجاءت السعودية- الدولة العربية الوحيدة التي شاركت في هذا المؤتمر- في المرتبة الخامسة في قائمة المانحين بـ٣٢ مليون يورو، في الوقت الذي احتل الاتحاد الأوروبي المرتبةَ الأولى بنصف مليار يورو[2].

قيام هيئة الهلال الأحمر الإماراتية باستكمال جهودها الإنشائية، حيث افتتحت في أكتوبر ٢٠١٠، مبنى الإمارات السكني رقم (٢) بمدينة «بيا»، ويتكون المبنى من خمسة طوابق تحوي ٢٥ وحدة سكنية بلغت تكلفتها مليونين و٦٥٠ ألف درهم إماراتي[3].

---

(١) جريدة الرياض السعودية، ع١٦٧٥٦، ١٠/ ٥/ ٢٠١٤.

http://www.alriyadh.com/934362.

(٢) عبد الله جبريل، في ذكرى الاستقلال.. كوسوفا بين اعتراف الغرب وتنكّر العرب!

http://islamtoday.net/nawafeth/services/saveart-14108346-.htm.

(٣) وكالة أنباء الإمارات (وام)، ١٩/ ١٠/ ٢٠١٠.

http//:www.wam.ae/ar/news/emirates-international1395240904075/.html.

قيام مؤسسة قطر الخيرية بتشييد ثاني أكبر مسجد في كوسوفا، حيث يتسع لـ ٩٠٠٠ مصل، ويشتمل على فصول لتعليم القرآن الكريم واللغة العربية، ويقع على مساحة تبلغ ٨٠٠ متر مربع. وبلغت تكلفته مليونًا و٤٠٠ ألف ريال قطري[1].

قيام هيئة الأعمال الخيرية الإماراتية بإنشاء مسجد «كرايشت» في كوسوفا، والذي تمّ افتتاحه في يوليو ٢٠١٣ البالغ مساحته نحو ٣٥٠م٢ وبتكلفة بلغت ٢٥٥ ألف درهم إماراتي[2].

افتتحت الجمعية الكويتية للإغاثة فرعًا جديدًا لمكتبها في العاصمة «بريشتينا» في فبراير ٢٠١٤، بما من شأنه أن يسهم في مد يد العون والمساعدة وتقديم الخدمات الإنسانية والاجتماعية لشعب كوسوفا[3].

قيام الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم نائب حاكم دبي وزير المالية راعي هيئة آل مكتوم الخيرية بتخصيص مليون ونصف المليون دولار، لدعم إنشاء وبناء أوقاف في جمهورية كوسوفا، يعود ريعها إلى المشاريع الخيرية التي تنفذها المشيخة الإسلامية في كوسوفا[4].

---

(١) قطر تشيّد ثاني أكبر مسجد في كوسوفا، ١٩/ ٥/ ٢٠١٠.
http://www.ashefaa.com/play-22569.html.

(٢) هيئة الأعمال الخيرية الإماراتية تفتتح مسجد كرايشت في كوسوفا، ٣١ يوليو ٢٠١٣.
https://www.hai.ae/ar/newsupdates/news/%D987%%D98%A%D8%A6%D8%A9%D8%A7%D984%%D8%A3%D8%B9%D985%%D8%A7%D984%%D8%A7%D984%%D8%AE%D98%A%D8%B1%D98%A%D8%A9%D8%A7%D984%%D8%A5%D985%%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA%D98%A%D8%A9%D8%AA%D981%%D8%AA%D8%AA%D8%AD%D985%%D8%B3%D8%AC%D8%AF%D983%%D8%B1%D8%A7%D98%A%D8%B4%D8%AA-%D981%%D98%A-%D983%%D988%% D8% B3 %D988% %D981%%D8%A7.aspx.

(٣) الجمعية الكويتية للإغاثة تفتتح مكتبا في كوسوفا، ٢٤/ ٢/ ٢٠١٤.
http://alummahnews.com/395259 /

(٤) حمدان بن راشد يأمر بتخصيص ١,٥ مليون دولار لتنفيذ مشاريع وقفية في كوسوفا، جريدة الخليج الإماراتية، ١٩/ ٣/ ٢٠١٤.
http://www.alkhaleej.ae/alkhaleej/page/ac42e8a8-cb224-a2e-a0b1c113d1bdd4d3#sthash.oTvZ7mX6.dpuf.

د- تقديم المساعدات الاجتماعية والرعاية الصحية للشعب الكوسوفي:

١. قيام مكتب مؤسسة «قطر الخيرية» الموجود في كوسوفا بتنفيذ عدد من المشروعات التنموية والاجتماعية، من أبرزها ما يلي:

- توقيع اتفاقية في نوفمبر ٢٠١٢ مع البروفيسور الدكتور «مازن محمد الهاجري»، أحد الأطباء العالميين المتخصصين في زراعة القواقع وعلاج الصمم، لزراعة القواقع الإلكترونية للمصابين بالصمم في كوسوفا. يتم بمقتضاها زراعة «٧» قواقع في المرحلة الأولى للمرضى من كوسوفا، علمًا بأن تكلفة زراعة القوقعة الواحدة تبلغ ٨٥ ألف ريال قطري[1].

- تنفيذ عدد أربعة مشروعات/ برامج للأيتام في كوسوفا، هي: مشروع الملتقى الأسبوعي لليتيم (يهدف إلى التواصل الدائم مع اليتيم، والقيام معه ببرامج متنوعة تجمع بين التعليم والترفيه والرياضة من أجل تكوينه ودمجه أكثر في المجتمع)، مشروع النادي الصيفي (يسعى إلى استيعاب الطاقات لدى الأطفال والشباب واستثمارها في فترة الصيف، من خلال تنظيم أنشطة جذابة ومتنوعة وذات نتائج إيجابية على المستهدفين، وتشمل هذه الأنشطة المجالات الثقافية والرياضية والترفيهية)، مشروع رواد المستقبل (يهدف إلى توفير بيئة مناسبة للطلاب المتميزين للارتقاء بأنفسهم، حتى يكونوا مؤثرين في مجتمعهم في المستقبل القريب)، ومشروع النور (يضم ندوات أسبوعية خاصة بالنساء لتعريفهن بطرق تربية الأبناء على الأخلاق الطيبة، وأيضًا لتعليمهن أمور دينهن الأساسية). ويذكر أن عدد الأيتام المستفيدين من هذه المشروعات ما يزيد عن (١٤٠٠ يتيم ويتيمة)، حيث توفر لهم بالإضافة إلى الكفالة المادية أنشطة صحية وترفيهية وتربوية ورياضية

---

(١) تحت شعار: «ازرعها.. وغير حياتهم» قطر الخيرية توقع اتفاقية لزراعة القواقع الإلكترونية للصم المحتاجين بكوسوفا، مؤسسة قطر الخيرية، ١٢ نوفمبر ٢٠١٢.
http://www.qcharity.com/a/index.php/2010725--/40-45-17-27-12-q---q

تنظمها لصالحهم. هذا بالإضافة إلى تنفيذ مشاريع موسمية، كمشروع إفطار الصائم ومشروع زكاة الفطر والأضاحي وغيرها[1].

- تأسيس مركز تابع للمؤسسة في العاصمة الكوسوفية، تحت اسم «مركز قطر للتدريب»، والذي يعد من أفضل المراكز التدريبية، حيث يتم فيه تقديم دورات في عدة لغات مختلفة، منها العربية والإنجليزية والألمانية والتركية والفرنسية. ودورات في الحاسب الآلي والبرمجة، ودورات إدارية وأخرى في التنمية البشرية[2].
- تنفيذ عدد من المشروعات المدرّة للدخل لصالح أسر الأيتام والفئات الأكثر فقرًا، حيث تشمل عدة مجالات منها تمليك بقرات حلوب، ومشاريع زراعية، وتمليك أغنام، بالإضافة إلى محلات تجارية وغيرها. وتبلغ التكلفة الإجمالية لجميع المشاريع المدرة للدخل التي تواصل المؤسسة تنفيذها في كوسوفا (٢,٥٠٠,٠٠٠ ريال)، سيتم من خلالها تنفيذ ٣٠٠ مشروع مختلف، تمّ منها حتى الآن ١٢٣ مشروعًا على ثلاث مراحل، في المرحلة الأولى تمّ ٢١ مشروعًا، و٤٦ مشروعًا في الدفعة الثانية، بالإضافة إلى ٥٦ مشروعًا في الدفعة الثالثة[3].
- في إطار مشروعها «ابتسامة»، نظم مركز المؤسسة في نوفمبر ٢٠١٢ زيارات ميدانية، قدمت خلالها هدايا لصالح حوالى ٨٠ طفلًا مريضًا بمستشفى برشتينا المركزي، و٢٠ مسنًا في دار المسنين في ذات المدينة، حيث يستهدف هذا المشروع الفئات المهمشة وشرائح المجتمع الأكثر احتياجًا، وخاصة الأطفال المرضى والمسنين والمعاقين، وذلك من أجل إدخال السعادة إلى نفوسهم[4].

---

(١) قطر الخيرية تقيم مهرجانًا ترفيهيًا لأيتامها في كوسوفا، جريدة الراية القطرية، ١٣/ ١/ ٢٠١٤.
http://www.raya.com/news/pages/1770e3c91-fb045-ef-bded-8be54b4a2a4c

(٢) قطر الخيرية تنفذ مشاريع مدرة للدخل بكوسوفا، جريدة العرب القطرية، ٢٨/ ٥/ ٢٠١٤.
http://www.alarab.qa/new/details.php?issueId=2361&artid=300009

(٣) قطر الخيرية تنفذ مشاريع مدرة للدخل بكوسوفا، مرجع سابق.

(٤) قطر الخيرية تحتفي بالكبار والصغار في كوسوفا، ٧/ ١١/ ٢٠١٢.
http://www.al-watan.com/viewnews.aspx?n=5083FFC26-C50489482-B96475DAF0DB83&d=20121107

٢. قيام مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية بتنفيذ ثلاثة مشاريع صحية وتعليمية في كوسوفا، بلغت تكلفتها الإجمالية نحو ١٢٫٥ مليون درهم، وهي[1]:

الأول: مشروع مركز زايد الثقافي، وأُقيم في مدينة فوشتري الكوسوفية التي تعتبر من أقدم المدن في منطقة البلقان، وبلغت تكلفته مليون دولار أي نحو ٣,٦٧ مليون درهم إماراتي. ويضم المركز مسجدًا يتسع لـ١٥٠٠ مصل تقريبًا.

الثاني: مشروع كلية الدراسات الإسلامية وأُقيمت في العاصمة الكوسوفية بريشتينا، وبلغت تكلفته الإجمالية مليوني دولار، أي نحو سبعة ملايين و٣٤٠ ألف درهم إماراتي. ويهدف المشروع إلى مساندة جهود الحكومة لدعم العملية التعليمية.

الثالث: إنشاء مركز للرعاية الصحية الأولية بتكلفة بلغت «٤٠٠» ألف دولار، أي نحو مليون و٤٦٨ ألف درهم إماراتي، وأنشئ هذا المركز داخل مستشفى الشيخ زايد في مدينة فوشتري الكوسوفية.

٣. قيام الأمانة العامة لوزارة الأوقاف الكويتية، وبإشراف الجمعية الكويتية للإغاثة، بتدشين مشروع مركز الكويت للتوحّد الذي يخدم قاعدة عريضة من مرضى التوحّد، ويعمل على رعايتهم وتأهيليهم وتنمية قدراتهم، ودمجهم مع كافة شرائح المجتمع، فضلًا عن إقامة العديد من الأنشطة الاجتماعية الهادفة لهذه الشريحة. ويذكر أن هذا النشاط يأتي ضمن الأنشطة الخيرية المتعددة التي تقيمها الجمعيات الخيرية الكويتية، تجاه دعم ومساندة شعوب دول البلقان بصفة عامة، والشعب الكوسوفي على وجه الخصوص[2].

في ضوء ما سبق، نخلص إلى القول إن العلاقات الخليجية الكوسوفية شهدت تقاربًا واسع النطاق، وتعاونًا ممتدًّا في مختلف المجالات، بما يؤهل

---

(١) «خيرية زايد» تنجز ثلاثة مشاريع صحية وتعليمية في كوسوفو، ٤/ ٣/ ٢٠١٢.
http//:www.alittihad.ae/details.php?id&22195=y&2012=article=full

(٢) مركز الكويت للتوحّد بتبرع من الأمانة العامة للأوقاف، جريدة الآن الإلكترونية، ٢٩/ ٣/ ٢٠١٤.
http://www.alaan.cc/pagedetails.asp?nid=180233&cid=35

الطرفين نحو مزيد من التقارب والتعاون المشترك، الذي يصب في مصلحتهما المشتركة ويخدم طموحات وتطلعات شعوبهم معًا.

العلاقات الخليجية- الكوسوفية: نحو استراتيجية مستقبلية

من قبيل المصادفة أن يعاني تعريف المنطقتين الجغرافيتين «الخليج والبلقان» من عدم اتفاق بين السياسيين والجغرافيين، على تحديد ملامحهما وحدودهما بشكل قطعي اتفاقي، بل ما زالت ثمة تباينات في وجهات نظرهم بشأن تعريف حدود كل منطقة ودولها، رغم ما تشغله كل منطقة من أهمية كبرى في الساحة العالمية؛ نظرًا لموقعهما الجيواستراتيجي، فضلًا عن أهميتهما الاقتصادية بما يملكونه من ثروات وموارد محل تنافس وأطماع مختلف الأطراف الدولية والإقليمية.

وفي ضوء هذه الأهمية المشتركة للمنطقتين سياسيًا واستراتيجيًا واقتصاديًا، فمن الأهمية بمكان أن يكون ثمة تعاون مشترك بين دول مجلس التعاون ودول منطقة البلقان، خاصة وأن تاريخ العلاقة بينهما يعود إلى فترات قديمة بدأت مع القرن الخامس عشر الميلادي عن طريق التجار العرب، الذين جابوا المنطقة ونقلوا إليها اللغة وبعض الأنماط الثقافية العربية. يظهر ذلك في تسرّب بعض الألفاظ العربية إلى اللغة البلقانية، ثم تطورت هذه العلاقة تحت مظلة الدولة العثمانية، إلى أن أصبحت الثقافة العربية والإسلامية في مرحلة لاحقة جزءًا من التكوين الثقافي لدول البلقان. وفي القلب من منطقة البلقان تأتي «كوسوفا» كونها الحلقة الأهم في الجسر البري الرابط بين أوروبا والشرق الإسلامي، بما فيه منطقتنا العربية بصفة عامة، ومنطقة الخليج العربي ذات الأهمية الكبرى إقليميًا وعالميًا على وجه الخصوص.

وانطلاقًا من هذه الرؤية التي تطالب بأن يكون ثمة تعاون مشترك وعميق بين الجانبين الخليجي والبلقاني، وفي إطار تناول هذه الورقة للعلاقات الخليجية مع واحدة من دول البلقان، بل الدولة الجديدة، ضمن دول تلك المنطقة وهي كوسوفا، فثمة رؤية أولية تستهدف إيجاد مزيد من التعمق في العلاقات الخليجية الكوسوفية، وترتكز هذه الرؤية على أربعة محاور أساسية تتمثل في ما يلي:

أولًا: بناء علاقة شراكة ذات اتجاهين بدلًا من النمط التقليدي ذي الاتجاه الواحد، والمعني بالمعونات الإنسانية والمساعدات المالية التي تقدمها بعض البلدان الخليجية للشعب الكوسوفي. فمن الجيد أن تكون هناك علاقة صالحة تعتمد على مبدأ «الأخذ والعطاء»، أخذا في الاعتبار أن نجاح هذا المبدأ يتوقف على توافر عدة عوامل، منها:

وجود منابر دائمة للالتقاء والحوار بين الجانبين، سواء من خلال تنظيم المنتديات أو المؤتمرات المشتركة، أو من خلال عقد المزيد من اللقاءات، ليس فقط على مستوى المسؤولين في الجانبين، وإنما يجب أن يكون هناك مجال أوسع لمؤسسات المجتمع المدني ولرجال الأعمال. ويُقترح في هذا الخصوص تأسيس «منتدى الأعمال الخليجي الكوسوفي»، بهدف الترويج لكوسوفا اقتصاديًا، وتسليط الضوء على الفرص الاستثمارية المتاحة بها، بما قد يؤسس لمرحلة جديدة من الشراكة المثمرة المنشودة من كلا الجانبين، على أن يكون للقطاع الخاص فيها دور مؤثر، خاصة في ضوء ما تمتلكه كوسوفا من ثروات طبيعية وتعدينية كالفحم، والحديد، والفضة، والزنك[1]، حيث يوجد بها ١٥ مليار طن من الفحم الحجري، تجعلها في المرتبة الخامسة بين دول العالم؛ وقدر قيمتها بحوالى ١٠٠ مليار يورو، فضلًا عن امتلاكها لما يقرب من ٥٠ مليون طن من الزنك، وما يُقدر قيمته بـ ٨ مليارات يورو من الحديد[2].

- وضع آليات قانونية فعالة في سبيل محاربة صور الفساد التي قد تصيب الجهاز الإداري للدولة في بدايات التأسيس؛ نظرًا لأن الفساد من أكثر العوامل المؤثرة سلبًا في جذب الاستثمارات. فمن غير المقبول مطالبة دول مجلس التعاون الخليجي بتوجيه استثماراتهم إلى دولة كوسوفا، في ظل بعض التقارير التي تؤكد على تفشي الفساد بنسبة مرتفعة في أجهزة الدولة.

(١) تقدرها بعض المصادر بما لا يقل عن ٢٠٠ مليار يورو، ولم يستهلك منها حتى الآن سوى ٢٪.
(٢) كوسوفا تمتلك ٨٥ مليار يورو من الفحم، ٤/ ٣/ ٢٠٠٨.
http://twww.alukah.net/world_muslims/01988//#ixzz351gWb1lD

- ضرورة تبادل المعلومات بين الجانبين، فمن الصعوبات التي تحول دون تعميق التعاون بينهما عدم توافر البيانات الإحصائية الصحيحة، بما يجعل من المهم أن تكون هناك خريطة معلوماتية عن الطرفين، تقدم صورة تعريفية عن إمكانات وقدرات كل طرف، وتحدد أيضًا مجالات التعاون المقترحة وآلياته.

ثانيًا: التعاون في مجال حقوق الإنسان من خلال الاستفادة من الخبرة الخليجية في كيفية دمج الأقلية في المجتمع، بحيث تقدم هذه التجربة نموذجًا عمليًا ومتميزًا أمام المسؤولين الكوسوفيين، في كيفية دمج الأقلية الصربية وتشجيعها على المشاركة السياسية في مؤسسات الدولة، والتي ضمنتها لهم خطة أهتساري. ويعتبر نجاح الحكومة الكوسوفية في هذا المجال عاملًا أساسيًا في تقييم أدائهم، ومدى التزامهم ببنود خطة أهتساري، وهو ما سوف ينعكس على صورتهم أمام العالم، ويؤكد عدم صحة ادعاءات حكومة بلجراد بأن استقلال الإقليم يمثل خطرًا على الأقلية الصربية به(١).

ثالثًا: مساندة كوسوفا في الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها. من الأهمية بمكان أن تحظى كوسوفا بعضوية منظمة الأمم المتحدة، فعلى الرغم من اعتراف ما يزيد عن ١٠ دولة باستقلالها وسيادتها على أراضيها، إلا أنها لم تنجح في كسب عضوية الأمم المتحدة كدولة مستقلة ذات سيادة، بسبب الموقف الروسي ومواقف بعض البلدان الأخرى المعارضة لهذا الاستقلال. وهنا يبرز دور دول مجلس التعاون الخليجي في مساندة كوسوفا في الحصول على هذا الاعتراف الأممي، خاصة وأن معركتها داخل المنظمة الدولية لا تتوقف على الجوانب القانونية، بل تتعداها إلى بذل جهود دبلوماسية، وتطوير شبكة من العلاقات العامة لإقناع أكبر عدد ممكن من الدول بالاعتراف باستقلال كوسوفا. مع الأخذ في الاعتبار أن هذا الوضع الحرج وغير المستقر

---

(١) د.أحمد داود حميد العيساوي، إستقلال كوسوفو: التحول الجيوستراتيجي في السياسة الدولية، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العدد الأول، ٢٠١١، ص٦٦.

للدولة المستقلة حديثًا، يؤثر سلبًا على النمو والتطور الاقتصادي الذي يشهد بدوره تراجعًا كبيرًا انعكس على أوضاع الشعب الكوسوفي، حيث تزايدت نسبة البطالة فيه لما يتجاوز نسبة ٣٥٪ في منتصف عام ٢٠١٢، طبقًا لما ذكرته المنظمة الدولية للهجرة[1].

رابعًا: التعاون المشترك في مجال محاربة الإرهاب، سواء من خلال محاربة كافة التيارات والدعوات المتطرفة المتخفية بستار الإسلام، أو من خلال التعاون في المجالات الأمنية والاستخباراتية، خاصة مع انتشار ظاهرة الجماعات الإرهابية في المجتمعات، سواء في كوسوفا أو في دول الخليج، وتهديدها لأمنها واستقرارها. وتزداد أهمية هذا التعاون في ضوء ما تقوم به صربيا اليوم من استغلال للأجواء المشحونة ضد المسلمين، والتي تدعمها أحزاب يمينية متطرفة في عدد من الدول الأوروبية، في الحيلولة دون انضمام كوسوفا للاتحاد الأوروبي، والمؤسسات الدولية المالية بما يسهم في النهوض باقتصادها، سواء أمام جذب الاستثمارات الأجنبية أو الحصول على قروض من تلك المؤسسات. ولن يمنع ذلك سوى تثبيت الاستقرار ودعمه في جمهورية كوسوفا، من خلال تعميق التعاون بين دول المنطقة العربية بصفة عامة والخليجية بصفة خاصة.

---

(١) هاني صلاح، كوسوفا. تحديات ما بعد الاستقلال، مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام، إبريل ٢٠٠٨.

http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=222107&eid=1536

القسم الثاني

الثقافة أولًا وأخيرًا

مؤلفات علماء بلغاريا
في اللغة العربية خلال العهد العثماني

سفر بكر حسنوف[١]

لقد دخل الإسلام منطقة البلقان (التي تبدأ ببلغاريا) في عهد السلطان العثماني مراد الأول، وذلك ابتداءً من سنة ٩٦٢هـ/ ١٣٥٦م، وبعد ثلاثين عامًا من ذلك التاريخ دانت بلغاريا جميعها للدولة العثمانية. ومع أن هناك روايات عن ظهور الإسلام في بلغاريا منذ زمن الأمويين، فذاك لم يكن بشكل منتشر ومؤسسي، فلم ينتشر الإسلام إلا بعد الفتح العثماني، حيث هاجرت أعداد كبيرة من المسلمين من بلاد الأناضول، واعتنقت الإسلام أعداد أخرى من سكان البلاد الأصليين. واستمر هذا الوضع إلى أن انهزم المسلمون في الحرب الروسية العثمانية سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م، حيث تأسست في النتيجة الدولة البلغارية الجديدة سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م. فخلال خمسة قرون كانت الحياة في بلغاريا كما في بقية بلاد الخلافة العثمانية تجري في ظل الإسلام، وبالتالي كان العلماء في تلك الفترة دعائم النظام الاجتماعي، ولهم وظائف تعليمية وقضائية مهمة. وعندما دخل العثمانيون البلاد العربية في عهد السلطان سليم الأول، أصبحت هي وبلاد البلقان تخضع لنفس النظام، فخدم علماء البلقان في المنطقة العربية بوظائف تعليمية وقضائية ومؤلفات علمية، وخدم علماء البلاد العربية بالطريقة نفسها المنطقة البلقانية.

---

(١) رئيس قسم العلوم الإسلامية بالمعهد الإسلامي في صوفيا، بلغاريا.

ولا يخفى أن الدولة العثمانية من أجل رغبتها أن تتقدم في القارة الأوروبية، أولت منطقة البلقان اهتمامًا فائقًا فحوّلتها إلى مهد للثقافة الإسلامية، حيث بنت مدارس ومساجد عديدة أصبحت مراكز لنشر العلم والدين. ففي بلغاريا وحدها كانت هناك ١٤٢ مدرسة و٢٧٣ مكتبًا ابتدائيًا و٢٣٥٦ جامعًا ومسجدًا[1]. وحسب النظام العثماني كان أكثر العلماء في بلغاريا من أبناء العلماء، فكانوا يدرسون ابتداءً على آبائهم والعلماء المحليين في بلدتهم أو المدن القريبة، ثم يسافرون لإكمال دراستهم إلى القسطنطينية العاصمة، حيث يترقّون في العلوم الشرعية على أيدي كبار العلماء في فترة تترواح بين ١٠ و٢٠ سنة. وفي النهاية كانوا بعد إكمال النسخ يقدّمون الامتحانات، ويحصلون على إجازات تؤهلهم أن يكونوا مدرّسين وقضاة وموظفين في دور الفتوى ومؤسسات أخرى. وأهم مراكز العلم في بلغاريا كانت المدن والقصبات الكبيرة، كصُوفْيَهْ (Sofia)، وكُوسْتَنْدِيلْ (Kyustendil)، وصَمَاقُو (Samokov)، وفِلِبَهْ (Plovdiv)، وقَارْلُوَهْ (Karlovo)، وتَتَارْ پَزَارِي (Pazardzhik)، وقِيزَانْلِقْ (Kazanlak)، ولُوفْچَهْ (Lovech)، وپِلَوْنَهْ (Pleven)، وزِشْتُوي (Svishtov)، وودِينْ (Vidin)، ورُوسْچُقْ (Ruse)، وسِلِسْتْرَهْ (Silistra)، وهَزَارْغْرَادْ (Razgrad)، وحَاجِي أُوغْلُو پَزَارِي (Dobrich)، وشُمْنِي (Shumen)، وعُثْمَانْ پَزَارِي (Omurtag)، وأَسْكِي جُمْعَهْ (Targovishte)، وطِرْنَوَهْ (Veliko Tarnovo)، وسَرْوِي (Sevlievo)، وإِيوْرَاجَهْ (Vratsa)، ووَرْنَهْ (Varna)، وبَرْغُوسْ (Burgaz)، وآيْدُوسْ (Aytos)، وقَرِينْ آبَادْ (Karnobat)، وإِسْلِمْيَهْ (Sliven)، ويَنْبُولِي (Yambol)، وأَسْكِي زَغْرَهْ (Stara Zagora)، وچِيرْپَانْ (Chirpan)، وخَاصْ كُوي (Haskovo)، وأَغْرِي دَرَهْ (Ardino)، وپَتْرِيچْ (Petrich)، ونَوْرَقوبْ (Gotse Delchev)، ومَنْلِكْ (Melnik).

برزت خدمات علماء بلغاريا خلال خدمتهم في الولايات العربية في ثلاثة مجالات رئيسة، وهي: القضاء، والتدريس، والتأليف. أما في مجال القضاء

(1) Aşkın Koyuncu, «Bulgaristan'da Osmanlı Maddi Kültür Mirasının Tasfiyesi (1878-1908)", Osmanlı Tarihi Araştırma ve Uygulama Merkezi Dergisi, (2006), sayı 20,208.

فكان هناك من علماء بلغاريا من عُيّنوا قضاة في بلاد العرب، بعد حصولهم على الإجازات العلمية والرُّتَب اللازمة، مثل قاضي حلب إبراهيم بن مصطفى بن محمد الفرضي، الشهير بوحدي الرومي المتوفى سنة ١١٢٦هـ/ ١٧١٤م[١]؛ وقاضي بغداد أحمد أفندي الشُّمْنِي المتوفى سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م، كان قاضي بغداد[٢]؛ وقاضي السليمانية وكربلاء أحمد ثروت بن الحسن السَّرْوِي المتوفى بعد سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م[٣]؛ وقاضي دمشق وحلب أحمد خليل الفوزي بن مصطفى الفلبوي المتوفى سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م[٤]؛ وقاضي طرابلس الغرب أحمد نظيف أفندي الصماقوي المتوفى سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م تقريبًا[٥]؛ وكثيرون غيرهم.

وأما في مجال التدريس فلهم خدمات جليلة، إذ كان عدد من كبار مدرّسي المدارس الراقية في القسطنطينية من بلغاريا، وكانوا يخرّجون قضاة ومدرّسين وموظفين آخرين للمنطقة العربية، كجزء من الدولة العثمانية. ومن أشهر المدرّسين من بلغاريا الذين درّسوا بالمدارس المشهورة بالقسطنطينية، لا سيما جامع الفاتح: إبراهيم بن مَميش الطِّرْنُوِي المتوفى في حدود سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م[٦]، وأحمد توفيق أفندي المنلكي المتوفى سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م[٧]، وأحمد توفيق بن الحسن الآيْدُوسِي المتوفى سنة ١٣٣١هـ/

---

(١) شيخي محمد أفندي، وقائع الفضلاء ذيل الشقائق النعمانية، ٢، ٣٦٢؛ إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، الطبعة الأولى، (إستانبول: وكالة المعارف، ١٩٥١م) ١، ٣٧؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م) ١، ٧٤.

(2) Mehmed Süreyya, Sicill-i Osmanî, (İstanbul: Tarih Vakfı, 1996), I, 169.

(3) Sadık Albayrak, Son Devir Osmanlı Uleması, (İstanbul: İstanbul Büyükşehir Belediyesi, 1996), I, 275.

(4) Sicill-i Osmanî, II, 576.

(5) Sicill-i Osmanî, IV, 1235.

(6) Son Devir Osmanlı Uleması, II, 176.

(7) Huzur Dersleri, II-III, 166; Sicill-i Osmanî, V, 1629.

١٩١٣م[١]، وأحمد جودت بن عمر الفِلِبَوِي المتوفى سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م[٢]، وأحمد خليل الفوزي بن مصطفى الفِلِبَوِي السابق ذكره، ومن أشهر تلاميذه محمد زاهد الكوثري[٣]؛ وأحمد عاصم بن محمد الكُمُلْجِنَوِي (من بلدة تَرْزِي وِيرَانْ/ (Tihomir) الواقعة حاليًا في بلغاريا والتي كانت تتبع إداريًا لمدينة كوملجينه الواقعة حاليًا في اليونان) المتوفى سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، وهو أستاذ شيخ الإسلام مصطفى صبري ومن أساتذة محمد زاهد الكوثري[٤]؛ وغيرهم الذين تطول قائمة أسمائهم.

كما خدم العلماء الكبار من بلغاريا المنطقة العربية، من خلال تخريجهم قضاة ومدرّسين وموظفين خدموا في تلك المنطقة أو هاجروا إليها. وهناك عدد من طلاب المنطقة العربية نفسها درسوا في مدارس القسطنطينية، واستفادوا من المدرّسين البلغار الأجلاء الذين كانوا يدرّسون فيها. وهناك من هؤلاء من لم يسمع أو يحضر درسًا أو درسين فحسب، بل تتلمذ على بعض العلماء من بلغاريا سنوات طويلة وحصل على الإجازة في العلوم العقلية والنقلية، مثل محمد راغب بن رشيد الدمشقي الذي تخرّج في العلوم على وكيل الدرس أحمد عاصم أفندي الكُمُلْجِنَوِي.

وأما خدمة علماء البلقان من بلغاريا للمنطقة العربية على طريق التأليف، فقد خلّفوا بالعربية آثارًا قيمة عديدة في مختلف العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وسيرة، وما يتعلق بها من نحو وصرف ومنطق وأدب يقارب مجموعها مائة مؤلَّف أكثرها مطبوع، أي إنها انتشرت في جميع أنحاء الدولة لا سيما البقاع العربية، إذ كانت بلغة سكانها. فمن هؤلاء الذين ساهموا بالتأليف:

---

(1) Son Devir Osmanlı Uleması, I, 288.

(2) Huzur Dersleri, II-III, 254.

(٣) محمد زاهد بن حسن الكوثري، التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الأولى، (حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٩٩٣م)، ٤٤.

(٤) التحرير الوجيز، ٦٣؛

Son Devir Osmanlı Uleması, I, 172; Huzur Dersleri, II, 147

إبراهيم بن مصطفى بن محمد الفرضي الشهير بوحدي الرومي، من بلدة حاجي أوغلو پزاري، المتوفى سنة ١١٢٦هـ/ ١٧١٤م، السابق ذكره، إذ وُلّي قضاء حلب من محرم سنة ١١٢٠هـ/١٧٠٨م إلى صفر سنة ١١٢٢هـ/ ١٧١٠م، ودرّس أكثر من عشرين عامًا بمدارس عديدة في إستانبول، واستقر أخيرًا بمدرسة دار الحديث السليمانية[١]. وله نشاط تأليفي بارز في الأدب والتفسير والحديث، حيث زاد عدد مؤلفاته على عشرين مؤلفًا بين رسالة وكتاب، وجميعها ما عدا واحدًا بالعربية، وكلها لا تزال مخطوطة، منها: حاشية على أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي[٢]، وشرح أبيات تفسير البيضاوي[٣]، والمعوّل شرح أبيات المطوّل[٤]، والتنصيص في شرح شواهد التلخيص[٥]، وشرح أبيات ديباجة المختصر للتفتازاني[٦]، والاعتصام في شرح أبيات العصام[٧]، ومنتخبات من أسماء الشعراء[٨]، والسامي في شرح أبيات الكافية وشرحها للجامي[٩]، والتجريد بعون الرب المجيد[١٠] وهو عبارة عن اختصار الوفيات لابن خلكان، وشرح الشمائل النبوية المسمى بتوشيح التقويم في شرح حلية الرسول

---

(١) وقائع الفضلاء، ٢، ٣٦٢؛ هدية العارفين ١، ٣٧؛ معجم المؤلفين، ١، ٧٤؛ حاجي خليفة مصطفى ابن عبد الله كاتب چلبي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح: محمد شرف الدين يالتقيا، الطبعة الأولى (أنقرة: وكالة المعارف، ١٩٤١م)، ٢، ٢٠١٩؛ Bursalı Mehmed Tahir, **Osmanlı Müellifleri**, (İstanbul: Meral Yayınevi, 1972), III, 71; Sicill-i Osmanî, V, 1648.

(٢) منه نسخة من سنة ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م بالمكتبة السليمانية قسم مهر شاه سلطان تحت رقم ٣٤.

(٣) منه نسخة بمكتبة يوسف أغا في قونيا تحت رقم ١٩٤.

(٤) منه نسخة من سنة ١١٠٦هـ/ ١٦٩٥م بالمكتبة السليمانية قسم شهيد علي باشا تحت رقم ٣٤.

(٥) منه نسخة من سنة ١١٧٨هـ/ ١٧٦٥م بالمكتبة السليمانية قسم أسعد أفندي تحت رقم ٢٩٩٢.

(٦) منه نسخة بالمكتبة السليمانية قسم شهيد علي باشا تحت رقم ٢١٧٥ (١٠٩أ-١١٩ب).

(٧) منه نسخة في مكتبة محافظة چوروم الشعبية تحت رقم ٢٥٧٤/ ٢.

(٨) منه نسخة بالمكتبة السليمانية قسم عاشر أفندي تحت رقم ٤٣٩؛ ومكتبة نور عثمانيه تحت رقم ٤٩٨٣.

(٩) منه نسخة بخط المؤلف من سنة ١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م بالمكتبة السليمانية قسم آيا صوفيا رقم ٤٤٧٠.

(١٠) منه نسخة بمكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة قسم المجامع تحت رقم ٢٠٧/ ٨٠.

الكريم[1]، ومختصر حلية الرسول[2]، ونبذة الشمائل وزبدة الدلائل[3]، وتحفة الألباب في حلية الأنبياء والأصحاب[4]، ونزهة الأريب في فهرست الشاعر والأديب[5]، ورسالة في أسماء رجال الحماسة البصرية[6].

وأحمد بن إسماعيل بن علي بن أحمد اللوفچوي العالم الفاضل، ورجل الدولة، والمصلح السياسي والاجتماعي المعروف بأحمد جودت باشا المتوفى سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م. له فضل تدوين قانون القضاء أو ما سمي بـ«مجلة الأحكام العدلية»، حيث ترأس جمعية مجلة الأحكام العدلية بصفته ناظر العدلية، واستند في صياغتها إلى التشريع الإسلامي على الفقه الحنفي. واشتملت المجلة على ١٨٥١ مادة مرتبة وفق القوانين الحديثة، وصنفت المواضيع إلى ١٦ كتابًا. وبدأ العمل بها سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٦٩م حيث أخذت محاكم الدولة العثمانية تطبق تلك الأحكام في جميع أنحاء البلاد، باعتبارها قانونًا مدنيًا عامًا، فحظت البقاع العربية بحظ وافر من هذا الإصلاح، حيث استمر كثير منها على العمل بأحكامها حتى بعد انهيار الدولة العثمانية وتشكل الدول العربية المستقلة. ومما ألف بالعربية «خلاصة البيان في جمع القرآن»، الذي طبع بالقسطنطينية سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م؛ وتعليقات على أوائل المطوّل في البلاغة طبعت في المطبعة العامرة بإستانبول دون تاريخ؛ و«تعليقات على نتائج الأفكار شرح الإظهار في النحو»، طبعت في المطبعة العامرة سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٨٥م؛ وتعليقات على الشافية في الصرف سماها «غاية البيان»، طبعت في المطبعة العامرة دون تاريخ؛ و«تعليقات على البناء في الصرف» طبعت في المطبعة العامرة سنة ١٢٩٤هـ/

---

(١) منه نسخة بخط المؤلف من سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م بالمكتبة السليمانية قسم عاشر أفندي تحت رقم ١/٥٩.

(٢) منه نسخة بخط المؤلف من سنة ١١٠٤هـ/ ١٦٩٣م بالمكتبة السليمانية قسم شهيد علي باشا تحت رقم ٥٤٩ (١ب-٥أ).

(٣) منه نسخة بخط المؤلف من سنة ١١٠٤هـ/ ١٦٩٣م بالمكتبة السليمانية قسم شهيد علي باشا تحت رقم ٥٤٩.

(٤) منه نسخة بخط المؤلف من سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م بالمكتبة السليمانية قسم عاشر أفندي تحت رقم ٣/٥٩.

(٥) منه نسخة بالمكتبة السليمانية قسم شهيد علي باشا تحت رقم ٢٧٥٧ (٥٨أ-٧٣ ب).

(٦) منه نسخة بالمكتبة السليمانية قسم شهيد علي باشا تحت رقم ٣٤١ (٣٠أ-٤٧ ب).

١٨٨٦م؛ و«تعليقات على الأمثلة المختلفة في الصرف»، طبعت في المطبعة العامرة سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٨٦م.

وأحمد بن أبي بكر بن محمد الصماقوي المعروف بالكشفي المتوفى سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م[1]. وأجازه عبد الغني النابلسي في رمضان سنة ١١٢٠هـ/ ١٨١٦م برواية جميع مؤلفاته وجميع مؤلفات الإمام جلال الدين السيوطي، بعدما ذكر أن الشيخ الكشفي زاره بصحبة حجاج في الدمشق وطلب منه الإجازة برواية الجامع الصغير للإمام السيوطي. وقد كان زاره مرارًا في دمشق وقرأ عليه في كتاب الجامع الصغير قراءة تحقيق مع الفهم والبحث عن المعاني[2]. وله بالعربية «شرح الطريقة المحمدية الكبير للبركوي» وهو مخطوط[3]؛ و«شرح الطريقة المحمدية الصغير» وهو مخطوط[4]؛ و«شرح الأحاديث الأربعين القدسية لعلي القاري» وهو مخطوط[5]؛ و«أربعون حديثًا في العقائد والأدعية والأذكار» وهو مخطوط[6]؛ و«شرح أحاديث من الجامع الصغير للسيوطي في فضل العلم وشرف أهله والعمل به ووعيد من لم يعمل به» وهو مخطوط[7]؛ و«المجموعة اللطيفة والجريدة المنيفة المشتملة على

---

(١) هدية العارفين، ١، ١٧٤؛ معجم المؤلفين، ١، ١١٢؛ كشف الظنون، ٢، ١١١٢؛ **Osmanlı Müellifleri, I, 285**

(٢) منها نسخة بمكتبة دار الكتب الشعبية «كيريل وميتودي» في صوفيا القسم الشرقي تحت رقم OR ١٠٣٧ (١٦٩ب-١٧٠أ).

(٣) منه نسخة من سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٥م بمكتبة دار الكتب الشعبية «كيريل وميتودي» في صوفيا القسم الشرقي تحت رقم OR ٢٣٦٤.

(٤) منه نسخة بخط المؤلف بمكتبة دار الكتب الشعبية «كيريل وميتودي» في صوفيا القسم الشرقي تحت رقم OR ١٠٣٧.

(٥) منه نسخة بخط المؤلف من سنة ١١٤١هـ/ ١٧٢٩م بمكتبة دار الكتب الشعبية «كيريل وميتودي» في صوفيا القسم الشرقي تحت رقم OR ١٩٥٦، وأخرى بخط حسن بن صالح الصماقوي من سنة ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م بالمكتبة السليمانية قسم سرس تحت رقم ١٥٢١.

(٦) منه نسخة بخط المؤلف بالمكتبة السليمانية قسم عشاقي دركاهي تحت رقم ٤٥.

(٧) منه نسخة بخط المؤلف بمكتبة دار الكتب الشعبية «كيريل وميتودي» في صوفيا القسم الشرقي تحت رقم OR ١٣٤٥.

فوائد جمعها من كتب مختلفة لا سيما كتب التفسير والحديث والفقه مشيرًا إلى المصادر» وهو مخطوط[1].

وأحمد حيدر بن حسن الروسچقي الشهير بابن روسجقلي حسن باشا المتوفى سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م[2]. له «تحفة الأفكار في حديث سيد الأبرار في مصطلح الحديث»، أهداها إلى شيخ الإسلام السيد عبد الله أفندي المعروف بدُرِّي زاده وهو مخطوط[3].

وأحمد خليل الفوزي بن مصطفى الفلبوي المتوفى سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م بالطائف. كان مدرسًا في جامع الفاتح ووكيل الدرس عن شيخ الإسلام بالقسطنطينية، وعضوًا في جمعية مجلة الأحكام العدلية، حيث شارك في تأليف المجلدين الأول والثاني، وولي فترة القضاء في كل من قيصرية ودمشق والمدينة المنورة. من أشهر مؤلفاته: «الحاشية الجديدة على شرح عصام الدين للفريدة في البلاغة»، التي بدأ بتأليفها سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٥٩م وأتمها سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م، حيث كتب أجزاء مختلفة منها في قيصرية ودمشق والمدينة المنورة والقسطنطينية، وقد طبعت في مجلدين في المطبعة العامرة بالقسطنطينية سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م؛ و«السيوف القواطع لمن قال إن النبوة صنعة من الصوانع»، الذي ألفه في الرد على عقيدة جمال الدين الأفغاني بأمر من السلطان عبد المجيد سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م؛ و«رسالة امتحانية في البيع الفاسد والكفالة» طبعت في المطبعة العامرة سنة ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م.

وأحمد عاصم بن محمد الكُمُلْجِنَوِي المدرّس الكبير بجامع الفاتح ووكيل الدرس بالقسطنطينية لفترة طويلة المتوفى سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م[4]. له بالعربية

(١) منه نسختان بخط المؤلف من سنة ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م، إحداهما بمكتبة دار الكتب الشعبية «كيريل وميتودي» في صوفيا القسم الشرقي تحت رقم OR ٦٦٦، والأخرى بمكتبة زيتين أوغلو في بلدة طوشانلي تحت رقم ٩٨٨.

(2) Sicill-i Osmanî, II, 657.

(٣) منه نسخة بخط المؤلف بالمكتبة السليمانية قسم حسن خيري- عبدالله أفندي تحت رقم ٦٦.

(٤) التحرير الوجيز، ٦٣؛
Huzur Dersleri, II, 147; Son Devir Osmanlı Uleması, I, 172.

رسالة امتحانية سميت «مصاعد الأنظار لتمييز الأفكار» طبعت بالقسطنطينية سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م.

وأحمد نظيف بن حسين بن محمد الصَّمَاقُوي من علماء القرن الثالث عشر الهجري، كان مدرسًا بأدرنه. له «كيميا حِكَم النظيفي شرحُ موارد الكلم لفيض الله الهندي» وهو مخطوط[١]. وأحمد الفلبوي مفتي مدينة فلبه، له «رسالة في ما يزيد العمر ويرد القضاء» وهو مخطوط[٢].

وإسماعيل حقي بن مصطفى الآيدوسي الصوفي المفسِّر المتوفى سنة ١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م[٣]، له مؤلفات عديدة بالعربية من أهمها: «روح البيان في تفسير القرآن»، طبع في مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م وفي المطبعة العامرة بالقسطنطينية سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م؛ و«حاشية على تفسير جزء النبأ من أنوار التنزيل» للبيضاوي وهو مخطوط[٤]؛ و«تفسير سورة يوسف» طبع في المطبعة العامرة بالقسطنطينية سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م؛ و«حاشية على شرح رسالة آداب المناظرة لطاش كوبري زاده» طبعت في مطبعة الحاج علي رضا بالقسطنطينية سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م؛ و«شرح متن الولدية في علم المناظرة لسَاچَقْلِي زاده محمد المرعشي» طبع بالقسطنطينية سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م؛ و«شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر لابن حجر» وهو مخطوط[٥].

وإسماعيل الزهدي الكُوسْتَنْدِيلِي المتوفى بعد سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م. له «تحريرات على حاشية محمد أمين الشرواني المسماة بجهة

---

(١) منه نسخة بخط المؤلف بمكتبة راغب باشا تحت رقم ١١٦٣.

(٢) منه نسخة في مكتبة بيازيد تحت رقم ٨٧٥ (ب ٦٨-ب٧٣).

(٣) هدية العارفين، ١، ٢١٩؛ معجم المؤلفين، ١، ٣٢٦؛

Osmanlı Müellifleri, I, 120.

(٤) منه نسخة بالمكتبة السليمانية قسم چلبي عبد الله تحت رقم ٣٥ وقسم الفاتح تحت رقم ٤٩٠.

(٥) منه نسخة بمكتبة بايزيد قسم بايزيد تحت رقم ٨٠٤ والمكتبة السليمانية قسم قصيده جي زاده تحت رقم ٢٢٤.

الوحده على شرح ملا الفناري على إيساغوجي المسمى بالفوائد الفنارية» وهو مخطوط[1].

وإسماعيل نيازي بن عثمان بن بكر الشمني، من قرية قره أحدلز التابعة لمدينة شمني، المتوفى في حدود سنة ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٩م[2]. نزل بلدة عثمان پزاري المعروفة اليوم بأومرتاغ حيث كان مفتيًا ومدرسًا. له من المؤلفات بالعربية: «رفع الأستار في حل مغلقات الإظهار شرح كتاب إظهار الأسرار في النحو لمحمد البِرْكِوِي»، طبع في مطبعة مِهران بالقسطنطينية سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٤م؛ و«تفهيم المتفهم شرح تعليم المتعلم طرق التعلم للزرنوجي»، طبع عدة طبعات قديمًا وحديثًا أولها بالقسطنطينية سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٧م؛ و«شرح ديباجة إيساغوجي»، وهو مخطوط[3]؛ و«إظهار المقدرات على إيساغوجي» وهو مخطوط[4]؛ و«الألفاظ في بيان وضع ألفاظ» وهو شرح الرسالة الوضعية في المنطق لعضد الدين الإيجي وهو مخطوط[5]؛ و«المنظرة الشجرية شرح رسالة القنطرة الحجرية لطاش كوبري زاده»، ألفها سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م وهو مخطوط[6]؛ و«العمدة على البردة شرح قصيدة البوصيري المشهورة»، ألفها سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م، وهو مخطوط[7].

---

(١) منه نسخة من سنة ١٢٥٥هـ بخط أحد تلاميذ المؤلف بمكتبة زيتين أوغلو في بلدة طوشانلي تحت رقم ٤٨٦.

(٢) هدية العارفين، ١، ٢٢٣؛

Osmanlı Müellifleri, I, 420

(٣) منه نسخة بمكتبة كلية الإلهيات التابعة لجامعة مرمرة في إستانبول تحت رقم YZ ٦٩٥ (٢٤ب-٢٨ب).

(٤) منه نسخة بمكتبة كلية الإلهيات التابعة لجامعة مرمرة في إستانبول تحت رقم YZ ٦٩٥ (٣٠ب-٣٨ب)؛ وأخرى بمكتبة أتاتورك التابعة لبلدية إستانبول قسم بلديه يازمه لري تحت رقم K١٥٧٠ (١ب-١٥أ).

(٥) منه نسخة من سنة ١٢٥٩ هـ/ ١٨٤٣م بمكتبة حسن باشا الشعبية في جوروم تحت رقم ٦٧٦١ (١ب-٧ب).

(٦) منه نسخة من سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م بمكتبة حسن باشا الشعبية في جوروم تحت رقم ٦٧٦١ (١٥أ-٣٣أ).

(٧) منه نسخة من سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م بمكتبة كلية الإلهيات التابعة لجامعة مرمرة في إستانبول تحت رقم YZ٧٦٠ (٣٠ب-١٢٨أ).

وبالي أفندي الصوفيوي الصوفي المفسّر الفقيه المتوفى سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م. من مؤلفاته بالعربية: «شرح فصوص الحكم لابن عربي»، طُبع في المطبعة النفيسة العثمانية بالقسطنطينية سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م؛ و«رسالة القضاء والقدر» طبعت في إستانبول سنة ٢٠٠٦م[1]؛ و«رسالة تحقيقات بالي في تفسير آيات مختلفة» وهي مخطوط[2].

وحامد محمود أفندي النَّوْرَقُوبِي المتوفى سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م[3]. له تعليقات على حاشية عصام الدين الإسفرائيني على الفوائد الضيائية لعبد الرحمن الجامي، وهي مخطوط[4].

وحسن بن حسن حمدي الزَّغْرَوِي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م. له كتاب «بحر الأسرار حاشيةٌ على نتائج الأفكار شرح إظهار الأسرار للبركوي في النحو» وهو مخطوط[5].

وحسن بن مصطفى الإِسْلِمْيَوِي ثم الإسلامبولي المعروف بنازك زاده المتوفى بعد سنة ١١٩٦هـ/ ١٧٨٢م. من مؤلفاته: «شرح الرسالة الولدية لساجقلي زاده محمد المرعشي» وهو مخطوط[6]؛ وحاشية على شرح طاش كبري زاده لرسالته في علم آداب البحث والمناظرة وهي مخطوط[7]؛ وحاشية

---

(١) نشرت في مجلة كلية الإلهيات بجامعة مرمرة في إستانبول. انظر:
Hatice Arpaguş, «Sofyalı Bali Efendi'nin Kazâ ve Kader Risâlesi ve A'yân-ı Sâbite Açısından İnsanın Sorumluluğu", Marmara Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi, sayı 30, (2006 / 1), 51 - 88.

(٢) منه نسخة في المكتبة السليمانية قسم دار المثنوي تحت رقم ٥٥/ ١ (١ب-٢٩أ).

(3) Sicill-i Osmanî, II, 598.

(٤) منه نسخة من سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م في المكتبة السليمانية قسم يازمه بغيشلري تحت رقم ٢١١٦.

(٥) منه نسخة تقع في مجلدين بمكتبة بايزيد في إستانبول تحت رقم ٢٩١٠ و٢٩١١.

(٦) منه نسخة بمكتبة المخطوطات في أدرنه تحت رقم ٩٩٥.

(٧) منها نسخة من سنة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م بخط المؤلف بمكتبة المخطوطات الإقليمية في قونيا قسم بردور تحت رقم ١٥٩٠.

على شرح القازابادي على رسالة الاستعارة لأبي القاسم الليثي السمرقندي، سماها «تعليقات عديدة لشرح الفريدة» وهي مخطوط[1].

وخضر بن علي الروسجقي المتوفى في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري. وهو من طلبة محمد بن عبد الله الشهير بملا چلبي قاضي عسكر الأناضول. له تعليقات على أول مرفوعات الكافية لابن حاجب أهداها إلى السلطان محمد الثالث، وهي مخطوط[2].

وخليل بن علي الصوفيوي من علماء القرن الثاني عشر الهجري. له رسالة في وجوه براهين إثباب الواجب والتوحيد، أهداها إلى مصطفى بن فيض الله أفندي أحد شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية، وهي مخطوط[3].

وصالح فكري الفلبوي المتوفى بعد سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م. له شرح على متن «بيان الحقائق في الوضع والاستعارة» طبع في مطبعة على رضا أفندي بالقسطنطينية سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م.

وعثمان فضلي بن فتح الله زيادة الشمني ثم الإسلامبولي الجلوتي المعروف بآت پازارى المتوفى سنة ١١٠٢هـ/ ١٦٩١م[4]، وهو شيخ إسماعيل حقي الآيدوسي. من تصانيفه بالعربية: «اللائحات البرقيات في كشف الحجب والأستار عن وجوه أسرار بعض الأحاديث والآيات» وهي مخطوط[5]؛ و«مصباح

---

(١) منها نسختان بخط المؤلف كلتاهما من سنة ١١٩٦هـ/ ١٧٨٢م، الأولى في مكتبة كوبريلي قسم وقف محمد عاصم بك تحت رقم ٥٢٨/ ٢؛ والثانية في مكتبة أتاتورك التابعة لبلدية إستانبول قسم بلديه يازمه لري تحت رقم K ٩٤٢ (٧٢ب-٨٩ب).

(٢) منه نسخة من سنة ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م بمكتبة ملّت في إستانبول قسم علي أميري تحت رقم ٣٦٠٧.

(٣) منه نسخة بالمكتبة السليمانية قسم چلبي عبد لله تحت رقم ٣٨٩.

(٤) هدية العارفين، ١، ٦٥٧؛
Osmanlı Müellifleri, I, 31; Sicill-i Osmanî, IV, 1297.

(٥) منه نسخة بخط المؤلف بالمكتبة السليمانية قسم رئيس الكتاب مصطفى أفندي تحت رقم ٥١١ (٩٤ب-١٢٣ب).

القلب شرح مفتاح الغيب لصدر الدين القونوي في التصوف» وهو مخطوط[١]؛ وحاشية على مختصر التفتازاني في علم المعاني، طبعت في مكتبة علي رضا أفندي بالقسطنطينية سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م؛ وحاشية على مطول التفتازاني في علم المعاني، وهي مخطوط[٢]؛ و«التفتيح لمغلقات أبواب التنقيح» وهو مخطوط[٣]؛ و«الترويح من صِعاب التلويح» وهو مخطوط[٤]؛ و«مرآة أسرار العرفان على إعجاز البيان»، وهي حاشيةٌ على تفسير فاتحة القرآن لصدر الدين القونوي، وهي مخطوط[٥].

وعبد الله بن دستان مصطفي الپتريجي المدرّس الحنفي المعروف بابن دستان المتوفى سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م[٦]. له بالعربية: «رسالة في فضائل ذكر الله عز وجل» طبعت في مطبعة الحاج محرم أفندي بالقسطنطينية سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م؛ ورسالة «برهان الهدى في رد قول النصارى»، وهي مخطوط[٧]؛ و«الرسالة الصمصامية في الرد على الطائفة النصرانية»، وهي مخطوط[٨].

ومحمد بن عمر التتار پزاري الفقيه المفسر الصوفي المعروف بقورد أفندي المتوفى سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م. له بالعربية: «مرشد الأنام إلى دار السلام شرح شرعة الإسلام لمحمد بن أبي بكر المعروف بإمام زاده»، وقال عنه كاتب چلبي في كشف الظنون: إنه أعظم شروح شرعة الإسلام[٩]، وهو مخطوط[١٠].

---

(١) منه نسخة بخط المؤلف من سنة ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م بالمكتبة السليمانية قسم رئيس الكتاب مصطفى أفندي تحت رقم ٥١١ (١ب-٨٨أ).

(٢) منه نسخة من سنة ١٠٨٤هـ/ ١٦٠٧م بالمكتبة السليمانية قسم أسعد أفندي تحت رقم ٢٩٧١.

(٣) منه نسخة من سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م بالمكتبة السليمانية قسم يحيى توفيق تحت رقم ١٣٩٩.

(٤) منها نسخة بمكتبة المخطوطات الإقليمية في قونيا تحت رقم ١٨٦٥.

(٥) منه نسخة من سنة ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م بمكتبة راغب باشا في إستانبول تحت رقم ١٦٢.

(٦) هدية العارفين، ١، ٤٩٢؛ معجم المؤلفين، ٢، ٢٤١؛
Osmanlı Müellifleri, I, 333.

(٧) منه نسخة في دار الكتب المصرية، أشار إلى ذلك محمد طاهر البروسوي.

(٨) منه نسخة في دار الكتب المصرية، أشار إلى ذلك محمد طاهر البروسوي.

(٩) كشف الظنون، ٢، ١٠٤٤.

(١٠) منه نسخة بخط المؤلف من سنة ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م في مكتبة حاجي سليم أغا بإستانبول تحت رقم ٥٠٥.

ومحمد خير الدين الفيضي بن أحمد خليل الفوزي المعروف بفلبوي خواجه زاده المتوفى سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م. من مؤلفاته بالعربية: «رسالة توشيح الأصول»، جمع فيها بعض المسائل المهمة والفوائد الجمة من الأصول الشرعية تسهيلًا للحفظ والمطالعة وتنفيعًا لأرباب الممارسة، ورتبها على أسئلة وأجوبة للإيضاح ولتحقيق المسائل[1]، وقد طبعت في مطبعة الخطاط توفيق أفندي بالقسطنطينية سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م، ونسبها إسماعيل البغدادي خطأ إلى الوالد[2]؛ و«الجوهرة المشتملة على الأسئلة والأجوبة من الفنون الآلية الأربعة الصرف والنحو والمنطق والبلاغة»، ألّفها بأمر والده حين كان يُقرئه مع مجموعة من الطلبة في الحرم النبوي بالمدينة المنورة كتاب «تلخيص المفتاح» للقزويني، وطبعت في المطبعة العامرة بالقسطنطينية سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م.

ومحمد راشد بن إبراهيم الهَزَارْغَرَادِي المدرّس المتوفى بعد سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م. له «إيضاح الفرائض بالعربية مع بعض التوضيحات اليسيرة جدًا بالعثمانية»، طبع في مطبعة رفعت أفندي بالقسطنطينية سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م.

ومحمد النوري بن إبراهيم وهبي الصُّوفِيَوِي المتوفى بعد سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م. له «كتاب شرح وإعراب الرسالة الشمسية في المنطق»، ألّفه في أثناء تدريسه في مدرسة أُوْرَنُوسْ بمدينة يَنِيجَهْ وَارْدَارْ (الواقعة حاليا في اليونان)، التي هاجر إليها بعد سقوط مدينة صوفيه، وطبع في مطبعة إسماعيل أفندي بالقسطنطينية سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م.

ومصطفى بن خليل الزغرَوِي المتوفى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري. له بالعربية: «رسالة البسملة»، طبعت ضمن مجموعة

---

(١) محمد خير الدين الفيضي بن أحمد، توشيح الأصول، الطبعة الأولى، (إستانبول: مطبعة توفيق أفندي، ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م)، ٢.

(٢) هدية العارفين، ١، ٣٥٧.

رسائل في المطبعة العامرة بإستانبول سنة ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م؛ و«رسالة التعوذ» طبعت ضمن مجموعة رسائل سنة ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م؛ و«رسالة تأويل المفرد» وهي شرح لقول الإمام البركوي في كتابه «إظهار الأسرار»، و«أن مع خبرها في حكم المصدر»، طبعت مستقلة في المطبعة العامرة بالقسطنطينية سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م، وضمن مجموعة رسائل في مطبعة عارف أفندي بالقسطنطينية سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م.

ومصطفى راقم بن مصطفى الآيدوسي المتوفى سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م[1]، من كبار المدرّسين بجامع الفاتح في إستانبول، له حاشية على حاشية عماد الدين الكاشي على شرح كمال الدين الشرواني على رسالة آداب البحث وطرق المناظرة لشمس الدين السمرقندي، وهي مخطوط[2].

ومصطفى نيازي بن عيسى الإِسْلِمْيَوِي المتوفى بعد سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م. له تقريرات على كتاب مرآة الأصول لملا خسرو، الذي هو شرح كتابه «مرقاة الوصول في أصول الفقه»، وهو مخطوط[3].

ومحمد المقرئ الشمني، له «تخميس القصيدة النونية في العقيدة لخضر بك»، وهي مخطوط[4].

ومصطفى شوكت بن عمر البِلَوْنَوِي المتوفى سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م. له «خلاصة الوضع في علم الوضع» طبعت على صحيفة كبيرة في المطبعة العامرة سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م؛ و«متن المواضع في علم الوضع» أيضًا، طبع كذلك في المطبعة العامرة سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م[5].

---

(1) Huzur Dersleri, II-III, 219, 909; Son Devir Osmanlı Uleması, IV, 107.

(٢) منه نسخة بالمكتبة السليمانية قسم عثمان خلدي تحت رقم ٢٣٠٨.

(٣) منه نسخة غير مكتملة بخط المؤلف بمكتبة كلية الإلهيات التابعة لجامعة مرمرة قسم المخطوطات تحت رقم ٩٢٩.

(٤) منه نسخة بخط المؤلف بمكتبة ملّي في أنقره تحت رقم YZ A ٤٧١١.

(5) Son Devir Osmanlı Uleması, IV, 130.

ومصطفى بن عمر الوِدِيني المتوفى سنة ١٢٧١هـ/ ١٨٧٧م[١]. كان من كبار المدرسين بجامع الفاتح وأكثرَ الأساتذة طلابًا، إذ أجاز فوجين وكان يزيد عددهم على الألف. ومن أشهر طلابه: أحمد جودت باشا وشيخ الإسلام حسن فهمي أفندي. صنّف بالعربية: «تقرير المرآة» وهو عبارة عن تقريراته في أثناء تدريسه، «مرآة الأصول في شرح مرقاة الوصول» لملا خسرو، طبع مرتين في القسطنطينية سنتي ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م و١٣١١هـ/ ١٨٩٣م؛ ورسالة امتحانية حامدية، طبعت في القسطنطينية أيضًا سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م.

ومصلح الدين مصطفى بن نور الدين أحمد الفلبوي المعروف بنور الدين زاده الفلبوي الصوفي المفسّر الفقيه المتوفى سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م. أكثر مؤلفاته بالعربية وكلها مخطوطة. من أهمها تفسير سورة الفاتحة وسورة البقرة (إلى آية رقم ٤٠)[٢]، و«رسالة في تفسير سورة القدر»[٣]، و«رسالة في تفسير سورة العصر»[٤]، و«رسالة في معراج النبي صلى الله عليه وسلم»[٥]، و«شرح النصوص في تحقيق الطور المخصوص لصدر الدين القونوي»[٦]، و«رسالة في فضائل الجهاد»[٧]، و«رسالة متعلقة في الحكم والمحكوم»[٨].

---

(١) هدية العارفين، ٢، ٤٥٨؛
Huzur Dersleri, II-III, 188, 861; Osmanlı Müellifleri, I, 463; Sicill-i Osmanî, IV, 1158.

(٢) منه نسخة في المكتبة السليمانية قسم رشيد أفندي تحت رقم ١٤٢.

(٣) منه نسخة في مكتبة محافظة منيسا الشعبية قسم رشيد أفندي تحت رقم ١١٣٧/ ٢.

(٤) منه نسخة من سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م في المكتبة السليمانية قسم حسن حسني باشا تحت رقم ٧٦٣ (٣٧أ-١٤٣أ).

(٥) منه نسخة في المكتبة السليمانية قسم أسعد أفندي تحت رقم ١٤٤٨.

(٦) منه نسخة في المكتبة السليمانية قسم شهيد علي باشا تحت رقم ١٢٧٨.

(٧) منه نسخة في المكتبة السليمانية قسم آيا صوفيه تحت رقم ١٩٨٧.

(٨) منه نسخة في المكتبة السليمانية قسم لاله لي تحت رقم ٣٧١١ (٤٩-٥٠).

ويوسف بن محمد بن إبراهيم الشمني المفسّر الصوفي المتوفى سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م[١]. هاجر من مسقط رأسه بعد تحصيل العلوم إلى أدرنه، حيث عمل مدرّسًا لعلم المنطق بالمدرسة الإعدادية العسكرية، ودرّس العربية والتفسير في المسجد العتيق. له بالعربية رسالة «الإمعان في جمع القرآن»، أهداها إلى جنكل زاده طاهر باشا والي أدرنه في وقته، وهي مخطوط[٢].

ويونس بن أحمد الصوفيوي المتوفى بعد سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م. له شرح مفصّل على «متن الوقاية» لبرهان الشريعة وإيضاحِه لصدر الشريعة في الفقه الحنفي، ألفه في مدة ٢٢ سنة من سنة ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م إلى سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م، تيسيرًا للأصل في أثناء تدريسه لطلبةَ العلم، وهو مخطوط[٣].

وهكذا يتبين بشكل واضح أن عشرات ممن وقفنا على أسمائهم وتراجمهم من علماء البلقان من بلغاريا، خدموا المنطقة العربية طوال الحكم العثماني على طريق وظائف رسمية، كالقضاء والولاية والتدريس، كما خدموها بتأليفات علمية لا سيما المطبوع منها، إذ كان أكثر انتشارًا وأسهل تناولًا. ولا شك أن هذه الخدمات التي قدمها علماء البلقان لإخوانهم العرب كانت قبل كل شيء نتيجة تشرّفهم بالإسلام، إذ كان سبب تحدثهم بالعربية ومصدر النظام الذي جعلتهم ينتشرون في أنحاء العالم بوظائف مختلفة.

---

(1) Osmanlı müellifleri, I, 230; Hür Mahmut Yücer, Osmanlı Toplumunda Tasavvuf (19. Yüzyıl), (İstanbul: İnsan Yayınları, 2003), 315; Ahmed Bâdî, Riyaz-ı Belde-i Edirne: 20. yüzyıla kadar Osmanlı Edirne'si, (Edirne: Trakya Üniversitesi Yayınları, 2014), II/2, 1490.

(٢) منه نسخة من سنة ١٠٣٨هـ/ ١٨٩٠م بمكتبة السليمية للمخطوطات في أدرنه تحت رقم ٤٧٥٦.

(٣) منه نسخة في مجلدين من سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩ م بخط المؤلف بمكتبة زيتين أوغلو في بلدة طوشانلي تحت الرقمين ٤٤٩ و٥٠٠، ونسخة أخرى من سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م بخط المؤلف أيضًا في مكتبة آماسيا للمخطوطات قسم كُمُوش حاجي كوي تحت رقم ١٩١.

المخطوطات العربية في ألبانيا وكوسوفا

فتحي مهدي[1]

تتميز منطقة البلقان بغناها بالمخطوطات في اللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية)، وخاصة في البوسنة وألبانيا، التي كانت حتى استقلالها في ١٩١٢ تُعرف في كتب التاريخ والجغرافيا بـ«بلاد الأرناؤوط». وكانت الصحافة العربية حتى ذلك الحين (الأهرام والمقطم والمحروسة.. الخ)[2] تستخدم هذا الاسم، على حين أنه بعد استقلالها اشتهرت باسم ألبانيا. وفي إطار ذلك الاسم التاريخي- الجغرافي لدينا الآن دولتان ألبانيتان: ألبانيا وكوسوفا. وعلى حين أن ألبانيا استقلت عام ١٩١٢ فإن استقلال كوسوفا تأخر حتى ٢٠٠٨، حيث اعترفت بها حتى الآن ١٠٨ دول من دول العالم.

لقد حُفظت المخطوطات العربية في ألبانيا وكوسوفا بحرص شديد. ويبدو ذلك في نهاية المخطوطات أو على هوامشها، حيث يظهر أنها كانت تنتقل بحرص من شخص إلى آخر، كما تبرز على هوامشها ملاحظات تدل على توقيت ملاحظة ما أو مناقشة جرت حول مضمونها[3].

---

(١) أستاذ في قسم الدراسات الشرقية بجامعة بريشتينا، كوسوفا.

(2) Feti Mehdiu, Ca të dhëna të shtypit arab për Lëvizjen kombëtare shqiptare, Kosova, nr. 5, 1976, Prishtinë, pp.177 - 200.

(3) Feti Mehdiu, Islam kod albanaca u svjetlu rukopisnih djela, Zbornik Zagrebačke džamije, nr. 7, 1997, Zagreb, pp. 7386-. (Islam u zapadnom svijetu).

وفي هذا السياق لدينا مجموعة مشهورة من المخطوطات العربية في المكتبة الخاصة لآل بوشاتلي (Bushatlinjët)، الذين حكموا شمال ألبانيا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر[1]. وقد ضمّت هذه المجموعة بعد استقلال ألبانيا إلى المكتبة الوطنية في تيرانا. ومن ناحية أخرى تجدر الإشارة إلى أن مكتبة الأوقاف في بريشتينا التي تأسست في ١٩٥١، وأصبحت تعتبر تحت حماية الدولة لقيمة المخطوطات الموجودة فيها، ضمّت في ١٩٦١ بعض المجموعات من المخطوطات العائدة إلى بعض الشخصيات المعروفة، مثل الحاج حسن جيها وبيرم يونس ديفا وغيرهم، الذين قاموا بإهدائها إلى المكتبة[2].

وكما هو معروف فالمخطوطات هي ثروة نادرة[3]، وهي تتمتع بأهمية خاصة بالنسبة إلى التاريخ الثقافي للمكان التي تُحفظ فيه. فالمخطوطات توضح عدة جوانب من الحياة والمستوى الثقافي للشعب في ذلك المكان.

وحين نرى أن المخطوطات العربية التي تعود إلى القرن الرابع عشر والخامس عشر للميلاد في ألبانيا وكوسوفا قد كُتبت في إستانبول وحلب وغيرها، يظهر أن النخبة الألبانية قدّرت قيمة هذه المخطوطات وحملتها إلى بلادها حتى تتركها لنا إرثًا ثقافيًا يستحق الحفظ. ومن ناحية أخرى لدينا مخطوطات كتبت أو نسخت في المدن الألبانية كتبلينا (Tepelena) ورسنه (Resna) واسكوب (Shkupi) ومناستير (Manastiri) وغيرها، وهو ما يدل على المستوى الثقافي في هذه المدن خلال القرون السابقة.

وعلى حين أن مكتبة الغازي خسرو بك ومعهد الدراسات الشرقية في سراييفو، أصدرا فهرس المخطوطات الموجودة في البوسنة تحت عنوان «فهرس المخطوطات العربية والتركية والفارسية»[4]، نجد أنه في

(1) Gazmend Shpuza, Koleksioni i dorëshkrime orientale i Bushatlive, Edukata Islame, nr. 702003/, Prishtinë, pp.95 - 112.

(2) Glasnik islamskog starješinstva, nr. 101957 ,12-, Sarajevo.

(3) Feti Mehdiu, Dorëshkrimet orientale pasuri e rrallë, Bota e Re, dt. 25 maj, 1988, Prishtinë.

(4) Kasim Dobraca, Katalog arapskih, turskih i perziskih rukopisa, svezak, 1. Sarajevo, 1963; Kasim Dobraca, Katalog arapskih, turskih i perziskih rukopisa, vezak, 2. Sarajevo, 1972; ... 3, 4, 5,... 18/ 2013.

ألبانيا وكوسوفا صدرت الفهارس تحت عناوين مفصلة، مثل «فهرس المخطوطات العربية» و«فهرس المخطوطات العثمانية في مراكز الأرشيف بألبانيا»، بالإضافة إلى بعض المقالات التي صدرت في تيرانا[1] وبريشتينا[2] وسراييفو[3] وزغرب[4] وغيرها.

ويمكن القول إن الأوساط العلمية في العالم العربي بدأت تتعرّف على هذه المخطوطات منذ ١٩٦٦. ففي تلك السنة نشر د. حسن كلشي[5] في مجلة «معهد المخطوطات العربية» (عدد ١٢، القاهرة ١٩٦٦) دراسته «المخطوطات العربية في يوغسلافيا»[6].

وبذلك فتح د. كلشي أول نافذة ليطّلع من خلالها العرب على المخطوطات العربية في كوسوفا ومكدونيا والبوسنة وصربيا. وفي ١٩٨٢ نشر د. محمد موفاكو في «مجلة معهد المخطوطات العربية» أيضا دراسته «حول المخطوطات العربية في جنوب يوغسلافيا»، التي دعا فيها إلى الاهتمام بهذه المخطوطات في كوسوفا[7]. أما في اللغة الألبانية، فقد

(1) Arnavutluk Devlet Aršhivleri Osmanli Yazmalar Katalogu, Ankara-Tirana, 2001, p.210.

(2) Mr.Sc.Sadik Mehmeti, Dorëshkrimet orientale në Arkivin e Kosovës, Prishtinë, 2008, p.200.

(3) Feti Mehdiu, Arapski rukopisi bosanskog porijekla sačuvanih u Vakufskoj Biblioteci u Prishtini, Anali Gazi Husrevbegove Biblioteke, nr. XVII-XVIII, 1996, Sarajevo, pp. 163 - 169.

(4) Feti Mehdiu, Islam kod albanaca u svjetlu rukopisnih djela, see: nr. 2.

(5) See: *Kaleshi (Ahmed) Hasan,* Fjalor Enciklopedik Shqiptar, 2, Tiranë, 2008, pp. 1095(Feti Mehdiu); Dr.Hasan kaleshi, Vepra-1, Shkup, 1996, p.230; *Islam Ansiklopedisi,* vol. 25, Ankara, 2002, p. 258.

(٦) د. حسن قلشي، المخطوطات العربية في يوغسلافيا، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ١٢، القاهرة ١٩٦٦، ص٣-٢٠.

(٧) د. محمد موفاكو، حول المخطوطات العربية في جنوب يوغسلافيا، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ٢٦، ص٥٤١-٥٥٤.

قال لي المؤلف في حديث شخصي إنه بعد نشر هذه الدراسة تبرّع معهد المخطوطات العربية بعد زيارة مديره المرحوم د. خالد عبد الكريم إلى كوسوفا بمبلغ خمسة آلاف دولار إلى المكتبة الوطنية في بريشتينا، للاعتناء بهذه المخطوطات، ولكنها للأسف لم تصرف فيما خُصصت له.

نشرت أول دراسة عن هذه المخطوطات في تيرانا عام ١٩٨٤ وفي بريشتينا عام ١٩٨٨ (١).

وأما في هذه الورقة فسنعرّف بشكل أوسع بالمخطوطات العربية المحفوظة في مكتبات تيرانا وبريشتينا. وفي الحقيقة إن هذه الورقة هي حصيلة الأبحاث الشخصية التي قمت بها خلال ١٩٧٥-١٩٨٥، وخلال ٢٠٠٢-٢٠٠٤، واستكملت معطياتها بما نشر في المجلات الألبانية(٢).

وكنتُ قد عرّفتُ بمكتبة الأوقاف في بريشتينا بمقالة لي نُشرت في زغرب بالكرواتية عام ١٩٩٧ (٣). وللأسف الشديد، ونتيجة لظروف موضوعية، لم يكن بالإمكان أن تنشر عناوين هذه المخطوطات باللغة الأصلية، أي العربية. وعلى هذا النحو للأسف تم التعريف أيضا بالمخطوطات العربية الموجودة في مكتبة آل بوشاتلي، وتلك المحفوظة في الأرشيف المركزي للدولة في تيرانا، وكذلك في المكتبة الوطنية بتيرانا(٤). ومن هنا يمكن القول إنه لدينا استثناء يتعلق بمجموعة المخطوطات الشرقية المحفوظة في أرشيف كوسوفا، التي تم التعريف بها حسب الأصول العلمية المتبعة في فهرسة المخطوطات الشرقية(٥).

وحسب المعطيات التي تجمعت لدينا حتى الآن حول المخطوطات العربية في ألبانيا وكوسوفا، يتضح أنه من أصل ثلاثة آلاف مخطوطة في اللغات الشرقية لدينا ١١١٣ مخطوطة في اللغة العربية. أما المخطوطات الباقية فهي في اللغتين التركية والفارسية. وتحفظ هذه المخطوطات في مركزين رئيسيين: في تيرانا وبريشتينا.

---

(1) Zana Lito, *Dorëshkrime në gjuhët orientale në fondet e Bibliotekën Kombëtare*, Drita, nr. 11, dt. 11 Mars, 1984, Tiranë; *Feti Mehdiu, Dorëshkrimet orientale pasuri e rrallë*, Bota e Re, dt. 25 maj, 1988, Prishtinë.

(2) Drita, Tiranë, *Perla*, Tiranë.

(3) Feti Mehdiu, *Islam kod albanaca u svjetlu rukopisnih djela*, see: nr. 2.

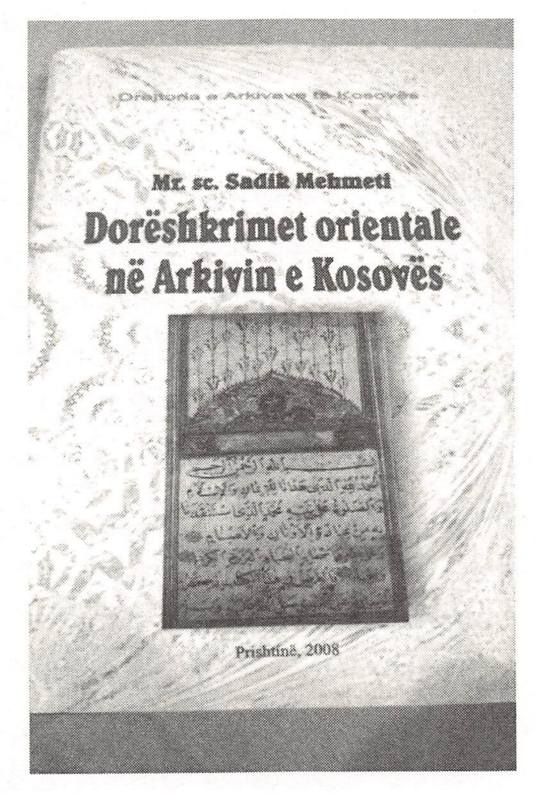
(4) Gazmend Shpuza, *Dorëshkrime arabisht në Bibliotekën Kombëtare në Tiranë*, Perla, nr. 1/ 1997; nr. 21997/3-, Tiranë, 1997; Shpuza Gazmend, Fjalor Enciklopedik Shqiptar, 3, Tiranë, 2008, pp. 2536.

(5) See: 8.

وسنقوم هنا بالتعريف بهذه المخطوطات في كل مركز على حدة.

في تيرانا لدينا ٧٥٦ مخطوطة في اللغة العربية محفوظة في المكتبة الوطنية بتيرانا وفي الأرشيف المركزي للدولة(١).

أما في بريشتينا فلدينا ٧٠ مخطوطة مفهرسة في أرشيف كوسوفا(٢)، على حين أنه لدينا في المكتبة الوطنية أكثر من ألف مخطوطة، منها فقط خمسون مخطوطة معروفة للجمهور. وفي مكتبة الأوقاف، التي أصبحت الآن مكتبة المدرسة الإسلامية «علاء الدين» في بريشتينا لدينا ١٣٠ مخطوطة، معروفة بشكل جزئي للأوساط العلمية، بينما لدينا هناك ١٢٧ مخطوطة غير معروفة أو غير مفهرسة(٣).



(1) See:7.
(2) See: 17.
(3) See: 9.

ولا بد من القول إن الأرقام المذكورة (٧٦٥ و١٣٠ و١٢٧ و١١١٣) يمكن أن تتغير بعد فهرستها حسب الأصول العلمية؛ لأن بعضها مجاميع، كما وأضيف إليها فيما بعد. وحتى رقم (٥٠) المذكور بالنسبة للمكتبة الوطنية في بريشتـينا يعتبر متواضعًا؛ لأنه لدينا هناك حوالى ألف مخطوطة تنتظر من يفهرسها حتى تصبح معروفة للجمهور[1].

وبين هذه المخطوطات العربية المذكورة (١١١٣) لدينا نسخ نادرة للقرآن الكريم، منها ما هو كامل، ومنها ما يضم جزءًا أو أجزاء وحتى بعض الآيات فقط، ولدينا تفاسير للقرآن الكريم مثل «الكشاف» لجلال الدين السيوطي والقاضي البيضاوي، كما لدينا نسخ من صحاح الأحاديث كـ «صحيح البخاري» وغيره.

وبالإضافة إلى هذه لدينا مخطوطات في الفقه والعقائد واللغة العربية والأدب والمنطق والطب.. الخ. ومن هذه المخطوطات لدينا مجلدات «إحياء علوم الدين» للغزالي وغيرها.

ومن ناحية أخرى تفيدنا الملاحظات الموجودة على المخطوطات في التعرف على بعض جوانب الحياة الثقافية خلال الحكم العثماني. فبعض المخطوطات توشح باسم صاحب المخطوط، وهو ما يساعدنا مثلًا على التعرف على بعض المؤلفات الموجودة في مكتبة مفتي بريشتينا، ومن ذلك نسخة قديمة من تفسير البيضاوي تعود إلى ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م. وعلى حين نجد أن بعض المخطوطات نُسخت في البلاد العربية، وحملت إلى كوسوفا وألبانيا مثل «ملتقى الأبحر» الذي نسخ في بعلبك عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م، نجد أن بعض المخطوطات نسخت على أيدي طلبة علم كوسوفيين خلال دراستهم في العالم الإسلامي، كما هو الأمر مع «مرآة الوصول» التي نسخها يونس البرشتنوي «في مدرسة دباغ مراده بإسلام بول» عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٧٢م.

ومن ناحية أخرى نجد في نهاية بعض المخطوطات وقفيات تدل على وقف هذه المؤلفات، ومن ذلك وقف كتاب صدر الشريعة الذي تدل وقفيته على وجود مكتبة عامة في جاكوفا (كتبخانه ياقوه) في ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

---

(1) Katalog Dorëshkrime Arabe në Kosovë, Prishtinë, 2008, p. 60.

وبالاضافة إلى هذه المؤسسات، لدينا الكثير من المخطوطات العربية المحفوظة في المكتبات الخاصة لدى الأسر العريقة، أو في بعض الأماكن الأخرى.

ففي بريزرن (Prizren) لدينا مكتبة مدرسة محمد باشا، التي استمرت تحتفظ بتراثها منذ تأسيسها في منتصف القرن السادس عشر (١٥٤٧م). فقد حافظت هذه المكتبة على الكثير من المخطوطات في العربية والتركية والفارسية حتى سبعينيات القرن الماضي(١)، حيث فُقدت بعد ذلك بعض المخطوطات، وانتقل بعضها الآخر إلى مكتبة المدرسة الإسلامية في بريشتينا، حيث لا تزال تحتفظ بختمها الأصلي «مكتبة مدرسة محمد باشا بريزرن».



وفي جاكوفا (Gjakova) لم يعد هناك من وجود لمكتبة المدرسة الإسلامية الكبرى التي كانت موجودة، ولكن هناك الكثير من المخطوطات العربية التي لا تزال محفوظة في تكايا الطرق الصوفية. وعلى الرغم من أنه في

(1) Madžida bećirbegović, *Prosvetni objekti islamske arkitekture na Kosovu*, Starine Kosova, VI-VII, 19721973-, Prishtina, 1973.

كوسوفا جرت بعد حرب ١٩٩٩ حملة علمية للتقصّي عن المخطوطات العربية وغيرها، أفضت إلى توثيق وجود ألف مخطوطة، إلا أن هذه المخطوطات لا تزال تنتظر فهرستها حتى تطلع عليها الأوساط العلمية.

على كل حال، آمل أن تكون هذه الورقة قد فتحت نافذة جديدة لتعريف الأوساط العلمية في العالم العربي، بما هو موجود من مخطوطات عربية في ألبانيا وكوسوفا فقط، على اعتبار أنه لدينا ورقة أخرى عن المخطوطات العربية في مكدونيا.

وربما هنا تجدر ملاحظة أن ٨٠٪ من هذه المخطوطات تتعلق بالعلوم الإسلامية، وهي النسبة ذاتها التي تمثل المسلمين في هاتين الدولتين (ألبانيا وكوسوفا). ولا شك أن هذا العامل كان هو السبب الرئيس وراء وجود الكثير من المخطوطات العربية؛ لأن العربية تعتبر لغة الأساس للإسلام.

وضع اللغة العربية
في البوسنة والهرسك وتحدياتها

عمرة مولوفيتش[1]

تمثّل دراسة اللغة العربية في البوسنة والهرسك خبرة علمية استمرت قرونًا متعددة. وخلال تاريخها الطويل الثري كانت استمراريتها مهددة مرارًا وتكرارًا. في بداية الأمر كانت دراسة اللغة العربية تتطور باللغات الشرقية (والمقصود بها اللغات العربية والتركية والفارسية)، مدفوعةً بالأسباب التاريخية الإيديولوجية الدينية، داخل وحدة الدائرة الحضارية العلمية المشتركة التي ضمّتها إليها الإمبراطورية العثمانية بالفتوحات. عندما خرجت البوسنة عن دائرة نفوذ الدولة العثمانية، وجد محبو اللغة العربية طرق صقل هذه الخبرة العلمية بالمنهجية الجديدة والنهج العلمي الجديد لدراسة وتعليم اللغة العربية، وهم غير ناسين التراث المحفوظ والمسجل باللغات الشرقية. وكانت ممارسة دراسة وتعليم اللغة العربية هذه مرتبطة إلى حد كبير، كما سنرى بوضوح في هذا البحث، بمصير البلد الذي نشأت وتطورت فيه. وتميز في تاريخها الطويل مراحل مختلفة مع تناوب فترات النشاط العلمي المكثف وفترات الوجود الصامت.

إن غرض هذا البحث الأساسي هو دراسة أهم القضايا المتعلقة بدراسة اللغة العربية وتعليمها في البوسنة خلال هذه الفترات، بدءًا من فترة الحكم العثماني في البوسنة إلى وقتنا الحاضر، بالإضافة إلى استشراف

---

(١) أستاذة مساعدة في قسم اللغات الشرقية بجامعة سرايفو، البوسنة والهرسك.

المستقبل. سندرس في تلميحات موجزة العديد من المسائل المتعلقة بهذا الموضوع، التي من حيث أهميتها وتشعبها تحتاج أكثر من بحث لتغطيتها من كافة جوانبها.

عالم المخطوطات باللغة العربية من العهد العثماني

من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر كانت البوسنة في ظل حكم الدولة العثمانية، وخلال هذا العهد وهبت البوسنة للدولة العثمانية مجموعة من المبدعين، الذين كانوا يؤلفون آثارهم العلمية والفقهية والأدبية واللغوية باللغات الشرقية. ينبغي أن نتذكر أن هذا العالم الفكري والثقافي المميز الفريد، نشأ بعيدا عن مراكز السلطة السياسية والحياة الثقافية لهذه الدولة المترامية الأطراف. وكانت اللغة العربية وسيلة التعليم وموضوع الدراسة، وذلك لإثبات وجود الصلة الراسخة بالمصدر الأول للدين الإسلامي (القرآن الكريم)، ولتأسيس العلاقة المتينة بالعناصر المختلفة التي جلبها العثمانيون معهم إلى البوسنة. من هنا أثيرت دراسة اللغة العربية، وكانت تشكل فيما بعد بدوافع التطلعات العلمية الأنقى، وفي الوقت نفسه بدوافع الحاجات العملية والفعلية للحياة اليومية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

في الوقت المذكور كانت الحضارة الإسلامية خلال الحكم العثماني تعيش انحسارًا جغرافيًا وتخلفًا تاريخيًا. يظهر هذا الانحسار بجلاء في تغيير تركيز اهتمام العلماء من المعرفة والاكتشافات والبحوث العلمية الأصلية، إلى التركيز على تقييم الأعمال المبدعة في عصور الإسلام الذهبية. وهذا هو الأمر الذي أدى بالتالي إلى انحسار العلم أيضًا. كان نتيجة هذا التغيير المحدد تشجيع إبداع الأشكال المعينة من الأعمال العلمية، مثل التعليق والتفسير والشرح. وفي هذا الصدد، أي عن الثقافة الشرقية الإسلامية التي تنتمي إليها الأعمال المبدعة خلال حقبة الحكم العثماني في البوسنة، يقول د. أسعد دوراكوفيتش إنها: «تقاليد ثقافية أفقية» أكثر بمعنى الإبداعية والابتكار بعد انتهاء الانتشار، تحولت إلى «تقاليد ثقافية رأسية لأنه كان يبدو أنه يمكن

للتقاليد المعنية أن تستمر في التواجد فحسب عن طريق تأسيس المرجعيات والحفاظ عليها على نحو رأسي...»[١]. نظرًا لما قيل نجد في هذه الفترة في البوسنة الأعمال من طراز التناص للتواصل مع النصوص المهمة الكلاسيكية باعتبارها نصوصًا أصلية. يلاحظ جدرالوفيتش أن أول عمل نُسخ في البوسنة عام ١٥٧٣ كان في اللغة العربية وهو شرح الكافية لابن الحاجب[٢]. وقد تمّ تطبيق أسلوب إدراج الشرح والحواشي في النص الأصلي من جانب المؤلفين البشانقة، وتأليف المختصرات وأعمال التلخيص، التي أصبحت نموذجية ضمن الأشكال النثرية، وعلى وجه الخصوص ضمن الأعمال في مجال دراسة اللغة العربية. يقول ليوبوفيتش وجروزدانيتش إنه: «تتشكل هذه الأعمال النثرية الرفيعة إلى حد كبير للغاية من الكتب التعليمية والعلمية والمتخصصة، ذات طبيعة الكتب المدرسية في أغلب الأحوال»[٣]. ليس هناك أدنى شك أن هذه الإبداعات العلمية أُلفت نتيجة لتوجّه المتخصصين والباحثين البالغ إلى إنجازات الحضارة الإسلامية العربية في القرون الوسطى. تجدر الإشارة إلى أنه تعتمد على مرجعيات كلاسيكية أيضًا الكتيبات التعليمية لدراسة اللغة العربية وتعليمها، التي كانت مستخدمة في المؤسسات التعليمية مثل الكتاتيب والمدارس الإسلامية والمساجد والتكايا، التي أُنشئت بفضل الأوقاف في ذلك الحين في المدن مثل سرايفو وموستار وأقحصار (بروساتس) وبانيا لوكا وترافنيك وتوزلا وغيرها من المدن البوسنية.

---

(١) أسعد دوراكوفيتش، «مصطفى أيوبوفيتش – مساهمة في التقييم»، دراسات في أدب البوسنة والهرسك وفي الأدب العربي، ترجمة جمال الدين سيد محمد، الطبعة الأولى (الجزيرة، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١)، ١٦٤.

(٢) انظر:

Muhamed Ždralović, «Gramatičar Šejh Jujo i mostarska tradicija učenja arapskog jezika (od XVI. do druge polovice XIX. stoljeća)», in: Mudrost rađa toleranciju: Naučni skup povodom 350 godina od rođenja Mustafe Ejubovića - Šejha Juje i 400 godina predavanja «Mesnevije» u Mostaru, (2002), p. 38.

(٣) عامر ليوبوفيتش وسليمان جروزدانيتش، الأدب النثري للبوسنة والهرسك باللغات الشرقية، ترجمة جمال الدين سيد محمد، الطبعة الأولى (الجزيرة، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨)، ٣١.

تتوفر في قوائم المخطوطات الموجودة في المكتبات الأوروبية، ومكتبات دول العالم الإسلامي والدول المجاورة للبوسنة، ومكتبات وأرشيفات البوسنة والهرسك، ومن بينها مكتبة غازي خسرو بك ومكتبة المعهد البوشناقي، والأرشيف التاريخي والمكتبات الخاصة، عناوين مؤلفات أبناء البوسنة القيمة المخصصة لدراسة اللغة العربية وتعليمها. ضمن هؤلاء المبدعين أحمد سوديتش (القرن السادس عشر)، ومحمد موسيتش علامك (القرن السابع عشر)، وعبد الكريم إسماعيل ترافنيكي (القرن السابع عشر)، ومصطفى أيوبوفيتش- الشيخ يويو (القرنان السابع عشر والثامن عشر)، وإبراهيم أوبياتش (القرنان السابع عشر والثامن عشر) وغيرهم من المؤلفين البشانقة، الذين لديهم بحث أو أكثر في دراسة اللغة العربية. يجدر بالذكر أن جميع هؤلاء المبدعين البشانقة كانت لديهم معرفة بكل اللغات الشرقية المذكورة. هذا يعني أننا نشهد وجود بيئة متعددة اللغات في البوسنة في ذلك الزمن. من الطريف أن المؤلفين لم يعالجوا قضايا اللغة التركية التي كانت لغة مشتركة في العالم الإسلامي، وإنما تتعلق معظم الأعمال النحوية بمسائل اللغة العربية ولو كانت مكتوبة باللغة التركية.

ومما لا شك فيه أن التراث النحوي في البوسنة تأثر إلى حد كبير بالتراث النحوي الذي خلّفه علماء العربية القدماء في العصور الوسطى. المؤلفات النحوية في اللغة العربية تعتمد وتستند بشكل مباشر أو غير مباشر على إنجازات ومحصلات العلم العربي الإسلامي الكلاسيكي. لذلك لدينا التزام دائم بتقييم وبحث هذا التراث المشترك، الذي تنعكِس في تناص هذه الآثار اللغوية. يعبر كل نص أو ميتانص، سواء كان ذلك شرحا أو حاشية، عن مواقف ووجهات نظر المبدعين العلمية الثقافية الأساسية. يتواصل مبدعو البوسنة في أعمالهم العلمية مع ممثلي المدارس النحوية المشهورين، من بينهم ابن هشام والفارسي والمبرد والتفتازاني والمطرزي والزمخشري والجرجاني وغيرهم، وذلك بطريقة اقتباس ونقل شرائح معينة من الأعمال الأصلية في أعمالهم. من بين هذه الأعمال الأصلية نالت أكثر شهرة الأعمال التالية: «الكافية» و«الشافية» و«المصباح» و«الأنموذج في النحو» و«العوامل المئة» وغيرها. وفي أسلوب

استشهاد المرجعيات المذكورة والحفاظ على التقاليد هذا، نلاحظ السمة السائدة للأعمال في ذلك الوقت وهي التناصية وليست الإبداعية والابتكار.

غير أنه لا بد من الإشارة هنا أن المؤلفين البشانقة كان لديهم إلى حد ما الفكر الانتقادي، وقوة الرأي البحثية الاستقلالية الأصلية في تحليل بعض المسائل المتعلقة بالنحو العربي. كانوا يعالجون ويتناولون شتى الموضوعات في حقل دراسة اللغة العربية، ولديهم المعرفة الواسعة عن التراث العربي الاسلامي. إن دراسة تفصيلية للأعمال المرجعية النحوية بأكملها، من شأنها تعزيز وتقوية صوت هذا التراث المهمل في إطار الممارسة العلمية لدائرة الحضارة الإسلامية الشرقية المتطورة إلى الغاية، وبالتالي التعرف على القيم الحقيقية لهذه الأعمال.

نحو النهضة في العصر الحديث

بعد الإبداع الثري والحوار المكثف المتواصل بالتقليد العربي النحوي إبان الحكم العثماني، انسحبت دراسة اللغة العربية في البوسنة من الساحة العلمية، وهي تشهد الفترة المضطربة من تاريخ البوسنة السياسي. يرجع ذلك إلى حقيقة أن البوسنة كانت تقف على مفترق طرق الإمبراطوريات والعهود. في القرن التاسع عشر دراسة اللغة العربية في البوسنة بالكاد كانت موجودة. لم تكن العلاقات بالعالم العربي منقطعة، وكان أبناء البوسنة يشاركون في تعلّم وتعليم اللغة العربية، وكانوا يطلبون العلم في العالم العربي والإسلامي، وكانت المخطوطات من العهد العثماني تتم جمعها وتخزينها. لكن ما تفتقره هذه الحقبة من الزمن هو الآثار المعتمدة على منهج جديد ناضج، لمواصلة التقليد الذي بدأ منذ وقت طويل واختفى في الصمت، ومحاولة البشانقة الجدية في بعث لغة الأم بإسهامهم في كتابة الأعمال باللغة البوسنية لكن بالحروف العربية.

اتّسم عهد الحكم النمساوي - المجري بانفتاح البشانقة على العالم الأوروبي، ونظرًا لذلك نشهد تراجع اللغات الشرقية التي كانوا يؤلفون مؤلفاتهم بها لقرون، وإغفال تراثهم الثري المدون بهذه اللغات. لكن هدف مجموعة المتحمسين النادرين كان خلق مناخ إيجابي لتعبر عن اهتمامهم بالتراث البشناقي،

وبعضهم قد درسوا مع خيرة المستشرقين النمساويين خاصة في مطلع القرن العشرين. إذن يمكن القول إن دراسة جدية للتراث البشناقي المسجل باللغات الشرقية الثلاث، وهذا يشمل الأعمال النحوية في اللغة العربية بالطبع، انطلقت تحت رعاية الحكم النمساوي على يد بعض الباحثين، ومرشدهم الحقيقي صفوت بك باش أجيتش، الذي اتخذ منهجا علميا فيلولوجيا جديدا. وعلى هذا الصعيد المهجي بدأ إنقاذ وتحليل التراث البوشناقي الذي استمر أثناء الفترة القادمة على الأسس الموضوعية.

في حقبة الاشتراكية أو فترة السلطة الشيوعية، كانت البوسنة ضمن حدود يوغوسلافيا السابقة. في هذا العهد لبست دراسة اللغة العربية وتعليمها ثيابًا جديدًا؛ نظرًا لأن دراسة التراث المدوّن باللغات الشرقية تلقت معارضة واسعة ومنظمة من قبل المؤسسات السياسية والثقافية. في هذا السياق الاجتماعي غير المتسامح، المرتبط بهيمنة الأيديولوجيا، واجهت دراسة إبداعات البشانقة باللغات الشرقية ودراسة التراث القومي عدم الترحيب والمساعدة والتشجيع، لأسباب شتى من بينها الصلة القوية بين هذا التراث واللغة العربية والإسلام. لذلك تبنّت القيادة العلمية الفكرية البوسنية نهجًا جديدًا لدراسة اللغة العربية، ليس فقط لكونها لغة تحفظ التقاليد الثقافية الفكرية البوشناقية بها فحسب، بل لكونها لغة عالمية كبيرة أيضًا. وما تزال دراسة اللغة العربية في البوسنة تسلك هذين الطريقين. واتخذت هذه الدراسة اتجاهات معينة نتناولها في السطور التالية.

قدّم دفعة قوية لتنامي الاهتمام بدراسة اللغة العربية حدثٌ وقع في منتصف القرن العشرين وحدد تاريخها الراهن، ألا هو تأسيس قسم الاستشراق (قسم الدراسات الشرقية حاليًا) بجامعة سراييفو، وتأسيس معهد الاستشراق في سراييفو. أصبحت هاتان المؤسستان أهم المراكز، وبقيت أهم المعاقل لدراسة اللغة العربية في البوسنة حتى وقتنا الحاضر. في هاتين المؤسستين تُدرس وتنضج وتُنشر أعمال أجيال المستعربين الذين بآثارهم أولوا الاهتمام البارز لدراسة اللغة العربية. سرعان ما أصبحت مجلة «إسهامات في الدراسات

الشرقية»، التي ينشرها معهد الاستشراق في سراييفو، صوتا للمستعربين البوسنيين وبابًا لخروجهم إلى العالم، وموقعًا للقاءات بدراسات اللغة العربية في التقاليد الأخرى.

يمكن تقسيم الأعمال في مجال اللغة العربية خلال هذه الحقبة من الزمن وحتى وقتنا الحاضر إلى جزئين رئيسيين. ترتبط المجموعة الأولى من أعمال الباحثين البوسنيين بالتراث المحفوظ المدون باللغة العربية. اندفع هؤلاء العلماء إلى فهرسة وترجمة وتحليل المخطوطات المبكرة باللغة العربية. وبفضل حماسهم وطاقتهم العلمية خرج الإبداع المتراكم الثري لتاريخ البوسنة الثقافي من ظلمة رفوف المكتبات إلى ضوء مكاتب الباحثين، وصار موضوعًا للتقييم العلمي في إطار الفكر العلمي الحديث والتفاعل معه. ولكن بغض النظر عن أهمية هذه الأعمال التي لا يمكن إنكارها لتاريخ دراسة اللغة العربية المقبل، إذا نظرنا إليها من منظور الفكر اللغوي المعاصر، فما زالت لا تلبي متطلبات مرحلة الأساليب المنهجية العلمية؛ نظرًا لأنها بالإضافة إلى ترجمة النصوص الأصلية تعطي الملاحظات المتعلقة بالمخطوطة، وتفسيرات بعض الإشارات العابرة في نص المخطوطة الأساسي.

تتخذ المجموعة الثانية من أعمال الباحثين البوسنيين، التي تمّ تأليفها في فترة الاشتراكية، ظواهر اللغة العربية المختلفة محورًا لمستويات التحليل اللساني. تتناول هذه البحوث اللغة العربية الفصحى المعاصرة بصورة عامة، ولو أن بعض هذه البحوث تعالج اللغة العربية من الجانب المرتبط بتطورها التاريخي، والعدد الضئيل منها تدرس العلاقة بين اللغة الفصحى واللهجات. يمكننا أن نقسم دراسات هذه المجموعة على أساس استخدام المصادر. تعتمد بعض هذه الدراسات في تحليل الظواهر اللغوية على المصادر الثانوية، أي المراجع وبعضها الآخر، وخاصة تلك المؤلفة بعد الحرب في البوسنة، تستخدم المصادر الأولية الموثوق بها، التي تمّ جمعها واختيارها بعناية من عدد كبير من النصوص. تتنوع هذه النصوص التي تكون موضوعًا للتحليل اللساني من النصوص الأدبية والصحفية إلى النصوص الإدارية والعلمية والمقدسة

في الوقت الأخير. أخيرًا، تتعلق موضوعات الدراسات بالمجالات المختلفة المتعددة من مستويات التحليل اللساني، من بينها المستوى الصوتي والصرفي والتركيبي، أي النحوي والدلالي والمفردات، كما تخص هذه الدراسات علم اللغة الاجتماعي والبراغماتية وما إلى ذلك.

عصر الإبداع والدمار

وكانت ممارسة دراسة وتعليم اللغة العربية مرتبطة، كما أوردنا في بداية هذا البحث، بمصير البلد الذي نشأت وتطورت فيه. في نهاية القرن العشرين واجه هذا النشاط العلمي، أي دراسة اللغة العربية ودراسات الشرق عامة، لأول مرة في مدار تاريخها المتعدد القرون خطر الدمار. في بداية العدوان على البوسنة والهرسك عن طريق القصف عمدًا، تمّ تدمير مجموعة كاملة لمخطوطات معهد الاستشراق ذات القيمة التي لا تقدر بثمن. انضم معهد الاستشراق في سراييفو بهذا الحدث الرهيب إلى قائمة المكتبات في تاريخ البشرية، التي اختفت في الحريق كنوزها الثمينة المكوّنة من المخطوطات والوثائق الأرشيفية التي لا يمكن تقدير قيمتها، وذلك في محاولة الإنسان أن يمسح جزءًا من التاريخ ويغيّر مساره إلى غير رجعة. في الوقت نفسه تعرّض قسم الدراسات الشرقية إلى خطر الإغلاق، نتيجة لتخلي بعض أعضاء هيئة التدريس عنه. وبهذا تهددت المؤسستان الأكثر أهمية اللتان كانتا خلال نصف قرن مركزي دراسة اللغة العربية في البوسنة بالإغلاق. في هذه اللحظة الحاسمة لأبناء البوسنة ولدراسة اللغة العربية، قاوم أهل العلم بالإبداع وقوة الفكر الإنساني التدمير والإبادة والإهلاك. فقد استمر تعليم وتعلم اللغة العربية حتى خلال سنوات الحرب، ولم ينقطع بالرغم من هذه المأساة الفظيعة.

في حقبة ما بعد حرب ١٩٩٢-١٩٩٥ في البوسنة، جاءت أجيال الباحثين الشباب مزودة بالأفكار والمناهج الجديدة لدراسة اللغة العربية. مرة أخرى يبدأ النشاط العلمي المكثف. في قسم الدراسات الشرقية اليوم في إمكان الطالب أن يتعلم اللغة العربية في جميع المراحل، من تعلم قواعد الإملاء إلى الدراسات

العليا (ماجستير ودكتوراه). هذا القسم هو المكان الوحيد في الدولة الذي يتم فيه تصديق الشهادات الأجنبية، والاعتراف بالشهادات المحصّلة في علوم اللغة العربية خارج البوسنة في جامعات العالم المختلفة. يتحتم في هذا الصدد أن نشير إلى أنه يمكننا أن نتكلم عن هذه الصورة الإيجابية والجو المناسب للبحث في مجال تعلم وتعليم اللغة العربية في قسم الدراسات الشرقية، بفضل مستعرب بوسني أنقذ القسم من خطر الإغلاق خلال الحرب، وهو الأستاذ أسعد دوراكوفيتش.

من أهداف هذا البحث تأكيد إسهام بعض العلماء المرموقين في الحفاظ على دراسة اللغة العربية في البوسنة. يتم تحقيق هذا الهدف من خلال وصف دورهم في تحسين وضع اللغة العربية، وتوعية جمهور البوسنة بالثقافة العربية، ودور هؤلاء العلماء الحاسم في إنقاذ دراسة اللغة العربية في أصعب السنوات الحربية في البوسنة. مع أن عدد المستعربين الذين ساهموا في تطوير دراسة اللغة العربية في البوسنة معتبر، يبرز اسمان نظرًا إلى دورهما غير المألوف والحاسم في الاهتمام باللغة العربية. أولهما توفيق موفتيتش الذي أثرى دراسة اللغة العربية الحديثة بالمشروع المعجمي الضخم الهائل، والكتيّبات الأساسية لتدريس النحو العربي والبلاغة الكلاسيكية وقواعد الإملاء. إن معجمه الذي يضم معنى المفردات من اللغة العربية الفصحى واللغة العربية الفصحى المعاصرة عمل لا غنى عنه، يستخدمه أجيال الطلاب والباحثين المستعربين. وتميز توفيق موفتيتش بالنهج الموسوعي في معالجة خصوصيات اللغة العربية، وقد اتسمت الفترة الحديثة لدراسة اللغة العربية بإنتاجيته وتفاعله الكبير مع المصادر الثانوية.

الاسم الثاني الذي يبرز ضمن المستعربين البوسنيين هو الأستاذ أسعد دوراكوفيتش، الذي تمّ ذكره وذكر دوره الحاسم في إنقاذ قسم الدراسات الشرقية بعدما عُيّن أستاذًا ورئيسًا لشعبة اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب بجامعة سراييفو خلال احتدام الحرب. كان دوراكوفيتش أستاذًا وحيدًا أكثر من عقد من الزمن، وترأس الشعبة وعلّم الطلاب، وفي الوقت نفسه كان يجدّد كادر الشعبة، ويربي الأجيال المستعربين من خلال توجيه وإرشاد الطلاب والمعيدين

الشباب في القسم. امتاز إبداعه بتنوع حقول النشاط، بحيث جمع مجالات الترجمة والبحث العلمي الأدبي وتحقيق وتقييم نصوص التراث البوشناقي. بجانب إسهامه الهائل في كشفه عن العالم العربي للبوسني العادي، من خلال ترجماته للروائع العربية وبحثه الذي يقوم على أسس علمية موضوعية. تجاوز دوراكوفيش الحدود التي تقع بين الدراسات الأدبية واللغوية، متعديًا إلى ساحة الدراسات الأسلوبية المرتبطة بعلم النص واللسانيات. يفتح عضو الأكاديميات الثلاث (أكاديمية البوسنة ومجمع القاهرة ومجمع دمشق) هذا بابًا لدخول الباحثين في الفضاء غير المتناول في دراسات اللغة العربية في البوسنة.

تحديات اللغة العربية في البوسنة

في وقتنا الحالي وللأسف الشديد، لا تُدرس اللغة العربية في البوسنة إلا في كلية الآداب بجامعة سرايفو بالمنهجية الجدية لكل المراحل الدراسية، كما تُدرس في بعض المدارس الإسلامية وكلية الدراسات الإسلامية لأسباب مفهومة، بينما تمّ نفي اللغة العربية من المدارس الثانوية والمدارس الابتدائية البوسنية.

السؤال الذي لا بد من طرحه هو: ما هي أسباب هذه السياسة التعليمية الخاطئة السائدة في البوسنة؟ تفتقر دراسة اللغة العربية، بأي شكل كانت، إلى دعم الدولة، ويبرز عدم التفاهم بين المؤسسات المسؤولة بالحفاظ على استمرارية دراسة اللغة العربية في البوسنة، وبين الحكومة في عدة قضايا متعلقة بالوضع الصعب لدراسة اللغة العربية، من ضمنها نقص الكادر وعدم توظيف المعيدين الشباب الجدد، وعدم الإنفاق على نشر أعمال الباحثين العلمية أو ترجمة أبرز الإبداعات العربية. لا يمكن لنا إغفال هذه المشكلات التي لا يتم حلها عن قريب كما يبدو بجلاء؛ لأن المنهج مهما كان فعالًا بدون المناخ المناسب والسياسة اللغوية الملائمة التي تدعمه لن يثمر نجاحا، سواء أكانت تلك السياسة الدولية أو الوطنية أو المحلية. إن هذه السياسة متعددة الأبعاد، وتتعلق هذه الأبعاد بالبرامج المخططة في تأليف الكتب التعليمية لغير الناطقين

باللغة العربية، وتنسيق الدورات التدريبية لمعلمي اللغة العربية والطلاب على السواء، وبناء المؤسسات اللغوية بهدف توفير كل ما يحتاج إليه الطالب أو الباحث اللغة العربية وما شابه ذلك.

لا بد لنا أن نأخذ في عين الاعتبار أنه في وقتنا الحاضر يشهد العالم العربي أبرز أشكال العولمة الثقافية وهي العولمة اللغوية. قبول أنماط العولمة الفكرية والثقافية بالإضافة إلى أنماطها الأخرى يؤدي إلى افتراض تبني النماذج الغربية في المجالات المختلفة، وبالتالي في مجال اللغة العربية. هذه الظاهرة لها تأثير سلبي، وهو انحسار القيم الأصلية العربية وتعرّض اللغة العربية لمشكلة الانسحاب أمام اللغة الإنجليزية في الميادين المعينة، أي تقدم للغات الأخرى وخاصة اللغة الإنجليزية نحو حق الأولوية أو الأسبقية على المستويات السياسية والاقتصادية بالإضافة إلى المستوى التعليمي[1]. وهناك تأثير إيجابي للعولمة، وهو يتعلق بتطوير البرامج التعليمية التي تشمل العوالم الحديثة المطبقة في العالم الغربي، وتوافر المعلومات المهمة في دراسة اللغة العربية وما إلى ذلك. نظرًا لكل ما سبق ذكره، من المتوقع أن تشارك الدول العربية في دعم البوسنة في صراعها لتحسين واقع دراسة اللغة العربية لتعزيز مكانة اللغة العربية، وبالتالي تقوية تأثير العالم العربي الاقتصادي في دول البلقان. إن هذا يمكن التوصل إليه بتحقيق برامج التعاون المعينة، وخاصة في دعم عمليات ترجمة الإبداعات العربية مثلا، لتشجيع ترويج جوانب وملامح الثقافة العربية المختلفة في البوسنة ودول البلقان الأخرى؛ لأن معظمها تشترك معها بالدائرة اللغوية.

التطلع إلى المستقبل

بعد هذه الجولة التاريخية العابرة عبر العهود والمراحل لدراسة اللغة العربية في البوسنة، نركز على تحديد الاتجاهات المستقبلية بدلًا من إيجاز أهم

---

(١) انظر:
Khawlah Ahmed, «The Arabic Language: Challenges in the Modern World", International Journal for Cross-Disciplinary Subjects in Educations (IJCDSE), (Infonomic Society, http://www.infonomics-society.org/IJCDSE/, Vol. 1, No. 3, September 2010.), p. 197.

الاستنتاجات. نقدم في هذا الصدد الأولوية لثلاثة اتجاهات رئيسة لدراسة اللغة العربية في البوسنة. أولها وضع التراث البوسني المدون باللغات الشرقية في جوهر اهتمام علم اللغة، وذلك بالأخذ في عين الاعتبار ضرورة تحوّل هذا الاهتمام المجدد من كشف وترجمة المخطوطات إلى تحليلها الدقيق وتقييمها، الذي يقيم الحوار بين التراث والفكر العلمي اللغوي الحديث. الاتجاه الثاني هو تواصل دراسة الظواهر اللغوية المرتبطة باللغة العربية المعاصرة، لكن هذا يتطلب من الباحثين لأجل تحقيق هذا الهدف الانضمام الأوضح في بحوثهم إلى الدراسات التطبيقية، وخاصة التحليل التقابلي بين اللغة العربية ولغة الأم، والتحليل المعتمد على حجية النصوص كمادة البحوث. ويقصد بهذا الاتجاه أيضًا تسليط الأضواء على بناء اللغة العربية التركيبي بطريقة جديدة تمامًا متطابقة بالمنهجية الغربية في دراسة اللغة. والاتجاه الثالث يشمل رؤية مستقبلية لعلاقات التعاون بين الدول العربية والبوسنة والهرسك في المجال الثقافي. نعتقد أن هذا التعاون والمساعدة والدعم الآتيين من الدول العربية، أي من مسقط اللغة العربية، وتبادل وجهات النظر، سوف تساهم في تحسين واقع دراسة وتعليم اللغة العربية الصعب في البوسنة، في سبيل انتقال هذه الدراسة من مستقبلها المجهول إلى المستقبل اللامع. إن تحقيق هذه الأهداف يتيح لدراسة اللغة العربية عبور حدود مجال علم اللغة إلى المجالات العلمية المختلفة، التي تقود حتمًا الباحث الذي له قدم راسخة إلى عالم الاكتشافات والمعرفة الجديدة. وما نتمناه هو أن نساهم بهذه اللمحة المتواضعة في صياغة هذه الأهداف العامة لدراسة اللغة العربية في البوسنة.

صورة العرب في الأدب البشناقي

ميرزا سارايكتش[1]

المقدمة

العلاقة بين الثقافة البشناقية والثقافة العربية هي متعددة ومهمّة. غالبًا ما ينظر إلى هذه العلاقة من خلال منظور الدين؛ وذلك لأن العلاقة بين البشناق والعرب تتميز بوجود دين مشترك. وإن كانت هناك بعض الدراسات عن العلاقات الدينية، فمن المستغرب لدينا أنه من شبه المؤكد لا يوجد اهتمام بتمثيل العرب والثقافة العربية في الأدب البشناقي. الثقافة والأعمال الأدبية تتمثل المفاهيم المكملة بعضها بعضًا، حيث يرتبط العمل الأدبي بطبيعته بالبيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها. لذا تمثّل الأعمال الأدبية ارتكاسات ملتزمة واستجابات إبداعية للظواهر الاجتماعية، مثل تهميش الأفراد من ناحية، أو الإفراط في ثنائهم، من ناحية أخرى. بناء على النظريات الأدبية ما بعد البنيوية، يسعى هذا البحث لتحليل التمثيل الثقافي والأدبي للعرب؛ لأن هذا التمثيل (Representation) هو تصوّر اجتماعي معقد في البلقان. ولهذا السبب يحلّل البحث آليات تمثيل صورة العرب في البلقان بشكل عام، وخصوصًا بمزيد من التفاصيل في الأدب البشناقي.

استنادًا إلى فرضية أن الأدب يعكس الواقع الاجتماعي والجيوسياسي، يهدف البحث إلى دراسة بعض الممارسات المرتبطة بعملية إنشاء صورة

---

(١) مدرّس في قسم الدراسات الشرقية بجامعة سراييفو، البوسنة والهرسك.

«الآخر» وانعكاساتها في الأدب. نحن متأكدون أن هذه الدراسات تساعد في تحقيق فهم أفضل لظاهرة الآخر. وباستخدام تصنيف «الآخر» من غاياتري سبيفاك، نحاول هنا إبراز الملامح التفكيكية في الأدب البشناقي التي تقاوم الصورة المحرفة والكليشيهات الأخرى عن العرب الموجودة في آداب البلقان.

من المعروف أن منظّري القومية يستخدمون الأدب كوسيلة أيديولوجية لتشكيل صورة الآخر من ناحية، ولصنع الهوية القومية والتعبير عنها من ناحية أخرى. لذا يركز هذا البحث على تشكيل صورة العرب في الأدب البشناقي وفى السرديات الأدبية البلقانية. إضافة إلى هذا، يهتمّ البحث بتفاعل هذه الصورة المشكّلة مع العوامل الخارجية، أي بإبراز التفاعل بين النص والسياق. إنّ المواضيع الرئيسة هنا هي القوالب النمطية والكليشيهات والصور الواقعية عن العرب في الأدب البشناقي خصوصًا، وفي آداب البلقان بصيغة عامة. وتشير هذه المواضيع إلى أصل وطبيعة وتأثير القوالب القومية للآخر، والتي هي في الأساس تمثيل الذات أو الصورة الذاتية المنعكسة في الأدب.

لا بد من التأكيد بأنّ الصورة في الأدب أصبحت ذات أهمية متزايدة في الدراسات الثقافية، والدليل على ذلك هو تطوير علم دراسة الصورة الأدبية، أو ما اصطلح عليه بالصورولوجيا (Imagology). وتفهم الصورة الأدبية باعتبارها مشروطًا اجتماعيًا وتاريخيًا. ولذلك، فإن تحليل النصّ الأدبي كوسيط لغوي للواقع تستخدم لتوضيح التصورات والمفاهيم الجماعية للآخر. وفي هذا البحث سنحلّل النصوص الأدبية لتبلور صورة العرب في الذاكرة الثقافية للشعب البوشناقي.

إنّ أهمية هذا التحليل كبيرة لأن عالم اليوم، مهما كان متقدمًا ومتطورًا، هو متكيّف جدًا مع الانقسامات والتعريفات السابقة المبنيّة على الصور الأسطورية، التي تشكلت ما قبل الحداثة. والواجب العلمي هو إعادة تقييم هذه التعريفات المحرّفة وتفكيكها بالمنهجية الصحيحة.

لجميع هذه الأسباب، كتبنا هذا البحث لإظهار الخطاب الأدبي الفريد الذي كان موجودًا في آداب البلقان خلال فترة العصور الوسطى وما بعدها.

وكان هذا الخطاب (الأدب البوشناقي) معاديًا لمفاهيم الجوهرية والإقصاء، ويتعارض مع «القانون الأدبي السائد» (Literary Canon) والصور الكاذبة في تمثيل الآخر أو العرب. نحن نعتقد بأنه يمكن اعتبار صورة العرب في الأدب البوشناقي نقدًا جذريًا للمفهوم الكلاسيكي للعرب باعتبارهم «الآخر»، وتناقضًا للمركزية الأوروبية (أو البلقانية) الأصيلة حول فهم الثقافة الغربية. وعلى وجه التحديد، إن تمثيل العرب في الأدب البوشناقي كان وما زال يعارض كل نوع من الجوهرية في تفسير «الثقافات الأخرى»، حينما تثبت وتكرّر آداب البلقان الأخرى التمثيل النمطي للعرب وثقافتهم.

إنّ الأدب البوشناقي مليء بتمثيل العرب في جميع الأنواع الأدبية، ومن خلال جميع المراحل الأدبية. في هذا البحث، نحن نحاول الإجابة على سؤال: كيف تمّت تشكيل صورة العرب؟ علاوة على ذلك، نقوم هنا بتحليل الخلفية الأيديولوجية لهذا التمثيل، مقارنة بالسياق الجيوسياسي الديناميكي لمنطقة البلقان، التي كانت وما زالت غير مستقرة، وأحد أسباب ذلك وجود تصورات خاطئة وعدم فهم «الآخر» و«المختلف».

صورة العرب في الآداب البلقانية – العربي باعتباره «الآخر الأجنبي»

إن صورة العرب موجودة في الآداب السلافية والبلقانية خلال عدة قرون. في الحقيقة إن صورة «العربي الأسود» تمثل شخصية الأجنبي أو الآخر الأكثر انتشارًا وشيوعًا في الأدب الصربي والمونتنغري والمقدوني والبلغاري. وتمثل هذه الشخصية الأدبية مفهومًا معقدًا ومتعدّد المستويات، يتم من خلاله تشكيل مفهوم الآخر، وخصوصًا في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر.

عادة، «العربي الأسود» هو ممثل الشر، أو المضاد لنا و«نقيض الخير». إن «العربي الأسود»، منسوج في منظومة ثنائية يتضمن معنى كل ما هو سلبي ومدمّر، ولقبه هو الدليل الأول لذلك. هذه الشخصية ترمز إلى نقيض البطل، أي المجرم والكائن عديم روح.

في الواقع، كل هذه كانت صورة طبق الأصل أو «صورة في المرآة»[1] لما هو ضروري لتشكيل الأنا القومية، أو الذات والهوية كما أوضح جاك لاكان (Jacques Lacan). ولذلك، تمّ استخدام صورة «العربي الأسود» في الأدب الصربي من أجل تحديد البطل القومي. وهكذا يتم استخدام صورة «العربي الأسود» كمثل سيئ لبناء ماركو كراليوتش (Marko Kraljevic) كمثال الوطني الذي يحفظ المجتمع والعالم واستعادة السلام والنظام لشعبه.

إنّ شخصية «العربي الأسود» في آداب البلقان تنتمي إلى «الذين يمتلكون وحشية ومكر القبائل المتوحشة»[2]، أو أولئك الذين هم خارج كل الحضارة والشعور (out of worlding) كما أوضحت غاياتري سبيفاك.

في أعمال الشعراء الملحميين الصرب، مثل تشان بدروغوفتش (Tesan Podrugovic)، من القرن السابع عشر، نلاحظ التمثيل المستمر للعرب باعتبارهم «من غير البشر». علاوة على ذلك، يتم نفي الإنسانية عن العرب بوصفهم حيوانات أو كتنين ذي ثلاثة رؤوس. ولذلك فمن الواضح أنه قد تمّ تجريد العرب من الإنسانية في طلائع الملاحم الصربية. ليست شخصية العربي هي مكتئبة ومظلمة من الناحية الأخلاقية فحسب، ولكن كل ما يتعلق به هو غير إنساني. وكما تشرح سبيفاك، فإن مثل هذه النصوص «أزالت الحدود بين الإنسانية وغير الإنسانية حتى أصبحت غير واضحة». لذلك لم يبق للبطل الوطني إلا أن يستعيد الإنسانية في شعبه، الذي أصبح مهددًا بـ«العربي الأسود»، وأن يقوم بالمهمة الحضارية وهي منع «الآخر الأسود» من فناء وطنه. كل هذا يشكل تبريرًا لسلوكه البطولي بمعنى «الانضباط الحضري» (worlding).

«الأجنبي الشيطاني» موضوع متكرر جدًا في الملحمة الصربية والسرديات الوطنية. ولا يمكن للأجنبي أن يكون إلا ممثلًا لعالم الشرّ والموت. «العربي

(1) Jacques Lacan, *Écrits: The First Complete Edition in English*, transl. by Bruce Fink, New York, W.W. Norton, 2006, pp. 7.

(2) Gayatri Chakravorty Spivak, *A Critique of Post-Colonial Reason: Toward a History of the Vanishing Present*, Harvard, Harvard University Press, 1999, pp. 448.

الأسود» يستخدم للتمييز بين المقدّس والمدنّس، أو الإنسان والوحش. هو دائمًا أسود، أجنبي، وزنديق. فهو يمثل أبدًا، لكنه لا يستطيع تقديم نفسه ووظيفته الوحيدة هي تجسيد الشر.

كانت هذه التمثيلات الخرافية المضرّة للعرب منسقة للمنظومة الاستشراقية. وليس غريبًا بأنها لم تكن موجودة فقط في الشعر الملحمي أو أيّام التحرر من العثمانيين أثناء النهضة الوطنية، بل استمرّت في القرن العشرين أو في العصر الحديث. وخير مثال على ذلك مؤلّفات الدبلوماسي والكاتب الصربي يوفان دوتشيتش (Jovan Dučić) من القرن العشرين.

فهو يكرر من جديد تمثيل العرب الأسطوري الموروث. وعلى الرغم من أنه يزعم الترويج للمركزية الأوروبية، فقد كانت أعماله تعكس في الحقيقة المركزية الصربية في الثقافة والدين. إنّ هذا واضح من الاقتباس التالي: «أنا هنا في القاهرة، قضيت هنا شهرًا كاملًا. حولي يوجد السود والطرابيش والمساجد واللغة العربية. هذه الأمة في عذاب شديد لأنهم لا يعرفون ديانتنا الأرثوذكسية، ولا يعرفون الحديث بلغتنا الصربية الرائعة، لا يحتفلون باسم المعمودية، ويعيشون في الرمال. لا تجرؤ المرأة أن تنظر إلى نفسها في المرآة لأنها سوداء، ولا يفيدها صابون ولا بودرة للوجه»[1]. هذا هو الدليل الواضح للاستمرار والحفاظ على تمثيل العربي باعتباره «الآخر الشرير» في أعمال كتّاب البلقان بشكل منتظم.

كل ما سبق هو لإثبات الاستمرار وتطور «المعرفة الاستشراقية المصنوعة» كما وصفها إدوارد سعيد. وهذه المعرفة هي نتيجة الخطاب الأدبي أو الاجتماعي الخاص الذي شكّل العالم المزوّر (وهو عالم العربي الأسود). المفارقة هي أنّ هذا العالم المزوّر لا تتوقف صناعته في الأدب والثقافة حتى يصبح الاختراع حقيقة.

---

(1) Aleksandar Petov, *Manje poznati Dučić*, Trebinje, Pitsburg, Beograd, 2000, pp. 37.

الخطاب الأدبي المتجانس في البلقان يمثل «بنية سردية ثابتة» من الملحمات القومية حتى الأعمال الأدبية الحديثة. وفي هذا الخطاب المذكور يُعرّف الإنسان العربي والشرقي ككائن كسول، سلبي، مؤثر، حسّي، فقير ومثل خادم يميل بطبيعته إلى الاستبداد أو هو ببساطة «الآخر المطلق» لأهل البلقان أو أوروبا. وعلى مثل هذه المعرفة الاستشراقية بنت مجتمعات البلقان ذاكرتهم الجماعية. إن صناعة صور الآخر في الآداب البلقانية تكشف لنا كيف يتصوّر ويعرف شعوب البلقان أنفسهم. إضافة إلى هذا، لا بدّ من التنبيه إلى أنه بهذه الطريقة تنتج المعرفة الزائفة التي تعتبر قوة حقيقية في النظام الرمزي للعالم الحديث وما بعد الحداثة.

أخيرًا، لا بد أن أذكر أنه لدينا دراسات عن ظاهرة «العربي الأسود» في منطقة البلقان أو الآداب البلقانية. ومن ذلك إصدار مجموعة دراسات عن «العربي الأسود» في الذاكرة القومية، وتشكيل صورة العرب في آداب البلقان، وأطروحة دكتوراه عن العرب في الشعر الشعبي باللغة الصربية والكرواتية لراده بوجوفيتش (Rade Božović). قام المؤلّفون في مجموعة الدراسات عن «العربي الأسود» بالتحليل المفصل لصورة «العربي الأسود» في الآداب البلقانية، كما كانوا يشرحون معنى ومكان هذه الصورة في الذاكرة الجماعية في صربيا ومقدونيا والجبل الأسود وكرواتيا وألبانيا وبلغاريا. إلا أن المفارقة تكمن في أنه لا أحد من الباحثين من البوسنة والهرسك، شارك في هذا المشروع تحت رعاية اليونسكو (UNESCO) مع أنه معروف أن الدراسات عن صورة العرب في الأدب البلقاني تكون ناقصة للغاية، إذا لم يؤخذ في الاعتبار التراث الأدبي البشناقي الذي يُعتبر أغنى المراجع عن العرب والثقافة الشرقية عمومًا. نعتقد أن السبب لذلك هو تصوير العرب في الأدب البشناقي والثقافة البشناقية؛ لأن هذا التصوير يختلف عن صورة «العربي الأسود» في باقي الآداب البلقانية ويناقضها. إن استبعاد المؤلفين من البوسنة والهرسك وعدم تحليل التراث البشناقي يثبت أنه حتى اليوم في الثقافات البلقانية، وغيرها ما عدا البوشناقية، ما زال الإصرار على صورة العربي الثابتة ككائن الشر، والآخر الذي لا ينتمي للحضارة والبشرية. في الصفحات التالية سوف نشرح لماذا وكيف صوّر البشناق العرب في أدبهم.

صورة العرب في الأدب البشناقي- العربي باعتباره الآخر غير الأجنبي

سبقت الإشارة إلى أن صورة العرب في الأدب البشناقي موجودة في جميع الفترات الأدبية، وفي الأنواع الأدبية المختلفة. وبما أنه كان التعبير الشعري المسيطر في الأدب البشناقي، فمن المفهوم أن صورة العرب هي أكثر انتشارًا في القصائد والملاحم من القرن السابع عشر وحتى الوقت الحاضر. لا يتميز الأدب البشناقي بكثرة صور وتمثيل العرب مقارنة بالآداب البلقانية الأخرى فحسب، بل هذا الأدب يتّسم بوجود صورة العرب التي هي تفكك وتواجه الصورة نفسها في الآداب البلقانية الأخرى، وخاصة في الأدب الصربي. بطبيعة الحال، يرتبط هذا التمثيل المختلف للعرب في الأدب البشناقي بوجود الدين نفسه عند العرب والبشانقة. ومع ذلك، فإنه تجدر الإشارة إلى أن البشانقة أو المسلمين لم يكن لديهم علاقة مباشرة واتصال مع العرب، كما إنه لم تكن هذه العلاقة موجودة بين العرب والصرب والمقدونيين والبلغار وغيرهم. بناءً على هذه المعلومة، تمّ تشكيل صورة العرب في كل دول البلقان، بما في ذلك البوشناق، عبر السرديات الثقافية أو بطريقة غير مباشرة. ورغم ذلك، إن تمثيل العرب يختلف ويتعارض تمامًا في الأدب البشناقي مع الآداب البلقانية الأخرى. ومع أنّ جميع الآداب البلقانية تمثّل العربي بشكل موحد كظالم وشرير أسود، فإن صورة العرب في الأدب البشناقي راقية ومتعددة المستويات، تتراوح من الواقعية إلى الرومانسية حتى «المواصفات العمياء» المأخوذة وصيغ المبالغة.

نعتقد بأنه الأفضل أن نبدأ بإبراز صورة العرب في الشعر الشفوي والملحمي لعدّة أسباب. تحديدًا، مع أنّ هذا الشعر ليس هو الأقدم في الأدب البشناقي (صورة العرب كانت موجودة عند شعراء الديوان)، إلا أن الملاحم الشعرية البشناقية تناقض بشكل مباشر الصورة النمطية للعرب، التي كانت سائدة ومركبة في الأغاني الملحمية عند الصرب وباقي الشعوب البلقانية.

صورة العرب في الملاحم البشناقية

صورة العرب في الملاحم البشناقية يمكن اعتبارها استجابة مباشرة للتمثيل الأسطوري والتخيلي للعرب في الآداب البلقانية الأخرى. ولكن، من الجدير بالذكر أن العرب لن يتمثلوا في هذه الملاحم بطريقة موحدة، أو باللون الواحد أو الأبيض الذي يجب عليه أن يعارض مضادّه الأسود. في الواقع، صورة العرب في الملاحم هي متعددة المستويات ونعتبرها مفهومًا أدبيًا معقدًا.

كان الشعراء البشناق نادرًا ما ينقلون صورة «العربي الأسود» في شعرهم. نحن نعرف حالتين تؤكدان هذه القاعدة. هناك ملحمة واحدة عن البطل عمر الذي يجول في العالم للبحث عن شقيقه ووالده. ابن عمه ينصحه بكيفية التصرف في العالم، حيث إنه سوف يضطر إلى مواجهة «العربي الأسود» في أرض تاليا (على الأرجح صقلية). يمثل «العربي الأسود» عدوًا شخصيًا لكل سالك، ويرمز في الوقت نفسه إلى كآبة الدنيا، فيأخذ الشاعر هذه الصورة كما تشكّلت في السرد الأدبي البلقاني المجاور. يقول الشاعر في ملحمته المذكورة[1]:

...

عندما تصل إلى أرض تاليا

تسير بحكمة، وليس بجنون.

سوف تمشي ثلاثة أيام

وفي صباح اليوم الرابع

سترى نفسك أمام

قلعة العربي

...

(1) *Narodne pjesme muslimana u Bosni i Hercegovini*, sabrao Kosta Hörmann 1888-1889, knjiga II, drugo izdanje, Sarajevo, 1933, pp. 58.

العربي أصبح عاصيًا

إنه يعذّب رعاياه

كل يوم يطلب الأغنام

كل ليلة يريد فتاة جميلة

...

للعربي ثلاثة رؤوس

الأوّل يهب النار

والثاني يهب العواصف

والثالث يتحدث إلى الناس

وهكذا، يظهر العربي في مكان حدّي ما بين الإنسانية والوحشية. فهو قاس، شيطاني، حسي، كثير الأكل وهاجسه الفتيات. وعلاوة على ذلك، ورد أنه هو وحش مع ثلاثة رؤوس (الحياة) يهب الحريق والعواصف ويتحدث في آن واحد. بالطبع، البطل عمر يواجه العربي ذا الرؤوس الثلاث، ويهزمه وينقذ العالم. هذه الصورة منسوخة من الملاحم الصربية والكرواتية تمامًا، حيث يبدو العربي نقيضًا للبطل، و«كافرًا» مع أن كليهما ينتميان إلى دين الإسلام. لذا يمكن اعتبار هذه الصورة «مأخوذة بشكل أعمى»، وكان لها دور رسمي في القصيدة، حينما لم يعن المؤلف بتفاصيل مضمون ومغزى الشعر. وتظهر الدلالة المماثلة أيضًا في أغنية «خليل ويانيا». ومع ذلك، إن هذه هي أمثلة نادرة وفريدة للغاية، ويمكن أن نعتبرها استثناء.

في كثير من الأحيان تعتبر الملاحم العرب جيشًا مختارًا، على الرغم من أن هذا الجيش يعارض الأبطال البشناقيين. الجيش العربي يمثل السلطة المركزية؛ لأن العرب يقاتلون من أجل السلاطين العثمانيين والوزراء. يشير الشعراء البشناقيون في ملحماتهم إلى قوة العرب وذكائهم وولائهم وشجاعتهم.

نلاحظ في بعض الملاحم شخصية مميزة هي إدريس العربي. هو محارب ماهر وذو فخر بنفسه وجرأة عظيمة. لكنّه يصبح ضحيّة أثناء مكيدة دسيسة في قلعة السلطان، وبالتالي يهزمه البطل البوشناقي. في المثال الأخر، يصور العرب كمقاتلين متيمزين بالشجاعة والسرعة والقدرة الفائقة. لذا هم في أغلب الحال متواجدون بجنب السلطان نفسه في لحظات تاريخية حاسمة. هكذا يمثلهم الشاعر البشناقي في إحدى الملاحم[1]:

فليكن الأمير من تونس وسلطان التاتار

على الجانب الأيمن من عظمته جلالة السلطان

فليكن الأمير من مصر

على الجانب الأيسر من عظمته جلالة السلطان

مع جنوده العرب السريعين

ومع الفلاحين الشجعان

كذلك كان الكتّاب كثيرًا ما يستشهدون بعدد العرب الشجعان ومن أين جاؤوا إلى المعركة والميدان. فيأتي العرب أحيانا من مصر، وأحيانا من بغداد أو حتى من الحجاز كما ورد في الملحمة[2]:

يقول السلطان

إنني سوف أحضر قبلان باشا من جزيرة العرب

ومعه مائة ألف من الجنود

مائة ألف من العرب السود

من بغداد ومع وزير بغداد

سوف أحضر أكثر من مائة ألف

(1) *Narodne pjesme muslimana u Bosni i Hercegovini*... pp. 118.

(2) *Narodne pjesme muslimana u Bosni i Hercegovini*... pp. 76.

في النهاية، علينا أن نضيف أن صورة الخيول العربية حاضرة جدًا في الملاحم. الخيول العربية هي دائمًا تمثل رمزًا للجمال والقوة. إضافة إلى هذا، نجد أن الخيول العربية بانتظام تكون ملكًا للسلاطين والوزراء الأقرب له.

واختتامًا لهذا الفصل، وعلى الرغم من أن الشعر الملحمي عند البوشناق إلى حد ما يكرّر تمثيل «العربي الأسود»؛ لأنه كان تصويرًا عامًا ومسيطرًا في أدب ذاك العهد، إلا أنّ صورة العرب لم تكن متجانسة. نحن لا نلاحظ ولا نشعر بالضغط الأيديولوجي الضروري عندما نقرأ عن العرب في الملحمات البشناقية. لا يمثل العربي في هذا الشعر «الآخر المتوشح»، ولا يستخدم شخصيته لتثبيت وتبلور الهوية الشخصية أو الذات الشعبي كما هي العادة والسائدة في باقي الآداب البلقانية. إنّ تصور العرب في الملحمات البشناقية واقعي جدًا، حيث ينظر إلى العرب كجزء من الجيش العثماني. وعلى الرغم من أنّ البشناق كانوا يقاتلون ضد العرب، لم يتوان الشعراء البشناق عن معاملة العرب بعدل واحترام. وبهذه الطريقة تصور الملاحم البشناقية العرب، وهذا التصوير يميل إلى أن يكون واقعيًا على الأقل.

صورة العرب في الأعمال النثرية في القرن السابع عشر والثامن عشر

التمثيل الواقعي للعرب الذي لاحظناه في بعض الملاحم البشناقية، استمر في الأعمال النثرية مثل «وقائع سراييفو» لمولى مصطفى الباشسقي (القرن الثامن عشر) ورحلة الحج ليوسف ليونياك (القرن السابع عشر).

يذكر يوسف ليونياك العرب المشهورين والعلماء الذين التقى بهم في طريقه إلى مكة، مثل كمال الدين بن همام والشيخ عباس من مصر. يصف يوسف ليونياك معارفهم وذكاءهم وشجاعتهم في المعارك. مصر هي المكان العزيز والمحبوب في الأدب البوسني. علاوة على ذلك، ينقل يوسف ليونياك أوصافًا واقعية عن العرب وطريقتهم في الحياة، مثل الشيوخ من جدة الذين كانوا يعملون الأعمال الصعبة في الميناء، ولكن هو يظهر «رحمتهم عندما يكتب عن إعطاء الصدقات للفقراء من قبل هؤلاء الشيوخ»[1].

---

(1) Hadži Jusuf Livnjak, Odazivam Ti se, Bože... putopis sa hadža 1615. godine, preveo M. Mujezinović, Sarajevo, 1981, pp. 14.

من الجانب الآخر، إن تصوير العرب من قبل مولى مصطفى هو أكثر إثارة للاهتمام؛ لأنه يتناقض مع تصوير الأتراك أو العثمانيين. في الواقع، إن صورة العرب مختلفة تمامًا عن صورة الأتراك. ويرتبط هذا بحقيقة أنه كان بين البشناق والأتراك اتصال مباشر، بينما كانت العلاقة بين البشانقة والعرب غير مباشرة ورمزية. عندما يكتب مولى مصطفى عن الأحداث التاريخية من العقود الأولى للإسلام، يصوّر العرب على أنهم «كانوا الأبطال الشجعان والرجال الحازمين خلال أهم الأحداث لجميع المسلمين»[1]. يذكر العرب في العديد من حكاياته فضلا عن أنه يعيد بعض الحكايات من ألف ليلة وليلة. وعلى الجانب الآخر من تمثيله للآخرين هناك الأتراك الذين يبدون كشخصيات متغطرسة سيئة.

من المثير للاهتمام جدًا أن الكتّاب البشناق كانوا يتمتعون بالوعي والجرأة لكي يصفوا الأتراك الذين حكموا عليهم سلبيًا من ناحية، ولكي يصوروا العرب بشكل إيجابي جدًا، من ناحية أخرى. وإلى جانب العلاقة غير المباشرة بين العرب والبشانقة، نعتقد أن السياقات الدينية أسهمت إلى هذا الموقف. حتى في الجزء التالي سوف ننظر إلى صورة العرب في الشعر الديني.

الشعر الديني: المواليد والمدائح

الشعر الديني في شكل الموالد والمدائح متكرر جدًا ومنتشر في تاريخ الأدب البشناقي. منذ القرن السادس عشر، كان الشعراء البشناقيون يؤلفون القصائد عن النبي محمد عليه السلام وعائلته وأصحابه وحياته عمومًا. إلى جانب ذلك، كان هؤلاء الشعراء يكتبون عن مشاعرهم الدينية العالية، كانوا يصورون الشخصيات المعروفة من التاريخ الإسلامي مثل الإمام علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين وأويس القرني وغيرهم.

كما يمكن أن نلاحظ أن معظمهم إن لم يكن جميعهم من العرب. هذا هو السبب في أن صورة العرب تعكس صورة المؤمنين المثاليين.

(1) Mula Mustafa Bašeskija, Ljetopis: (17461804-), prevod s turskog, uvod i komentar Mehmed Mujezinović, Sarajevo, Veselin Masleša, 1968, pp. 67.

لذلك ليس غريبًا أن هذا الشعر هو مليء بصيغ المبالغة. في الواقع، بينما حاول البشانق أن يكونوا واقعيين في شعرهم الملحمي أو النثري، نجدهم يبالغون في الشعر الديني. صيغ المبالغة كانت وفقا لطبيعة الشعر الديني. الموضوعات والشخصيات في هذا الشعر مقدسة إلى حدّ ما، ولذا كان لا بد للشعراء أن يصوروا في ضوء الكمال. علاوة على ذلك، هذا الشعر هو تعليمي جدًا؛ لأنه يجب أن يعلمنا أفضل الخلق والأخلاق من أجل تحقيق النجاح في الدنيا والآخرة. على رأس هذا، هناك اعتقاد أن هذا الشعر يعطي البركة لمن يستمع له؛ لأن الأشخاص المذكورين بإمكانهم أن يغيّروا الكون والطبيعة وروح الإنسان. والمثال لذلك قصيدة «مرحبًا يا ابن الأعظم»[1]:

مرحبًا يا ابن الأعظم

من الأمة العربية ومن الوطن العربي!

مرحبًا أيها الرجل النبيل

أيها الهاشمي، أيها القرشي

سوف تعين الضعفاء

وتحفظ من العبودية شعبًا عديدًا!

مرحبًا، أيها الرجل المستنير

يا أيّها الشفيع، يا أيّها المنقذ.

باسم حبك يجتمع الناس

لخدمة الإنسانية كلها.

كل شيء يحبك

لأنك فخر الطبيعة

(1) Sve stvoreno učini se veselo, Sarajevo, Predsjedništvo udruženja islamskih vjerskih službenika u SR BiH, 1990, str. 92.

كل شيء صغير، كبير

عندما يهب إسرافيل

سوف نعتمد عليك، يا حبيب

سوف تشفي الشقيّ

سوف تمدّ يدك للمخطئ.

أخيرًا، علينا أن نذكر أن هذا الشعر يحتوي الخطاب الفانتازي؛ لأن هناك بعض الصور من العالم الآخر. هذا ويرد في الأجزاء التي تتحدّث عن المعراج ما يدلّ أن الشعراء البشناقيين كانوا يصوّرون العرب ليس فقط في هذا العالم، بل في العالم الآخر أيضًا.

العرب في شعر الحبّ والغزل

صورة العرب متكررة جدا في شعر الحب والغزليات من القرن التاسع عشر. من المعروف أن الشعراء البشناق اتبعوا في شعرهم مثالية الحب العذري، التي تتطلب من البطل أن «يموت في الحب ومن أجل الحب». ومن المثير للاهتمام أن هذه الصور من الحب العذري أتت في شعرنا من جهات عديدة. واحدة منها مأخوذة من الشاعر الألماني الشهيرة هاينريش هاينه (Heinrich Heine). إن تردد أسماء «ليلى» و«عذراء» في شعر الحب يثبت هذه الحقيقة جيدًا.

العرب في الشعر البشناقي دائما هم أشخاص ذوو جمال وجاذبية، وهذا هو ما يتناقض مع تصويرهم في آداب البلقان الأخرى، حيث العربي هو دائمًا ممثّل «الآخر الفاحش الذي ينتظر فقط الفرصة لاختطاف النساء»، حسب إحدى تعريفات الآخر من فانون[1].

من بين القصائد العديدة، نسلط الضوء على واحدة تحت عنوان «في بودابست تبتاع العربي الأسود». القصيدة تحكي لنا كيف تشتري سيدة بوسنية

(1) Frantz Fanon, Black Skin, White Masks, Pluto Press, London, 2008., str. 80.

العربي الأسود من بودابست، ثم تحاول أن تغسل لونه الأسود ولا تنجح في ذلك. في النهاية تصل إلى الاستنتاج التالي[1]:

...

لا تقلقي أيتها السيدة الجميلة

الليلة السوداء تلد اليوم الأبيض

البقرة السوداء تعطي الحليب الأبيض

الدجاج الأسود يحمل البيض البيضاء

والعربي الأسود يحب حقا السيدة البيضاء.

على الرغم من وجود استخدام صورة العربي الأسود، إلا أن هذه الصورة تفكّك هذه الصورة بصيغة عميقة. فمن أجل تكييف العربي الأسود مع نفسها وبيئتها، حاولت السيدة الجميلة إزالة اللون الأسود من حبيبها. وعندما لا تنجح في ذلك، يقول لها صوت الحكمة الحقيقية ويكشف السرّ الجوهري. وفقًا لذلك، لا يعتبر السواد كرمز شرير وسيئ، ولكن كعلامة للخصوبة والجمال والحب. وعلى نحو أدق، يعتبر السواد كسبب رئيسي للحياة والسعادة. إنّ التفكيكية في هذه القصيدة ممتازة ومليئة بالمعاني.

يمكننا أيضا أن نذكر أن الشعراء البشناق لم يكونوا يصفون المرأة العربية كرمز للحب فحسب، بل كانوا يصورون النساء العربيات قدوة في حياتهم. على سبيل المثال، يمثل موسى كاظم شخصيات الخنساء وفاطمة الزهراء والعباسة، أخت هارون الرشيد، وغيرهنّ، بأعلى مثال للكرامة والاحترام والإعجاب بهن وبأخلاقهنّ وحكمتهنّ وجمالهنّ.

الأدب الحديث والمعاصر

الأدب البشناقي الحديث والمعاصر يحتوي على إشارات عديدة إلى العرب والعالم العربي والثقافة العربية. العالم العربي هو في نواح كثيرة مصدر

(1) Sevdalinke, priredio Vehid Gunić, Planjaks, Tešanj, 2003, pp. 145.

الإلهام لكثير من الكتّاب البشناق، وأفضل مثل لذلك رواية «الديوان الشرقي» لجواد قرا حسن (Dževad Karahasan). يمكن القول بأن هذه الرواية غير معروفة تمامًا في العالم العربي. هذه الرواية، وكما يوحي العنوان، تحاول أن تعكس الجمال، ولكن أيضًا تعقد الشرق أو العالم العربي. الكاتب يحكي لنا قصص حياة ثلاث شخصيات مشهورة، وهم المقفع والحلاج والتوحيدي. من خلال هذه الشخصيات التاريخية المعروفة يلقي المؤلّف الضوء على ثراء الثقافة العربية، وبالتالي يناقض الصورة المتجانسة من العرب التي تشكّلت في القرون الوسطى واستمرّت حتى اليوم. الشخصيات في روايته هي الصوفي: الحلاّج، والضابط المتعصب: غزوان، والمفكّر: المقفع، والسيّدة العاطفية: بغزادة، والمؤلف الملهم: التوحيدي. ومع ذلك، كلهم «أناس عاديون» مع كل المخاوف ومباهج الحياة مثلنا. وهكذا، فإن صورة العرب لأول مرة أصبحت مرآة يرى فيها القرّاء البوسنيون أنفسهم وحياتهم.

ولدينا شيء مشابه في رواية اسكندر كولنوفتش (Skender Kulenović)، لكنه يقارن رؤية العرب عند قدامى البشناق بصورة العرب عند جيل الشباب. علاوة على ذلك يثير هذا الكاتب موضوع الحداثة في العالم العربي في أفكار البطل الرئيسي محمد، الذي يدرس في القاهرة في جامعة الأزهر.

عندما نتحدث عن الشعر المعاصر، فمن الواضح أن الشعراء في هذه العقود كانوا عادة يشيرون إلى العرب والثقافة العربية، مع أن بعض النقاد يعتبرون مثل هذه القصائد ضمن الشعر الديني أو التعبّدي. أعتقد أن مثل هذه المواقف غير مقبولة وغير قابلة للاستمرار في ضوء النظريات الأدبية المعاصرة. وعلى وجه التحديد، قام الشعراء البشناقيون بتقديم صورة العرب والعالم العربي عند كتابة موضوعات مختلفة، مثل الحب والوطن والتصور الفلسفي والرحلات وسير حياتهم والتاريخ.. الخ. بعض الشعراء مثل إبراهيم كايان (Ibrahim Kajan)، صالح عليتش (Salih Alić) وموسى كاظم، كانوا يستخدمون في شعرهم الصور من حياة البدو والرموز من العالم العربي

القديم، مثل الرمال والمسافر المفقود والدفن والقوافل والواحة وغيرها. هم كانوا يستخدمون هذه الصور لوصف مشاعرهم العميقة وحالاتهم النفسية. علاوة على هذا، في كثير من القصائد يقوم الشاعر بالمماثلة ما بين نفسه والعرب، بناء على القرب الروحي الموجود بينهم. أفضل مثال على ذلك شعر السيرة الذاتية لحمزة هومو (Hamza Humo) الذي قارن بين نفسه وحياته وحياة حمزة عمّ النبي.

بطبيعة الحال، هناك شعراء معاصرون كانوا يصورون العرب حصرًا في البعد الروحي. في هذا الشعر التلميحات الصوفية متكررة جدًا. في النهاية، علينا أن نلفت النظر إلى أن الشعر المعاصر يمثل الصورة الواقعية للعرب. ووفقًا لذلك، نعتبر هذا الشعر بأنه خطاب أدبي تفكيكي.

الخاتمة

انطلاقًا من الفرضية أن الأدب يعكس الأوضاع الاجتماعية والتاريخية، يعطي هذا البحث المعلومات القيّمة عن تشكيل صورة العرب في الأدب البشناقي من القرون العثمانية حتى اليوم. وبالمقارنة مع صورة العرب في سياق الآداب البلقانية، يتّضح بأن صورة العرب في الأدب البشناقي لها وظيفة السرد المناقض.

وتستخدم أسطورة «العربي الأسود» بشكل معارض لمعيار الآداب البلقانية. فقد كانت لهذه الأسطورة مهمة تطغى على كل الصفات السلبية التي يمكن للمرء أن يتخيلها. وعلى هذا الأساس كان يبدأ بناء البطل القومي المثالي عند شعوب البلقان. العربي في الآداب البلقانية هو عادة يمثل الكآبة السوداء واللاإنسان والمتوحش. من الجانب الآخر، نجد أن التراث الأدبي البشناقي يقدم صورة مختلفة عن العرب.

وبشكل معارض للأسطورة السائدة عن «العربي الأسود»، نجد أن التصور الأدبي البشناقي يفكّك صورة زائفة ويقوّض تمثيل الهيمنة للآخر. على هذا النحو وفي هذا الأدب شهدنا النموذج الثقافي الجديد، وكذلك لاحظنا علاقة جديدة بين الدال والمدلول الأيديولوجي.

وفى الختام، نعتقد أن صورة العربي في الأدب البشناقي تبيّن «المكان الثالث» في التمثيل السردي للآخر عمومًا، أو «النص الهجين»[1] كما حدّده هومي بابا (Homi Bhabha). في هذا المكان السردي الثالث هناك طريقة للتغلب على الأنماط الثابتة من الانقسامات والعداء المتبادل بيننا جميعًا. علاوة على ذلك، هذه هي الخطوة لتجاوز الخطوط الفاصلة بين الأبيض والأسود، بين الشرقي والغربي، بين «نحن» و«هم»، وكل هذا من أجل الالتقاء والتعرف بعضنا ببعض في حياة أفضل وعالم أجمل وأدب أروع.

(1) Homi K. Bhabha, *The Location of Culture*, London, Routledge, 1994, pp. 23

الأدب البوسنوي والمجلات البوسنوية في الأبجدية العربية:

الأبعاد الثقافية والسياسية

منير مويتش[1]

إن شبه جزيرة البلقان تمثّل منطقة لها مكانة معتبرة في خريطة الحضارة الإسلامية. هذه المنطقة، كما هو معروف، كانت جزءًا من الدولة العثمانية طوال عدة قرون، وبقيت تعيش هناك مجتمعات مسلمة عريقة ذات وعي قوي بقيم الحضارة الإسلامية. وكما إن اللغة العربية كانت ولا تزال تمثّل ما نسميه باللغة المشتركة (lingua franca) للحضارة الإسلامية، فإن الأبجدية العربية بطبيعة الحال تمثّل «أبجدية الحضارة الإسلامية» لأسباب لسنا في حاجة إلى عدها. وفي هذا المكان لغرض موضوعنا، نذكر فقط أنه من الصعب أن نجد شعبا مسلمًا في العالم لا يستعمل أو لم يستعمل الأبجدية العربية في فترة من تاريخه لكتابة لغته. وبجانب اللغة العربية، لا تزال الأبجدية العربية، كما هو معروف، تُستعمل اليوم لكتابة عدد من اللغات، مثل الفارسية والأردو والباشتو والمالايا والكردية في العراق وغيرها. وكانت الأبجدية العربية تستعمل للغة التركية حتى زوال الخلافة العثمانية، وللسواحلية حتى الماضي القريب ولعدد كثير من لغات أخرى.

والاستعمال الخاص للأبجدية العربية هو استعمالها لكتابة «اللغات المحلية» في ظروف كانت هناك لغة أخرى «رسمية»، وكانت الأبجدية العربية

---

(١) رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة سراييفو، البوسنة والهرسك.

لكتابة تلك اللغات تمثل نوعًا من أبجدية بديلة. على هذا النحو كانت الأبجدية العربية تستخدم لكتابة أكثر من لغة: الإسبانية القديمة والألبانية والبوسنوية واليونانية والمجرية، وكان التاتار يستخدمونها أيضًا لكتابة لغتهم.

وللتراث المكتوب في «اللغات المحلية» بالحروف العربية في أوروبا يستخدم مصطلح (*aljamiado*) (يكتب مؤخرًا بالعربية «الخميادو». (وهذا المصطلح كان يستخدم أصلًا لتسمية تراث مسلمي الأندلس الذي كتبوه في اللغة الإسبانية بالحروف العربية.

وبغرض التعرّف على مكانة ودور تراث البشانقة المكتوب في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية في التاريخ وقيمها الفنية، قرّرنا أن نقدّم عرضًا لأهم الإنجازات الأدبية من هذا المجال حسب الترتيب الزمني، وبعد ذاك نلقي ضوءًا على المجلات التي كانت تصدر باللغة البوسنوية بالأبجدية العربية.

الشعر البوسنوي في الأبجدية العربية

أخذ الوصول إلى أفضل أبجدية عربية للغة البوسنوية زمنًا طويلًا. بدأ استخدام هذه الأبجدية للغة البوسنوية في القرن الخامس عشر بمجرد فتح العثمانيين للبوسنة، وهذا أولًا لكتابة أسماء الأشخاص والأماكن في السجلات. أما الإنتاج الأدبي فقد نجد بوادره في القرن السابع عشر، مع أننا لا نجد إنتاجًا أوسع[1] إلا بعد قرنين.

---

(١) راجع في الأدب البوسنوي في الأبجدية العربية:

Dr.Muhamed Huković, **Alhamijado književnost i njeni stvaraoci** (Sarajevo: Svjetlost, 1986.)

Dr. Abdurahman Nametak, **Hrestomatija bosanske alhamijado književnosti** (Sarajevo: Svjetlost, 1981.)

Abdurahman Nametak, ‹O alhamijado književnosti›, **Bošnjačka književnost u književnoj kritici**,eds. Enes Duraković, Esad Duraković, Fehim Nametak (Sarajevo, Alef, 1998.) 861 - 885.

Fehim Nametak, ‹Avrupa‘da Alhemijado edebiyati›, **Türk edebiyatı tarihi**, eds. Talat Sait Halman et al., (Ankara, Kültur ve Turizm Bakanlığı, 2006.) 586 - 588.

ولدينا هنا محمد أردلى (Mehmed Erdeljac) (عاش في القرن السابع عشر) صاحب «القصيدة الكرواتية» (*Hirvat türkisi*) التي تعتبر أقدم الإبداعات المكتوبة في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية. ويُفترض أن هذا الشاعر كان مجري النسب، وأنه تعلّم اللغة البوسنوية بعد إسلامه. ومما يثير العجب هو أن الشاعر يستخدم بعض الكلمات التي يندر استخدامها في أشعار الذين جاؤوا بعده، مثل كلمة «عناق»:

هل يمكن أن نتعانق ثانية؟ [١]

فالأدب البوسنوي في الأبجدية العربية، بخلاف الشعر العربي أو التركي أو الفارسي، لا يقبل إلا نادرًا الكلام الصريح في الحب، مثل وصف المحبوبة والتصرفات التي لا يليق الكلام عنها جهرًا. وبعض الباحثين يعتقدون أن هذه الميزة لقصيدة محمد أردلى تأتي نتيجة تأثره بشعر النهضة الأوروبية. وعلى أية حال، يصعب أن نعثر على مثل هذا الأسلوب من جديد في الشعر البوسنوي من هذا النوع[٢].

والحاج يوسف إحلونوى (Hadži Jusuf Livnjak) (توفي بعد سنة ١٦٤٧) هو كاتب قصيدة مشهورة تحت عنوان «عرض حال» التي يشتكي فيها إلى القاضي لأجل المصائب التي كان يسبّبها نائب القاضي لسكان مدينة «دوونو». تحتوي هذه القصيدة على بعض الكلمات والتراكيب التي تنتمي إلى السياق النصراني، حيث يتوجه الشاعر بالدعاء إلى «مريم القديسة» و«السيد» بدلًا من «الرب»:

انصرينا يا مريم القديسة

وانصرنا أيها السيد..[٣]

ومن الراجح أن استخدام هذه الكلمات يأتى نتيجة لحداثة إسلام الشاعر.

---

(1) A. Nametak, 58.

(2) Huković, 83.

(3) Huković, 92.

أما محمد هوائي (Muhamed Hevai) (توفي بعد سنة ١٦٥١) فقد كتب عددًا من القصائد الدينية، وقصيدة يدعو فيها غير المسلمين إلى التعايش في الأمانة المشتركة:

الأب واحد والأم واحدة

قبل كل شيء علينا معرفة هذا[١]

ونال هوائي شهرة أكبر بقاموسه التركي-البوسنوي والذي سمّاه بـ«مقبولِ عارف»، وهو القاموس المنظوم بالشعر ويرجع تاريخه إلى سنة ١٦٣١.

ولدينا الشاعر الثائر حسن قائمي (Hasan Kaimi) (توفي سنة ١٦٩١)، الذي اتهم بأنه كان يثير الناس على الفوضى. وحدث هذا في سراييفو بعدما ظهر نقص الطعام، نتيجة وصول عدد كبير من المسلمين المهاجرين من المجر بعد هزيمة الجيش العثماني سنة ١٦٩٩. وفي تلك الحالة ارتفعت أسعار الطعام؛ لأن التجار الكبار بدأوا يخزنون الطعام منتظرين ارتفاع الأسعار. وبعدما أخمد الجيش الثورة طرد القاضي الشاعرَ قائمي من سراييفو. وبجانب ما كتبه باللغة التركية كتب قائمي في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية قصيدتين: «قصيدة بمناسبة فتح قَنْدِيَة» و«قصيدة ضد شرب الدخان». كان هذا الشاعر مشهورا باشتغاله في علم الجفر، وطار صيته بقصيدته قالها بمناسبة فتح «قَنْدِيَة» إذ كتبها قبل وقوع الفتح، وأنه أصاب بهذا ما يحدث في المستقبل، فقال وهو يخاطب أهل البندقية:

قائمي يتجسس

بدون دعوة يَأتي

يجد في كتاب

أن قَنْدِية ستؤخذ منكم[٢]

---

(1) Huković, 92.

(2) Huković, 104.

ولدينا المولى مصطفى بشسقي (Mula Mustafa Bašeskija) (توفي سنة ١٨٦٧) المشهور بكتاب التاريخ الذي كان يسجل فيه الأحداث في سرايفو. وله أيضًا عدد من القصائد الأخلاقية:

إن الذنب الصغير ذنب

لا تمشِ هونًا على شيء ولو على التراب

فِرَّ من النار ومن الدخان

كي لا يمسَّك الدخان.

وقد اشتهر الشاعر عبد الوهاب إلهامي (Abdulvehab Ilhami) توفي سنة ١٨٢١) بنقده الأحوال الاجتماعية، وقد سبّب هذا إعدامه بقلعة مدينة ترافنك. وقد عرض آراءه النقدية في قصيدته «أتانا زمن غريب». كان إلهامي ناقدًا حادًا، وهو لا يستثني أي شخص أو أي طبقة في المجتمع من نقده. ويشتكي الشاعر من اختفاء العدل وظهور الظلم:

شوَّش الظُلمُ العدلَ

والعدلُ مشوشٌ...(1)

تجرأ إلهامي على نقد السلطان محمود الثاني ذاته، وزعم أن توليه العرش صاحبه انتشار الظلم بين الناس، مما يشير قبل كل شيء إلى مدى شجاعته التي أدت في النهاية إلى إعدامه.

وكان الشاعر يشكو من عدم اهتمام الناس بالقيم والتقاليد الصحيحة حتى صرخ:

وكل إنسان أصبح ظالمًا

اختفى الصالحون

واختفت الخصال الصالحة

---

(1) A. Nametak, 158.

ولا أحد ينظر إلى القرآن

وفي لحظة يجد الشاعر نفسه وحيدًا، كما يبدو خائب الأمل:

أنا وحيد، إنسان منفرد

أدعو الله لصالح الإسلام...[1]

إن السبب للمشاكل في المجتمع كما يوضّح إلهامي لا يأتي من رجال السلطة فحسب:

وبين الباشوات يوجد من هو إنسان...

بل يتهم الموظفين الذين لا يوفون وظائفهم ويسميهم «المرتدين»، ويتهم رجال الدين والقضاة فيعدهم جهلاء وعاملين لصالحهم الشخصي ولا يبالون بالدين، ويسأل نفسه: إذا لم يكن المدرّسون والقضاة صالحين فمن يكون صالحا إذن؟

كتب إلهامي عشرين قصيدة في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية، والعدد الأكبر منها هي قصائد تعليمية وزهدية. وفي قصيدة تُنسب إليه يدَّعي الشاعر أن كل لغة تستحق أن تكون لغة العلم والأدب، تلميحًا إلى استعمال لغة الأم:

والقلم يكتب كل لغة[2]

أما الشاعر فيزو سوفطه (Fejzo Softa) فلا يُعرف عنه إلا أنه كان «صفطة» أي طالبًا في المدرسة، وأنه عاش في القرن الثامن عشر، وبقيت منه قصيدة تعتبر واحدة من أشهر القصائد في الأدب البوسنوي بالأبجدية العربية. وهذه القصيدة معروفة بعنوان «أبجدية العاشق»، وهي تتكون من تسعة وعشرين مقطوعة تحتوي كل منها على وصف شكلي لحرف من الأحرف العربية. وهذا الوصف بعيد تمامًا عن الوصف التعليمي المألوف. فالشاعر من خلاله يداعب حبيبته ويجاملها، وكل هذا بحجة أنه يقصد تعليمها كتابة الأحرف.

---

(1) A. Nametak, 157.

(2) Huković, 126.

وتميّز الشاعر عمر هومو (Omer Humo) (تـوفي سنة ١٨٧٨) بإدخال اللغة البوسنوية في نظام التعليم، فكتب كتابًا في أصول الدين سماه بـ«سهلة الوصول». وكتابه هذا من أول الكتب التي طبعت في اللغة البوسنوية بالحروف العربية، حيث تمّ طبعه سنة ١٨٦٥ في استانبول. وفي مقدمة هذا الكتاب كتب ثلاث قصائد يُعبّر في واحدة منها أن «لغة الأب» تليق للتعليم أكثر من أية لغة أخرى:

بلا شبهة، لغة الأب هي الأسهل

طوال القرون يخاطبونكم بها

أيها بشانقة، يا إخوتي الأعزاء

يقول عُمر لكم الحق[1]

إن طلبه بإدخال اللغة البوسنوية في المدارس يستحق أن يُعد ظاهرة تاريخية يجدر ذكرها؛ لأنه كان أول من طالب بذلك. كان هومو ضد النماذج التقليدية في التعليم، التي كانت تتمثل في إجبار الطلبة على حفظ المادة باللغة التركية التي لم يكونوا يفهمونها.

ولدينا صالح غاشووتش (Salih Gašovic) (توفي سنة ١٨٩٨) من مدينة نكشتش (Nikšic) التي تقع اليوم في الجبل الأسود، وهو مؤلف أشهر «مولد» باللغة البوسنوية. وبجانب «مولد» غاشوفتش كتب كل من عارف سرايلي ومحمد رشدي وسعيد زنونوفتش قصائد «المولد» في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية، إلا أن «مولد» غاشوفتش طُبع مرات عديدة وبآلاف من النسخ. وفي البوسنة والهرسك لا يزال يتمتع هذا «المولد» بشعبية لم يبلغها أي «مولد» كُتب بعده، وينشد مولده في مناسبات مختلفة. ومع أنه قال إنه نظم مولده بعد التماس الأعيان من مدينة كولاشن الذين قالوا له «نظّم لنا مولدًا بالبوسنوية»[2]،

---

(1) Omer Hazim Humo, Sehletul-vusul, eds. Munir Drkić. Alen Kalajdžija (Mostar: Muzej Hercegovine, 2010) 9 - 10.

(2) «Uredništvo Tarika», Mevlud (Sarajevo 13274).16 ,1909/.

إلا إن مولده هذا يمثل ترجمة لمولد سليمان شلبي المشهور كما هو الحال بكل الموالد التي سبق ذكرها. وقد تُرجم «مولد» شلبي أيضا إلى اللغة الألبانية، حيث «قام بعض الشعراء الألبانيين بترجمة المولد الذي نظمه الشاعر التركي سليمان شلبي، والذي حظي بشهرة واسعة في العالم الإسلامي مع بعض التعديلات التي أضافوها من عندهم» (١).

فـ«مولد» صالح غاشووتش هذا يحتل مكانة خاصة في الأدب البوسنوي، إذ يظهر منه جليًا الوعي بأهمية لغة الأم في إبراز المشاعر الدينية، ويشهد أيضًا بوجود الوعي بالوحدة القومية بين البشانقة في البلقان. ويحتل هذا «المولد» أيضًا مكانة مهمة في تاريخ الترجمة الأدبية إلى اللغة البوسنوية، إذ يعد واحدًا من بواكر الآثار الأدبية المترجمة إلى اللغة البوسنوية، ومن الجوانب الفنية التي تستحق بها هذه الترجمة التقدير والإعجاب. إنها ليست ترجمة حرفية، بل هي تمثّل إعادة فنية للأصل بمعناها الحقيقي. وكان صالح غاشووتش يراعي خصائص الشعرية المحلية وخصائص العروض التقليدية في البلقان، فينظم مولده على غرار القصائد الملحمية ذات أحد عشر مقطعا في البيت، وأعطى للأبيات المترجمة إيقاعًا اعتاد عليه ذوق أهل البلقان.

ويعتبر سليمان طباكوفتش Sulejman Tabakovic النصف الثاني من القرن التاسع عشر(من مدينة نوفي بازار (Novi Pazar)، التي تقع اليوم في صربيا، أحد الشعراء الذين كانوا يتناولون الموضوعات الواقعية والتعليمية والأخلاقية. وقد ترك لنا قصيدتين في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية: «قد مضَى وقت الخير» و«إبراهيم ترزي». ففي قصيدته «قد مضى وقت الخير» يصف الشاعر أحوال الفقراء الصعبة وعدم المبالاة بمتاعبهم:

والفقير دائمًا في ضيق

لا مكان له للبكاء

ويقولون له لا تكذب.

---

(١) محمد موفاكو. الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية. الكويت: عالم المعرفة، ١٩٨٣، ص٣٦.

وإتباعا لعادة الآخرين من الشعراء الذين عالجوا هذه الموضوعات باللغة البوسنوية، وجّه طباكوفتش غضبه ضد رجال الدين والقضاة الذين كانوا يفضّلون مصالحهم على القيم الدينية والأخلاقية:

هذا عيب منهم كبير:

يعرفون ما الذنب وما الثواب

ويختصمون حول الكباب

وهم ينظرون في القرآن

أما قصيدته «إبراهيم ترزي» فهي قصيدة تعليمية وأخلاقية وفي الوقت نفسه واقعية، ينصح الشاعر من خلال نصها إبراهيم أن يتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية، وألا يكون قاضيًا أبدًا لسوء خلق القضاة.

ويبرز بين الشعراء الذين كتبوا في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية بنطاق إنتاجه وشعبيته محمد دزداروتش رشدي (Muhamed Dizdarevic Rušdi) (توفي سنة ١٩٠٥) الذي كتب «المولد الشريف» وقصيدة «في فضل إنشاد المولد»، وكتب قصيدتين يصف فيهما وفاة محمد عليه السلام وابنته فاطمة: «وفاة النبي» تحتوى على ١٦٣ بيتًا و«وفاة فاطمة الزهراء» تحتوي على ٩٢ بيتًا وطبعت هاتان القصيدتان في الأبجدية العربية. واشتهر اسم هذا الشاعر بقصائده القصصية الطويلة: «حكاية أيوب» التي تحتوي على ٩٤ بيتًا و«حكاية يوسف» التي تحتوي على ٢٠٦ أبيات و«حكاية إسماعيل» التي تحتوي على ١٠٩ أبيات. ويشير إلى مدى شعبية هذه القصائد القصصية أن «حكاية يوسف» و«حكاية إسماعيل» طبعت خمس مرات وبعدد كبير من النسخ، حتى إن علي ناميتاك (Alija Nametak) يقول: «من المعتقد أنه لا توجد عائلة مسلمة يعرف فرد من أفرادها القراءة إلا ويوجد في بيتها هذا الكتاب. وكثير من النساء يحفظن هذا الكتاب غيبًا وينشدنه أثناء أدائهن أعمال البيت»[1]. والجدير بالذكر أن أوتو

(1) Huković, 175.

بابلر (Otto F. Babler) ترجم القصيدتين المذكورتين إلى اللغة التشكية[1]. وبذلك كان رشدي أول من أبدع الشعر القصصي في الأدب البوسنوي المكتوب بالحروف العربية. كان رشدي يعرف كلًا من الأبجديات العربية واللاتينية والسيريلية؛ لأنه تلقّى العلم في المدرسة الإسلامية وفي المدرسة الصربية أيضًا، ولكنه كتب مؤلفاته كلها بالأبجدية العربية.

ومع القرن العشرين، بدأ الأدب البوسنوي بالأبجدية العربية ينسحب أمام الأدب المكتوب بالأبجدية اللاتينية والسيريلية. ولكن بقي هناك من المبدعين من يكتبون نصوصهم بالأبجدية العربية. ونذكر من بينهم علي صادقوفتش (Alija Sadikovic) (توفي سنة ١٩٣٦) الذي كان يعمل مدّرسا في مدينة يانيا (Janja)، وكان يعالج الأغراض التعليمية. كتب ثلاث قصائد تعليمية: «رسالة الأب» و«نصيحة الأب» و«واجبات الأولاد». وأسلوبه لا يتصف ببساطة الكلام التي كان يتصف بها أسلوب الشعراء الذين تناولوا الأغراض التعليمية في القرون السابقة؛ لأنه يُكثر في كلامه من استخدام المجازات والكنايات. فعلى سبيل المثال يقول الشاعر وهو ينصح ابنه أن لا يتكبر:

تنبُت الحبة وهي في الأرض

وتُقطع بعد ارتفاعها فوق الأرض[2]

بجانب هذه القصائد التعليمية كتب الشاعر عددًا من القصائد الدينية. وهناك قصيدة له تحت عنوان «القصيدة»، ينتقد فيها الفساد في الدولة وعدم المساواة بين الناس. ويتناول الموضوع نفسه في القصيدة تحت عنوان «في الزمن القديم وفي الزمن الحاضر»، يقول فيها إنه يمكن تقسيم الناس على طبقتين: الذين يكادون يموتون بدون خبز، والذين يتمتعون في النعيم.

وقد أوردنا هنا أسماء عدد من الشعراء الذين كانوا يكتبون شعرهم في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية، ولا تسمح لنا طبيعة هذا البحث أن نتحدث

(1) Otto F. Babler, Dvě muhamedánske biblické básně (Svatý Kopeček, 1934.).

(2) Huković, 183.

عن كل من الشعراء الذين تناولوا هذا النوع من الشعر، ولكن يمكننا أن نكوِّن صورة عامة لهذا الشعر: ألوانه وأغراضه ووظيفته. فقد كان هذا الأدب يُبدَع في الوقت نفسه الذي كان فيه الشعراء البشانقة ينظمون شعرهم باللغات الشرقية، وفي معظم الأحيان بالتركية. ولذلك يمكننا القول إن أدب البشانقة في الأبجدية العربية يمثل صوتا أكثر أصالةً من صوت أدب البشانقة باللغات الشرقية. فأدب البشانقة في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية لم يكن يخضع للمقاييس الشعرية التي خضع لها الأدب المكتوب باللغات الشرقية. وهذا الأدب بغضِّ النظر عن قيمه الفنية يستحق التقدير؛ إذ إنه كان يمثّل التعبير البديل عن الآراء والأفكار والمشاعر، ووسيلة لإبراز الرأي العام. نقول هذا عندما نأخذ في عين الاعتبار الأعمال الأدبية التي تتناول موضوعات اجتماعية وواقعية وسياسية، أما بالنسبة للأعمال التي تتناول موضوع الحب، فإنها مع قلة عددها تمثّل إبداعات لا تخضع للقوالب المألوفة في الشعر باللغات الشرقية. والأشعار الدينية في كثير من الأحيان تعالج عن طريق غير مباشر موضوعات اجتماعية، وهناك من الشعراء الذين يقدمون النصائح الدينية، ويوجهون النقد الحادَّ إلى من يغتصب حقوق الآخرين أو مثل ذلك.

الأعمال النثرية باللغة البوسنوية المكتوبة في الأبجدية العربية

إن الأعمال النثرية الأدبية الفنية المكتوبة في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية كانت أقل عددًا بكثير من الأعمال الشعرية. ومعظم هذه الأعمال تتناول موضوعات دينية وأخلاقية.

وبجانب النثر الفني كان هناك عدد من الكتب للتعليم في الكتاتيب وفي المدارس، وعدد كبير من المقالات من مختلف الألوان. ونذكر أن نشر الأعمال في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية أصبح نشاطًا واسعًا في هذا المجال فيما بعد. وكما ذكرنا سابقًا فإن عددًا كبيرًا من الكتب للتعليم في الكتاتيب والمدارس نشرت باللغة البوسنوية في الأبجدية العربية. ونذكر هنا فقط أن معظم هذه الكتب كانت في مجال أصول الدين والأخلاق. ونلقي بعض الضوء على كتاب كان له

أهمية كبيرة وهو كتاب بعنوان «نحو إصلاح تعليمنا»، الذي ألفه حمدي مولتش (Hamdija Mulic) سنة ١٩١٤، وعالج فيه إمكانية تطبيق المناهج التعليمية المعاصرة في الكتاتيب. وكان مولتش في كتابه هذا يعتمد على المصادر المعاصرة. وقبل هذا الكتاب نشر إبراهيم سليوباتس (Ibrahim Seljubac) كتابه «ألفباء البوسنوي»، الذي يأتي فيه بالتوجيهات المتعلقة باستخدام الأبجدية العربية لكتابة اللغة البوسنوية. وهناك نصوص يتناول فيها المؤلف الحاجة إلى التعليم بلغة الأم. ويرى الكاتب أن سبب تخلّف المسلمين في البوسنة يأتي من التعليم باللغة التركية.

أما تكييف الأبجدية العربية بشكل نهائي للغة البوسنوية فقد قام به جمال الدين تشاووشفتش (Džemaludin Caušević) رئيس العلماء أو مفتي البوسنة في القرن التاسع عشر. وقد أدى الحرص على معالجة الموضوعات الإصلاحية والتربوية إلى طباعة أكثر من أربعين كتابًا[1] بأكثر من نصف مليون نسخة في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية في الفترة ما بين ١٨٦٨ و١٩٤٤. وبجانب الكتب طبعت في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية أشياء أخرى، مثل الشهادات والوثائق التي كانت تدخل في إطار مسؤولية المحاكم الشرعية.. إلخ.

المجلات باللغة البوسنوية في الأبجدية العربية

وللمجلات التي طبعت باللغة البوسنوية بالأبجدية العربية مكانة خاصة؛ إذ إنها تمثّل أفضل صورة لآراء «المتحمسين للأبجدية العربية». وفي سنة ١٩٠٨ أعلنت الإمبراطورية النمساوية-المجرية قرارها بضم البوسنة والهرسك

---

(١) راجع عرض الأعمال باللغة البوسنوية التي طبعت بالأبجدية العربية في:
Osman A. Sokolović, ‹Pregled štampanih djela na srpsko-hrvatskom jeziku muslimana Bosne i
Hercegovine od 1878 - 1914 godine›. Glasnik Vrhovnog islamskog starješinstva za 195556/ g. (1955) 69 - 77.
Fatima Omerdić, Bibliografija štampanih djela arapskim pismom bosanskohercegovačkih autora u.
Gazi Husrev-begovoj biblioteci", *Anali Gazi husrev-begove biblioteke*, XXV-XXVI, 309 - 371.

إلى أراضي الإمبراطورية، وفي هذه السنة طبع أول عدد من المجلة الأولى في اللغة البوسنوية بالأبجدية العربية، التي سميت بـ«طريق»، وكانت تطبع شهريًا في فترة ما بين يونيو سنة ١٩٠٨ ونهاية سنة ١٩١٠. وموضوعات هذه المجلة كانت متعلقة بالتعليم وتحليل أوضاع المسلمين في البوسنة والهرسك في الظروف الجديدة، وهذا تحت عنوان «مناقب الجَدّ»، الذي كان يخفي اسم جمال الدين تشاؤوشفيتش (Džemaludin Caušević) المفتي الكبير والداعي إلى الإصلاح الثقافي. وقد نقد «الجدّ» أولئك الذين كانوا يدعون المسلمين للهجرة من البوسنة إلى تركيا، وكان يدعو البشانقة إلى الصحوة القومية. وبالإضافة إلى ما هو مذكور، كان في مجلة «طريق» باب للأدب وباب للأخبار من العالم الإسلامي.

ويمثّل ما أعلنته أسرة التحرير في العدد الأول من مجلة «طريق» أحسن صورة لمحاولات البشانقة تجاوز «الصدمة الثقافية»، التي واجهوها بعد الاحتلال وخاصة بعد ضم البوسنة والهرسك إلى أراضي الإمبراطورية النمساوية المجرية. وكانت مجلة «طريق» تدعو إلى قبول الأبجدية العربية أبجدية مشتركة لجميع المسلمين في العالم: «إذا لا يمكن لكل واحد منا أن يتعلّم لغة من اللغات الشرقية، فليتعلم كلنا الأبجدية نفسها... فمن المقبول أن تستعمل جميع الشعوب المسلمة الأبجدية نفسها»[1]. وهذا الموقف ناتج عن الوعي بأن الأبجدية العربية لها أهمية قصوى في بناء وحدة الشعوب المسلمة في العالم، أو بعبارة أصح في الحفاظ على تلك الوحدة، بمعنى ترسيخ الشعور بالانتماء إلى أمة واحدة. فالأبجدية العربية بكونها أبجدية تعلّمها واستعملها المسلمون خلال القرون، أصبحت عاملًا لتجاوز الحواجز المانعة من الوحدة التي فرضها الواقع السياسي على المسلمين. فقد قررت القوى العظمى في أوروبا خلال اجتماعها في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨، أن تحتل الإمبراطورية النمساوية المجرية البوسنة على أن تبقى شكليًا «تحت سيادة العثمانيين». وكانت حالة السيادة المزدوجة تجعل المسلمين في البوسنة يأملون بأن العثمانيين سيعودون عن قريب. واستمرت تلك الآمال الرومانسية ثلاثين عامًا، أي حتى عام ١٩٠٨، عندما

---

(١) طريق، العدد ١ (١٩٠٦) ٤.

ضمت الإمبراطورية النمساوية المجرية البوسنة والهرسك إلى أراضيها»[1]. وبعد تلك السنة حلّ الشعور بالانتماء إلى عائلة الشعوب المسلمة محل الأمل بعودة الدولة العثمانية. وأصبحت المجلات الصادرة في البوسنة في ذاك الوقت تُعمق الشعور بوحدة المسلمين في العالم. ومن الملحوظ أن الوحدة التي كانت تدعو إليها تلك المجلات لا تكاد تخلو من البعد السياسي بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل كانت تدعو إلى وحدة دينية وثقافية وعاطفية بين الشعوب المسلمة. ومن جهة أخرى كانت هذه المجلات تعالج موضوعات سياسية متعلقة بما كان يحدث في البوسنة. وهكذا كانت تنقل مثلًا مجلة «معلم» الخبر عن مبادرة المسلمين لاستعمال الحروف العربية بجانب اللاتينية والسيريلية في كتابة أسماء المؤسسات الحكومية، ولِجميع الأسماء والعناوين الرسمية في الشوارع والطرق: «ومع أن حكومتنا، وهذا عجيب، تظهر العداوة ضد الأبجدية العربية، الأبجدية الإسلامية، فنحن نصرّ على استعمال أبجديتنا ليس في العلامات الإرشادية في الطرق العامة فحسب، بل في كل مكان بالتوازي مع الأبجدية اللاتينية والسيريلية»[2]. واتفق أعضاء المجلس الوطني البوسنوي على هذا إلا أن الحكومة في فيينا ألغت هذا القرار[3].

ولعبت هذه المجلات دورًا مهمًا في النهوض القومي لدى البشانقة، وهذا بمعنى أن الأبجدية العربية كانت تعتبر ميزة من ميزات فارقة لهويتهم. وبجانب هذا كانت هذه المجلات تنشر النقاشات والنقد ضد الحكومة النمساوية المجرية، والنقد الموجه ضد أسقف الكنسية الكاثوليكية[4] في سراييفو ومحاولاته التنصيرية والتبشيرية، وهي أيضًا كانت تناقش موضوعات حول إصلاح التعليم عند المسلمين في البوسنة... إلخ.

(1) Amir Karic, **Panislamizam u Bosni** (Sarajevo: Connectum, 2006) 72.

(٢) معلم، العدد٢ (١٩١١) ٣٥.

(٣) معلم، العدد٢ (١٩١١) ٣٦.

(٤) وعلى سبيل المثال نجد في مجلة مصباح نقدًا حادًا ضد تصريحات الأسقف اشتادلر، وتصريحاته عن عدم إلزامية القرارات الحكومية التي لم يعط البابا المباركة لها. انظر: مصباح، العدد ١ (١٩١٣)١٨٩/١.

ولا نتغافل هنا أنه كان لاستعمال الأبجدية العربية سبب عملي، إذ كان لا يعرف عدد كبير من المسلمين في البوسنة إلا الأبجدية العربية، ولو لم تستخدم الأبجدية العربية لباتوا أمّيين في لحظة واحدة. وكان البشانقة منذ احتلال البوسنة من قبل الإمراطورية النمساوية - المجرية يستعملون ثلاث أبجديات: العربية واللاتينية والسيريلية. وقد استمر هذا الحال حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حينما توقف استعمال الأبجدية العربية في مجال التعليم والنشر.

فمجـلة «معلم»، التي صدرت بين سنتي ١٩١٠ و١٩١٣، كانت تتناول موضوعات تعليمية وتربوية وثقافية قبل كل شيء، وكان ضمن محتواها باب خاص بالمسائل المتعلقة باللغة والأبجدية.

أما مجلة «مصباح» فهي مثل المجلتين السابقتين، كانت تنشر موضوعات من مجال التعليم والتربية. ومع أن أسرة التحرير أعلنت في مقدمة العدد الأول أنها تتفادى الموضوعات السياسية، إلا أنها كانت تهتم بها أكثر من «طريق» و«معلم». والمسألة الرئيسة التي اهتمت بها مجلة «مصباح» هي وضع البشانقة بين الصرب والكروات. وكانت المجلة تأتي بأخبار من العالم تحرّض المسلمين في البوسنة والهرسك على بذل الجهود في سبيل التقدم. وأتت المجلة مثلًا بخبر عن افتتاح المدرسة الثانوية الإسلامية للبنات في قازان، ليكون هذا للبشانقة مثلًا يُحتذى به[1]. وبعدما توقفت مجلة «مصباح» عن صدورها ظهرت مجلة «يَنى مصباح»، التي نُشر منها اثنا عشر عددًا، وكانت تكتب بكل من الأبجديات العربية واللاتينية والسيريلية.

وفي هذا الوقت نفسه كانت تصدر المجلات باللغة البوسنوية وبالأبجديتين اللاتينية والسيريلية. وأثارت الأبجدية العربية واستعمالها للكتابة باللغة البوسنوية تساؤلات ومناقشات وخصومات؛ فرآها البعض مانعًا لتقدم العلم والتعليم والثقافة، بينما رآها الآخرون فاعلًا يمكن أن تجتمع حوله جميع الشعوب المسلمة في العالم.

---

(١) «المدرسة الثانوية الإسلامية في قازان: جُمع لافتتاح هذه المدرسة الإسلامية في وقت قصير جدًا ثمانمائة ألف روبل من متبرعات التاتار، وهمُ الذين يقومون بتمويل عشرة آلاف من الكتاتيب بدون أي مساعدة من قبل الحكومة. إذن ليس هذا الافتتاح أمرًا عجيبًا. يا إلهي، هل يكون الأمر مثل هذا مقدورًا لنا أبدًا؟» مصباح، العدد ١ (١٩١٣) ١٠.

ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الألبانية

عيسى مميشي[1]

تُعتبر الترجمة أحد الوسائل الرئيسة في ما يُسمي بحوار الحضارات، وستظل الترجمة هي القناة الأهم في الحوار بين الشعوب وتقريب الثقافات. والبحث عن ترجمة الأدب العربي لا سيما إلى اللغة الألبانية، يجب أن يكون في إطاره الزمني المناسب، إذ إن ذلك إنما كان بقدوم العثمانيين وفتحهم لبلاد البلقان ونشرهم للإسلام فيها منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي.

منذ بداية الحكم العثماني تكيّف الألبان في إطار الدولة الجديدة، وقبلوا القيم الجديدة التي جاءت معها. وفي هذا السياق أصبحت اللغة العربية تعتبر لغة العلوم الإسلامية، بينما كانت الفارسية لغة الأدب، والتركية لغة الإدارة. ومع تقبلهم للواقع الجديد، فقد أخذ الألبان بدورهم يتعلمون هذه اللغات في مراكز الدولة العثمانية، ويعتمدون على هذه اللغات في دراسة العلوم اللغوية والدينية والآداب. وفي هذا السياق أيضًا يمكن القول إن الصلات الأولى بين الألبان والعرب تعود إلى القرن السادس عشر.

ونظرًا لأن الدولة العثمانية لم تعترف باللغة الألبانية على نمط العربية والفارسية والتركية، فإن الألبان كانوا كغيرهم من الشعوب يقبلون على تعلّم هذه اللغات الثلاث وتعلّم العلوم المختلفة بواسطة هذه اللغات، بينما لم يتمتعوا بهذا الحق في ما يتعلق بلغتهم الألبانية.

---

(١) رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة بريشتينا، كوسوفا.

كان الألبان هم الشعب الوحيد في البلقان الذي اعتنق الإسلام بغالبيته. ولذلك فإنّ الألبان المسلمين الذين كانوا يكملون دراساتهم في مراكز الدولة العثمانية، بدأوا يتحولون إلى الكتابة بهذه اللغات الشرقية الثلاث (العربية والفارسية والتركية). ونظرًا لأن العربية كانت تعتبر لغة العلوم الإسلامية، فقد أصبحت لغة التعليم في المدارس التي افتتحت وانتشرت في كل المناطق الألبانية خلال الحكم العثماني. وفي هذه المدارس كانت تعتمد النصوص الأساسية في اللغة العربية لدراسة العلوم اللغوية والدينية المختلفة.

وحسب د. فتحي مهدي المتخصّص في تاريخ ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الألبانية، فإن أول عمل جدي في ترجمة الأدب العربي إلى الألبانية، كان مع الأديب فائق كونيتسا (١٨٧٥-١٩٤٢). وحسب د. محمد موفاكو، فقد اختار كونيتسا بعض حكايات «ألف ليلة وليلة» ليصدرها في الألبانية تحت عنوان «في ظلال النخيل» في عام ١٩٢٤. ويوضح د. موفاكو أن كونيتسا قد اعتمد على ترجمة إدوار لين لـ«ألف ليلة وليلة»، أي إنه لم يترجمها مباشرة من اللغة العربية. وللأسف لم تجد هذه الخطوة من يتبعها في ألبانيا بسبب حالة عدم الاستقرار والحروب التي اندلعت هناك، والظروف غير المناسبة للتطور الاجتماعي. ونظرًا لأن ألبانيا بعد الحرب العالمية الثانية دخلت تحت حكم الحزب الشيوعي، فقد دخلت في عزلة عن العالم حتى في ما يتعلق بالأمور العلمية. فالنظام الشيوعي كانت له معاييره بالنسبة إلى الترجمة، ولذلك لم يكن يسمح بترجمة أي عمل أدبي لا ينسجم مع معاييره الأيديولوجية. وهكذا لو ألقينا نظرة على ما ترجم في ألبانيا خلال نصف قرن تقريبًا تحت الحكم الشيوعي، لوجدنا فقط بضع قصائد لشعراء عرب ترجمت عن اللغة الفرنسية. وبعبارة أخرى لم يبدأ العمل في ترجمة الأدب العربي في ألبانيا من اللغة العربية إلا في مطلع هذا القرن، حين عادت الكوادر الأولى التي تخرّجت من الجامعات العربية بعد سقوط النظام الشيوعي. ولكن هذه الترجمات الأولى لم تكن في المستوى المطلوب؛ نظرًا لأن من أنجزوها كانوا قد تخرّجوا من أقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات العربية، ولذلك لم يحظوا بدراسة تساعدهم للعمل في هذا المجال. ومن هنا،

ونتيجة لعدم دراستهم في أقسام اللغة العربية وآدابها، لدينا بعض الملاحظات على ما أنجزوه في هذا المجال.

ولم يختلف الوضع كثيرًا عند النصف الآخر للألبان الذي ضُمّ إلى يوغسلافيا الملكية في ١٩١٨. فالنظام الجديد في يوغسلافيا الملكية لم يعترف للألبان بالحق في تعلم لغتهم والنشر بها. وقد استمر هذا الوضع مع تشكيل يوغسلافيا الشيوعية في ١٩٤٥، واستمر هكذا حتى ١٩٧٤، حين حصلت كوسوفا على وضع دستوري متقدم في الفدرالية اليوغسلافية. وفي هذا الإطار أصبح في وسع الألبان أن يكون لهم إلى حد ما النظام التعليمي الخاص بهم مثل الشعوب الأخرى.

ومع فتح المجال أمام بعض الشبان الألبان في يوغسلافيا للدراسة في الجامعات العربية، أخذت تتكون الكوادر الأولى التي ستعمل على ترجمة الأدب العربي إلى الألبانية. وكما يقول د. موفاكو فإن البوادر الأولى جاءت أولا من طرف الشعراء والنقاد الألبان، الذين ترجموا ما ترجموه من اللغات الأخرى، وخاصة من اللغة الصربوكرواتية، وليس من اللغة العربية. وكان هؤلاء، الذين تخرّجوا من جامعات يوغسلافيا، قاموا بترجمة ما اختاروه ضمن الاهتمام المتزايد بآداب العالم الثالث مع انتشار حركة عدم الانحياز. وقد جاء هذا، في الواقع، نتيجة للعلاقات الجديدة المتنامية آنذاك بين يوغسلافيا وبين بعض الدول العربية ضمن حركة عدم الانحياز.

وربما لدينا هنا استثناء يتعلق بالمستشرق حسن كلشي (١٩٢٢-١٩٧٦)، الذي كان آنذاك من أبرز العاملين في قسم الاستشراق بجامعة بلغراد، حيث بدأ منذ ١٩٥٤ بترجمة بعض الأعمال الأدبية العربية إلى اللغة الألبانية. وفي الحقيقة إن إسهامه في هذا المجال له قيمة كبيرة. فقد بدأ د. كلشي عمله بترجمة الشعر العربي منذ بداياته (الشعر الجاهلي) وصولًا إلى محمود تيمور ومرورًا بأبي نواس والمتنبي وغيرهما.

ويلاحظ هنا أن بعض الأشعار العربية التي كانت تترجم من الصربوكرواتية إلى الألبانية، جرت ترجمتها في ذلك الوقت من العربية مباشرة. وهكذا، حسب

دراسة د. مهدي «ترجمات الأدب العربي إلى اللغة الألبانية»، فإن قصائد الشاعر الفلسطيني محمود درويش ترجمت لأول مرة من اللغة الصربوكرواتية على يد لوان ستاروفا وآدم غيطاني، على حين أنها ترجمت لاحقًا من العربية مباشرة على يد د. موفاكو. ومثل هذه الحالات عديدة لدينا.

ومع تأسيس قسم الاستشراق في جامعة بريشتينا عام ١٩٧٣ توفرت الظروف المناسبة لنشاط أفضل في ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الألبانية. في ذلك الوقت كان هناك بعض الكوادر الألبانية التي تخرّجت من قسم الاستشراق بجامعة بلغراد، مثل فتحي مهدي وسليم مالوكو، على حين أن د. كلشي كان معنيًا بتأمين الكوادر المناسبة لقسم الاستشراق الجديد الذي أسّسه، وأخذ يشجّع الجيل الأول من العاملين في القسم على ترجمة الأدب العربي (فتحي مهدي ومحمد موفاكو وإسماعيل أحمدي)، وهو الجيل الأول الذي قام بأهم الإنجازات في الترجمة والتعريف بالأدب العربي.

وهكذا في ١٩٧٤، أي بعد شهور من افتتاح قسم الاستشراق، قام فتحي مهدي بترجمة بعض قصائد الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي ونشرها في جريدة «فلاكاإفلازنيمت» التي تصدر في سكوبيه. وقد ساعد على ذلك أنه خلال تلك السنوات أخذت تصدر مجلات أدبية جديدة باللغة الألبانية، سواء في بريشتينا أو في سكوبيه (عاصمة جمهورية مكدونيا). وفي الواقع إن معظم الترجمات نشرت في تلك المجلات منذ منتصف سبعينيات حتى منتصف ثمانينيات القرن الماضي. ولذلك يمكن القول إن تلك السنوات كانت تمثّل «العهد الذهبي» بالنسبة إلى ترجمة الأدب العربي إلى الألبانية.

ولكن مع نهاية الثمانينيات بدأت سنوات انهيار المؤسسات الحكومية في كوسوفا، نتيجة لسياسة قيادة صربيا الجديدة التي كانت تسعى إلى فرض سيطرتها على كوسوفا. وفي هذا السياق توقفت كل المجلات الأدبية وحتى الصحف اليومية باللغة الألبانية، وتجمّدت مسيرة ترجمة الأدب العربي إلى الألبانية بعدما كانت قد وصلت إلى ذروتها. وهكذا غدت هذه الترجمات رمزية للغاية حتى مطلع القرن الحالي، على حين أن الحركة بدأت تدور من جديد مع استقلال كوسوفا في ٢٠٠٨.

وفي الوقت نفسه، وبالتحديد منذ مطلع القرن الحالي، بدأت حركة ترجمة الأدب العربي إلى الألبانية تنتعش مع عودة الجيل الأول من الطلاب الذين تخرّجوا من الجامعات العربية بعد سقوط النظام الشيوعي في ألبانيا. يساهم، أخيرا، في ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الألبانية «المركز الألباني للدراسات الشرقية» بمجلته «أورا» أيضًا.

ولا بد هنا من ذكر نقص دعم المؤسسات للجيل الأول الذي أخذ على عاتقه التعريف بالأدب العربي في اللغة الألبانية. فقد كان يحدث أن تبقى مخطوطة ترجمة تخصّ الأدب العربي عدة سنوات في الدرج في انتظار من يقوم بتمويل إصدارها. ومن المأمول هنا أن تقوم المؤسسات المعنية سواء في ألبانيا وكوسوفا أو في العالم العربي، بدعم نشر الأعمال التي تعرّف بالأدب العربي في اللغة الألبانية.

وفي ما يتعلق بمنهجية التعريف، فقد كان المترجم يقوم عادة بالتعريف بالشعراء والكتّاب الذين يقدمهم في كتابه مع مقدمة أو دراسة عن الأدب أو الأديب الذي يعرّف به. وعلى سبيل المثال نذكر هنا مختارات «قصص سورية» التي نشرها د. موفاكو في ١٩٨١. ففي مقدمة الكتاب لدينا دراسة عن الأدب السوري وظهور القصة القصيرة وتطورها، على حين أنه اختار قصة وقصتين من كل كاتب من الكتّاب الـ ١٧ الذين اختارهم، وختم المختارات بنبذ تعرف بكل كاتب وأعماله القصصية. وقد اتبع هذه المنهجية أيضا في كتابه «ما وراء الليل»، الذي عرّف فيه ببعض أعمال الشعراء السوريين من أصول ألبانية.

وقد أخذ بهذه المنهجية في ما بعد د. فتحي مهدي في مختارات «الشعر العربي» التي أصدرها في ١٩٨٣. ففي المقدمة لدينا دراسة عن تطور الشعر العربي عبر التاريخ، ثم يلي ذلك القصائد المترجمة وأخيرًا التعريف بالشعراء.

وقد أصبحت هذه المنهجية متبعة في كل الإصدارات اللاحقة، سواء في المجلات الأدبية أو الكتب الصادرة عن دور النشر. وقد نشرت هذه الترجمات في الصفحات الثقافية للجرائد اليومية (ريلنديا، فلاكا إفلازنيميت الخ)، وفي المجلات الأدبية (فيالا، ييتا إ ره، يهونا الخ)، أو لدى دور النشر المعروفة في ذلك الوقت (ريلنديا) الخ.

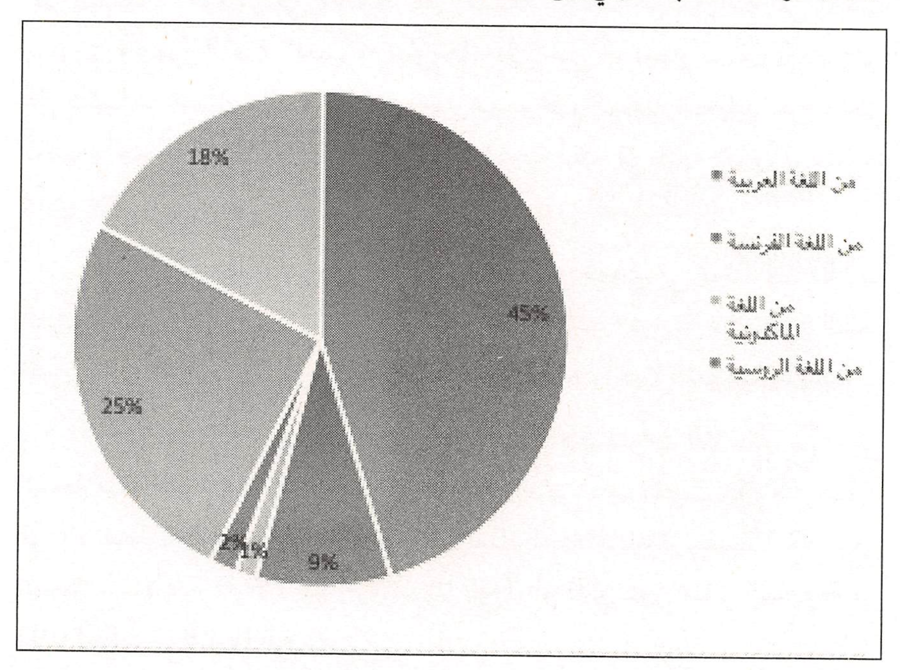
أما في ما يتعلق بمعايير الاختيار، فيلاحظ أنها كانت تخصّ كل مترجم. وعلى حين أن معظم الترجمات كانت على شكل مختارات، نجد أيضًا أن بعض المختارات كانت تخصّ مبدعا بعينه، مثل محمود تيمور ونزار قباني ومحمود درويش وغيرهم.

ومن ناحية أخرى، يلاحظ أن بعض هذه الترجمات كانت تصدر أولًا في الصفحات الثقافية للجرائد اليومية أو في المجلات الأدبية، ثم تصدر لاحقًا ضمن مختارات شاملة، كما هو الأمر مع المختارات التي نشرها د. موفاكو ود. إسماعيل أحمدي.

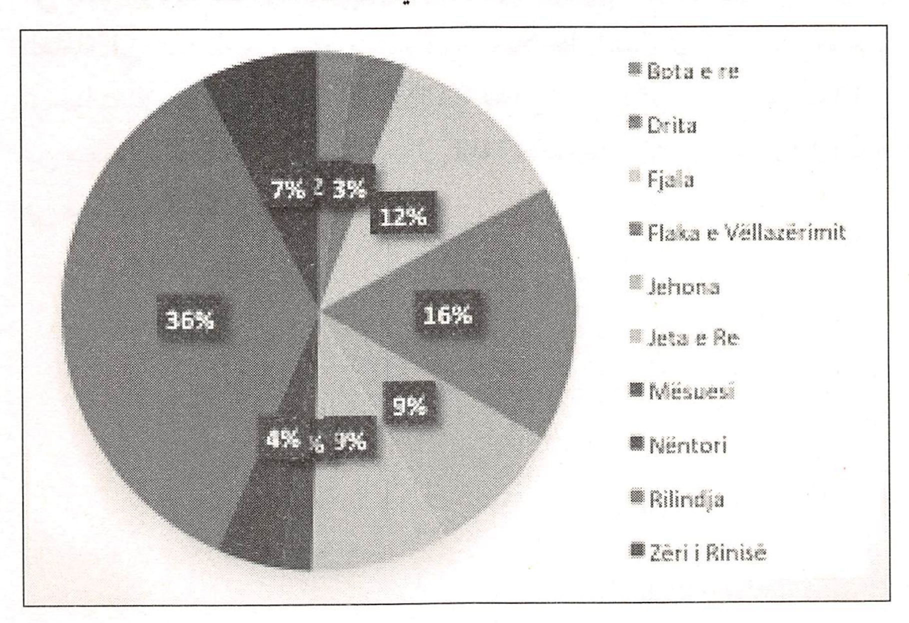
وحسب الكشافات التي لدينا، يلاحظ أن ترجمة الأدب العربي إلى الألبانية انصبت أكثر على التعريف بالشعر على حساب النثر.

في القسم الثاني من الورقة، سنستعرض الكشافات التي قمنا بإعدادها، والتي تبيّن اللغات التي تمّت منها ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الألبانية، وإسهامات المترجمين الذين أنجزوا ترجماتهم من اللغة العربية مباشرة، ونسبة ترجمة الشعر إلى النثر، وأماكن نشر هذه الترجمات.

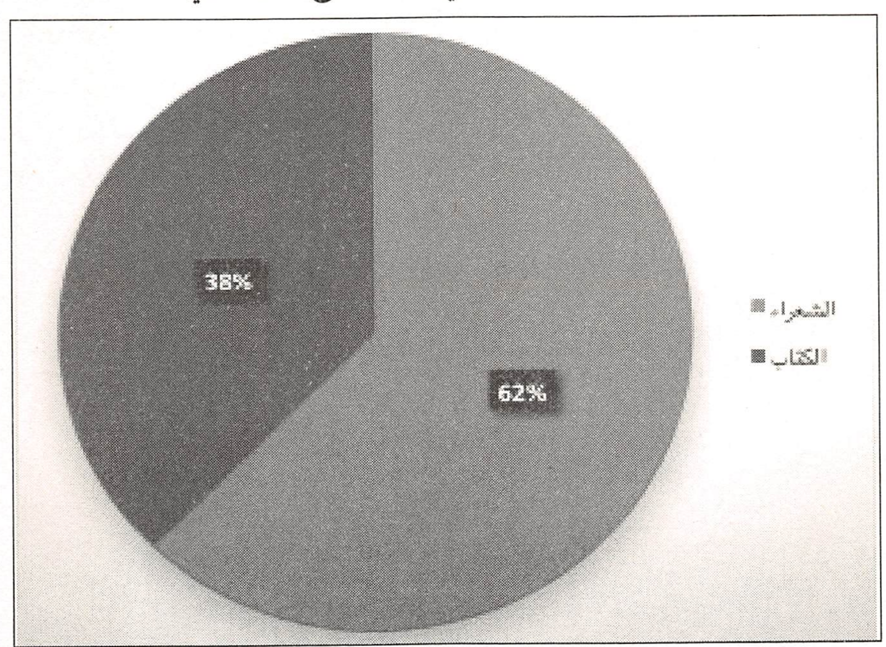
وضعية ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الألبانية من اللغة العربية ومن اللغات الأخرى



وضعية نشر ترجمة الأدب العربي في اللغة الألبانية في الصفحات الثقافية للجرائد اليومية والمجلات الأدبية في كوسوفا ومكدونيا وألبانيا



وضعية نشر الشعر العربي بالمقارنة مع النثر العربي



وإذا دققنا النظر في الكشافات السابقة، يلاحظ بوضوح أن نسبة الترجمة من اللغة العربية مباشرة تصل إلى ٤٥٪ من مجموع الترجمات، مع الكوادر العاملة في هذا المجال ظهرت متأخرة. ويلاحظ أيضًا أن ٦٢٪ من مجمل ترجمات الأدب العربي إلى اللغة الألبانية تخصّ د. موفاكو، على حين أن ٦٦٪ من مجمل ترجمات الأدب العربي إلى اللغة الألبانية نشرت في كوسوفا والبقية في مكدونيا وألبانيا.

هوامش:

- Mufaku, Muhamed, Antologji e poezisë arabe, rilindja, Prishtinë, 1979.
- Mufaku, Muhamed, Prapa natës, Prishtinë, 1980;
- Mufaku, Muhamed, Tregime siriane, Prishtinë, Rilindja 1981;
- Mufaku, Muhamed, Lidhjet letrare shqiptare-arabe, Tiranë, 2009;
- محمد موفاكو، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، (الكويت) عالم المعرفة ١٩٨٣.
- محمد الأرناؤوط، خريطة الأدب العربي في اللغة الألبانية، جريدة «الحياة» ١٩/٥/٢٠١٣.
- Ahmedi, Ismail, Prozë e sotme arabe, Rilindja, 1983;
- Ali Ukle Irsan, Të huajt, Logos A, 1994;
- Dib, Muhamed, Kush e kujton detin, Rilindja, Prishtinë, 1980;
- Mehdiu, Fetiu,Poezi, arabe, flaka e vëllazërimit, Shkup, 1983;
- Mehdiu, Fetiu,Për letërsinë arabe, Prishtinë, 2005.
- Mehdiu, Fetiu, Përkthimet e letërsisë arabe në gjuhën shqipe, Prishtinë, 2008;
- Halil Xhubran, Krahët e thyer, Logos A, Shkup, 2013;
- L. Al-Usman, Brenda është tjetër botë, Rilindja, Prishtinë, 1985;
- Mehdiu, Feti, Për letërsinë arabe, Prishtinë, 2005;
- Nezir Kabani, Damasku, Tiranë, 2012;
- Zjarr në breg, rilindja, Prishtinë, 1977;

ترجمة الآداب البلقانية إلى اللغة العربية

إسماعيل أبو البندورة[1]

المقدمة تعيد الكثير من الدراسات التاريخية بدايات التواصل الثقافي بين العرب ودول شبه جزيرة البلقان إلى فترات تاريخية قديمة، بدأت في الاتصالات المتنوعة والمتباينة في أوقات الحرب وأوقات السلم، وخصوصًا زمن الاحتكاكات الأولى بين العرب المسلمين والدولة البيزنطية، إذ كانت الخبرات الأدبية والثقافية والتقاليد الشعبية والمفردات اللغوية العربية، تنتقل من الطرف العربي- الإسلامي إلى دول وشعوب هذه المناطق التي كانوا يمتزجون بها في حالات ومناسبات مختلفة، سواء كانت حربية أو سلمية - تجارية. كما شكّل البحر الأبيض المتوسط مجالًا طبيعيًا ونقطة التقاء وتبادل بين الثقافتين العربية الإسلامية والثقافات الأوروبية الأخرى. ومثّلت التبادلات التجارية شكلًا آخر من أشكال التلامس الحضاري بين العرب ودول البلقان، إذ إن وصول التجار العرب إلى هذه المنطقة حمل معه العادات واللغات والخبرات الثقافية والحضارية، وكان هذا النمط من الاحتكاكات التجارية المتاحة وسيلة من وسائل التثاقف وتبادل التجارب والخبرات، والاطلاع على الثقافات بأشكالها المختلفة. كما أثّرت الحروب الصليبية على التماس بين الشعوب التي شاركت فيها بعض دول البلقان المسيحية، وبين العرب الذين كانوا هدفًا لهذه الحروب. وكان احتلال

(١) باحث ومترجم، عضو رابطة الكتاب الأردنيين، الأردن.

العرب للأندلس ووجود العرب المسلمين فيها قد أدى إلى انبثاق فضاءات متنوعة للتواصل بين الثقافة العربية الإسلامية وثقافات أوروبا ومنطقة البلقان.

أما بعد مجيء الدول العثمانية، فقد حدثت تطورات هائلة على كافة الصعد، وكل مناحي الحياة في تلك المناطق، بعد اعتناق حوالى نصف السكان للإسلام، والإقبال على تعلّم اللغة والآداب العربية، ودخلت هذه الشعوب في الإطار الثقافي -الحضاري- الإسلامي الذي أنشأته الإمبراطورية، وحتّم ذلك ظهور عملية انفتاح واسعة على ثقافة الدولة العثمانية الإسلامية، وعلى اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن. وبدأت مذّاك عملية هائلة من الكتابة والترجمة والإقبال على الانتهال من الثقافة العربية - الإسلامية على كل الصعد. وبقي تأثير هذا الاحتكاك متواصلًا حتى بعد انهيار الدولة العثمانية وخروجها من منطقة البلقان، ولا يزال مؤثرًا حتى أيامنا هذه؛ ذلك أنه بإنشاء مشترك ثقافي بين بعض دول البلقان وبين العرب زمن الدولة العثمانية، كان قد رسّخ معطيات هذه الثقافة وجعلها جزءًا من هوية بعض شعوب هذه المنطقة ومرجعياتها الثابتة والأصيلة، الأمر الذي دفعها إلى تعلّم اللغة العربية وآدابها، وتلقّي العلم والأدب في استانبول وفي القاهرة وغيرها من مراكز الثقافة في المشرق، وبدأ بعض كتّاب البلقان الكتابة باللغة والأحرف العربية وأصبح ذلك جزءًا لا يتجزأ من تراثها وتقاليدها الثقافية[1].

وكان لإنشاء معاهد الاستشراق في دول البلقان دور مهم في الاهتمام بالثقافة العربية الإسلامية، والتواصل مع الدول العربية، وقدوم كثير من طلبة

---

(١) للمزيد حول التواصل الثقافي بين دول البلقان والعرب انظر:
- أبحاث الندوة الأدبية: مطران / دزدار الدورة الثانية عشرة التي عقدتها مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في مدينة سراييفو عام٢٠١٠ دورة خليل مطران ومحمد علي ماك دزدار، وخصوصًا أبحاث الجلسة الثالثة: محور المشترك الثقافي العربي البوسنوي في العصر الحديث.
- د.محمد موفاكو، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / الكويت عدد آب ١٩٨٣.
- د.محمد م. الأرناؤوط، مداخلات عربية بلقانية، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، ٢٠٠٠.

العلم للدراسة في الأزهر، وإسهامهم المهم بالتعريف بالثقافة العربية، ونقل بعض المؤلفات العربية إلى اللغات البلقانية، وكذلك ترجمة بعض المؤلفات البلقانية إلى اللغة العربية.

-١-

لعبت الترجمة دورًا مهمًا في عملية المثاقفة الكبرى بين الثقافة العربية - الإسلامية وثقافات الشعوب الأخرى. وكانت الترجمة والحضّ عليها ورعايتها تترافق دائمًا مع محاولات النهوض الحضاري والانفتاح على الثقافات الأخرى، وشكّلت رابطًا مهمًا بين الحضارات وجسرًا يربط بينها. وجرى ذلك منذ فترات موغلة في القدم ومنذ الاحتكاكات الأولى بشعوب الأرض، عن طريق الدين والرحلات والمبادلات التجارية التي أنشأت بطبيعتها تلامسًا ثقافيًا، بدأ بالتعرّف على اللغات والعادات والثقافات، وكان لا بد من أن تجد الشعوب طرقًا للتواصل والتحاور والتفاهم وإثراء ثقافاتها. ومن هنا انبثقت أهمية الترجمة ودورها في نقل معطيات ثقافة إلى ثقافات أخرى، وهذا ما حدث تمامًا على صعيد التواصل الثقافي بين دول البلقان والدول العربية، وذلك بعدما وصل التجار العرب إلى إيطاليا وصقلية في قرون مبكرة، ومن هناك تمّ احتكاكهم بدول البلقان القريبة، ومن ثم انفتح المجال أمام القادمين من الشرق إلى نشر وتوصيل معطيات دينهم ولغتهم وثقافتهم إلى الحدود، التي انتقلت وتمازجت فيها بعض الكلمات والمفردات بلغات دول البلقان، وأصبحت جزءًا من أبجدية ومفردات هذه اللغات وفي صميم تكوينها ومفرداتها حتى يومنا هذا. وإذا دققنا اليوم في المفردات العربية التي انتقلت إلى هذه اللغات وأبجدياتها، فسوف نجد كمًا هائلًا من هذه المفردات العربية، والتي تدلل على هذا الامتزاج والتلاقح بين لغة العرب ولغات شعوب البلقان، كما ترافق ذلك بالانفتاح الثقافي الواسع، والاطلاع على مرجعيات الثقافة العربية والإسلامية، وتعلّم اللغة العربية والكتابة بها أحيانًا. وقد وفّر ذلك مناخًا ثقافيًا ثريًا أتاح الفرصة لعملية تثاقف كبرى ومهمة بين العرب ودول البلقان، ولا تزال مستمرة حتى أيامنا هذه.

-٢-

يمكن القول إن الترجمة من العربية إلى لغات البلقان بدأت بنقل الآثار الدينية والفقهية من اللغة العربية إلى اللغات البلقانية، بعدما اعتنقت عدّة شعوب من دول البلقان الإسلام، قبل وبعيد وصول العثمانيين إلى تلك الديار، وأصبح من اللازم تجذير العقيدة الدينية في تلك الديار، وتأسيس مرجعية ثقافية – دينية يرتكن إليها في التأسيس لعلوم الدين ونشر الثقافة الإسلامية في تلك البلاد، كما ترجمت بعض الكتب المتعلقة بحركة الإصلاح الديني التي ظهرت في إطار الإسلام، والدعوات التي انطلقت في الإطار العربي – الإسلامي إلى التجديد والنهضة في الفكر الإسلامي.

أما الترجمة والنقل من لغات البلقان إلى اللغة العربية فقد تأخرت قليلًا، بعدما أخذت العلاقات طورًا آخر، وبعدما انحصر التواصل في ما كتبه الرحالة الذين وصلوا إلى تلك البلاد مبكرًا، وكتبوا عن طباع وعادات هذه الشعوب وثقافاتها وطرق حياتها، وبقيت الأمور على هذا النحو إلى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، في النصف الثاني من القرن العشرين وبعد انتصار هذه الشعوب على النازية وحصول هذه الدول على الاستقلال.

كانت تلك لحظة تاريخية خاصة ونوعية في حياة هذه الدول، إذ قادت الأحزاب الشيوعية معظم ثوراتها للتخلص من الاحتلال النازي، وكان من صميم عقائد وتوجهات هذه الأحزاب الانفتاح على دول العالم الثالث – التي كان بعضها لا يزال تحت الاستعمار ويخوض غمار عملية تحرر كبرى في تلك الفترة –، ونشر وترويج فكرها فيها، ونقل الأفكار الاشتراكية إليها وخصوصا أيام الحرب الباردة، وانشطار العالم إلى معسكرين، حيث استمرت عملية الاستقطاب بين الدول الرأسمالية ودول المنظومة الشيوعية وكانت هذه المنطقة مسرحًا لهذا الاستقطاب. واندرج في هذا الإطار محاولات أولية مبرمجة لترجمة أعمال ذات طابع أيديولوجي وبدوافع أيديولوجية بحتة، ثم كان هناك تشجيع لترجمة آداب الشعوب البلقانية (التي تشكّلت أنظمتها في إطار المنظومة الشيوعية وباتصال معها)، إلى اللغة العربية باعتبار ذلك رديفًا ومتممًا للانفتاح الأيديولوجي، إلا أن ذلك بقي محدودًا وجرى في أطر ضيقة.

إلا أن ترجمة الآداب البلقانية إلى اللغات العالمية الكبرى مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها من لغات العالم، وخصوصًا بعد حصول بعض أدباء البلقان على اعتراف دولي على نطاق واسع، ونيل بعضهم جائزة نوبل للآداب (حالة ايفو آندرتش في يوغسلافيا عام ١٩٦١، واشتهار البعض الآخر مثل إسماعيل كاداره من ألبانيا، وحصوله على جوائز رفيعة، وترجمة أعماله إلى لغات عالمية)، أتاح المجال للعرب للاطلاع على هذه الآداب، واكتشاف أهميتها وأهمية موضوعاتها ومستواها الأدبي الرفيع، الأمر الذي دفع ببعض المترجمين العرب إلى ترجمة بعضها إلى اللغة العربية من خلال هذه اللغات العالمية الوسيطة (الإنجليزية والفرنسية بشكل خاص). وقد أورد الأستاذ سامي الدروبي وصفًا معبرًا عن بدايات هذا الاكتشاف والانهمام بترجمة هذه الآداب إلى اللغة العربية، في المقدمة التي كتبها عام ١٩٦٤ لترجمته العربية لرواية اليوغسلافي ايفو آندرتش «وقائع مدينة ترافنك»[1].

---

(١) ايفو آندرتش، وقائع مدينة ترافنك، ترجمة سامي الدروبي، الطبعة الأولى، دمشق مكتبة أطلس ١٩٦٤.
«يرتبط ايفو آندرتش في نفسي بذكريات جميلة لا سبيل إلى نسيانها، بذكريات رحلة قمنا بها عام ١٩٥٩ إلى يوغسلافيا وفدًا ثقافيًا يمثل الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها، فأما الإقليم الشمالي فمنه عبد الله عبد الدائم وكاتب هذه السطور، وأما الإقليم الجنوبي فمنه نجيب محفوظ وعبد المنعم الصاوي. صحبة ممتعة إذن. ونصل إلى بلغراد، فلا تسل عن الترحيب بنا والاهتمام. ألسنا من الجمهورية العربية المتحدة التي تمثل بقيام الوحدة بين إقليميها تحديًا من أكبر التحديات للاستعمار الذي أوجد التجزئة وفرضها وأدامها؟ كان يوم ٢٨ أيلول الكالح الذي ثأر فيه الاستعمار لنفسه بضعة وشراسة بعيدًا حينذاك. ونقضي في اتحاد الجمهوريات اليوغسلافية قرابة شهر بين طبيعة لا أروع من سهولها وجبالها وغاباتها وأنهارها والبحيرات، وبين شعب طيب الأعراق كريم النفس مضياف، نهارنا تنقل من مدينة إلى مدينة ومن متحف إلى متحف ومن مزرعة إلى مزرعة ومن مصنع إلى مصنع، نشهد كيف يبني الشعب نظامه الاشتراكي وكيف يعزز وحدته الوطنية، وليلنا سهر بعضه في مسارح الأوبرا والتمثيل وقاعات الموسيقى والرقص الشعبي والغناء وسهر، بعضه في القراءة. نعم في القراءة، قراءة كتب أهديت إلينا بعيد وصولنا، منها هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته العربية الآن. كنت متى انتهت سهرة الليل أستحث الخطى للعودة إلى الفندق بما أطيق من سرعة، لأفتح الكتاب على الصفحة التي غفوت عليها في الليلة البارحة، فأستأنف القراءة بشوق ما بعده شوق. لم أكن قد قرأت شيئًا لايفو آندرتش قبل ذاك، ولا كان اسمه في أذهاننا شيئًا ذا بال على كل حال. فما أن ولجت هذا العالم الذي يدخلني إليه ايفو آندرتش حتى أحسست أن خطاي يقودها ساحر كبير من سحرة الكلمة. وحسبت أنني أحقق اكتشافًا إذ أدرك قيمة هذا الكاتب العظيم. وعقدت النية على نقل بعض آثار ايفو آندرتش إلى العربية متى عدنا إلى الوطن، فما أن صرت في القاهرة حتى عكفت على إنفاذ ما عقدت النية إليه، ونشرت الترجمة العربية لكتاب «جسر على نهر درينا» بالقاهرة، وتنقضي أشهر قليلة، فإذا اسم ايفو آندرتش ملء أسماع العالم الأدبي غداة حصوله على جائزة نوبل للآداب».

وبدأت منذ تلك اللحظة محاولات متعددة لترجمة هذه الآداب إلى اللغة العربية، وجرى نشرها وتداولها في أكثر من عاصمة عربية، وحظيت باستقبال كبير من القراء العرب، وأثارت اهتمامًا استثنائيًا في الأوساط الثقافية العربية، وتأثر بأنماطها وموضوعاتها الكثير من المبدعين العرب الكبار[1].

وجاءت حركة عدم الانحياز وانضمام جمهورية يوغسلافيا الفدرالية إليها، ولعبها دورًا رئيسًا فيها لتشكل مرحلة جديدة في تطور عملية المثاقفة والترجمة بين دولة يوغسلافيا والعديد من الدول العربية، إذ كان من متطلبات هذه الحركة انفتاح شعوب الحركة المنضوية فيها على بعضها وعلى ثقافاتها، واستقبال الطلاب والبعثات الدراسية والثقافية؛ فأضاف ذلك زخمًا هائلًا لهذه العملية، وبدأت تظهر مذاك أعمال أدبية بلقانية مترجمة إلى اللغة العربية، ولكن من خلال لغات وسيطة، وليس من لغات البلقان مباشرة. وبقي هذا الأمر سائدًا إلى مرحلة متأخرة جدًا، حيث بدأت تظهر بعض الترجمات من لغات البلقان مباشرة (الصربو كرواتية، المكدونية، السلوفينية، الألبانية، البلغارية وغيرها) وليس من خلال اللغات العالمية، وكان ذلك تطورًا مهمًا على صعيد ترجمة هذه الآداب، وإمكانية انتشارها بشكل أكثر دقة ترجمية وتعبيرية من الترجمات الوسيطة، وأكثر اقترابًا وإفصاحًا عن معانيها وقيمها الأدبية.

ومن بين طلاب العلم الذين درسوا في بعض دول البلقان، وقاموا بترجمة آدابها من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية، اشتهر اسم الدكتور جمال الدين سيد، الذي كتب دراسات مهمة عن هذه الآداب، كما قام بترجمة جزء

---

(١) عن استقبال آداب البلقان في الوطن العربي، وتحديدًا أدب ايفو آندرتش باعتباره رمزًا بارزًا لهذه الآداب، وعن تأثر الأدباء العرب بهذا الأدب، خصصت مجلة «أخبار الأدب» المصرية في عددها ٨٣٧ عام ٢٠٠٩ مساحة للحديث عن أدب ايفو آندرتش وأهميته الأدبية تحت عنوان «حكّاء من أرض الأساطير»، وكتب فيها عنه جمال الغيطاني، محمد البساطي، يوسف القعيد، وخالد إسماعيل، وطالبوا فيها باستكمال ترجمة أدبه إلى اللغة العربية.

مهم من هذه الآداب، شمل الرواية، والقصة، والمسرح، والشعر، والدراسات إلى اللغة العربية، وكذلك الأستاذ الدكتور محمد الأرناؤوط، الذي ترجم العديد من الأعمال الأدبية البلقانية إلى اللغة العربية، وكتب دراسات تاريخية وأدبية مهمة عن منطقة البلقان؛ نظرًا لمعرفته بأكثر من لغة من لغات منطقة البلقان، واستحق بجدارة لقب السفير لهذه الثقافة الذي منحته إياه قبل أعوام جامعة سراييفو. وبرز حديثًا اسم الأستاذ المترجم زهير خوري الذي أقام طويلًا في يوغسلافيا، وبدأ منذ فترة قريبة بترجمة أقاصيص ايفو آندرتش من اللغة الصربو كرواتية. كما كان لكاتب هذه السطور الذي تلقّى تعليمه في يوغسلافيا أيضًا دور في ترجمة العديد من الروايات والأقاصيص والأشعار من اللغة الصربو- كرواتية إلى العربية، ولا يزال يعكف على ترجمة هذه الآداب حتى يومنا هذا[1]. وكان للأستاذ ميخائيل عيد دور مهم وكبير في التعريف بالآداب البلغارية ونشر ترجمات كثيرة ومهمة من هذا الآداب إلى اللغة العربية، بالإضافة إلى إسهامات الدكتور أحمد سليمان الأحمد في ترجمة هذه الآداب إلى اللغة العربية. كما لمع اسم المترجم عبد اللطيف الأرناؤوط في ترجمة الآداب الألبانية إلى اللغة العربية. وسوف نلاحظ في الكشاف المرفق بهذه الدراسة أبرز الأسماء التي أسهمت في ترجمة الآداب البلقانية إلى اللغة العربية، سواء من لغات وسيطة أو مباشرة، حتى لا نغمط أحدًا حقه في الإسهام الترجمي الذي نتناوله في هذه الدراسة.

---

(١) وردت إشارات عن دور الدكتور جمال الدين سيد محمد من مصر، وإسماعيل أبو البندورة من الأردن في ترجمة الآداب البلقانية وخصوصا في ترجمة الآداب البوسنية إلى اللغة العربية في كتابين صدرا حديثًا في مدينة سراييفو:
الأستاذ الدكتور أسعد دوراكوفيتش «التوق إلى النص- سيرة ذاتية روحية» وصدر عن دار النشر توغرا في مدينة سراييفو عام ٢٠١٣ (وهو قيد الترجمة إلى اللغة العربية).
الأستاذ الدكتور محمد كيتسو «اللغة العربية والترجمة بين الشرق والغرب» وصدر عن دار القلم في مدينة سراييفو عام ٢٠١٢. وقد خصّ المؤلف المترجمين المذكورين بفصل خاص تحت عنوان «الترجمة من آداب شعوب يوغسلافيا السابقة إلى اللغة العربية، الترجمة مرامًا ومهنة في عمل جمال الدين سيد وإسماعيل أبو البندورة».

-٣-

في الكشّاف الذي قمتُ بإعداده وارتأيتُ أن يكون ملحقًا مكملًا لهذه الورقة، حاولت أن أقدم بيانات تقريبية - توصلت إليها بالبحث والتنقيب والمتابعة- عن أبرز الأعمال الأدبية البلقانية التي ترجمت إلى اللغة العربية، وتوثّقت إلى حد كبير من صدورها ونشرها في دور نشر عربية معروفة، وتغاضيت عن إيراد ما يمكن أن يكون مخطوطات أو ترجمات لم تنشر فعليًا؛ وذلك بغية تعزيز الورقة بمعلومات دقيقة تصلح أن تكون جزءًا من محاولة لإعطاء صورة واضحة عن الموضوع المطروق، ومن أجل توثيق أوّلي قد تُجرى عليه إضافات لاستكماله في المستقبل من قبل باحثين آخرين.

يُشار إلى أن الكشاف قد بيّن أن أول عمل أدبي ترجم من اللغات البلقانية (الألبانية تحديدًا) هو «المهد الذهبي»، وذلك عام ١٩٤٧ كما يشير التاريخ المثبت في مقدمة المترجم وهبي إسماعيل حقي للكتاب. وتبعته ترجمات الدكتور سامي الدروبي لأعمال اليوغسلافي ايفو آندرتش عن اللغة الفرنسية، في مطالع الستينيات.

ويبيّن الكشاف أن العدد التقريبي للأعمال المترجمة يكاد يزيد عن المائة وعشرين كتابًا في مجالات الأدب المختلفة، وقد ظهر بعض هذه الأعمال من خلال سلاسل أدبية، مثل سلسلة «من المسرح العالمي» وسلسلة «إبداعات عالمية» في الكويت، أو من خلال سلاسل أدبية روائية ومسرحية من إصدار وزارة الثقافة السورية وبعض وزارات الثقافة العربية الأخرى، وبعض دور النشر العربية مثل مؤسسة الأبحاث العربية (بيروت) في سلسلتها الروائية «ذاكرة الشعوب»، أو بشكل فردي في دور نشر عربية متعددة.

كما يشير الكشاف إلى أعداد الكتب التي ترجمت عن طريق لغات عالمية وسيطة مثل الفرنسية والإنجليزية، وما يقابل ذلك من الترجمات المباشرة من لغات البلقان الأصيلة المتداولة، مثل: الألبانية، والصربو - كرواتية، والبوسنية، والبلغارية، والمكدونية، واليونانية، والسلوفينية وغيرها.

ويبيّن الكشاف أيضًا توزع الترجمات بنسب متساوية ومتوازنة إلى حد كبير بين دول البلقان المتعددة ولغاتها المختلفة، الأمر الذي يشير إلى نزوع الترجمة إلى التعرف على مجمل آداب هذه الشعوب، وعلى تعدد مدارسها ومستوياتها الإبداعية، وتعميق دائرة التواصل الثقافي معها من خلال ترجمة آدابها وتنوع هذه الترجمات وشمولها.

ويبدو لافتًا في الكشاف، ومن خلال استعراض ومتابعة تاريخ صدور الترجمات إلى اللغة العربية، أنه لم يكن هناك انقطاع في ترجمة الآداب البلقانية إلى اللغة العربية حتى يومنا هذا؛ ذلك أنها تواصلت ولكن بوتيرة مختلفة وبطيئة، إلا أن ذلك يوحي ويومئ بطريقة ما إلى بقاء وتواصل الاهتمام بترجمة هذه الآداب ودوامه، على الرغم من التحولات والتغيرات التي حدثت في تلك المنطقة من العالم، وضعف العلاقات الثقافية القائمة وفتورها وانحسارها بين دول البلقان والدول العربية في المرحلة الراهنة.

- ٤ -

إن الإطلال في العقود الأخيرة (الممتدة منذ منتصف الثمانينيات وحتى يومنا هذا) على واقع ترجمة الآداب البلقانية إلى اللغة العربية، يشير إلى ضعف وتراجع هذه الفعالية الثقافية المهمة؛ نظرًا للمتغيرات والتحولات الهائلة التي حدثت في منطقة البلقان وانفراط عقدها السياسي والدولي، وتمزق قومياتها ومجتمعاتها وتوزعها على دول صغيرة محدودة الإمكانيات، تعاني من أزمات متعددة. كما أسهمت الحروب التي حدثت فيها نهاية القرن الماضي في فقدانها للاستقرار؛ الأمر الذي أدى إلى تراجع دورها وتقلّص علاقاتها الدولية، وخصوصًا علاقاتها مع الدول العربية، واقتصارها على بعض أشكال التعاون والتبادل الاقتصادي، وبعض الأنشطة الثقافية الرسمية الموسمية التي تقوم بها السفارات أحيانًا وبعض وزارات الثقافة.

وتراجعت كل أشكال التعاون الثقافي متعدد الأبعاد، وتقلّص الاهتمام بما يجري في تلك البلاد من تحولات ومتغيرات (وكان الاهتمام بما حدث في البوسنة وكوسوفو استثناءً في هذا المجال، إذ كان هناك اهتمام مرحلي أثناء العدوان على البوسنة، سرعان ما تغير وانطفأ)، وانحسرت الرغبة الثقافية في الاهتمام بآداب هذه المنطقة، أو أنها بقيت في حدودها الدنيا. كما تقلّص اهتمام هذه الدول بالأدب العربي وترجمته إلى لغاتها أيضًا بعد غياب تلك المرحلة التفاعلية النشطة في النصف الثاني من القرن العشرين، وضعف حركة عدم الانحياز، وتراجع دورها وانحساره، ولم يبق من ذلك الاهتمام سوى المبادرات والاهتمامات المحدودة المتفرقة، التي تقوم بها بعض أقسام اللغات في الجامعات، ومعاهد الاستشراق، وبعض الأفراد، وتفتقد إلى المؤسسية والدوامية.

وقد تناول هذا الموضوع بعض الباحثين من دول البلقان في مناسبات وندوات ومؤتمرات، ودراسات حديثة مختلفة، وحاولوا إثارة السؤال عن ظاهرة تقلص الاهتمام بالأدب العربي وترجمته إلى اللغات البلقانية، وكذلك ندرة وضعف الترجمة من اللغات البلقانية إلى اللغة العربية، وحاولوا التطرق إلى العوائق التي تقف في طريق التواصل بين الثقافة العربية والثقافات البلقانية، وإمكانية تجاوزها، وفتح آفاق جديدة للاستمرار والتواصل.

يقتصر الأمر الآن على بعض الترجمات خارج إطار المؤسسات الثقافية، ومن خلال مترجمين عرب (وهم قلّة)، يقومون بذلك بدوافع واهتمامات ثقافية ذاتية خدمة للثقافة العربية وتواصلها مع ثقافات دول البلقان. ولكن ذلك لا يشكل أرضية يمكن البناء عليها، ولا توجّهًا أو مسارات ثقافية يمكن الاعتماد عليها في استنهاض عملية ترجمة ترتقي إلى مستوى اجتراح أنساق ثابتة ومتجددة من العلاقات الثقافية التي تقوم على المؤسسية والعمل المبرمج الدقيق، ومن خلال خطط ثقافية استراتيجية تسعى إلى تطوير العلاقات الثقافية العربية مع دول البلقان، ومحاولة الانفتاح على ثقافاتها من خلال الترجمة

والوسائل الثقافية التواصلية الأخرى المتاحة والممكنة لمثل هذا العمل الثقافي الكبير، الذي قد يستعيد صورًا سابقة حيوية وقديمة للتثاقف الحيوي والمثمر بين العرب وهذه الدول.

ويمكن القول إن هذه الدول وفي أطوارها التكوينية الجديدة تحتاج إلى خطاب ثقافي عربي تفاعلي جديد، يقدم لها كل المحفزات، لكي تسترجع أنماط صلاتها القديمة بالعرب والثقافة العربية، ويمكن للترجمة هنا أن تلعب دورًا جديدًا في هذا التواصل والانفتاح، وتجديد العلاقات الثقافية مع هذه الدول.

كشّاف أولي عن الكتب المترجمة
من لغات البلقان إلى اللغة العربية

اعتمد إعداد الكشاف على المعلومات التي استطاع الباحث الوصول إليها بحثًا واستقصاءً من خلال مصادر مباشرة وغير مباشرة[1]، وتمّ ترتيبه حسب الدول البلقانية.

جمهورية ألبانيا:

- أرنست كوليك وكامل غرانياك، المهد الذهبي (قصص)، ترجمة وهبي إسماعيل حقي، القاهرة (لجنة البيان العربي) ١٩٤٧.
- إسماعيل كاداره، الحصن (رواية)، ترجمة عبد اللطيف الأرناؤوط، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨٦.
- إسماعيل كاداره، جنرال الجيش الميت (رواية)، ترجمة عبد اللطيف الأرناؤوط، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨١.
- إسماعيل كاداره، حصان طروادة يلقى حتفه (شعر)، ترجمة عبد اللطيف الأرناؤوط، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨٢.
- إسماعيل كاداريه، الجسر (رواية)، ترجمة عفيف دمشقية، بيروت (دار الآداب) ١٩٩٤.

---

(١) من بين هذه المصادر كشف بخط اليد للمرحوم ميخائيل عيد يتضمن ما تُرجم من البلغارية إلى العربية، وكان قد قدّمه قبل وفاته في ٢٠٠٤م إلى محمد الأرناؤوط.

- إسماعيل كاداريه، العاشق والطاغية (رواية)، ترجمة معن عاقل، دمشق (دار آرام) ١٩٩٢.

طبعة ثانية باسم «إسماعيل قدري» في سلسلة روايات الهلال، القاهرة ١٩٩٣.

- إسماعيل كاداريه، الملف H (رواية)، ترجمة عبد اللطيف الأرناؤوط، دمشق (وزارة الثقافة) ٢٠٠٨.
- إسماعيل كاداريه، الوحش (رواية)، ترجمة عفيف دمشقية، بيروت (دار الآداب) ١٩٩٢.
- إسماعيل كاداريه، طبول المطر (رواية)، ترجمة محمد عظيمه، بيروت (دار الآداب) ١٩٩٠.
- إسماعيل كاداريه، قصر الأحلام (رواية)، ترجمة حياة الحويك، بيروت (دار الآداب) ١٩٩٢.
- إسماعيل كاداريه، قصة مدينة الحجر (رواية)، ترجمة عفيف دمشقية، بيروت (دار الآداب) ١٩٨٩.
- إسماعيل كاداريه، من أعاد دورونتين (رواية)، ترجمة أنطوان أبو زيد، بيروت (دار الآداب) ١٩٨٩.
- دريترو أغولي، الرجل والمدفع (رواية)، ترجمة عبد اللطيف الأرناؤوط، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٩٤.

جمهورية بلغاريا:

- أكسينيا ميهايلوفا، في انتظار الريح (شعر)، ترجمة وتقديم رفعت سلام، القاهرة (مجلة الثقافة الجديدة) ٢٠١٣.
- اليزابيت باغرينا، الفتاة خارج القضبان، ترجمة محمد كامل صالح، دمشق (مطبعة الجمهورية) ١٩٥٨.
- اليسافيتا باغرايانا، قصائد مختارة، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار طلاس) ١٩٨٥.

- ايفان فازوف، التلّة، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار الثقافة) ١٩٨١.
- ايفان فازوف، تحت النير (رواية)، ترجمة اليان ديراني، دمشق (منار برس) ١٩٨١.
- ايفان فازوف، ثوار في المنفى (مسرحية)، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق ١٩٧٦.
- ايفان فازوف، مختارات شعرية (شعر)، ترجمة أحمد سليمان الأحمد، دمشق د.ت.
- ايفان فازوف، مختارات شعرية (شعر)، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار الثقافة) ١٩٨١.
- ايفان فازوف، مطاردو الوظيفة (مسرحية)، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (ألف باء الأديب) ١٩٧٤.
- ايفريم كارانفيلوف، الجذور والعجلات، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (دار طلاس) ١٩٨٦.
- ايلين بيلين، آل غريباك (قصص) ترجمة: ميخائيل عيد، دمشق ١٩٧٤.
- ايمليان ستانيف، ثلاث قصص (أميرة ترنفو، سارق الدراق، في الليلة الهادئة)، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار العلم) د.ت.
- ايمليان ستانيف، سارق الدراق (قصص)، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار العلم) د.ت.
- ايمليان ستانيف، في الليلة الهادئة (قصص)، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار العلم) د.ت.
- بلا غاديمتروفا، البحر المحظور وقصائد أخرى، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٩٧.
- بيتر اندراسوف، ولا إياب (شعر)، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (دار الجليل) ١٩٨٣.

- بينتشو سلافيكوف، الأغنية الدموية، ترجمة حسين راجي، دمشق (مكتبة الزهراء) د. ت.
- بينو بينيف، قصائد مختارة، ترجمة حسين راجي، دمشق (مكتبة الزهراء) ١٩٨١.
- تشودومير، مختارات قصصية، ترجمة حسين راجي، دمشق د. ت.
- تشودومير، الكلاب (مسرحية)، ترجمة حسين راجي، دمشق د.ت.
- تشودومير، دروب (مسرحية)، ترجمة حسين راجي، دمشق د.ت.
- تشودومير، زورق في الغابة (مسرحية)، ترجمة حسين راجي، دمشق د.ت.
- ثينو تونشيف، أبناء هذه الأرض، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (دار الثقافة) ١٩٨١.
- جورجي جاغاروف، قصائد مختارة، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار الثقافة) ١٩٨١.
- جيورجي كاراسلافوف، الكنّة، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار طلاس) ١٩٨٥.
- خريستو بوتف وايفان فازوف، لايستطيع أن يموت (شعر)، ترجمة أحمد سليمان الأحمد، دمشق (مكتبة الزهراء) ١٩٧٧.
- داميان داميانوف، عشق الألوان (شعر)، ترجمة حسين راجي، دمشق، د.ت.
- ديمتر ديوف، تبغ (رواية)، ترجمة سعيد جوخدار، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨١.
- ست.ل. كوستوف، قارئ الكف، ترجمة محمد سعيد جوخدار، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٧٧.
- ستانيسلاف ستراتييف، سترة من المخملين (مسرحية)، ترجمة وتقديم محمد سعيد الجوخدار، الكويت (سلسلة من المسرح العالمي) ١٩٩٤.

- عدد من المؤلفين، الديوان البلغاري، ترجمة أحمد سليمان الأحمد، دمشق (دار الأجيال) ١٩٧٠.
- عدد من المؤلفين، قصص من بلغاريا، مجموعة من المترجمين، دمشق (ألف باء الأديب) ١٩٧٥.
- عدد من المؤلفين، وتبقى الأدغال، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (دار الشيخ) ١٩٨٨.
- غ.كارلافوف- ا.كارالتشيف- م. مارتشينسكي، أيام وليال أيلولية، ترجمة ميخائيل عيد وحسين راجي، دمشق (دار الجمهورية) د.ت.
- غينو غينوف- فاتاغين، قولي لهم يا أماه أن يتذكروا، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨٢.
- غيورغي كارسلافوف، تانغو (رواية)، ترجمة سهيل أيوب، دمشق (دار الثقافة) ١٩٨١.
- فابتساروف، أغاني المحرك، ترجمة أحمد سليمان الأحمد، دمشق (دار مجلة الثقافة) ١٩٨٠.
- فاليري بتروف، عندما ترقص الورود (مسرحية)، ترجمة حسين راجي وعلي كنعان، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٧٦.
- فيسلين خاتشيف، قصائد مختارة، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار مجلة الثقافة) ١٩٨٤.
- فيسلين خانتشيف وستانيسلاف شترالتيف، الخبز المسموم وسترة من المخملين (مسرحيتان)، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (دار العلم) ١٩٨٨.
- ليليانا ستيفانوفا، لا ترحل أيها النهار، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار مجلة الثقافة) ١٩٨٣.
- ليو بومير ليفتشيف، لي هي النجوم (شعر)، ترجمة أحمد سليمان الأحمد، دمشق (ألف باء الأديب) ١٩٧٤.

• ليوبومير ليفتشيف، مختارات شعرية، ترجمة حسين راجي، دمشق، د.ت.

• مجموعة شعراء، سيف دمشق: قصائد بلغارية مختارة، ترجمة أحمد سليمان الأحمد، دمشق (ألف باء الأديب) د.ت.

• مجموعة من الشعراء، الديوان البلغاري، ترجمة فؤاد الخشن، بيروت (دار العودة) د. ت.

• مجموعة من المؤلفين، مسرحيات بلغارية مختارة ١-٢، مجموعة من المترجمين، دمشق (ألف باء الأديب) د. ت.

• نيقولاي خايتوف، أقاصيص متوحشة (قصص)، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (مكتبة الزهراء) ١٩٧٧.

• نيقولاي خايتوف، ثلاث مسرحيات، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (دار الثقافة) ١٩٨٣.

• نيقولاي خايتوف، قصائد جديدة، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار الثقافة) ١٩٨١.

• يوردان راديتشكوف، كانون ثاني (مسرحية)، ترجمة وليد القوتلي، دمشق (دار الشيخ) ١٩٨٨.

• يوردان راديتشكوف، محاولة طيران (مسرحية)، ترجمة وليد القوتلي، دمشق (دار الشيخ) ١٩٨٨.

• يوردان ميليف، عشرون قصيدة من الشعر البلغاري المعاصر، ترجمة: ميخائيل عيد، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ١٩٨٥.

• يوردان ميليف، عشق الألوان (شعر)، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (منار برس) ١٩٨٥.

• يوردان يوفكوف، ألبينا (مسرحية)، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨٥.

- يوردان يوفكوف، المليونير (مسرحية)، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (دار العلم) ١٩٨٧.
- يوردان يوفكوف، قصص وحكايات، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨٥.
- يوردان يوفكوف، ملاحم الجبال الهرمة، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (مكتبة ميسلون) د. ت.
- انجل كاراليتشف، دنيا الحكايات، ترجمة عيسى فتوح، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٧٨.
- ايمليان ستانيف، أميرة ترنوفو (قصص)، ترجمة حسين راجي، دمشق (دار العلم) د.ت.
- خريستو بوتف، مختارات شعرية، ترجمة أحمد سليمان الأحمد، نيقوسيا (دار صبرا) د.ت.
- عدد من المؤلفين، عشرون قصيدة من الشعر البلغاري المعاصر، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ١٩٨٥.
- فريستو سميرنسكي، قصائد مختارة، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق (مكتبة ميسلون) ١٩٨٤.

جمهورية البوسنة والهرسك:

- أدين كريهيتش، سراييفو قصة حصار وحب (رواية)، ترجمة عبد الرحيم محمد ياقدي، دبي (دار مدارك للنشر) ٢٠١٣.
- آندريتش- سليموفيتش، قصص يوغسلافية، ترجمة إسماعيل أبو البندورة، إربد (دار قدسية) ١٩٩٢.
- ايفو اندريتش، الآنسة (رواية)، ترجمة جمال الدين سيد محمد، القاهرة (دار الهلال) ١٩٨٥.

- ايفو آندريتش، الفناء الملعون (رواية)، ترجمة وليد السباعي، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ١٩٩٢.
- ايفو اندريتش، إيماءات (قصص)، ترجمة: زهير خوري، بيروت (دار النضال) ١٩٩٩.
- ايفو آندريتش، جسر على نهر درينا (رواية)، ترجمة سامي الدروبي، الطبعة الثالثة، بيروت (دار الوحدة) ١٩٨١.
- ايفو اندريتش، حكايات من البوسنة (قصص)، ترجمة زهير خوري، بيروت (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ١٩٩٦.
- ايفو اندريتش، محظية الباشا (قصص)، ترجمة إبراهيم نجيب حيدر، بيروت (دار التضامن) ١٩٩١.
- ايفو آندريتش، وقائع مدينة ترافنك (رواية)، ترجمة سامي الدروبي، دمشق (مكتبة أطلس) ١٩٦٤.
- حسنا غينتسا (مسرحية)، تحرير وحيدة شيريمت، كتاب واحد بعدة لغات ومن بينها اللغة العربية، ترجمة صادق صوفي ومراجعة إسماعيل أبو البندورة، توزلا (البوسنة والهرسك) ٢٠١٢.
- رشاد قاضيتش، طريق الهامي إلى الموت، ترجمة جمال الدين سيد، القاهرة (دار الصباح) ١٩٩٢.
- زلهاد كلوتشانين، الشهيد (رواية)، ترجمة وتقديم إسماعيل أبو البندورة، عمّان (وزارة الثقافة) ٢٠٠٨.
- عائشة زاهيروفيتش، الجسر له عيون (شعر)، ترجمة جمال الدين سيد، القاهرة (هيئة الكتاب) ١٩٨٨.
- ماك دزدار، النائم الحجري (شعر)، ترجمة إلياس فركوح، الكويت (مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري) ٢٠١٠.

- محمد ميشا سليموفتش، الدرويش والموت (رواية)، ترجمة حسين عبد اللطيف وأحمد سمايلوفيتش، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٧١.
- محمد ميشا سليموفيتش، القلعة (رواية)، ترجمة إسماعيل أبو البندورة، عمّان (وزارة الثقافة) ٢٠٠٧.
- مختارات من الشعر المعاصر في البوسنة والهرسك، ترجمة وتقديم إسماعيل أبو البندورة، الكويت (مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري) ٢٠١٠.
- نجاد ابريشيموفتش، كان ياما كان وقصص أخرى (قصص)، ترجمة جمال الدين سيد محمد، القاهرة (المركز القومي للترجمة) ٢٠٠٧.

جمهورية تركيا:

- أورهان باموق، اسمي أحمر (رواية)، ترجمة عبد القادر عبداللي، دمشق (دار المدى) ٢٠٠٠.
- اليف شافاق، شرف (رواية)، ترجمة محمد درويش، بيروت (دار الآداب) ٢٠١٣.
- اليف شافاق، قصر القمل (رواية)، ترجمة عبد القادر عبداللي، دمشق (دار قدمس) ٢٠٠٩.
- اليف شافاق، قواعد العشق الأربعون (رواية)، ترجمة خالد الجبيلي، دار طوى للنشر ٢٠١٢.
- اليف شافاق، لقيطة إستانبول (رواية)، ترجمة خالد الجبيلي، منشورات الجمل ٢٠١٢.
- أورهان باموق، استانبول (مذكرات)، ترجمة عبد القادر عبداللي، دمشق (دار المدى) ٢٠٠٧.

- أورهان باموق، الكتاب الأسود (رواية)، ترجمة عبد القادر عبداللي، دمشق (دار المدى) ٢٠٠٧.
- أورهان باموق، ثلج (رواية)، ترجمة عبد القادر عبداللي، منشورات الجمل ٢٠٠٥.
- أورهان باموق، جودت بك وأولاده (رواية) ١-٢، ترجمة فاضل جتكر، دمشق ١٩٨٩.
- تحسين يوجل، الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)، ترجمة بكر فهمي صدقي، الكويت (سلسلة إبداعات عالمية) ٢٠٠٦.
- عزيز مسين، زوبك (رواية)، ترجمة عبد القادر عبداللي، دمشق (دار الأهالي) ١٩٨٨.
- عزيز نسين، أسفل السافلين (قصص)، ترجمة عبد اللطيف عبد الحميد، دمشق (دار الحصاد) ١٩٩٣.
- عزيز نسين، ذنب الكلب (قصص)، دمشق (دار المنارة) ١٩٩٨.
- عزيز نسين، مجنون على السطح (قصص)، ترجمة محمد الظاهر ومنية سمارة، عمّان (دار الكرمل) ١٩٨٨.
- عزيز نسين، هكذا أتينا إلى الحياة (مذكرات ١)، ترجمة محمد مولود فاقي، دمشق (الدار الوطنية الجديدة) ٢٠٠٤.
- عزيز نسين، وهكذا سرنا (مذكرات ٢)، ترجمة محمد مولود فاقي، دمشق (الدار الوطنية الجديدة) ٢٠٠٤.
- عزيز نسين، الطريق الوحيد (رواية)، ترجمة عبد القادر عبداللي، عمّان (وزارة الثقافة) ٢٠١٠.
- ناظم حكمت، الحياة جميلة يا صاحبي (رواية)، ترجمة نزيه الشوفي، دمشق (دار الحقائق) ١٩٨٩.

- ناظم حكمت، مشاهد إنسانية (مختارات)، ترجمة فاضل لقمان، اللاذقية (دار الحوار) ٢٠٠١.
- نديم غورسيل، سبعة دراويش (رحلات)، ترجمة أحمد عثمان، عمّان (دار أزمنة) ٢٠١٢.
- يشار كمال، الأرض حديد.. السماء نحاس (رواية)، ترجمة جلال فتاح رفعت، بغداد (دار المأمون) ١٩٩١.
- يشار كمال، محمد الصقر (رواية)، ترجمة إحسان سركيس، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٩٢.
- يلماز غونيه، ماتوا ورؤوسهم محنية (رواية)، تعريب هشام حداد، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨٨.

جمهورية سلوفينيا:

- الدوحة الخضراء (مختارات من الشعر السلوفيني المعاصر)، ترجمة محسن الهادي ومارجيت الهادي، الدار البيضاء (دار توبقال للنشر) ٢٠١٤.
- صيد الديك البري (قصص)، ترجمة جمال الدين سيد محمد، القاهرة (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٨٧.

جمهورية صربيا:

- برانيسلاف نوشيتش، العائلة الحزينة، في عرض البحر (مسرحيات)، ترجمة جمال الدين سيد محمد، الكويت (سلسلة من المسرح العالمي) ١٩٩٦.
- برانيسلاف نوشيتش، المرحوم (مسرحية)، ترجمة فوزي عطية، الكويت (سلسلة من المسرح العالمي) ١٩٨٢.
- برانيسلاف نوشيتش، حرم سعادة الوزير، الدكتور، (مسرحيات) ترجمة وتقديم فوزي عطية محمد، الكويت (سلسلة من المسرح العالمي)، ١٩٧٨.

- برانيسلاف نوشيتش، ممثل الشعب (مسرحية)، ترجمة فوزي عطية محمد، الكويت (سلسلة من المسرح العالمي) ١٩٨٠.
- برنيسلاف نوشيتش، اللعبة الخطرة (مسرحية)، ترجمة جمال الدين سيد محمد، القاهرة (دار الكاتب العربي) ١٩٦٩.
- برنيسلاف نوشيتش، المستر دولار (مسرحية)، ترجمة فوزي عطية محمد، الكويت (سلسلة من المسرح العالمي) ١٩٨١.
- شجرة ليمون في القلب (شعر)، ترجمة سعدي يوسف، بيروت (دار التكوين) ٢٠١١.
- فلاديسلاف بايتس، حمام بلقاني (رواية)، ترجمة هاني غرايبة وميسون غرايبة، القاهرة (دار أنيمار) ٢٠١٣.
- فليمير لوكيتش، الحياة المديدة للملك أوزوالد، المؤامرة (مسرحيات)، ترجمة جمال الدين سيد، الكويت (سلسلة من المسرح العالمي) ١٩٨٨.
- قصائد من صربيا (شعر)، ترجمة إسحق أبو لبن، عمان (دار اليازوري) ٢٠٠٧.

جمهورية كرواتيا:

- دوبرافكا أوجاريسك، موطن الألم (رواية)، ترجمة محمد فرغل، الكويت (سلسلة إبداعات عالمية) ٢٠١١.
- ماتو لوفراك، العدو رقم ١ (رواية)، ترجمة جمال الدين سيد، القاهرة (سلسلة روايات الهلال) ١٩٨٩.

جمهورية كوسوفو:

- رجب تشوسيا، أبو الهول الحي (مسرحية)، ترجمة وتقديم الدكتور محمد موفاكو عن اللغة الألبانية، الكويت (سلسلة من المسرح العالمي) ١٩٨٣.

- سنان حساني، الريح والبلوط (رواية) ترجمة الدكتور محمد الأرناؤوط، صدرت في سلسلة ذاكرة الشعوب، مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٦.
- قصص شعبية غجرية (قصص من كوسوفا)، ترجمة محمد موفاكو، دمشق (وزارة الثقافة السورية) ١٩٨٣.
- مجموعة من الشعراء، فلسطين الألبانية، ترجمة محمد موفاكو، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ١٩٧٩.
- مختارات من الشعر الكوسوفي المعاصر، اختيار وترجمة محمد الأرناؤوط، عمّان (دار أزمنة) ٢٠٠٩.
- مجموعة شاعرات، نفحات من الشعر النسوي الألباني في يوغسلافيا، ترجمة عبد اللطيف الأرناؤوط، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨٦.

جمهورية مكدونيا:

- ترايان بتروفسكي، أبو الهول- قصائد في حب مصر، ترجمة جمال الدين سيد، القاهرة (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٨٦.
- مختارات من الشعر المقدوني، ترجمة جمال الدين سيد، القاهرة ١٩٨٤.

جمهورية اليونان:

- نيكوس كازانتزاكيس، الإخوة الأعداء (رواية)، ترجمة إسماعيل المهدوي، بيروت (دار ابن رشد) ١٩٧٩.
- نيكوس كازانتزاكيس، الإغواء الأخير للمسيح (رواية)، ترجمة أسامة منزلجي، دمشق (دار المدىٰ للثقافة والنشر) ١٩٩٥.
- نيكوس كازانتزاكيس، الطريق إلى غريكو (مذكرات)، ترجمة ممدوح العدوان، بيروت (دار ابن رشد) ١٩٨٠، ج١ وج٢، ١٩٨٣.
- نيكوس كازانتزاكيس، المسيح يصلب من جديد (رواية)، ترجمة شوقي جلال (غير معروفة دار وسنة النشر).

• نيكوس كازانتزاكيس، المنشق (سيرة حياة)، ترجمة محمد علي اليوسفي، بيروت (دار الآداب) ١٩٩٤.

• نيكوس كازانتزاكيس، تصوف، ترجمة سيد أحمد بلال، دمشق (دار المدى).

• نيكوس كازانتزاكيس، زوربا اليوناني (رواية)، ترجمة خالد الجبيلي، دار الجمل ٢٠٠٩.

• يانيس رايتسوس، البعيد (شعر)، ترجمة رفعت سلام، القاهرة (الهيئة العامة المصرية للكتاب) ١٩٩٧.

• يانيس رايتسوس، اللذة الأولى (شعر)، ترجمة رفعت سلام، الملحقية (الملحقية الثقافية اليونانية) ١٩٩٢.

• يانيس رايتسوس، قصائد للحرية والحياة (شعر)، ترجمة فاروق فريد، بيروت (دار الساقي) وباريس (منشورات اليونسكو) ١٩٩٢.

• يانيس ريتسوس، إغريقيات (شعر)، ترجمة فواز طرابلسي، دمشق (دار المدى) ١٩٩٥.

• يانيس ريتسوس، إيماءات (مختارات شعرية) ترجمة الشاعر سعدي يوسف، دمشق (دار التكوين) ٢٠١١.

إسهام دولة قطر في تجديد المنشآت الثقافية والتاريخية في البوسنة والهرسك: مكتبة الغازي خسرو بك نموذجًا

مصطفى يحيتش[1]

ترجع العلاقات التي تربط البوسنة والهرسك بالعالم العربي إلى الماضي البعيد، ولكن انتشار الإسلام في منطقة البلقان، بما فيها البوسنة والهرسك، زاد تلك الروابط قوة، حتى بلغت ذِروتها إبّان الحرب العدوانية على البوسنة والهرسك بين عامي ١٩٩٢-١٩٩٥، والتي كان أكبر ضحاياها الشعب البوشناقي المسلم. فقد دمّرت هذه الحرب الكثيرَ من مؤسساته التعليمية والعلمية والثقافية. وبعد انتهاء الحرب، لعِبت دولة قطر دورًا بارزًا في تجديد تلك المؤسسات وإعادة بنائها، وذلك إلى جانب المساعدات الإنسانية التي قدمتها دولة قطر لشعب البوسنة والهرسك أثناء العدوان وبعده.

وقد ساهمت دولة قطر أيضًا بعد توقف العدوان في تجديد مبنى كلية الدراسات الإسلامية في سراييفو، الذي أعيد بناؤه بفضل المساعدات التي قدمتها دولة قطر، وتمّ افتتاحه رسميًا في ٢٤ من أبريل ١٩٩٨. ويتميز مشروع بناء المبنى الجديد لمكتبة الغازي خسرو بك في سراييفو بأهمية خاصة، فقد أُنشئ هذا المبنى بفضل مساعدات شعب دولة قطر وحكومتها، وافتتح رسميًا في ١٥ من يناير من العام الجاري. إن تجديد مبنى كلية الدراسات الإسلامية وإنشاء المبنى الجديد لمكتبة الغازي خسرو بك، يمثلان واحدة من أهم الخطوات على

(١) مدير مكتبة الغازي خسرو بك في سراييفو ١٩٩٢-٢٠١٤، البوسنة والهرسك.

طريق تجديد المؤسسات التعليمية والعلمية والثقافية التي دمّرتها الحرب في البوسنة والهرسك.

لذا، ستركز الورقة عن إسهامات دولة قطر وأهمية دورها في تجديد المؤسسات الثقافية والتاريخية والعلمية والتعليمية في البوسنة والهرسك، مع التركيز بشكل خاص على إنشاء المبنى الجديد لمكتبة الغازي خسرو بك في سراييفو، ودور تلك المكتبة في الحياة العلمية والتعليمية والثقافية في البوسنة والهرسك.

كانت المكتبات في البوسنة والهرسك عبر التاريخ تمثّل مؤسسات ثقافيةً وعلميةً وتعليميةً، لذا كان لها دور مهم في حياة مسلمي البوسنة التعليمية والعلمية والثقافية. وقد برزت أهمية المكتبات في المجتمع، وفي البوسنة والهرسك عموما، في أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، حيث شهد العالم تطورًا ضخمًا وسريعًا في وسائل الاتصال الإلكترونية التفاعلية، وانتشارًا واسعًا لحقوق الإنسان الشاملة، وبذلك تحولت المكتبات إلى مراكزَ لتزويد الإنسان بالمعلومات العلمية. وبفضل الترابط الإلكتروني للعالم بأسره، تحولت المكتبة إلى مكان يمتلك فيه كل فرد حقَّ الوصول إلى كافة أنواع المعلومات العلمية بحرية ومساواة، مما زاد في أهمية الدور الاجتماعي للمكتبات. ولهذا السبب يجب علينا في هذا السياق أن نتحدث عن مكتبة الغازي خسرو بك وأهميتها، باعتبارها مؤسسة ثقافية وعلمية بالنسبة للبوسنة والهرسك وللوسط العلمي عمومًا، وخاصة إذا أخذنا في الحُسْبان المادة المكتبية المحفوظة فيها.

أرصدة المكتبة

تُعتبر مكتبة الغازي خسرو بك في سراييفو المؤسسةَ الثقافيةَ الأقدمَ في البوسنة والهرسك، والتي ما زالت منذ تأسيسها سنة ١٥٣٧ وحتى اليوم، تؤدي الرسالة التي أنشئت من أجلها دون انقطاع. ولكي ندرك مدى أهمية هذه المكتبة بالنسبة لتراث البوسنة والهرسك الثقافي، والمحافظةِ على هوية الشعب البوسني المسلم وثقافتِه، وكذلك أهميتِها بالنسبة للبشرية جمعاءَ، وأخيرًا، قيمةِ المساعدة

التي قدمتها دولة قطر لإنشاء المبنى الجديد لهذه المكتبة، فإننا سنقدم عرضًا موجزًا عن أرصدة المكتبة ومحتوياتها.

يتكون رصيد مكتبة الغازي خسرو بك حاليًا من مائة ألف وحدة مكتبية تقريبًا، أكثرها أهميةً مجموعة المخطوطات والمطبوعات القديمة من الكتب والصحف والوثائق الأخرى، باللغات العربية والتركية والفارسية، والبوسنية، واللغات الأوروبية الأخرى. وتضم مجموعة المخطوطات أكثر من ١٠٥٠٠ مخطوطة تحتوي على حوالى ١٨٠٠٠ مؤلفًا كبيرًا وصغيرًا في العلوم الإسلامية، واللغات العربية والتركية والفارسية، والأدب، والفلسفة، والمنطق، والتاريخ، والطب، والبيطرة، والرياضيات، والفلك، وغيرِها من العلوم.

إن أعدادًا كبيرة من المخطوطات - المكتوبة أو المنسوخة - جاءت من شتى أنحاء العالم الإسلامي، وخاصة من بعض المراكز العلمية والسياسية الكبرى، مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة والقاهرة وبغداد، ومن استانبول على وجه الخصوص. ومن هذه المخطوطات ما هو فريد أو نادر، وقد وصلت إلى البوسنة والهرسك والدول المجاورة عبر طرق مختلفة: كالتجار والحجاج، وخاصة عن طريق الطلاب البوسنيين الذين تعلموا ودرسوا في تلك المراكز.

وتتميز مخطوطات المصاحف عن باقي المخطوطات بخطها المُتقَن وزخارفِها البديعة. ويلاحظ أن تلك المصاحف كانت تَحْظَى باهتمام خاص، ويرى ذلك في طريقة تجليدها بأجود الجلود المختلفة الألوان، وبزخرفة الدَّفَّتين من الخارج والداخل واللسان أحيانًا بالزخارف النباتية.

إن جزءًا مهمًا من مخطوطات مكتبة الغازي خسرو بك أتى من شتى المناطق والمدن والقرى في البوسنة والهرسك، ومن الدول المجاوِرة، فقد كان أهل هذه البلاد يكثرون من الكتابة ونَسْخ الأعمال المختلفة في كافة العلوم التي كانت معروفة آنذاك. ويشهد على ذلك العدد الكبير من مخطوطات الكُتّاب البوسنيين، ونسخ مؤلفات الكُتّاب الآخرين، والتي قام بنسخها نُسَّاخون بوسنيون، ليس فقط في البوسنة والهرسك، بل وفي أجزاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية. وتمثّل تلك المخطوطات اليوم جزءًا مهمًا من التراث الثقافي البوسني

الإسلامي، وتشهد على غَزارة وتنوع التراث الثقافي في البوسنة والهرسك التي تتعايش فيها الثقافات والأديان المختلفة على مر القرون.

ويوجد في المكتبة حوالى ٣٥٠٠٠ كتاب مطبوع باللغة البوسنية واللغات الأوروبية الأخرى. ومن أهمها، نسخ من أول الكتب التي طبعت في البوسنة والهرسك باللغة البوسنية لمؤلفين بوسنيين.

وهناك أيضًا مجموعة مهمة من الكتب المطبوعة باللغات العربية والتركية والفارسية وباللغة البوسنية المكتوبة بالأبجدية العربية. وتضم هذه المجموعة حوالى ٢٥٠٠٠ كتابًا، ومنها عدد من أوائل الكتب التي طبعت في مطبعة إبراهيم متفرقة (١٦٧٤-١٧٤٤) في إستانبول التي أسست سنة ١٧٢٧، إضافة إلى عدد كبير من الأعمال المطبوعة منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا. كما تضمّ المكتبة عددًا كبيرًا من مؤلفات العلوم الإسلامية التي طبعت باللغتين العربية والتركية منذ منتصف القرن الثامن عشر.

ويتكوّن رصيد الدوريات من أقدم الصحف والجرائد المطبوعة في البوسنة والهرسك، وبعض صحف سراييفو اليومية، وجميع الصحف والمجلات الإسلامية تقريبًا التي كانت تصدر أو أنها تصدر اليوم في البوسنة والهرسك. كما توجد مجموعة كاملة من صحف البوسنة والهرسك التي بدأت في إصدارها السلطات النمساوية الهنغارية بعد احتلالها للبوسنة والهرسك (١٨٧٨-١٨٨٢). ومن المجموعات المهمة أيضًا مجموعة المجلات والصحف العربية والتركية الموجودة في المكتبة.

وتضم مجموعة الوثائق العثمانية المتعلقة بتاريخ البوسنة والهرسك حوالى ٥٠٠٠ وثيقة نشأت في دوائر إدارية مختلفة، عن السلاطين والوزراء والقضاة والعديد من موظفي الحكومة، إضافة إلى وثائق أخرى شخصية.

تضم المكتبة حوالى ١٦٠٠ حجة وقف (وقفية) من شتى أنحاء البوسنة والهرسك، وتمثّل حجج الوقف أو الوقفيات مصدرًا فريدًا لدراسة تاريخ نشأة بعض القرى والمدن ونموها في البوسنة والهرسك.

وتمثل سجلات المحكمة الشرعية في سراييفو عن الفترة من ١٥٥٢-١٨٥٢ مصدرًا قيّمًا ومهمًّا لدراسة التاريخ السياسي والثقافي والاقتصادي لسراييفو، وللبوسنة والهرسك. كما تحتفظ المكتبة بعدد من سجلات المحاكم الشرعية الأخرى في البوسنة والهرسك.

ويوجد في المكتبة مجموعة من المعروضات المتحفية، التي تتعلق بالجوانب المادية والدينية والاجتماعية من الثقافة الإسلامية البوسنية.

تاريخ المكتبة

تأسّست مكتبة الغازي خسرو بك سنة ١٥٣٧، وفي عام ١٨٦٣ نُقلت لأول مرة من المبنى الذي أنشئت فيه. ومنذ ذلك الحين وحتى انتقالها إلى المبنى الجديد عام ٢٠١٣، تنقلت المكتبة بين عدة أماكن، كانت في معظمها غير مستوفية لشروط عمل المكتبات. وقد تعرّضت المكتبة في تلك الفترة للكثير من الصعوبات والأضرار، بسبب الفيضانات والحرائق والحروب، وغيرها من الحوادث التي عاشتها مدينة سراييفو على مدى أكثر من أربعة قرون. وكانت المكتبة مهددة بشكل خاص بالتلف والدمار التام في الحرب العدوانية الأخيرة على البوسنة والهرسك.

فقد احترقت في سراييفو المكتبة الوطنية والجامعية في البوسنة والهرسك، حيث التهمت النيران أكثر من مليوني كتاب، كما دمرت النيران معهد الاستشراق الذي احترق فيه أكثر من ٥٠٠٠ مخطوطة إسلامية، وأكثر من ٢٠٠ ألف وثيقة أرشيفية، وغيرها من المواد الأرشيفية المرتبطة بتاريخ البوسنة والهرسك، إضافة إلى مكتبة مكونة من حوالى ١٥٠٠٠ كتاب علمي وتخصصي عالي القيمة.

لكن، ومع بداية العدوان على البوسنة والهرسك سنة ١٩٩٢، تمّ نقل مكتبة الغازي خسرو بك بالكامل من مقرها إلى مكان آمن. وبعد احتراق المكتبة الوطنية والجامعية في البوسنة والهرسك ومعهد الاستشراق، قمنا بنقل المخطوطات التي تُعتبر الرصيد الأكثر قيمة في المكتبة، ثماني مرات من مكان لآخر، وبفضل الله سبحانه وتعالى، ومن ثم بفضل تلك النشاطات، تمّ إنقاذ كافة محتويات المكتبة.

هكذا، وبعد كل ذلك الدمار الذي لحِق بالمكتبات والمؤسسات الثقافية والعلمية، وبالذاكرة البشرية المكتوبة عمومًا، من خلال إتلاف آلاف المخطوطات الإسلامية ومئات الآلاف من الوثائق الأرشيفية وأكثر من مليوني كتاب مطبوع، بسبب الحرب الأخيرة على البوسنة والهرسك، بقيت مكتبة الغازي خسرو بك بكتبها التي يَرْبُو عددها على مائة ألف كتاب، ومن بينها مجموعة مخطوطات مكونة من ١٠٥٠٠ مخطوطة إسلامية، وأكثر من ٥٠٠٠ وثيقة تاريخية وغير ذلك من المادة المكتبية القيمة. بقيت المكتبة شاهدًا على التراث الغزير القيّم من الثقافة والحضارة الإسلامية في منطقتنا، في قلب أوروبا.

الحاجة إلى بناء مبنى جديد للمكتبة

بالرغم من نقل المكتبة أثناء الحرب إلى مبنى آخر أكبر حجمًا، لكن ذلك المبنى لم يكن مستوفيًا لأدنى شروط حفظ الرصيد القيّم من المخطوطات والكتب والوثائق، ولم يكن كافيًا لكي تمارس المكتبة عملها الطبيعي؛ مما فرض ضرورة اللجوء إلى الحل الوحيد المتمثل في بناء مبنى جديد خاص بالمكتبة.

ونظرًا لأهمية المكتبة والظروف التي تعمل فيها، بادرت المشيخة الإسلامية في البوسنة والهرسك للتحضير لبناء مبنى جديد. وبعد الحصول على الأرض ورخصة بناء المبنى الجديد ووضع المخططات، جاءت الخطوة الأكثر صعوبة، والمتمثلة في توفير التمويل للمبنى. لم نكن في المشيخة الإسلامية قادرين على تحمّل تكاليف هذا المشروع الكبير بمفردنا بسبب إمكاناتنا المتواضعة، فلجأنا إلى عدة جهات طالبين المساعدة في بناء المبنى الجديد للمكتبة.

وإدراكًا منها للمشكلة المذكورة، فإن دولة قطر بقيادة أميرها آنذاك، صاحب السمو الأمير الوالد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وافقت على تمويل بناء المبنى الجديد للمكتبة. وهكذا، وبفضل التبرّع السخي من دولة قطر الذي بلغ ٨,٨٥٠ ملايين دولار أمريكي، تمّ إنشاء مبنى ضخم بديع الجمال مساحته حوالى ٧٠٠٠ متر مربع، مبنى يليق بمثل هذه المؤسسة الثقافية التاريخية القيّمة والمهمّة، ويناسب بهندسته المعمارية المكتبة الحديثة من حيث المكان والوظيفة، وينسجم بموقعه تمامًا مع محيطه المباشر، في قلب مدينة سراييفو القديمة.

الخصائص الوظيفية لمبنى المكتبة

إن موقع مبنى المكتبة في الجزء القديم من مدينة سراييفو، فرض تصميمًا ينسجم مع البيئة الموجودة، يجعل منه جزءًا من مجمّع ثقافي وعلمي وتعليمي تابع للمشيخة الإسلامية.

- تتكوّن المكتبة من عدة أجزاء متصلة فيما بينها. وإن التنظيم الداخلي لتلك الأجزاء يسمح بالاتصال الداخلي بين جميع الأماكن، مما يحقق مستوى عاليًا من الترابط. ويمكن في أوقات معينة إغلاق خطوط التواصل، بهدف توفير وظائف محددة لبعض أقسام المكتبة.
- إن جزء المكتبة المخصص للمستفيدين الخارجيين، مفصول عن مكاتب موظفي المكتبة وباقي العاملين فيها، ولكنها رغم ذلك متصلة بشكل يسمح بتقديم أعلى مستويات الخدمات لرواد المكتبة ويوفر لهم الراحة في عملهم، بما في ذلك الأجهزة التقنية المتطورة.

أما الأماكن التي يعمل فيها الكادر المكتبي المتخصص، فيوفر لهم الجودة العالية في العمل، واقتناء الكتب الجديدة، وفهرستها، وتخزينها، ووضعها في النهاية في خدمة المستفيدين.

- يتصل القسم الإداري أيضًا بشكل جيد مع الأجزاء الرئيسة في المبنى، بحيث يستطيع الكادر المكتبي المتخصص التواصل يوميًا وبسهولة مع إدارة المكتبة.
- يتمتع مبنى المكتبة بمخازن واسعة للكتب تتيح المجال أمام توسع المكتبة المطرد لفترة زمنية طويلة. وقد وُضعت كافة كتب المكتبة، ولا سيما المخطوطات، في مكان مغلق وآمن جدًا، ومزود بجميع أجهزة السلامة والوقاية من الحريق والرطوبة ودرجات الحرارة غير المناسبة، مما يضمن ظروفًا خاصة للمحافظة على مجموعة المخطوطات القيمة والكتب النادرة، واستخدامها.
- تتميز الأماكن المخصصة للمستفيدين بملاءمتها الوظيفية، حيث تقع جميعها في المستوى نفسه: قسم الفهارس والمجموعات المرجعية

(كالقواميس والموسوعات والفهارس وغيره) مع قاعة للمطالعة، وقسم المعلومات الخدمية العامة، وقاعة المطالعة الرئيسة، وقاعات المطالعة المخصصة للباحثين، مما يسهّل الحصول على المعلومات والوصول إلى الكتب المرغوبة.

- أما الصالة الرئيسة التي تضم ٢٠٠ مقعد، وبجوارها حجرات إضافية، فهي مخصصة للمناسبات العامة، وتقع هذه الصالة في الطابق الأول، ويمكن الوصول إليها من الخارج في أقصر مدة، وبذلك تتم المحافظة على الغرض الأساسي للمكتبة.
- وهناك أيضًا قسم الحماية والترميم والحفظ، المزود بأحدث الأجهزة، والذي يوفر الحماية التامة للمادة المكتبية، مع تطبيق أحدث التقنيات والطرق في ترميم الكتب وحمايتها.
- تمتلك المكتبة نظامًا معلوماتيًا قويًا يتيح لكافة أقسام المكتب إمكانية العمل ضمن إطار نظام معلوماتي موحد. ويضم هذا النظام وحدة الحفظ الرقمي للكتب، وتقديم الخدمات لمستخدمي المكتبة في صورة مادة رقمية. أما أكثر أرصدة المكتبة أهمية (كالمخطوطات والوثائق الأرشيفية والكتب المطبوعة القديمة) فقد تمّ حفظها رقميًا وعلى ميكروفيلم.

وبغض النظر عن التغيرات الكبيرة وتطور النشاطات المكتبية، وخاصة في مجال المعلوماتية، فإن مكتبة الغازي خسرو بك ستبقى المكان الذي يجمع المادة المكتبية ويحميها، من أجل توفير السهولة والسرعة في استخدامها، وتنظيمها والمحافظة عليها بالطرق والأساليب العلمية. وبفضل التقدم المعلوماتي، اعتمدت المكتبة تقنياتِ عملٍ جديدةً، بحيث أصبحت المعلوماتية وسيلةً مهمةً لتحقيق أهداف المكتبة. ومن أهم جوانب هذا القطاع قاعدةُ البياناتِ الحاسوبية التي تضمن حفظَ عددٍ ضخمٍ من المعلومات، والبحث عنها في المؤشرات والفهارس، بسرعة أكبر بكثير من ذي قبل، وأخيرًا الشبكة الحاسوبية التي توفر - بفضل الإنترنت - الوصول الفوري إلى المادة المكتبية في العالم كله. وهكذا

نعمل بصورة دائمة على زيادة وإثراء الموارد (الأرصدة) المكتبية، وبفضل ذلك، نستقبل يوميًا عددًا كبيرًا من الطلبات للوصول إلى المادة المكتبية واستخدامها.

إن جميع النشاطات التي ذكرت، تمثل الطريق نحو إقامة مكتبة حديثة، وهو ما تَصْبُو مكتبة الغازي خسرو بك إلى تحقيقه في مقرها الجديد. إن المبنى الجديد للمكتبة، وتجهيزاتها المادية والفنية والتكنولوجية، والمستوى الراهن من التنظيم، إضافة إلى الطيف الواسع من النشاطات، وخصوصًا ثَراء المادة المكتبية التي تزيد من قيمتها مجموعة المخطوطات والكتب المطبوعة القديمة والدوريات القديمة، كل هذا يمثّل قاعدةَ انطلاقٍ جيدة نحو تحقيق ذلك الهدف. ولكن تحقيق مثل هذا الهدف، يحتاج أيضًا إلى بذل الكثير من الجهد والإرادة والمال والدعم.

لكن، وبغض النظر عن الصعوبات المذكورة، فإن ثراء الأرصدة، والمبنى الجديد، والتجهيزات والمعدات التي حصلنا عليها بفضل دعم دولة قطر، كل هذا يعطينا دافعًا من أجل العمل الحضاري والعلمي الجاد؛ لأن الكتب التي تحفظ في هذه المكتبة، تمثل الأساسات الفكرية والعلمية التي بنيت عليها الحضارة الإسلامية، وتمثّل في الوقت ذاته الحصنَ المَنِيع للدفاع عن كل ما تمّ تحقيقه من القيم الثقافية والدينية والأخلاقية وغيرها من القيم، التي تكوّن هويتنا وتُعِينُنا في التصدي للمخاطر والتحديات التي تُحيط بنا يوميًا.

وفضلًا عن ذلك، فإننا بإنقاذ المكتبة والمحافظة عليها نَفسح المجال لترويج التنوع الثقافي في البوسنة والهرسك، ونؤكد على أهمية الحوار بين الثقافات، مع فهم الجانب الإسلامي للتعددية الثقافية البوسنية، ونشجع على الحوار الثقافي وثقافة السلام بين الشعوب.

لذا، فإننا مَدينُون بالشكر الجزيل لدولة قطر، ولشعبها الكريم، ولقيادتها الحكيمة التي تتعرف على القيم الإنسانية والثقافية العالمية، وتؤمن بأن تدمير أو إتلاف أي جزء من التراث الثقافي إنما هو إفقار للتراث الثقافي لكافة الشعوب.

تجربة «الجزيرة بلقان» ٢٠١٢ - ٢٠١٤
رؤية من الخارج

شمسي ايوازي[١]

كان لانطلاق قناة «الجزيرة بلقان» أثر إيجابي في مجال الإعلام بيوغسلافيا السابقة؛ وذلك لبراعتها وأسلوبها وتناولها للقضايا المحلية في هذه المنطقة، بالإضافة إلى القضايا الدولية التي تعتمد فيها على خبرة الجزيرة الأم.

وبهذا الشكل وبموقفها الموضوعي للغاية، تلعب «الجزيرة بلقان» دورًا بناءً في مرحلة إعادة بناء الثقة، وتطبيع العلاقات بين شعوب هذه المنطقة، التي مرّت سابقًا بمرحلة معاناة مخيفة وخسائر جسيمة في الأرواح والاقتصاد.

ولأجل فهم دور وأهمية «الجزيرة بلقان»، لا بد من استعراض دور وسائل الإعلام قبل وبعد الأحداث المأسوية. فقد تفككت وسائل الإعلام التي كانت تابعة للدولة، وتحولت إلى وسائل منفلتة قوميًا، تحمل شحنات قومية معادية للآخرين. فقد أخذت دور المحفّز لتدمير يوغسلافيا، ثم دور المحرّض على الصراعات المأسوية، حيث شاركت بفعالية في الحرب الإعلامية وتصعيد مشاعر الكره القومية والدينية، وحتى الآن لم تتحرر وسائل الإعلام المحلية من هذا الدور السلبي في مجال العلاقات ما بين الشعوب والأديان.

وقبل أن ندخل في الموضوع عن «الجزيرة بلقان» التي أثارت اهتمامًا كبيرًا في معظم مساحة يوغسلافيا السابقة، لا بد أن نوضّح أنها تبث برنامجها

---

(١) أستاذ في قسم الدراسات الشرقية سابقًا، جامعة بريشتينا، كوسوفا.

باللغة البوسنية والصربية والكرواتية التي ترجع إلى أصل واحد، والفرق بين هذه اللغات بسيط جدًا، حيث إنه لا يمثل أي عقبة في فهم بعضهم بعضًا أبدًا، وبذلك تركت مساحة كبيرة من البلقان خارج التواصل، لسبب عدم استعمال وفهم تلك اللغات وهو مما يحول دون متابعة برامجها القيمة والوحيدة من نوعها في كل البلقان. فـ«الجزيرة بلقان» هي قناة التلفزيون الوحيدة في هذه المناطق المختصة في الأخبار العالمية والمحلية والمحايدة تمامًا، وهو ما ينقص القنوات الأخرى في هذه المناطق التي تنحاز لمموليها، مثل الحكومات وصناديق مختلفة عالمية ومنظمات غير حكومية من الخارج؛ مما يجعل هذه القنوات غير مستقلة ومجبرة على أن تبحث عن إمكانية وكيفية إرضاء الممولين، وعدم الاهتمام بحاجة الجمهور لتزويده بالأخبار والتقارير من المراسلين، والتعليقات الموضوعية المحايدة والتي لا تطمع في غسل عقولهم لجعلهم قابلين لدعاياتهم، بغرض تحقيق أغراضهم مثل النفوذ والسيطرة للبقاء في الحكم. أما التمويل من الخارج فله أغراض أخرى ومختلفة، والتي نادرًا ما تكون في مصلحة مشاهدي البرامج، بل في معظم الحالات تكون لصالح توسيع نفوذهم السياسي والاقتصادي والأيديولوجي، ولصالح المجتمعات والدول المموّلة. هذا ما يتعلق بالأخبار والنشر عن الوقائع العالمية، أما ما يتعلق ببقية البرامج فإن قنوات المنطقة تتسابق في جذب المتفرجين، بواسطة إغرائهم بالبرامج الترفيهية والأفلام والمسلسلات الرخيصة والمباريات الرياضية، وكثرة من الإعلانات لتشجيع الاستهلاك لغرض الكسب فقط.

كانت وسائل الإعلام في يوغسلافيا السابقة تتبع للدولة، وهي التي كانت تموّلها وتراقبها، وكانت أداة الرقابة للحزب الحاكم «الحزب الشيوعي»، وكان الحزب الوحيد في السلطة دون أن ينازعه أحد طيلة وجود يوغسلافيا. هذا الحزب كان في جميع الشؤون الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية، وطبعًا في الإعلام، حيث كان أهم وسيلة للدعاية وتوعية المجتمع وتهذيب الرأي العام وفقًا لأيديولوجيتهم وقيمهم. ويمكن أن يقال إن جميع الصحافيين والعاملين في الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي كانوا أعضاء في الحزب

الشيوعي مع استثناءات نادرة جدًا، وهم كانوا صنّاع الرأي العام وفقًا لتوجيهات الحزب الشيوعي اليوغسلافي، وكانت جميع النشاطات الإعلامية مشبعة بأيديولوجية الدولة وسياستها الداخلية والخارجية، ولم يبق هنالك مكان للتعبير الحر والمحايد. كما كانت جميع تقارير المراسلين والتحليلات لا تخرج عن الإطار المخطط مسبقًا من قبل الحزب. ولذلك فقد كان مجال المناقشات والحوار ضيقًا جدًا.

الإعلام في يوغسلافيا السابقة كان منظمًا ومنقسمًا، بشكل يطابق التنظيم والتقسيم الإداري والسياسي ليوغسلافيا الفيدرالية، إلى ستة جمهوريات وإقليمين يتمتعان بحكم ذاتي، أي إلى ثماني وحدات. كانت تكوّن الدولة الفدرالية الموحدة التي كانت تمثّل هذه الوحدات الثماني، وتسيطر عليها بواسطة الحكومة الفدرالية سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا وإعلاميًا. وأهم وسائل الإعلام الفدرالية كانت جريدة «بوربا» اليومية وإذاعة وتلفزيون يوغسلافيا ووكالة الأنباء «تانيوغ».

أما على المستوى الجمهوري والإقليمي، فقد كانت تصدر جرائد في عواصم الجمهوريات، وتوجد إذاعات راديو وتلفزيون مثل «إذاعة راديو وتلفزيون بلغراد» في جمهورية صربيا، و«إذاعة راديو وتلفزيون زاغرب» في جمهورية كرواتيا، و«إذاعة راديو وتلفزيون سارايفو» في جمهورية البوسنة والهرسك، و«إذاعة راديو وتلفزيون تيتوغراد» في جمهورية الجبل الأسود، وبرامج هذه الإذاعات كانت تبث باللغة الصربو-كرواتية، و«إذاعة راديو وتلفزيون ليوبليانا» في جمهورية سلوفينيا كانت تبث برامجها باللغة السلوفينية، و«إذاعة راديو وتلفزيون سكوبيه» في جمهورية مكدونيا كانت تبث برامجها باللغة المكدونية، و«إذاعة وتلفزيون بريشتينا» في إقليم كوسوفا، وكانت تبث برامجها باللغة الألبانية وجزء منها باللغة الصربو-كرواتية والتركية، و«إذاعة راديو وتلفزيون نوفى ساد» في إقليم فويفودينا التي كانت تبث برامجها باللغة الصربو-كرواتية واللغة المجرية. وكل هذه الإذاعات كانت تتمسك بتوجيهات الحزب الشيوعي اليوغسلافي، أما المراقبة فكانت تتولاها منظمات الحزب الشيوعي في الجمهوريات والإقليمين.

هذا النوع من الإعلام ترك أثرًا قويًا في عقول الناس التي غُسلت بكثرة تكرار مواقف الحكام، لدرجة أن الناس تعوَّدت على استهلاك الحقائق المصطنعة والملوّنة أيديولوجيًا كحقائق مسلّمة. واستغل هذا الموقف أكثر عندما ضعف نفوذ الحزب الشيوعي اليوغسلافي، وزاد نفوذ الأحزاب الشيوعية في الجمهوريات التي كانت تكوّن يوغسلافيا الفدرالية، حيث إن تلك الأحزاب بدأت تنحاز إلى القومية، ولهذا السبب زادت المنافسة والمنازعة فيما بينها، وأدّى ذلك إلى انهيار الحزب الشيوعي اليوغسلافي، وبدونه أصبح من غير الممكن الاحتفاظ بيوغسلافيا الفدرالية الموحدة. وبهذا حصل التحوّل الأيديولوجي المبدئي للإعلام، وبدأ ينحاز إلى القادة المحليين على مستوى الجمهوريات الذين تولوا السيطرة على الإعلام وجنّدوه للأيديولوجيا القومية، حيث إن التطرف القومي ساعدهم على الاستمرار في الحكم. وهذا الاتجاه الأيديولوجي الجديد في الأخير أدّى إلى الكارثة الحقيقية للدولة الاتحادية، التي كانت تعرف بجمهورية يوغسلافيا الاتحادية الاشتراكية، والتي دامت حوالى خمسين عامًا، وسريعًا ما اندلعت أشرس حرب في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، التي سبّبت موت مئات من الآلاف من الضحايا والأضرار الجسيمة المادية.

ولكي نفهم بوجهٍ أحسن دورَ «الجزيرة بلقان» وأهميتها لهذه المنطقة، وحاجتها الماسة للإعلام المحايد والموضوعي في نقل الأخبار عما يحدث في المنطقة وفي العالم، والأفلام الوثائقية التي تقوم بتوعية الجمهور وتوسيع معلوماتهم عن الوقائع في عالمنا اليوم، وفي ماضيه القريب، وفي أي بيئة يجب لـ«الجزيرة بلقان» أن تعمل فيها، لا بد من استطراد دور الإعلام المحلي السلبي مباشرة قبل الحرب وأثنائها وبعدها كذلك، والذي سمّم هذه البيئة ولم تزل آثار هذا السم في الإعلام حتى اليوم وخاصة في المناطق التي شملتها الحرب.

إن دور الإعلام الصربي في حروب يوغسلافيا[1] كان من دون شك الأعظم، وهو موضوع مناقشات كبيرة لدى الرأي العام العالمي. وبمرور الوقت

---

(1) Radoja,Zarka,Estetika ratne propagande, e-Novine 28,09.2014

تزداد التأكيدات بأن الإعلام كان أهم سلاح دعائي لسلوبودان ميلوشيفيتش، رئيس جمهورية صربيا ورئيس الحزب الشيوعي الصربي، وللقوميين المتعصبين الصرب الذين كانوا ينشرون الشوفينية والحقد في أوساط السكان المنتمين للقومية الصربية في يوغسلافيا السابقة قبل وأثناء الحرب[1].

إن الدعاية في أوساط يوغسلافيا السابقة كان لها أثر قوي في تطور الأحداث في التسعينيات للقرن العشرين، وخاصة في صربيا، وذلك بواسطة تحوير حقائق الأحداث وفبركة الأكاذيب المقصودة، بغرض إشعال نار الحقد فيما بين القوميات والأديان والأجناس، والتي يمكن أن تعتبر نماذج لكيفية قيام الحكومة باستغلال الإعلام لأغراضها. ومن ناحية أخرى، فإن آثارها لا تزال موجودة حتى اليوم، وبالتحديد إن آثار الحقد المزروع من قبل الإعلام وإثارة الحقد بين شعوب الدول الجديدة لا تزال موجودة.

ويمكن أن يقال إن وسائل الإعلام بتقاريرها وتعليقاتها ونقل الأخبار الكاذبة، للأسف الشديد، استطاعت أن تزرع الكراهية والحقد بين الشعوب التي أدت إلى أبشع الجرائم في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

إن «الاعتداء السيكولوجي» على مستهلكي الإعلام الذين كانوا من يوم إلى يوم يتعرضون لمشاهدة جثث الموتى عندما كانت الكاميرات تتركز عليها، وبتقاريرها التفصيلية البشعة، استطاعت أن توقظ الغرائز السلبية لدى الناس العاديين ليقوموا بجرائم لحساب النظام أو أيديولوجيا الفاشية[2].

أثناء انهيار دولة يوغسلافيا في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات للقرن السابق، كانت وسائل الإعلام في خدمة النخبة السياسية والفكرية بواسطة الدعاية لحسابها. لا شك أن وسائل الإعلام بتقارير مراسليها وتعليقاتها عديمة الضمير، قامت بدعم النخبة السياسية الحاكمة في تنفيذ سياستها التي سبّبت موت مئات الآلاف من الضحايا،إضافة إلى المصابين والمغتصبات واللاجئين والمفقودين[3].

---

(1) Estetika ratne propagande.

(2) Estetika ratne propagande.

(3) Estetika ratne propagande.

وقد لعبت وسائل الإعلام في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات دورًا فعالًا في تقسيم الناس إلى «نحن» و«هم»، وأن الـ«هم» حسب تصوراتهم كانوا دائمًا سلبيين، أما الـ «نحن» فكانوا دائمًا إيجابيين. وبتذكير وسائل الإعلام ببعض الجرائم القديمة كانوا يقصدون زرع الخوف من حدوث مجازر جديدة، مع أن كثيرًا من تلك الجرائم كانت مفبركة تمامًا[1].

وهكذا أصبح الصحافيون أداة حملة لسحق البلاد، ولعبوا دورًا فعالًا في تقسيم البلاد عرقيًا وفقًا لمخططات القوميين المتطرفين، فعلوا ذلك بسهولة لا تصدق.

أما الإعلام في الجمهوريات الأخرى، وخاصة في كرواتيا، فقد سلك مسلك الإعلام في صربيا ردًا على ما يحدث هناك. فقد تضررت البوسنة والهرسك أكثر من نتائج هذه الحملة الإعلامية، حيث إنها كانت هدف التقسيم بين صربيا وكرواتيا وتعرّضت لهجوم الطرفين. ليس هناك شك أن البوسنة والهرسك قبل عقدين قد مرت بجلجة حقيقية، تلك التي حصلت في التسعينيات من القرن العشرين، وكانت من أصعب جلجات الحرب في أوروبا عمومًا[2].

ليس الحرب في البوسنة موضوعنا في هذا الحديث، لكننا أجبرنا أن نتطرق لها، حيث إنها تركت عواقب كبيرة في كل المجالات السياسية والاقتصادية وفي الإعلام، كذلك حيث إنها تسببت في تقسيمه إلى ثلاثة أنظمة إعلامية منفصلة تمامًا. وقد تأثرت هذه الأنظمة الإعلامية مباشرة من قبل ثلاثة برامج قومية وثلاث فلسفات قومية، والتي تجسدت في ثلاثة أحزاب قومية تؤثر في سياسات الإعلام الثلاث المنفصلة. وقامت هذه الثلاثية قبل الحرب وأثناءها وبعدها بتحميل وسائل الإعلام هذه بسياسة تشجيع الصدام بين الشعوب الثلاثة الرئيسة في البوسنة، أي البوشناق والصرب والكروات.

---

(1) Estetika ratne propagande.

(2) Kukic,Slavo;Mediji u BiH-Stanje i moguci pravci razvoja;tripalo tripalo.hr/knjige/hrvati_u_bih/kukic.pdf.

ومع «اتفاقية دايتون» التي استطاعت أن توقف الحرب نجد نوعًا من تراجع الصحافة المشجعة للحرب، لكن هذا التراجع لا يعني التخلي التام عن سياسات المراكز الثلاث، بل هي من حين إلى حين تظهر حتى اليوم، خاصة في «جمهورية الصرب» التي تكوّنت بناء على «اتفاقية دايتون».

وبعد سنة ٢٠٠٠ حصل تغيير في مهنة الصحافيين نتيجة لظهور عدد كبير نسبيًا من وسائل الإعلام باتجاهات مستقلة، ومن بينها وسائل الإعلام الكثيرة التي تموّل جزئيًا أو كليًا من الخارج[١].

أما عدد وسائل الإعلام الصوتية والمرئية فقد ازدادت تدريجيًا منذ سنة ١٩٩١ عندما كانت ٥ قنوات تلفزيون و٥٤ محطة إذاعة، وفي سنة ١٩٩٦، ٢٩ قناة تلفزيون و٩٢ محطة إذاعة، وفي سنة ١٩٩٧، ٥٢ قناة تلفزيون و١٥٦ محطة إذاعة، وفي سنة ٢٠٠٠، ٧١ قناة تلفزيون و٢١٠ محطات إذاعة، وفي سنة ٢٠٠٣، ٤٢ قناة تلفزيون و١٤١ محطة إذاعة، وفي سنة ٢٠٠٥، ٤٢ قناة تلفزيون و١٤١ محطة إذاعة، وفي سنة ٢٠٠٩ ٤٥ قناة تلفزيون و١٤٤ محطة إذاعة[٢].

ما هو سبب هذا الازدياد لعدد وسائل الإعلام؟ إن سبب هذه الزيادة خلال عشر سنوات في أواخر القرن الماضي يرجع إلى مجموعة من الأسباب، على رأسها سهولة تأسيسها، وخاصة إمكانية تأسيسها في ملكية خاصة، وفي النتيجة حصل انفجار بزيادة عدد الإذاعات وقنوات التلفزيون وخاصة تلك المحلية. وهذه القنوات والمحطات الكثيرة بدأت تتنافس وتتسابق مع وسائل الإعلام التي كانت تحت سيطرة النخبة السياسية، وكانت هذه المنافسة تتزايد بتشجيع من قبل الهيئات العالمية الموجودة بكثرة في البوسنة والهرسك.

واعتبارًا من نهاية الحرب في سنة ١٩٩٥ وإلى آخر سنة ٢٠٠٣، قامت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بصرف ٥٠ مليونا من الدولارات، وكذلك قام صندوق المجتمع المفتوح واللجنة الأوروبية معًا بصرف مبلغ مماثل[٣]. إن

(1) Mediji u BiH-Stanje.
(2) Mediji u BiH-Stanje.
(3) Mediji u BiH-Stanje.

عدد محطات الراديو الخاصة لسنة ٢٠٠٩ كان ٧٨ من مجموع ١٤٤، وعدد القنوات الخاصة كانت ٣٠ من مجموع ٤٥ [١].

ونظرًا لأن وسائل الإعلام تعتبر العمود الرابع للديمقراطية، وهي مؤسسة مهمة لا يمكن بدونها تحليل ما يجري في المجتمعات الحديثة، نجد أن الحرب في البوسنة لم تترك آثارًا في وسائل الإعلام فقط، بل تركت آثارًا كبيرة في مهن الإعلاميين ونفوسهم. ففي دولة منقسمة مثل البوسنة تأثرت مهنة الإعلاميين كثيرًا من تغيير ملكية وسائل الإعلام، لكن رغم ذلك معظمها لا تزال وسيلة الدعاية للحكومة ومراكز القوى الأخرى[٢].

بناءً على التقسيم السياسي والقومي في البوسنة والهرسك، تأسست ثلاث خدمات إعلامية: إذاعة وتلفزيون البوسنة والهرسك (BHRT) والتي كانت تفترض أن تكون مركزية واحدة للجميع، وإذاعة وتلفزيون جمهورية الصرب (RTRS) كوسيلة إعلامية لها، وقناة التلفزيون الفدرالي (FTV) للفدرالية المكونة من البشناق والكروات. وبسبب الصعوبات المالية والعجز التقني الذي أثر مباشرةً على جودة برامجهم، فقد تحولت هذه إلى برامج ترفيهية وإعلانات ونقل برامج الآخرين [٣].

وكانت المشاكل في يوغسلافيا السابقة بدأت مباشرة بعد موت تيتو الذي زعزع الاستقرار الذي كان في زمنه، حيث إنه لم تكن هناك قوة تنازعه؛ لأنه كان يتمتع بشعبية كبيرة في الداخل وباحترام كبير في الخارج، باعتباره من القادة المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، وأحد مؤسسي حركة عدم الانحياز. أما في الداخل فهو كان رئيس جمهورية يوغسلافيا مدى الحياة، والقائد الأعلى للقوات المسلحة، وأخيرًا رئيس الحزب الشيوعي في يوغسلافيا. وطبعًا برحيله ترك فراغًا كبيرًا كان لا بد من تعبئته، وطبعًا المشاكل تبدأ في الأماكن الحساسة

---

(1) Mediji u BiH-Stanje.

(2) Zuber,Vesna;Zuber,Ljubomir;Novinarska profesija i mediji u BiHiRS. filfak.ni.ac.rs/vesna-zuber-ljubomor-zuber.htm.

(3) Novinarska profesija i mediji.

مثل إقليم كوسوفا الذي كان ذلك المكان المناسب. وهكذا بدأ الإعلام نشاطه سواء في صربيا لغرض تغيير الوضع في كوسوفا لصالح بلغراد، أو في كرواتيا وسلوفينيا اللتين كانتا غير راضيتين على تقوية نفوذ صربيا. وهكذا فقد شرع الإعلام المدعوم من النخبة السياسية في هذه الجمهوريات في أداء دوره. وبعد حملة قوية إعلامية تمكنت صربيا من الاستيلاء على كوسوفا بالقوة، وقضت على المؤسسات الحكومية الإقليمية. وفي أول الأمر أقفلت الجريدة اليومية الوحيدة «ريلينديا»، باللغة الألبانية و«إذاعة وتلفزيون بريشتينا» التي كانت تبث برامجها باللغة الألبانية. وكما بدأت المشاكل بكوسوفا كذلك انتهت بكوسوفا بعد هجوم شرس من الجيش الصربي، الذي سبّب عشرات الآلاف من الضحايا وأرغم على الهجرة قرابة مليون شخص، الذين لاذوا بالفرار إلى مكدونيا وألبانيا.

ولذلك من المطلوب أن نبيّن وضع الإعلام في كوسوفا التي أصبحت دولة جديدة مستقلة، لكنها حتى اليوم تعاني من حملات إعلامية من قبل جارتها صربيا؛ لأنها ليست راضية باستقلالها وخروجها من سيطرتها. ومع أن «الجزيرة بلقان» تركت كوسوفا خارج إطار برامجها، حيث إن غالبية سكانها لا تفهم اللغة التي تبث «الجزيرة بلقان» بها برامجها، إلا أننا نأمل في أن تقوم القناة بتوسيع إطارها على هذه المنطقة؛ لاشتداد الحاجة إلى برامجها، ولكي تستطيع «الجزيرة بلقان» أن تنجح في مهمتها بوجه أكمل.

ووسائل الإعلام في كوسوفا تعاني من حالة هشة مالية، وكثيرًا ما تعتمد وتتأثر من قبل الحكومة ومصلحة رجال الأعمال المربوطين بالأحزاب السياسية ارتباطًا وثيقًا، وكثيرًا ما تعاني من النقص المهني. إن المنظمات التي تقوم بقياس حرية التعبير في العالم تضع كوسوفا في أدنى القائمة، وإن التقريرات الأخيرة لمنظمة «فريدوم هاوس»، خصّصت لكوسوفا المكان التاسع والتسعين في قائمتها، وتحتها مباشرة تتواجد الدول الحرة نسبيًا مثل البوسنة والهرسك ونيجيريا وبنغلاديش والصين، وفي آخر القائمة كوريا الشمالية[1].

(1) Abazi, Jeta;Situata e mediave ne Kosove. kas.de/wf/kas_3037921-1522-33-.pdf?.

وتتعرّض وسائل الإعلام في كوسوفا للصعوبات في حصول المعلومات من الحكومة ومؤسساتها العامة. وفي كوسوفا المنبع الرئيسي للمعلومات هو الإذاعات المرئية، لكن الجرائد تتمتع بمصداقية أكبر.

في سوق الإعلام في كوسوفا واحدة وعشرون قناة مرئية، وثلاثة وثمانون إذاعة، تقوم ببث برامجها عبر شبكات كابلووية باللغة الألبانية والصربية والبوسنية والتركية. وهناك واحدة عامة فقط، ألا وهي «إذاعة وتلفزيون كوسوفا» (RTK)، ولها ثلاث قنوات مرئية وإذاعتان باللغة الألبانية والصربية. أما ما يتعلق بالقنوات المرئية الخاصة التي تغطي البلد كلها فهي اثنتان (KTV) و(TV٢١)[1]. وهذه القنوات التلفزيونية الثلاث قد تأسست مباشرة بعد دخول قوات الـ «ناتو» في كوسوفا، وانسحاب الجيش الصربي منها في صيف ١٩٩٩.

ويمكن أن يقال عمومًا بأن جميع هذه الوسائل المكتوبة والصوتية والمرئية لا تؤدي واجبها المعلن، بل تراعي وجهة نظر المموّل، وهي الحكومة في حالة التلفزيون العام (RTK) وفي حالة (KTV) و(TV٢١) الخاصة، اللتان تأسستا بدعم مالي كبير من الخارج مثل الميلياردير جورج سورروش، والمنظمات المختلفة من الغرب. أما القنوات الأخرى الكابلووية فتعاني نقصًا حادًا في التمويل، وتبحث عن إمكانيات مختلفة للحصول عليها بواسطة البرامج الترفيهية والإعلانات.. الخ.

ولكن التمويل من الخارج ومن منظمات مختلفة من الغرب تسبّب في إعطاء وسائل الإعلام صورة خاطئة عن الأحداث العالمية، وخاصة قضايا الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، إرضاء لمن يمولهم، وأن هذه الصورة تنعكس حتى في نشر الأخبار والتعليقات المختلفة عن الأحداث المحلية المختلفة أيضًا. ولذلك فإن الجرائد والإذاعات الصوتية والمرئية تتسابق فيما بينها في إرضاء الأسياد لكي تحصل نصيبًا أكبر من الدعم.

---

(1) Situata e mediave ne Kosove.

في هذه البيئة الإعلامية ابتدأت «الجزيرة بلقان» مهمتها الإعلامية، وهي قناة التلفزيون الأولى من الخارج التي تعمل في هذه المنطقة. ولا بد أن صاحب قرار هذه الخطوة يتمتع بشجاعة لكي يقرر أن يعمل في هذه البيئة المشتتة إعلاميًا، حيث إن مشاهدي التلفزيون لم يتعودوا متابعة أخبار وتقارير محايدة ومستقلة، حيث يعتبرون من الطبيعي أن تكون منحازة إلى قوميتهم وحكومتهم، فمن النادر جدًا أن تجد مشاهدًا مثلًا صربيًا يتابع الأخبار من تلفزيون كرواتي أو العكس، مع أنهم يفهمون لغة بعضهم بعضًا تمام الفهم، باستثناء برامج الترفيه مثل الأغاني الشعبية الجديدة التي يحبها عامة الناس في كل المناطق.

إن «الجزيرة بلقان» هي الوحيدة التي لها مشاهدون في جميع الدول يفهمون لغات البث، مثل البوسنة والهرسك وصربيا وكرواتيا والجبل الأسود، ونادرًا أن تجد مشاهدًا للجزيرة بلقان في كوسوفا، حيث إن الشركات الكابلوية تنقلها وتنقل الجزيرة باللغة الإنجليزية التي لها مشاهدون أكثر من الأولى؛ لأن هذه اللغة أكثر انتشارًا، وكذلك هو الحال في مكدونيا وسلوفينيا.

وحتى الآن لا يزال عدد مشاهدي «الجزيرة بلقان» محدودًا، لكنه في ازدياد تدريجي مستمر. أما فئة المشاهدين فهي من المثقفين ومن الناس الذين رأوا العالم، وبقدرتهم أن يقدّروا برامج الجزيرة، ومن الناس المهتمين بالأخبار الموضوعية والمحايدة عن الأحداث في العالم والأحداث في المنطقة، حيث إن «الجزيرة بلقان» تنقل الأخبار والتقارير من جميع مناطق هذه الساحة، وهو ما ليس معتادًا لدى القنوات الأخرى، التي أصبحت معروفة بكونها تهمل أو تحرّف بعد الأحداث في المنطقة. فإذا أردت أن تعرف ما يحدث في المنطقة تمامًا فعليك أن تتابع أخبار «الجزيرة بلقان».

ومن المهم هنا أن نسرد آراء بعض رجال الإعلام عن «الجزيرة بلقان».

يقول درازين سيميتش من سرايبفو: إن البلقان قد حصل لأول مـرة على قناة إقليمية للأخبار؛ لأن انهيار يوغسلافيا السابقة لم يتسبب في نشوء سبع دول جديدة فقط، بل حدّ من المساحة الإعلامية داخل الحدود الوطنية لكل دولة. فعلى الرغم من أنه فيما بين كرواتيا والبوسنة والهرسك وصربيا والجبل الأسود

لا توجد عوائق لغوية، نجد أن المساحة الإعلامية لا تزال مغلقة داخل حدود تلك الدول[1].

أما مدير قسم الأخبار «للجزيرة بلقان» غوران ميليتش، فيقول: إن «الجزيرة بلقان» ليس مركزًا وطنيًا للإعلام كما هو الحال لدى القنوات التلفزيونية الأخرى في هذا الإقليم، والتي عندما يشتغلون حتى في مواضيع إقليمية يقدمون ذلك من زاوية وجهة نظر دولها. فسراييفو هي مركزنا الرئيسي التقني، بسبب شعور الصداقة نحو هذا المشروع، ولأن الأسعار هنا أرخص مقارنة بأسعار المناطق الأخرى في هذا الإقليم. ومن حيث تركيب الطاقم الذي يحرّر وينتج البرامج فهو مركب من كل الجنسيات، والذين اشتغلوا سابقًا في القنوات الصربية والكرواتية والبوسنية، والفرق الأساسي بيننا وبين القنوات التلفزيونية لهذه المناطق، هو أننا عندما نشتغل على قصة ما، لا نقدمها من زاوية وجهة نظر صربيا أو كرواتيا أو البوسنة والهرسك، بل نحاول تقديمها من جميع الزوايا[2].

ويقول الناقد التلفزيوني البوسني أزهر كالامويتش: إن مجيء «الجزيرة بلقان» قبل كل شيء يعني إدخال معايير مهنية عالية جديدة في الإعـلام البوسني، وكذلك في الإعلام الإقليمي كله[3].

أما مراسلة راديو أوروبا الحرة (RFE) من بانيا لوكا عاصمة «جمهورية الصرب»، فترى كذلك أن «الجزيرة بلقان» سوف تزيد المنافسة في مجال الإعلام في البوسنة والهرسك، وينتظر منها أن تؤثر إيجابيًا في رفع مستوى المعايير المهنية لدى الإعلام المحلي[4].

وتقول الناقدة التلفزيونية الكرواتية زرينكا باوْليتش: إنه على الرغم من القول إن برامج «الجزيرة» تتبع نهجًا جديدًا تمامًا للأخبار، فقد تبيّن بعد اليوم الأول من بث «الجزيرة بلقان» أنه لا يجري الكلام عن أيّ شيء ثوري، بل

(1) Simic,Drazen; Aljezeera na Balkanu :www.balcanicaucasio.org-Sarajevo.22.11.2011.
(2) Aljezeera na Bakanu.
(3) Aljezeera na Balkanu.
(4) Aljazeera na Balkanu.

عن برامج إخبارية منتجة بجودة عالية ومهنية جدًا، وهو ما يذكرنا بـ(CNN) العالمية في أيامها الذهبية قبل تحوّلها إلى برامج ملونة أيديولوجيًا مع صحافيين من كبار النجوم. حيث إنه داخل الإطار الإعلامي في هذا الإقليم، ينقص مثل هذا النوع من الإقبال المهني والجودة والإنتاج لبرامج الأخبار التي لا مثيل لها في هذا الإقليم[1].

أما الصحفي الألباني الكوسوفي المعروف نهاد إسلامي، الذي كان مراسلًا في بيروت خلال سبعينيات القرن الماضي لعدة وسائل إعلامية في يوغسلافيا السابقة، فقال في حديث أجريته معه إن «الجزيرة بلقان» تركز في متابعة الأخبار والأحداث على البوسنة والهرسك وكرواتيا وصربيا، وتنقل الأخبار عما يحدث ويجري في كوسوفا وألبانيا ومكدونيا، أي المناطق التي بقيت خارج إطار لغة البث. وهو يتمنى أن تقوم «الجزيرة بلقان» بتوسيع الإطار اللغوي، وخاصة باللغة الألبانية الواسعة الانتشار في منطقة البلقان، والتي يستعملها أكثر من ثمانية مليون شخص في هذا الإقليم، كما وأن هذه المناطق بحاجة ماسة للقنوات التلفزيونية الجديدة والمحايدة، التي لا تتأثر بمراكز القوى السياسية والمالية، والتي تتمتع طبعًا بالجودة العالية مثل «الجزيرة بلقان»[2].

إن من أهداف «الجزيرة بلقان» تغطية الأحداث بلغات منطقة البلقان لتشكل جسرًا معرفيًا بين العالم وسكان المنطقة[3]. ولكن هذا الهدف لم يكتمل، حيث إن الجزء الذي تغطيه «الجزيرة بلقان» لغويًا لا يشمل سكان منطقة البلقان، ولا حتى سكان يوغسلافيا السابقة، بل ثلثيها فقط، وإن اللغات التي تشمل برامج «الجزيرة بلقان» كانت في يوغسلافيا السابقة تعتبر رسميًا لغة واحدة، وكانت تسمى اللغة الصربو-كرواتية، أما اليوم فأصبحت أربع لغات: اللغة الصربية والكرواتية والبوسنية والمونتنيغرية. وبهذا يبقى خارج الإطار اللغوي سكان منطقة البلقان الذين يتكلمون باللغة الألبانية، التي تختلف تمامًا

---

(1) Pavlić,Zrinka:Aljazeera Balkans osvježenje u regionu;portal.hr.

(٢) مقابلة شخصية أجريت في بريشتينا بتاريخ ٢٠١٤,٠٩,٠٧

(3) ar.m.wikipedia.org.

عن اللغات المذكورة، ويتكلم بهذه اللغة حوالى ثمانية مليون نسمة في منطقة البلقان، وسكان مكدونيا الذين يتكلمون باللغة المكدونية وهم في مناطق البلقان حوالى مليونين، وسكان سلوفينيا الذين يتكلمون اللغة السلوفينية وهم حوالى مليونين كذلك.

إن هذه المجموعة الكبيرة تُركت خارج إمكانية متابعة «الجزيرة بلقان»، لسبب عدم فهم لغة بثها كليًا مثل الألبان، أو جزئيًا مثل المكدونيين والسلوفينيين.

وما عدا سلوفينيا فحالة الإعلام في هذه المناطق سيّئة جدًا من ناحية الإمكانيات المالية والتقنية والمستوى المهني للصحافيين. ولكن سكان هذه المناطق لديهم حساسية كبيرة عندما يتعلق الأمر بالهيمنة اللغوية من إحدى اللغات والمساواة بين لغات المنطقة. وكانت يوغسلافيا السابقة تراعي هذا المبدأ بدقة، حيث إنه في جميع المؤسسات الفدرالية كانت لغات شعوب يوغسلافيا متساوية، وكلها كانت رسمية. من هذا لا يجب أن نفهم أن «الجزيرة بلقان» يجب أن تعمل وفقًا لذلك، لأن ذلك المبدأ في يوغسلافيا السابقة كان لأغراض سياسية، لكنه يُنتظر منها أن تقوم بما أعلنت عن نفسها بأنها لكل البلقان، وأن تراعي حاجة جميع سكان المنطقة لوسيلة إعلام مستقلة وحيادية وموضوعية، ذات كفاءة مهنية وتقنية توسّع معارف سكانها عمّا يحدث في العالم والمنطقة.

إن تجربة «الجزيرة بلقان» لهذه السنوات تبيّن أنها في الطريق الصحيح لتحقيق أهدافها لخدمة مشاهدي هذه المنطقة ليكونوا في حالة طبيعية، ومساعدتهم في تطبيع العلاقات فيما بينهم. وإن هذه التجربة الإيجابية ستشجع الجزيرة الأم على العمل في توسيع الإطار اللغوي، حيث إن ذلك سيمكّنها من أن تؤدي الخدمة المقصودة بوجه أكمل في هذه المنطقة المشتتة إعلاميًا وعرقيًا ودينيًا ولغويًا، والتي مرّت بظروف تاريخية متشابهة ومشتركة.

إن توسيع المجال اللغوي سيساعد «الجزيرة بلقان» في تحقيق وعودها التي أطلقتها بمناسبة انطلاقتها، ويساعدها على تجنّب الوقوع في فخ اللغة الواحدة الذي يبعدها عن رسالة الجزيرة الأم. وهكذا يلاحظ الآن في برامجها التوسّع إلى حد الإغراق في التفاصيل في مجال لغوي واحد، على حين أنه

تهمش الأحداث التي تتعلق بمجالات لغوية أخرى، كما إن بعض البرامج والمسلسلات تبث الحنين إلى يوغسلافيا السابقة.

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن «الجزيرة بلقان» يتهددها خطر التحول إلى قناة محلية، أو العمل بما تقوم به القنوات المحلية الموجودة التي تكتفي بالإكثار من البرامج والمسلسلات الجاهزة، مع ترجمتها بشكل مكتوب في أسفل الشاشة وليس بشكل ناطق، مما يقلل من عدد الشاهدين والمتابعين لها.

وفي هذا السياق نذكّر أخيرًا بما ورد في تغطية قناة الجزيرة الأم لانطلاقة «الجزيرة بلقان» في يوم ١١/١١/٢٠١١، حيث ورد أنها ستبث في لغات البلقان، وأنها ستشمل ٣٥ مليون مشاهد[1]. ونحن نتمنى الآن، مع هذه الورقة وهذه الندوة، أن يأتي قريبًا هذا اليوم الذي تحقّق فيه «الجزيرة بلقان» طموح الجزيرة الأم.

(١) محمد م.الأرناؤوط، من «يوغسلافيا الجزيرة إلى يوغوآلبانيا»، جريدة «الحياة» ٢٥/١٠/٢٠١٣.

الربيع العربي في الصحافة اليونانية

شادي الأيوبي[1]

تمهيد

شأن الإعلام الغربي، شكّل الربيع العربي مفاجأة من النوع الثقيل للإعلام اليوناني، حيث إن الصورة التقليدية عن العرب في الإعلام اليوناني هي أنهم شعوب مغلوبة على أمرها، تحكمها أنظمة شمولية وهم راضخون قانعون بالظلم والفقر، وبالتالي فليس من المتوقع أن يثوروا بهذا الشكل الجماعي.

وقد ساد نوع من الترحيب الحذر ابتداءً بهذه التحركات من منطلق أنها تُحدث تغييرًا يوصل إلى الديمقراطية وحرية الشعوب، كما تمّ التعامل بواقعية مع وصول حركات إسلامية إلى الحكم، لكن الحركة الفكرية والإعلامية في اليونان تناغمت مع الحركة الغربية في البدء بحملة التخويف والتشكيك في الربيع العربي ونتائجه، منذ ظهور اتجاه الشارع العربي لإيصال الإسلاميين إلى الحكم.

ثم انقلبت الأمور بشكل واضح مع الانتفاضة التي قامت في سوريا، وبالتحديد مع اتجاهها إلى العمل المسلح، وتفاقمت أكثر مع ظهور الجماعات الجهادية في سوريا وبلاد أخرى مثل ليبيا وتونس. وهنا برز دور الإعلام اليوناني ذي التوجهات اليسارية والقومية، الذي شكّك منذ البداية في الثورة السورية

---

(١) صحافي وباحث لبناني في الشؤون اليونانية، أثينا.

والربيع العربي عمومًا. وكان هذا الإعلام قد هاجم بشدة العمليات الحربية التي قام بها الغربيون ضد نظام القـذافي معـتبرًا أنها نوع جديد من الهيمنة الإمبريالية والاستعمار الغربي.

ويمكن الحديث في هذا المجال عن خصوصية يونانية في منطقة الشرق الأوسط، حيث إن لليونان مصالح سياسية واقتصادية ودينية أكثر من دول غربية أخرى. فاليونان كانت لديها جاليات يونانية كبيرة في المنطقة، ولو تقلصت مؤخرًا. ولا تزال لديها مئات الشركات مختلفة الأحجام التي تعمل خاصة في منطقة الخليج، كما إنها تدير مباشرة وبشكل غير مباشر، عشرات الكنائس والأديرة الأرثوذوكسية في العالم العربي، وتتبع لها بطريركيات القدس والإسكندرية وأنطاكية. وجدير بالذكر أن النقاط المذكورة آنفًا تعدّ من محددات السياسة الخارجية اليونانية تجاه العالم العربي.

بل إن ثمة نزعة يونانية -إعلامية وشعبية- تنحو لاعتبار أن كل أرثوذوكسي في منطقة الشام الكبرى هو يوناني في النهاية. وتأخذ اليونان الرسمية هذه النظرة بعين الاعتبار، وإن كانت لا تتبناها رسميًا. وهكذا يعتبر الإعلام اليوناني -بدرجات متفاوتة- أن مسيحيي سوريا ولبنان وفلسطين مثلًا هم يونانيون، وأن ما يجري لهم يخص اليونان بشكل مباشر.

وبعد الإطاحة بالرئيس المصري المنتخب محمد مرسي وتطور الأمور في سوريا إلى حرب طويلة الأمد، وظهور بوادر صراع سني- شيعي في المنطقة، بدأ الإعلام اليوناني حملة تخويف من الحركات الإسلامية السنية، وتصويرها على أنها الخطر القادم على المنطقة العربية وعلى أوروبا. في المقابل، تمّ إغفال دور الحركات الشيعية التي تساند النظام السوري بشكل كبير، رغم امتداد نشاطات بعضها -مثل حزب الله- إلى أوروبا.

على الصعيد الداخلي، تسود مخاوف يونانية -يعززها الإعـلام- بأن البلد مستهدفة في معظم الأحيان، حيث إنه من المعروف أن اليونان تشكل ممرًا للعابرين إلى أوروبا سواء عبر حدودها البرية أو البحرية. وتروّج وسائل إعلام يونانية لمرور جهاديين عبر الأراضي اليونانية من أوروبا باتجاه سوريا أو العكس، كما تروّج أحيانا لبقائهم في البلد لفترات ما.

ثمّ تحوّل الحديث عن الربيع العربي في وسائل الإعلام اليوناني إلى الحديث عن خريف إسلامي، يهدّد المسيحيين والأقليات والمرأة، ويهدد بإرجاع المنطقة سنوات طويلة إلى الوراء.

ويُلاحظ هنا أن الإعلام اليوناني يتناغم مع السياسة الخارجية والمصالح اليونانية بشكل تلقائي، بحيث إن لديه مواقف مسبقة من معظم الأحداث التي تجري في مناطق مثل الشرق الأوسط والبلقان والقوقاز، وتنبع هذه المواقف من مصالح البلد والخلفيات التاريخية لكل حدث.

وقد تناغمت وسائل الإعلام اليونانية مع السياسة الخارجية لليونان، التي كانت من أكثر الدول الأوروبية تقبّلًا للإطاحة بالرئيس المصري المنتخب محمد مرسي. فقد كانت اليونان الدولة الأوروبية الوحيدة التي استقبلت الرئيس المعين عدلي منصور، ويبدو أنها سعت لإقناع شركائها الأوروبيين بالتغاضي عما جرى في مصر. وقد وقّع البلدان اتفاقيات بشأن الغاز في المياه الدولية بين البلدين. وهكذا تحدّث الإعلام اليوناني عن مرحلة انتقالية في مصر، ولم يتحدث عن انقلاب عسكري، كما فعـل مع حالات مماثلة مثل تايلاند، التي حدث فيها انقلاب عسكري في الفترة نفسها.

إن واقع الحال ومنطق الأمور يقول إن الصحافة اليونانية يجب أن تختلف عن سائر الصحافة الغربية، ولا تنساق وراء القوالب الجاهزة في قضايا المسلمين والعرب، وذلك بسبب وجود خصوصيات في علاقة اليونان مع دول العالم العربي ليست لدولة غربية أخرى.

- فاليونان قريبة جغرافيًا وتاريخيًا إلى العالم العربي، وقد كانت لها علاقات قديمة معه. بكلام آخر، اليونانيون يعرفون العرب وعاشوا معهم بأعداد كبيرة منذ مئات السنين.
- لم يكن بين اليونان والدول العربية تاريخ استعماري أو خلافات حادة في العصر الحديث، مثل دول أوروبية أخرى، وعلى العكس من ذلك

لجأت الحكومات اليونانية إلى البلاد العربية أيام الحرب العالمية الثانية لترتيب مقاومتها ضد النازية.

- لأثينا جاليات في العالم العربي كانت فعّالة حتى وقت قريب. وقد كان للجالية اليونانية في مصر والسودان دور كبير في دعم اقتصاد اليونان في الفترات الحرجة خلال القرن الماضي.

- اليونان لها ٤ بطريركيات تابعة لها في العالم العربي والإسلامي إضافة إلى كنائس وأديرة وأوقاف.

- اليونان لديها أقلية مسلمة في شمال البلاد، تبلغ حوالى ١٥٠-٢٠٠ ألف شخص، وهذا ما يفرض أدبيًا على الإعلام احترام مواطنيه المسلمين وعدم التعرّض لديانتهم بسوء.

- إضافة إلى ما سبق، لليونان مئات الشركات مختلفة الأحجام، وآلاف العاملين في دول العالم العربي منذ سبعينيات القرن الماضي في مجالات مختلفة، كما إن لها تجارة ومصالح اقتصادية مهمة مع العالم العربي.

- بعد الأزمة الاقتصادية الأخيرة وانعدام الأعمال في اليونان، تشكل دول الخليج العربي هدفًا مهمًا للشباب اليوناني في سعيه لإيجاد عمل مناسب براتب مجزٍ.

- اليونان كانت تلجأ إلى الدول العربية وتتبادل معها الخدمات في قضايا تهمها، مثل دعم اليونان للقضية الفلسطينية مقابل دعم الأنظمة العربية لها في قضية قبرص. وقد كانت هناك محاولات عربية كثيرة لدعم الاقتصاد اليوناني، خاصة في ثمانينيات القرن الماضي، مع مساعدة اليونان في إجلاء مقاتلي منظمة التحرير من بيروت عام ١٩٨٢. كما أن التأييد اليوناني في تلك الفترة للقضية الفلسطينية - شعبيًا ورسميًا- كان غير محدود.

رغم العوامل آنفة الذكر، لا يعير الإعلام اليوناني أي انتباه لهذه المسائل ولا يراعي هذه الخصوصيات، حيث إنه كثيرًا ما يتبنى وينشر تقارير مسيئة للعرب والمسلمين، دون أن يكلف نفسه عناء استقصاء مدى دقة المعلومات التي يوردها. وهذا الأمر أدى إلى تفاقم الإسلاموفوبيا والخوف من الأجانب بشكل كبير في اليونان خلال السنوات الأخيرة.

قبل الدخول في تغطية الإعلام اليونانية للربيع العربي، نرى أنه من الضرورة بمكان أن نسلّط الأضواء على تصنيفات الصحافة اليونانية وطريقة عملها لارتباط هذه التفاصيل مباشرة بالموضوع.

١ - التصنيف المهني للصحافة اليونانية

يمكن وضع خطوط عامة لتصنيف الصحافة اليونانية إلى ثلاث فئات: صحافة جادة، صحافة متوسطة القدرات، وصحافة شعبوية أو قومية متطرفة.

الصحف الجادة: تنتشر وتتابع في جميع أنحاء اليونان، ولديها كتّاب وصحفيون محترفون. تحتفظ بقدر من الموضوعية في تناولها لقضايا العرب والمسلمين. كما إن لديها القدرة على إرسال مراسلين لها إلى مناطق الأحداث والصراعات.

- الصحف والمواقع متوسطة القدرات: أقل انتشارًا ومهنية من الفئة الأولى. تقع في الكثير من الأخطاء تجاه العرب والمسلمين.
- الصحف الشعبوية: وهي معدومة المهنية، تتابعها فئات واسعة من اليونانيين مثل كبار السن والشباب، أو القوميين والمتدينين. وهذه الصحافة تختلق أكاذيب عن المسلمين وتنشرها دون أي رادع. تنبع خطورة الأخبار المستقاة من المواقع الشعبوية في أنها يعاد نشرها عشرات أو مئات المرات في مواقع محلية ومواقع شخصية وغيرها. جدير بالذكر أنه من النادر أن تتراجع أي صحيفة أو موقع إخباري عن أي خطأٍ أو سهوٍ قام به بحق المسلمين.

بشكل عام، هناك مستوى أفضل من التعامل من طرف الصحافة الجادة مع قضايا العرب والمسلمين. لكن في أحيان كثيرة، تضيع الخطوط الفاصلة بين هذه الفئات وتقع الصحافة الجادة في أخطاء قاتلة أحيانًا. (صحيفة يونانية على مستوى اليونان نشرت إشاعة تزويج طفلات في الخامسة والسادسة من أعمارهن[1] في غزة، على خلفية نشر صورة تظهر فيها تلك الطفلات مرافقات للعرسان)[2]. ولا مشكلة لدى الصحفيين اليونانيين أنفسهم في أي زعمٍ تجاه العرب أو المسلمين ولا حساب عليهم من مؤسساتهم.

الصحافة اليونانية غالبًا ما تنقل الأخبار من وكالات الأنباء العالمية دون تحقق، حيث يتحول الصحفي إلى مجرد مترجم للأخبار. كذلك فالعارفون الخبراء بالأمور لا تظهرهم الصحافة اليونانية؛ لأن تحليلاتهم غالبًا ما تكون بعيدةً عن الخط العام الذي تتبعه. كما تعتمد على الأخبار دون التحليل؛ لأنها تعتبر أن التحليل يدخلها في معمعة الوقوف مع طرف في وجه طرف آخر (مثال القضية الفلسطينية). وبالتأكيد، يلعب مالك القناة دورًا مهمًا في تحديد سياسات التحرير المعتمدة في المؤسسة.

وإذا بحثنا في موضوعات المرأة في الإعلام اليوناني نجدها غربية تقليدية، حيث توصم دائما بالضعف والاستعباد من المجتمع. وزاد الأمر سوءًا انتشار قصص لنساء يونانيات تزوجن من عرب وعشن مأساة معهم. كما يتم تصوير الأقليات غير المسلمة على أنها مستضعفة ومغلوبة على أمرها من قبل الأغلبية السنّية. ويتم كذلك تصويرها أنها متحررة فكريًا ودينيًا، وأقرب إلى اليونانيين من السنّة الذين يميل الإعلام اليوناني لوصفهم بالتشدد والراديكالية.

لا بد من الإشارة كذلك إلى أن جهود إسرائيل خلال السنوات الماضية للتقرب من الإعلاميين والأكاديميين اليونانيين لم تتوقف لحظة، وهي جهود

---

(١) الخبر منشور على هذا الرابط
http://adesmeytos-typos.blogspot.gr/2010_03_01_archive.html.

(٢) هذا الادعاء ردت عليه جهات كثيرة، ونشرت صحيفة اليفثيروتيبيا في ملحقها ردًا مفصلًا عليه.
http://www.iospress.gr/ios2010/ios20100321.htm.

جبارة من الصعب مقاومتها، خاصة مع موجة التقارب اليوناني-الإسرائيلي التي بدأت منذ صيف ٢٠١٠. وهي تدفع في اتجاه كيل الاتهامات للمسلمين والعرب بشتى القضايا ووصمهم بالتخلف والتشدد.

٢- الصحافة اليونانية بين اليسار واليمين

رغم أن المشهور عالميًا أن اليسار الغربي أقرب للعرب والمسلمين، فإن الصحافة اليونانية - يسارية ويمينية - تقع في نقاط سوء فهم وقوالب جاهزة، شأنها شأن الصحافة الغربية عمومًا. وكثيرًا ما تتفق الصحافة اليمينية اليسارية على اتهام المسلمين بعمل ما مع الاختلاف بشأن توصيفه.

ففي مثال أحداث ١١ سبتمبر كانت الصحف اليمينية تتهم مسلمين بارتكابها كإرهابيين ومجرمين، فيما كانت تلميحات صحف يسارية متطرفة إلى أن مسلمين قاموا بها كمناضلين ضد الإمبريالية. الخلاصة أن الجهتين اتفقتا على أن الفاعلين مسلمون، ولكن اختلفتا بشأن الدوافع وتوصيف العمل.

كذلك تنشر الصحف اليسارية كثيرًا من الأحيان تقارير تهاجم الإسلام، وتتيح المجال لكتّاب يساريين أو كاتبات نسويات لمهاجمة الحجاب والنقاب والعادات الإسلامية المختلفة[١]. بل إن الكاتبات النسويات في الصحف اليسارية أشد شراسة في الهجوم على الإسلام.

٣- الصحافة اليونانية بين العرب والإسلام

هناك استعداد لدى الصحافة اليونانية للتعامل أو القبول بالعرب أكثر من الإسلام. فالعرب جيران لليونان ولا مشكلة في القبول بهم، خاصة مع المصالح اليونانية الكبرى في البلاد العربية. لكن مع ذكر الإسلام يتم استحضار ذكريات التاريخ والصراع الإسلامي البيزنطي، والفتوحات الإسلامية التي قضت على الدولة البيزنطية[٢]. كما تنشر أحيانا مقالات عن قضاء العرب المسلمين على

---

(١) انظر مقال كيزا لوري بعنوان: النقاب غطاء كراهية، في صحيفة توفيما اليسارية.

(2) http://www.tovima.gr/opinions/article/?aid=473556.

يعتبر اليونانيون أنفسهم ورثة الدولة البيزنطية وحاملي إرثها الحضاري في العالم المعاصر.

الدولة والحضارة الفارسيتين[١]، إضافة إلى إرث طويل من الكراهية تجاه الجارة تركيا وريثة العثمانيين.

وبناءً على ذلك، فالصحافة اليونانية لها موقف شبه جاهز من أي حدث في المنطقة، بناءً على الخلفية التاريخية والتحالفات التي عقدتها اليونان في تاريخها الحديث والتوافق في المذهب والقومية. ففي القضية الأوكرانية، على سبيل المثال، انحاز الإعلام اليوناني منذ البدايات إلى الموقف الروسي وتشكك في الموقف الأوكراني وموقف مسلمي القرم، الذين اتهمهم بالتعامل مع النازية خلال فترة الحرب العالمية الثانية[٢].

٤- أشهر الصحف والمواقع اليونانية واتجاهاتها

كاثيميريني[٣]: صدرت عام ١٩١٩، في بداياتها كانت صحيفة الطبقات البرجوازية وتعتبر صحيفة يمين الوسط في اليونان، ولها تأثير في الأوساط الليبرالية. يكتب فيها كبار الكتّاب والصحفيين اليونانيين. تضم آراء لكتّاب يساريين وسطيين. دعمت ديكتاتورية ميتاكساس وديكتاتورية العقداء عام ١٩٦٧ [٤]. تبيع أيام الآحاد ١٤٠,٧٦١ عددًا.

تو فيما[٥]: صدرت عام ١٩٢٢ على أيدي مجموعة من الصحفيين، وهي تحسب على يسار الوسط. مقرّبة من الحزب الاشتراكي «باسوك» وموالية للحكومة الحالية. منذ ٢٠١٠ توقفت نسختها الورقية خلال أيام الأسبوع وتحولت إلى نسخة إلكترونية. تصدر نسخة ورقية أيام السبت والأحد.

---

(١) رغم الحروب التي قامت قديمًا بين اليونانيين والفرس قبل الميلاد، يميل اليونانيون إلى تقبل الحضارة الفارسية والاعتراف بها أكثر من الحضارة العربية الإسلامية.

(٢) للمزيد من التفاصيل: شادي الأيوبي، ملامح تعامل الإعلام اليوناني مع الأزمة في أوكرانيا، موقع الأمة.

http://www.al-omah.com/reports-and-investigations/item/62146 - 2014 - 08 - 18 - 13 -14 - 40.

(3) http://www.kathimerini.gr/.

(4) http://www.istorikathemata.com/200910//blog-post_31.html.

(5) http://www.tovima.gr/.

صحيفة «تانيا»[1]: صدرت عام ١٩٣١. أول صحيفة من حيث الانتشار. تنتمي سياسيًا إلى يسار الوسط وتؤيد الحكومة اليونانية واتفاقية الدين. تصدر مع صحيفة «توفيما» عن مؤسسة لابراكيس.

اليفثيروتيبيا[2]: صدرت منذ ١٩٧٥ وكانت أول صحيفة صدرت بعد سقوط الديكتاتورية. صحيفة يسارية غير موالية تمامًا لحكومات اليسار. نشرت أوائل التسعينيات بيانات لمنظمات إرهابية تتبع لليسار المتطرف، الأمر الذي كان ممنوعًا، ما أوقعها في مشكلات مع الحكومة اليمينية آنذاك. كانت معارضة لاتفاقية الدين وقد تعرضت مؤخرًا لأزمة مالية كبيرة، أدت إلى إقفالها فترة طويلة ثم أعيد افتتاحها بطاقم مختصر إلى حدّ كبير. ويبدو أن سياستها التحريرية الحالية اختلفت جذريًا بحيث لم تعد معارضة بقوة للسلطات.

موقع إن جي آر[3]: يتبع مؤسسة «لابراكيس» التي تصدر صحيفتي «توفيما» و«تانيا»، وله شعبية واسعة في اليونان.

موقع ديفنيس نت[4]: من أشهر المواقع القومية الشعبوية المتعصبة. ذو طابع متشدد ويُعنى بالشؤون العسكرية، إضافة إلى مسائل أخرى. مدافع ومروّج لفكر الحزب النازي «الفجر الذهبي». يتبنى سياسة غاية في التطرف والحقد على الإسلام والمهاجرين الأجانب في اليونان. له متابعون كثيرون بسبب الشعبية التي اكتسبها اليمين المتطرف مؤخرًا بعد الأزمة الاقتصادية. كثيرًا ما يلفق أخبارًا عن الإسلام والمسلمين بالغة في الإساءة والافتراء.

الربيع العربي في الصحافة اليونانية

مرت تغطية الربيع العربي في الصحافة اليونانية بثلاث مراحل أساسية: الترحيب الحذر، التشكيك، ثم الإنكار والتجريم. والمراحل الثلاث متداخلة

---

(1) www.tanea.gr
(2) www.enet.gr
(3) www.in.gr
(4) http://www.defencenet.gr/defence/index.php

فيما بينها، بحيث يمكن أن نجد عناوين صحفية تستبق مرحلتها باتجاه المرحلة التالية.

المرحلة الأولى: الترحيب الحذر مع الجهل بطبيعة الأحداث

في تماشٍ مع الموقف الرسمي للدول الأوروبية، تطور موقف الإعلام اليوناني من الربيع العربي من الترحيب الحذر إلى التشكيك ثم الإنكار والهجوم.

فالربيع العربي كان محيّرًا في بداياته، ولم يكن ثمة تعامل واضح معه من طرف الإعلام اليوناني أو الغربي عمومًا، بمعنى أنه لم يكن هناك موقف مسبق منه، كما سبق أن شرحنا، بناء على معطيات التاريخ والقومية والدين.

كانت صورة الربيع العربي غامضة بالنسبة للإعلام اليوناني، وكان الحذر والترقب يسودان الموقف. لكن مع الوقت صدرت علامات ترحيب حذرة بانتقال الشعوب نحو تقرير مصيرها وانتخاب أنظمة ديمقراطية. لقد كان لا بد من التماشي مع الأحداث ومجاراتها. ولما ظهر أن نظام بن علي سقط ولن يعود، وظهرت ثورات أخرى مصممة على النجاح، بدأ الترحيب الحذر والإعجاب المتخوف بهذه الانتفاضة الشعبية، خاصة أنه لم يظهر لها أي لون سياسي أو أيديولوجي[1]. ولعل ظهور المجموعات الشبابية والنشطاء الشباب غير المسيّسين، الذين يتبعون التقنيات الحديثة وشبكات التواصل الاجتماعي في العمل والتجمع، كان من الأمور التي بعثت الطمأنينة في الإعلام الغربي والرأي العام الغربي عمومًا.

في هذه المرحلة كان هناك نوع من الإنكار لمشاركة الإسلاميين أصلا في حركات الربيع العربي، خاصة أنهم لم يبرزوا كقوة مشاركة في صناعته. وتمّ تصويره على أنه حركة شعبية مدنية لا هوية سياسية أو أيديولوجية لها، ولا مطلب لها إلا الحرية والوصول إلى حكم ديمقراطي. ولعل هذا ما سهّل فيما بعد توجيه الاتهامات للحركات الإسلامية بأنها ركبت الموجة وقطفت الثمرة،

---

(١) شادي الأيوبي، اليونان وأبعاد الدعوة لرحيل الأسد، سكاي نيوز العربية:
http://www.skynewsarabia.com/web/article/44828

بسبب تنظيمها وانعدام خبرة شباب الثورات. كما كان هناك اهتمام أكاديمي بالربيع العربي وإسهام شبكات التواصل الاجتماعي فيه[١].

حفلت هذه المرحلة بالكثير من الكلام عن ساحة التحرير في مصر أو اليمن، والشباب الذين يقودون الثورة وتحديهم للسلطات. وكان لكلمة «ساحة التحرير» سحرٌ خاص؛ لأنها صارت ترمز إلى التحدي والإصرار مقابل عنف السلطات. وأسهمت المقالات التي كتبها نشطاء يونانيون زاروا الساحة في تلك الفترة في هذا الجانب[٢]. كما أقيمت معارض صور في اليونان عن صمود النشطاء في الساحات والشوارع أمام قوات الأمن[٣]. وكان أول معرض عن ثورة مصر في المركز الثقافي الأمريكي في أثينا.

على الصعيد الشعبي، ألهمت حركة الربيع العربي والطريقة التي تجمّع بها الشباب في ساحة التحرير وغيرها، ألهمت ما عرف فيما بعد في اليونان بـ«حركة الساخطين»، وهم مجموعات واسعة من المواطنين اليونانيين الذين تجمعوا فترات من الزمان أمام البرلمان اليوناني؛ احتجاجًا على عمليات التقشف التي شهدتها البلد[٤].

كما كانت هناك تفسيرات جانبية ومجتزأة لحركة الاحتجاجات. فقد فهم قسم من الرأي العام اليوناني- والغربي كما هو واضح- أن النساء المشاركات في الربيع العربي، قمن بثورة نسائية، وأن العملية لم تكن ثورة شعبية وعملًا سياسيًا ضد أنظمة فاسدة بهدف تغييرها.

---

(١) مشروع تخرج جامعي في جامعة قبرص بعنوان «دور شبكات التواصل الاجتماعي في الربيع العربي»:

https://www.academia.edu/2489881

(٢) تكريم نشطاء الربيع العربي بجائزة زاخاروف، موقع نيوزبومب، ٢٧/ ١٠/ ٢٠١١.

http://www.newsbomb.gr/diethnh/story/88200/timoyn-thn-arabikh-anoixh

(٣) للمزيد: شادي الأيوبي، معرض يوناني عن الثورة المصرية، الجزيرة نت، ١٦/ ٦/ ٢٠١١:

http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603 - 4dff-

(٤) شادي الأيوبي، الساخطون في اليونان لن يذهبوا حتى تحقيق المطالب، الحياة، ٢٥/ ٧/ ٢٠١١:

http://daharchives.alhayat.com/issue_archive/Hayat%20INT/201125/7/

وقد اهتم الإعلام اليوناني بالمساعدات التي وعد الاتحاد الأوروبي بتقديمها لدول الربيع العربي، مقابل الاستقرار وعدم الانجرار إلى العنف[١].

حاولت بعض وسائل الإعلام اليوناني ربط حركة الربيع العربي بتركيا[٢]، مستشهدة بالزيارة التي قام بها آنذاك رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان لبعض دول الربيع العربي وأخبار مماثلة[٣]. وفي مرحلة لاحقة بشرت بربيع تركي مماثل، وذلك مع بدء الاحتجاجات التي عرفت باحتجاجات ساحة تقسيم[٤] مظهرة تأييدًا واضحًا للمتظاهرين اليساريين والعلويين. هذا التأييد والتعاطف لم ينسحبا بشكل واضح على الاضطرابات التي شهدتها تركيا فيما بعد، على خلفية الخلاف بين حكومة أردوغان وجماعة فتح الله[٥]، فقد كان طرفا الصراع كلاهما إسلاميــين في نظر الإعلام اليوناني.

هناك حقيقة وهي أن الإعلام اليوناني-والغربي عمومًا- له علاقات وتواصل قديم مع الإعلام الليبرالي واليساري والقومي في البلاد العربية، وأن الصورة التي كوّنها عن الربيع العربي -وعن سائر الأمور في منطقتنا- نتجت من قراءاته واتصالاته مع الصحفيين والنشطاء الليبراليين واليساريين والقوميين. وهؤلاء كانت لهم تحليلاتهم الخاصة التي لم تعطِ البعد الشعبي الذي أدى لاحقًا لوصول الإسلاميين إلى السلطة.

---

(١) مساعدة ٣٨ مليار لدول الربيع العربي، موقع نيوز بومب، ١٠/ ٩/ ٢٠١١:
http//:www.newsbomb.gr/diethnh/story78029/

(٢) جولة لأردوغان على دول الربيع العربي، موقع نيوزبومب، ١١/ ٩/ ٢٠١١:
http://www.newsbomb.gr/diethnh/story/78174

(٣) الأتراك يفقدون السيطرة على الربيع العربي، موقع نيوزبومب ٢٩/ ١٠/ ٢٠١١:
http://www.newsbomb.gr/diethnh/story/88608

(٤) للمزيد الرجاء الاطلاع: شادي الأيوبي، اليونان منقسمة حيال الوقائع التركية. القوميون أصعب من الإسلاميين، الحياة.
http://www.alhayat.com/OpinionsDetails/524036

(٥) للمزيد الرجاء الاطلاع: شادي الأيوبي، الإعلام اليوناني وأزمة تركيا، مجلة الأمة.
http://www.al-omah.com/reports-and-investigations/item/62542 - 2014 - 08 - 20 -12 -26 - 34.

كذلك كان الإعلام اليساري واليسار اليوناني، على تواصل دائب مع حركات إسلامية غير سنّية، مثل حزب الله في لبنان، بحيث كان هناك نوع من الحوار والتنسيق في بعض الأمور والنشاطات. وقد كان الإعلام اليساري اليوناني -ولا يزال- يرى في حزب الله حركة تحررية صلبة ضد الاحتلال الإسرائيلي والإمبريالية العالمية، لا سيما بعد حرب ٢٠٠٦. وبطبيعة الحال يؤيد مسؤولو حزب الله نظام الأسد من منطلق كونه الداعم الأول للمقاومة[١]. كما إن لليساريين الأوروبيين مشاركات مُعروفة في مؤتمرات الحزب العامة في لبنان[٢]. هكذا نظر الإعلام اليوناني اليساري إلى حركة الربيع العربي -خاصة الثورة الليبية والثورة السورية- نظرة أيديولوجية عدائية، معتبرًا أنهما منتج إمبريالي يحاول تهديد وإسقاط أنظمة مقاومة للإمبريالية.

باختصار، كانت أصوات الليبراليين والقوميين واليساريين والإسلاميين غير السنّة تصل إلى الإعلام اليوناني والغربي، لكن صوت الإسلاميين السنّة الذين وصلوا إلى الحكم في تونس ومصر لم يُسمع مطلقًا. وقد استضاف الإعلام اليوناني عشرات المفكرين الليبراليين واليساريين والقوميين -العرب والغربيين- لشرح ظاهرة الربيع العربي، فيما غاب عنها المفكرون الإسلاميون.

كما عُقدت عدة ندوات ومؤتمرات أكاديمية في اليونان لبحث حركة الربيع العربي، ويؤخذ عليها أنها خلت من أي وجودٍ للإسلاميين أو حتى لمن يشرح فكرهم، فيما دعي إليها خصومهم اليساريون والقوميون والليبراليون، رغم أنهم -الإسلاميين- كانوا فازوا بالحكم بطريقة ديمقراطية. ويبدو أن رؤوس الحركة

---

(١) مقابلة لعلي فياض، القيادي في حزب الله في صحيفة المحررين حول مشاركة حزب الله في حرب سوريا، ٩/٦/٢٠١٣. وقد زار علي فياض اليونان أكثر من مرة، وألقى فيها محاضرات وكلمات في تجمعات يسارية عديدة، وترجم له كتاب إلى اليونانية.

http://www.efsyn.gr/?p=58773

(٢) للمزيد الرجاء الاطلاع على: شادي الأيوبي، اليسار الأوروبي يتقرب من الإسلاميين، موقع إسلام أون لاين. الرابط الأصلي مفقود.

http//:ccayoubi.wordpress.com13/03/2011/

الأكاديمية في اليونان فضّلت أن تسمع عن الإسلاميين من خصومهم وأن لا تسمع منهم أنفسهم[1].

ويمكن القول إن الحركة الأكاديمية كانت ولا تزال متساوقة مع النمط الإعلامي في السير باتجاه واحد، وتخويف أي رأي معارض للرأي العام السائد. فالمقال الأكاديمي أو الصحفي المعارض للتيار العام في البلد، يجعل صاحبه نفسه عرضة للاتهامات والوضع في قوالب جاهزة، لا سيما في المواضيع التي تمّ شحن الرأي العام معها أو ضدها، بحيث أصبحت من المقدسات التي لا يمكن المساس بها.

المرحلة الثانية: التشكيك والارتياب

مع وصول أحزاب إسلامية إلى الحكم أو بدء ظهورها كقوة شعبية، تقلصت شعارات الترحيب الحذِر، وتراجع التأييد والتعاطف الإعلامي مع الربيع العربي، وسادت مرحلة من الخفوت ترقبًا للوضع وانتظارًا للخطوة القادمة. في هذه الفترة بدأت عملية ربط الربيع العربي بالإسلام أو «الإسلام السياسي»، وبدأت مراجعة الموقف.

ثم بدأت مع الوقت تظهر عناوين التشكيك والتخويف على مستقبل الأقليات والنساء والحريات والديمقراطية. كما صدرت عشرات العناوين من قبيل «الربيع العربي يتحول إلى شتاء إسلامي» و«الربيع الإسلامي يتحول إلى خريف للأقليات أو خريف للمسيحيين»، وذلك في صحف من جميع التوجهات. كذلك بدأت تظهر مخاوف من حلم الحركات الإسلامية بإعادة الخلافة الإسلامية، وربط ذلك بالقلق على مستقبل الأقليات في الشرق الأوسط.

ومع بدء الثورة الليبية والإطاحة بالقذافي، كان التشكيك أكبر خاصة مع الضربات الجوية الغربية. لم يكن الإعلام اليوناني عمومًا والإعلام القومي

---

(١) للمزيد الرجاء الاطلاع: شادي الأيوبي، ارتياب غربي من الربيع العربي، الجزيرة نت، ١٣/١٢/٢٠١٢.

http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603.

واليساري خصوصًا، مسرورًا بهذا التطور، وبدأ الأخير يتحدث عن هجمة غربية إمبريالية تهدف إلى سلب النفط الليبي. يشار إلى أن العلاقات الليبية مع اليونان كانت جيدة قبل وصول القذافي عام ١٩٦٩، ومع وصوله إلى الحكم كانت علاقات حزب «باسوك» معه قوية جدًا، وقد استفاد منها في تصفية معارضيه الفارين إلى اليونان دون عوائق أو عواقب، وذلك خلال حقبة الثمانينيات.

تميّزت هذه المرحلة بالانتقائية في الأخبار. فقضية تفجير كنيسة الإسكندرية عام ٢٠١١ واتهام وزير الداخلية للإسلاميين به تمّت تغطيتها بشكل واسع، وعند إذاعة خبر اتهام وزير الداخلية نفسه، لم يظهر الخبر على أي وسيلة إعلامية يونانية. كذلك أخبار أخرى مثل قيام شباب مسلم بحماية الكنائس القبطية لم تذكر في الإعلام اليوناني. كما بدأت تظهر تحليلات تلمّح إلى دور إيراني ودور لأنصار القاعدة والمتشددين في الربيع العربي.

كانت مصطلحات الإعلام اليوناني مدروسة بشكل واضح، ويبدو أن ذلك كان ظاهرة غربية وليس يونانية فقط. فقد كان يستعمل مع مبارك عبارات «الرئيس مبارك»، أما مع الرئيس محمد مرسي، فكان يستعمل تعبير «الرئيس الإسلامي» محمد مرسي، أو الرئيس محمد مرسي «المنتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين».

النقطة الفاصلة في التحول إلى معاداة الربيع العربي والتهجم عليه، كان بدء تحول الأحداث في سوريا من حركة احتجاجية سلمية إلى حراك ثوري مسلح. فالإعلام اليساري - صحيفة الحزب الشيوعي بالتحديد[1] ومحطة الراديو التابعة له[2] - كان موقفه واضحًا بالانحياز إلى نظام الأسد، ووصفه الثورة بالمؤامرة الإمبريالية لإسقاط النظام السوري.

لم يُظهر الإعلام اليوناني عمومًا حجم المأساة في سوريا ولا الفظائع التي حدثت فيها، كما كانت العناوين مريحة لضمير القارئ اليوناني. على سبيل المثال: «النظام يقصف مواقع المعارضة»، «الأسد يضرب معارضيه»، وهي

---

(1) www.rizospastis.gr.

(2) www.902.gr.

عناوين تعمل على إظهار الحرب كأنما تدور بين معسكرين متكافئين، وكأن الخسائر المدنية لا وجود لها، أو محصورة.

من ناحية أخرى، انشغل الإعلام اليوناني بالتركيز بشكل واضح على الأخطاء التي تقوم بها جماعات الثوار أو من ينتسب إليهم، لا سيما إن كان يتعلق بالمسيحيين. وقام بالتركيز على تهجير الأقليات والأخطار التي تتهددها، مثل الكنائس المهدمة واختطاف الرهبان المسيحيين. فيما كانت أخبار التدمير التي يقوم بها الجيش السوري لا تحظى بالتغطية المطلوبة. هذه التغطية المنحازة كانت مترافقة مع فلسفة سادت الأوساط اليونانية تقول بأن «ديكتاتور أفضل من متطرف إسلامي».

مع تطور الأحداث في سوريا بدأت تظهر مقالات مبشرة بظهور ثاني دولة كردية إلى العلن، أي انفصال الأكراد عن سوريا وتشكيلهم دولة خاصة بهم. وفي واقع الأمر، إن الإعلام اليوناني -والغربي عمومًا- دائما ما ينفخ في بوق الانفصالات السياسية والعرقية والدينية في العالم العربي ويشجع عليها ويتعاطف معها[١].

المرحلة الثالثة: الإنكار والتجريم

التطورات السابقة مهّدت للمرحلة الأخيرة، وهي مرحلة تجريم الربيع العربي ومهاجمته. بدأت هذه المرحلة مع التطورات الدراماتيكية في المسألة السورية، وظهور المجموعات الجهادية وانتشار مجموعات من الفيديو والتسجيلات لفظائع قام بها هؤلاء بحق معارضيهم[٢]. هنا امتلك المشككون والكارهون للربيع العربي دفعة معنوية عارمة وانطلقوا يجرّحون في أصله وأهدافه والساعين لأجله.

---

(١) تركيا، سوريا، وفي العمق الأكراد، كاثيميريني، ٢٠١٢, ١٠, ١٢.
http://www.kathimerini.gr/732130/opinion/epikairothta.

(٢) رغم انتشار مئات الفيديوهات عن فظائع قامت بها قوام النظام السوري، لا يتم تداول هذه المقاطع في الإعلام الغربي.

تحول الربيع العربي في هذه المرحلة إلى مرادفٍ للخوف والرعب والغرابة، واستحضرت صور مشوهة ومرعبة من التاريخ القديم والحديث عن الجهاد والقتال، واضطهاد النساء والأقليات غير المسلمة في البلاد العربية.

كما بدأ التنكر للربيع العربي وبدأت حملات التجريح والاتهام تعبّر عن نفسها بشكل واضح. وبدأت صحفٌ عديدةٌ في وضع عبارة الربيع العربي بين قوسين، تعبيرًا عن النأي بالنفس عن تبني هذا المصطلح كثورة إصلاحية شعبية. أصبح الإعلام اليوناني يجهر بعداوته للربيع العربي، مصورًا إياه على أنه حركة غربية مفتعلة أدت إلى الدمار والخراب وتهجير الأقليات، وظهور المتطرفين وملء أوروبا بالمهاجرين غير الشرعيين، بل تهديدها بالجهاديين في عقر دارها.

وبدأ مصطلح «الربيع العربي» نفسه يختفي لصالح مصطلحات مثل الاضطرابات في مصر والصراع في ليبيا والحرب الأهلية في سوريا. كذلك انتشر التخويف من موجات الهجرة غير الشرعية منذ مرحلة مبكرة من الربيع العربي، لكنه ازداد بشكل كبير في المرحلة الثالثة مع احتدام الصراع المسلح في سوريا[١]، حيث كتبت مئات المقالات المحذرة من لجوء آلاف «المهاجرين غير الشرعيين» إلى اليونان أو العبور عن طريقها إلى أوروبا.

كذلك انتشرت أخبار الجهاديين في سوريا بشكل كبير. وركّز الإعلام اليوناني على من عُرفوا بـ«الجهاديين الأوروبيين» الذين ينتمون إلى مسلمين من الجيل الثاني، وقد انتقلوا إلى سوريا لمحاربة النظام فيها، مع أنّ أحدًا من هؤلاء لم يخرج من اليونان. حاول الإعلام اليوناني استخراج أو حتى اختلاق أي خبر له علاقة باليونان، مثل مرور الجهاديين الغربيين باليونان، أو انتقال مهاجرين سوريين كانوا يقيمون في اليونان إلى سوريا لمحاربة النظام[٢]. في

---

(١) الإعلام اليوناني لديه هوس بتضخيم مسألة الهجرة غير الشرعية. وقد بدأت هذه المقالات تنتشر منذ بدء التظاهرات في تونس.

(٢) نشرت صحيفة كاثيميريني بتاريخ ١٢/ ٩/ ٢٠١٤ تقريرًا عن مهاجر سوري كان يسكن في اليونان وانتقل إلى سوريا لمحاربة النظام.

http://www.kathimerini.gr/784787/gallery/epikairothta/ereynes/maxhtes-toy-isis-eixan-vrei-katafygio-sthn-a8hna.

http://www.dimokratianews.gr/content/17504.

المقابل، نشرت إحدى الصحف اليونانية القومية مقابلة مع يوناني قومي يقاتل -حسب قوله- مع عشرات اليونانيين إلى جانب نظام الأسد[1]، لكن المسألة لم تستدع أي تحرك من جانب السلطات السياسية أو القضائية، ومرت مرور الكرام رسميا وشعبيًا.

الإعلام اليوناني في الفترة الأخيرة مال إلى إظهار ما يجري في بلاد مثل سوريا، على أنه تطرف سنيٌّ ضد الأقليات المسلمة وغير المسلمة، مهونًا أو متفهمًا -لحدٍ ما- مشاركة حزب الله وميليشيات شيعية أخرى في القتال إلى جانب نظام الأسد.

وبعد التخويف في المرحلة الثانية من قدوم الإسلاميين إلى السلطة، أصبح الحديث يجري عن فشلهم في الحكم وعن الفوضى التي تسببوا بها وعن سخط الشعوب عليهم، كما سلط الضوء على الأحكام القضائية بحق معارضيهم مثل الفنانين أو المعارضين السياسيين.

في آخر المراحل، رحّب الإعلام اليوناني بالحلف الذي قام بين كل من اليونان وقبرص من جهة، ومصر من جهة أخرى، حيث إن هذا التحالف كان أشبه بتحالف الأمر الواقع في مواجهة أنقرة، وعلى خلفية الخلاف التركي اليوناني على الثروات الطبيعية في المياه القبرصية.

كما يلاحظ أن الإعلام اليوناني الذي كان يغطي بالتفصيل تجاوزات الجيش المصري والأجهزة الأمنية المصرية، خلال الفترة السابقة للانقلاب العسكري الذي حدث في مصر- مثل كشوف العذرية والتعذيب وغيرها- توقف عن هذه التغطية بنسبة كبيرة بعد الانقلاب، رغم ازدياد وانتشار الفظائع في البلد، كما توقف عن تغطية أخبار الاحتجاجات اليومية ضد الحكم القائم بعد الانقلاب. ويبدو أن الإعلام اليوناني فضّل الانحياز مرة أخرى لمصالح وحسابات السياسة الخارجية لليونان، وإعطاء صورة البلد المستقر لمصر في ظل العهد الانقلابي، لا سيما أن بين مصر وقبرص

---

(1) http://www.dimokratiannews.gr/content/17504.

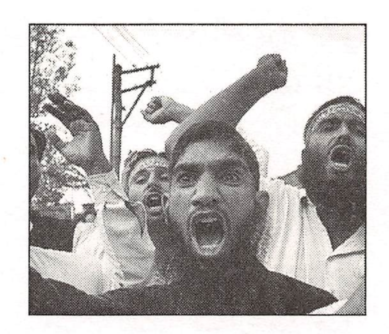
العديد من الاتفاقيات المشتركة، التي يحسب لها أنها تراعي مصالح قبرص أكثر من مصالح مصر.

عدا ما تقدم، هناك مظاهر رافقت تغطية أحداث الربيع العربي، وهي ليست طارئة على الإعلام اليوناني، لكنها ترسّخت وتطوّرت مع تلك الأحداث، وأهمها:

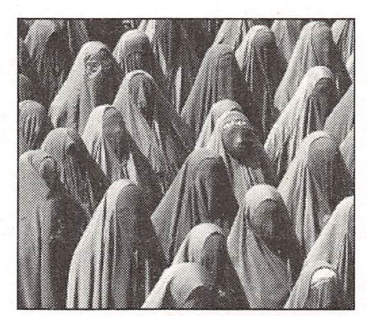
- حرب العناوين وحرب الصورة: تعميم عنوان خطير على صورة بسيطة، أو تعميم عناوين عن الحركات الجهادية العنيفة على صور الحركات المقاومة مثلا في فلسطين. كنشر عنوان من قبيل «الإسلاميون» أو «الجهاديون»، ونشر صورة لرجل مسلم سبعيني وهو يصلي، أو صورة لامرأة مسلمة منقبة. بمعنى آخر تعميم معنى الجهادية أو التطرف -كما هو مفهوم في الذهنية الغربية- وإسقاطه على أبسط مظاهر التدين الإسلامي. وفي الحالة الثانية تعميم معنى الحركات المتطرفة على حركات المقاومة الفلسطينية وربط صورتها بالتطرف. ويكفي المرء أن يبحث عن كلمة «إسلام» في محركات البحث اليونانية، لتظهر له عشرات الصور والعناوين التي تربط الإسلام بالعنف والغرابة والخطر.
- تصوير المسلمين على أنهم أغراب عن القارة الأوروبية، وأنهم يشكلون مصدر تهديد لهذه القارة ولحرية التعبير فيها. وهناك العشرات من الصور والرسوم المشوهة لشخصية المسلم يستخدمها الإعلام الشعبوي بشكل خاص.
- تشويه مصطلحات إسلامية موجودة: فقد شهدنا تشويه مصطلحات مثل مصطلح «الحركات الإسلامية»، وتحويلها إلى «حركات إسلاموية»، وتحويل مصطلح «إسلام» إلى «إسلاميزم»، والمصطلح الثاني يرمز في الوعي الجمعي اليوناني إلى تحدي المجتمعات الغربية ومحاولة الهيمنة عليها.

صور يستعملها الإعلام الشعبوي القومي

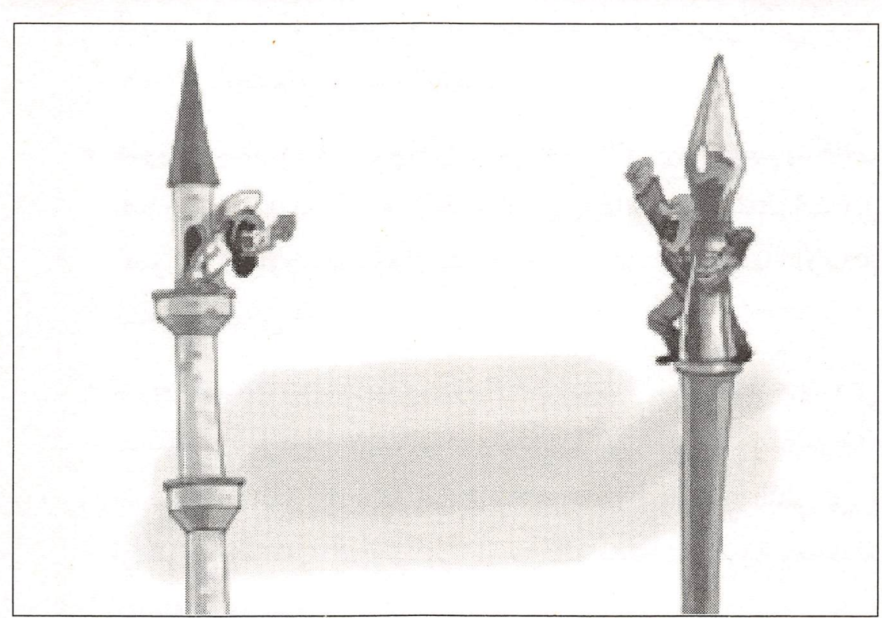
لتشويه صورة المسلمين داخل وخارج اليونان











- ظهور مصطلحات غاية في التهجم مثل مصطلحات «الفاشية الإسلامية»، و«النازية الإسلامية». وتجري محاولات لترويجها في الاستعمالات اليومية للمجتمع اليوناني كمصطلح علمي أكاديمي. جدير بالذكر أن هناك في الذهنية اليونانية تقبلًا -إلى حد ما- لمقارنة الأحزاب الأوروبية النازية واليمينية المتطرفة بالحركات الإسلامية في العالم العربي، ومقارنة أسلوب عمل النازيين الجدد في أوروبا في الخدمة الاجتماعية مع أسلوب عمل الحركات الإسلامية في بناء مؤسسات الخدمة الاجتماعية.

- تكريس مصطلحات مثل «الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» و«الخليج الفارسي»، فيما مصطلحات مثل «العالم العربي» و«الدول العربية والإسلامية» تمّ تجاوزها وتجاهلها. وهذه عملية سبقت الربيع العربي لكنها تكرّست به. وقد رافق التغطية الإعلامية صدور العديد من الكتب التي حاولت تحليل ظاهرة الربيع العربي لمؤلفين يونانيين أو لمؤلفين أجانب ترجمت أعمالهم إلى اليونانية[1].

- غيّر الربيع العربي ووصول الإسلاميين إلى السلطة والأحداث التي تلت ذلك صورة وسائل الإعلام والدول التي تحمست له، مثل قناة «الجزيرة» وقطر وتركيا (بالطبع لم تكن صورة أنقرة جيدة قبل ذلك، لكنها ازدادت تشويها وكراهية). فقناة «الجزيرة» التي كان يُنظر إليها باحترام وتحظى بقبول شعبي واسع في اليونان، أصبحت قناة مشككًا في نواياها وأخبارها لدى قطاع واسع من وسائل الإعلام والمجتمع اليونانيين، على اعتبار أنها أداة قطر وتركيا في قلب أنظمة الحكم العربية، والمجيء بأنظمة حكم موالية للغرب. فيما أصبحت قطر وتركيا دولتين تحاولان تصدير وفرض الربيع العربي، ذي المحتوى الغربي.

(١) يعتبر كتاب «الربيع العربي» للمحلل فاسيليس ياناكوبولوس، محاولة كلاسيكية بنظرة يونانية لتحليل ظاهرة الربيع العربي.
http://www.aljazeera.net/home/print/9280479774-a74675--b9196682990-f8cbe/f766b8e3-ab34458-c-ba20-f98ec8f60a54

الخلاصة

- تغطية الإعلام اليوناني للربيع العربي تعتبر حالة كلاسيكية من النظرة الغربية العامة للعالم العربي، حيث البحث الدائم عن خبايا الشر ومكامن العنف والغرابة، والتآمر في أي حركة في هذا العالم.

- الإعلام اليوناني هو في نهاية الأمر جزء من منظومة الإعلام الغربي، وهو لا يتناغم على الدوام مع نبض الشارع اليوناني. وكونه مملوكًا، في غالبيته، لرجال أعمال ومراكز نفوذ تعمل وفقًا لمصالحها، يزيد من جموحه نحو مواقف متطرفة وغير عقلانية.

- العديد من الشخصيات التي تنتمي إلى تيارات قومية ونازية تستغل وسائل الإعلام للحصول على مقاعد بالبرلمان، من خلال استخدام تخويف عامة الشعب من الوجود الأجنبي عامة والإسلامي خاصة في مجتمع مسيحي.

- يعتبر الإعلام اليوناني في مجمله متناغمًا مع السياسة الخارجية للدولة اليونانية. وهذا لا يعني أن الدولة تفرض عليه أي رقابة، لكن الحسّ القومي المتزايد هو الذي يملي عليه هذه المواقف.

- الأزمة الاقتصادية الحالية ضربت الإعلام بشكل كبير، ما جعلته أكثر رضوخًا للمؤثرات المادية، وأكثر قبولًا للارتهان لأي جهة ممولة أو حتى معلنة.

- هناك ثوابت للإعلام اليوناني لا يتجاوزها، مثل الموقف السلبي من تركيا والإسلام أو من شعوب معينة، والعمل على عدم إظهار أي إيجابية لهذه العناصر. كما إن له طريقة معينة في التفكير في الأحداث انطلاقًا من التاريخ والقومية والمذهب الديني.

- هناك تقصير واضح من الجهات العربية الرسمية والشعبية (الجالية والسفارات العربية) في اليونان في تعديل وتصحيح صورة العرب والمسلمين في الإعلام اليوناني، فيما هناك جهود دائبة ودائمة لتشويه هذه الصورة من قبل الدوائر الإسرائيلية ومناصريها.

القسم الثالث

شـــهـادات

شهادة معالي الدكتور كامل أبو جابر[1]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فخامة الرئيس حارث سلاجيتش،

الصديق العزيز الذي عرفته على مدى العقود الثلاثة الماضية،

الأساتذة الأجلاء، السيدات والسادة الكرام...

لقد تعرّفتُ على منطقة البلقان من خلال الصديق والزميل محمد الأرناؤوط، الذي اصطحبني في إحدى ندواته في منطقة مقدونيا. ومنذ تلك اللحظة وأنا منشغل ومنهمك بشؤون تلك المنطقة، كما إني منشغل ومنهمك بشؤون المنطقة العربية التي أنتمي إليها. وقبل أن أبدأ كلامي أود أن أقدم الشكر إلى الأستاذ الدكتور محمد الأحمري، مدير منتدى العلاقات العربية والدولية، على بعد نظره، وقد علمت أنه كتب كتابًا عن الرئيس علي عزت بيجوفيتش، الذي كان لي شرف لقائه ومعرفته في العديد من الاجتماعات، وكان بالنسبة لي أشبه بالشخص القديس الذي فيه بركة وإنسانية وذوق. كان يعطف عليّ عندما كنت شابًا، وكان عند بيجوفيتش خفة دم ولباقة. فأشكر الدكتور محمد الأحمري

(١) وزير خارجية الأردن ١٩٩١-١٩٩٣، وعضو مجلس الأعيان ١٩٩٣-١٩٩٧، ورئيس المعهد الدبلوماسي ١٩٩٧-٢٠٠١، ورئيس المعهد الملكي للدراسات الدينية ٢٠١٠-٢٠١٤.

مرة أخرى على تنظيم هذه الندوة الثرية والمهمة، التي توجه أنظارنا نحو جيران لنا في الثقافة والحضارة، لم نولهم نحن العرب الاهتمام المطلوب، ربما بسبب انهماكنا وانشغالنا بمشاكلنا، والعفاريت تركض وراءنا، وإسرائيل أكبر عفريت كما تعلمون، وهذا لا يعطينا الفرصة أن نهتم بأنفسنا فضلًا عن الاهتمام بجيراننا. لم نول البلقان حقيقة الاهتمام والمحبة المطلوبة، لذا أشكر الدكتور محمد الأحمري مرة ثانية وثالثة ورابعة، وأشكر أيضًا الزميل والصديق الدكتور محمد الأرناؤوط لتنسيقه ودقته في إدارة هذه الندوة، التي فيها بحوث وأفكار مميزة. تمتعت البارحة وأنا أسمع المشارك الذي تحدث عن دور دولة قطر في دعم وإسناد إخوتنا في منطقة البلقان، وبالذات جهودها في دعم المكتبة ومراكز المخطوطات. باقي الأمة العربية للأسف مشغولون بأنفسهم، وهذه الدولة فتية، وأنا مؤمن بالشباب، وليس صحيحا أن الحكمة مرتبطة بهذا الشعر الأبيض، بل هي منحة يؤتيها الله من يشاء بغض النظر عن العمر، لذا أعتقد أن ما تقوم به قطر وأميرها الشاب يستحق كل التقدير وكل الاحترام وكل المحبة.

استمعنا على مدى يومين إلى مجموعة من الاجتهادات والبحوث التي تتعلق بعنوان هذه الندوة (العلاقات العربية البلقانية)، وكانت جميعها مميزة. أنا شخصيًا استفدت منها كثيرًا، ليس بسبب اهتمامي المسبق بالموضوع، إنما فعلًا استمعتُ إلى معلومات كثيرة كنت أجهلها. انشغلت كثيرًا في البحث والكتابة بمنطقتنا العربية وقضية فلسطين، ولم أنتبه فعلًا إلى جيراننا من البلقان، كذلك في شرق آسيا، لنا إخوة هناك امتداد لهذه الحضارة لا ننتبه لهم للأسف.

إن تعددية البلقان الرائعة تستحق البحث، وهي مشابهة- نوعًا ما- إلى تعدديتنا نحن في منطقة الهلال الخصيب، بالذات منطقة المشرق العربي. والجميل أن هذه الندوة لم تقتصر موضوعاتها على النواحي السياسية والدينية، بل استمعنا إلى موضوعات أدبية وثقافية منها صورة العرب، واستمعنا إلى موضوعات متعلقة بتاريخ المدن، واللغات والأدب والاقتصاد. كلها كانت بالنسبة لي معلومات جديدة وثرية. ولكن لي ملاحظة. الحقيقة كما يقول الفيلسوف الإغريقي أرسطوطاليس إن «السياسة هي ملكة العلوم لأنها علم

الملوك»، لأنه في نهاية المطاف كل قرار في نهاية المطاف هو قرار سياسي، لذلك اهتمامنا بالحالة السياسية في منطقة البلقان لا أشك أنه سينمو في المستقبل، لا بسبب القرب الجغرافي ولكن الأهم من ذلك الدفء، أشعر بلذة وأطرب حينما أسمع الإخوة من البلقان وهم يتحدثون باللغة العربية وبطلاقة، وأشعر باعتزاز. وهنا أتقدم بالشكر إلى الصديق العزيز الدكتور خالد أرن، أشعر أني أحكي مع عائلتي وإخواني.

الذي أريد أن أقوله عن انطباعاتي على مدى اليومين الماضيين أن الدولة العثمانية أو الإمبراطورية، كانت تلقى بظلالها علينا جميعًا. أنتم مازلتم صغارًا بينما أنا بيني وبين الدولة العثمانية جيل واحد، والدي رحمه الله كان يتحدث اللغة التركية، وحينما يغضب كان يسبّنا باللغة التركية. أوجه الشبه بيننا كثيرة وأوجه الاختلاف كذلك، إلا أنها تعددية رائعة لقبول هذه المجموعات ببعضها وانسجامها الرائع.

نحن العرب ننسى أننا في ورطة مع أنفسنا ومع العالم، كيف نصالح الماضي مع الحاضر؟ كيف نصالح النقل مع العقل؟ وهنا أذكر بأن أول كلمة في القرآن الكريم كانت «اقرأ»، وهي لا تعني المطالعة للتسلية، بل تعني «اعقل وتعقل».السياسة في العالم الغربي ترتكز على العقل، لا ترتكز على أمور أخرى. حينما نقول إن العالم الغربي تخلى عن الدين فهذا كلام فارغ لا طعم له، وأنتم تعلمون حينما يذهب أحدكم إلى نيويورك يوم الأحد لو رمى إبرة في الشارع لسمعت صوتها، لأنّ كل الناس في الكنائس يؤدون الصلاة. كذلك الحال في العديد من العواصم الأوروبية، لم يتخلوا في الغرب عن الدين، لأنهم جعلوا العقل أساس معاملاتهم. وأعود إلى أول كلمة في القرآن «اقرأ» التي تعني اعقل، تعامل مع الأمور بعقلانية.

نحن نمرّ بمرحلة انتقال أو مرحلة مخاض، وهي أصعب مرحلة يمر بها المخلوق، سواء كان إنسانًا فردًا أو مجتمعًا، نضع قدمًا في الماضي لعبقه وجماله، والأخرى في الحاضر والمستقبل. وهذه الحالة صعبة جدًا، لذا نحن العرب لا صديق لنا لأننا وسط العالم، ولا نهتم بمن حولنا، ولا نتعامل بشكل صحيح مع قضايانا.

النقطة الأخيرة التي أريد أن أتحدث عنها، نحن مجتمعات دينية وهي محور حياتنا، لغتنا اليومية والأنشطة الجامعة كالأعياد جميعها دينية، لكن لنتساءل كم من الدين نريد في الدولة؟ أو العكس كم من الدولة نريد في الدين؟ مسألة فصل الدين عن الدولة خرافة لا حقيقة لها، هذه الأمور علينا أن نحلّها، حينما نتحدث عن الدين فنحن نتساءل من أين تأتي شرعية الدولة؟ هذا أمر مهم ولا ينحصر على علاقة المخلوق بالخالق، بل يتجاوز إلى الحاكم، من أين تأتي شرعية الحاكم؟ الشرعية تأتي من الحق الإلهي أم من أين؟ هذه الأسئلة لابد أن تبحث بشكل أوسع.

كذلك نحن ننسى الإرث الاقتصادي والديني والثقافي الذي وصلنا عبر الدولة العثمانية، وأنا من عشاق الإمبراطورية العثمانية، ولست أقولها أمام أخينا التركي ابن تركيا الحديثة. والدي كان يقول -رحمه الله- الدولة العثمانية كانت كالغطاء فوقنا، حينما سقطت انكشفت عيوب كل هذه الأمم، وذهبت الشرعية الدينية والسياسية التي كانت ممثلة بالخليفة، فأصبحت لا تعرف تأخذ الفتوى الدينية من أين؟ من الشيخ القرضاوي في الدوحة، أم من الشيخ أحمد هليّل في عمان؟

وهنا أتحدث عن الدولة العربية الحديثة، التي نشأت في أعقاب انهيار الدولة العثمانية ١٩١٨م، هذه الدولة حاولت أن تصبح دولة قومية مثل فرنسا لكن التراث مختلف، يعني الدولة العثمانية كانت شرعيتها متمثلة في الخليفة - السلطان دينيًا وسياسيًا لا مردّ لقوله ورأيه، ومضمونها الاجتماعي نظام الملل والنحل. بدأت الدولة العثمانية مع محمد الفاتح بملة واحدة وانتهت بثماني عشرة ملة، ونظام الملل والنحل هذا يتعارض مع فكرة الدولة الحديثة. ما أريد أن أقوله أنه كانت عندنا مجتمعات مستقرة تحت ظل الدولة العثمانية، كل ملة تعرف موقعها من الإعراب. كان الناس يعرفون مقاماتهم، الآن اختلطت الأمور للأسف، ولم ينتبه علماء السياسة والاجتماع لهذه الأمور وأثرها في مجتمعاتنا.

شهادة السفير ياسين رواشدة[1]

السلام عليكم.

أولًا من كل قلبي أود أن أشكر دولة قطر، وأشكر الأستاذ الدكتور محمد الأحمري على إقامة وتنظيم هذه الندوة المهمة المتميزة، وأعتقد بحسب علمي أنه لم يحدث حتى الآن إقامة ندوة بهذا الشكل تُعنى بالعلاقات الخليجية البلقانية. كانت العلاقات تتناول أو أن البحث يجري في جزء العلاقات العربية الأوروبية أو الأوروبية المتوسطة، لكن لم يكن بهذا الشكل وهذا الاتسام وبهذا الحضور الطيب الذي أثارنا، فقد تعلمت الكثير خلال هذين اليومين. ولذلك الشكر الموصول والتقدير الكبير للرؤية الاستراتيجية الكبيرة للأستاذ محمد الأحمري، وله الشكر ولزملائه. إن دولة قطر تستحق التقدير والاحترام في دورها الرائد في فتح مجالات التعاون، في فتح آفاق التعاون وفي رفع اسم العرب، ورفع اسم منطقة الخليج في العالم في جميع المجالات، لذلك الشكر لهذه الدولة الطيبة بقيادتها الحكيمة الرائدة لكل شيء، والشكر لشعبها المِعطاء المضياف.

منطقة البلقان بالنسبة للعالم العربي كانت تنحصر -كما أعلم- في دولتي اليونان وتركيا، ووراءها منطقة رمادية إلى أن نصل إلى فرنسا وألمانيا وبريطانيا،

(١) مستشار رئيس الجمهورية للشؤون العربية سابقًا. وسفير جمهورية البوسنة والهرسك السابق في الكويت ٢٠٠٨-٢٠١٢.

لذلك هناك غطاء على ما بعد اليونان وما بعد تركيا. لغاية ١٩٩٠ كان في منطقة يوغسلافيا السابقة وألبانيا سفارة عربية خليجية واحدة، سفارة خليجية واحدة في يوغسلافيا السابقة، والبلقان لم يكن بها أي سفارة. وأعتقد أن هذا الغياب له أسباب كثيرة لا أريد أن أناقشها الآن، لكن أريد أن أشير إلى أن معرفتنا بهذه المنطقة حديثة نسبيًا، والذي عزّز الاهتمام والمعرفة هو العدوان على البوسنة والهرسك ونقل وقائع هذا العدوان من خلال الإعلام، لذلك قضية البوسنة والكارثة التي حصلت في البوسنة من خلال العدوان الصربي على هذه الدولة المسالمة كانت مؤثرة، وأصبح الناس يتساءلون: كيف تتهاوى يوغسلافيا، وكيف جمهورية من الجمهوريات اليوغسلافية تعتدي على الأخرى؟ وأصبحت تتنقل الصور النمطية وكأنه في مسلمين وفي مسيحيين، وكأنه في صرب وكروات وبوشناق وألبان، وأصبحت الصورة النمطية لهذه الأسباب تقول إنه بسبب التباين الديني والعِرقي حصلت هذه المجزرة، أو فُسرت كأنها حرب أهلية، أو أن هناك ثلاث أو أربع قبائل تصارعت بين بعضها البعض على الماء والكلأ، وهذا بالطبع غير صحيح لأن الوقائع تنفي ذلك.

أريد أن أتحدث أو أريد أن أصحّح لأنه كانت هناك محاولة لإيجاد عدم توازن في الدولة اليوغسلافية الحديثة الاشتراكية التي أقامها الرئيس تيتو مع رفاقه، كانت نظامًا متوازنا بين القوميات اليوغسلافية، وعاش هذا النظام عصره الذهبي بين عام ١٩٤٤ إلى ١٩٩٠، عاش العصر الذهبي من الاستقرار بسبب هذا التوازن. وعندما حاول سلوبودان ميلوشيفيتش أن يخرق هذا التوازن باعتباره أن جمهورية صربيا هي الأكبر مساحة وسكانًا، ولذلك لايجب أن تتساوى مع الجمهوريات الأخرى، أرسل جيوشه لكي يحتل ويهيمن على الأخرين، وهذا هو سبب الحرب. طبعًا العوامل الدينية والتباين العِرقي لعبت دورًا في ذلك، في تسهيل مهمة ميلوشيفيتش. ولكن مهمته كانت في أنه يريد أن يخرق هذا التوازن الذي هو مهم في عالم اليوم.

هذا هو الدرس الأول والمهم من الحرب اليوغسلافية: لا يمكن أن نخرق التوازن، لايمكن للسمكة الكبيرة أن تأكل السمكة الصغيرة بهذا العالم،

والمجازر التي حدثت في البوسنة وبأشكالها البشعة أدت في النهاية إلى فشل هذا البرنامج. طبعًا الثمن كان غاليًا جدًا، الثمن كان مخيفًا، لكن هذا البرنامج، الهيمنة على الآخر باستخدام العضلات والقوة، فشل في النهاية. لا أريد أن أكرّر وأعيد من ذكر الغنيمة، لكن أريد أن أقول إن مكتب الدكتور حارث سلايجيتش كان يبعد ٥٠٠ متر فقط عن جبهة القتال. هذا الصمود البوسني الأسطوري جاء أيضًا من دعم الأصدقاء، ومنهم دولة قطر، والعالم الغربي والشرقي. هذا الصمود الأسطوري هو الذي أفشل هذا البرنامج وهذا المخطط، لذلك الدرس الأول هو أنه يجب أن نحافظ على التوازن بيننا، التوازن العرقي، التوازن الديني، التوازن القبائلي العشائري. لا يوجد كبير وصغير بالعضلات والمساحة وعدد السكان، هذا الدرس الذي أريد أن أقدّمه لكي نستفيد نحن من هذه العلاقة، ومن التجارب التي حصلت في هذا الجزء من العالم.

الأمر الآخر أنه في السنوات العشر الأخيرة حصل تعاون كبير وتلاحم وتطور في العلاقات الخليجية والعربية عمومًا مع دول منطقة البلقان، فيما بعد اليونان وتركيا، أي مع يوغسلافيا وبلغاريا واليونان وألبانيا، وهو تطور جيد على جميع المستويات. لكن ما أسعدني جدًا وأثلج صدري هو أن التعاون الثقافي يأخذ بُعدًا مهمًا، وأنا كرجل لي اهتمامات في هذه الجوانب، أعتقد أن الثقافة، أو الدبلوماسية الثقافية كما تريدون، هي كاسحة الألغام أمام السياسة، هي التي تفتح المجال وتسهّل الطريق لكي تعبر السياسة، أو إن الثقافة تقرّب ما يباعد بين السياسيين، أو إنها تصلح ما تفسده السياسة. وبتعبير آخر كما قال الدكتور سيلاجيتش: «هناك زوايا حادة تصنعها السياسية، ونريد أن تقوم الثقافة بعمل زوايا منفرجة»، هذه الزوايا المنفرجة هي التي تعمل من الزوايا السياسية الحادة منفرجة.

لذلك في هذا العالم المتحضّر نحن بحاجة أكثر إلى مثل هذه الندوات المهمة جدًا، بحاجة إلى الثقافة، بحاجة إلى ترجمة الكتب، بحاجة إلى المعرفة، بحاجة إلى الإعلام، بحاجة إلى الوفود الصحفية التي تأتي وتتعرف، كما قال الدكتور كامل أبو جابر لكي نعرف بعضنا أفضل. عندما نعرف بعضنا أفضل نجد

وسائل التعاون ونكتشف الإمكانيات المشتركة، وبذلك تصبح مهمة التواصل سهلة ونجد مجالات أخرى، لذلك أحرص على أنه في هذا العالم المتحضر نحن بحاجة للثقافة لتكون هي المقدمة وتكون هي البادئ. وبهذه الروح قمنا أنا وبعض الزملاء والأصدقاء بتأسيس «مركز دراسات الخليج- البلقان» قبل فترة قصيرة جدًا، ويسعدني أن أعلن عن هذا المركز في هذه المناسبة الطيبة، وأدعو الدكتور محمد الأحمري وهذا المنتدى بأن يكون شريكًا لنا. وبهذه الروح أكرر تحيتي ومودتي لكم جميعًا وأتمنى لكم التوفيق، والسلام عليكم.

شهادة المخرج أسعد طه[1]

بسم الله..

شكرًا للذين أهدوني هذه الفرصة لاستدعاء الذاكرة من جديد، وشكرًا لتقديمكم بمثل هذه الطريقة.

قبل حوالى ربع قرن كنت قد بدأت العمل في هذه المنطقة كصحفي حر بإمكانيات محدودة، أبيع بضاعة كاسدة لأن الإعلام العربي لم يكن مهتمًا بمنطقة البلقان ولا بما يحدث فيها. أتيت إلى البوسنة وفتحت شهيتي لأن أزور كل البلقان بلدًا بلدًا، ربما تأخرت زيارتي لرومانيا قبل شهرين، لكن زرت كل مناطق البلقان، ليس مهمًّا الزيارة الجغرافية ولكن الزيارة الزمنية، بمعنى في مرحلة الانتقال من عالم إلى عالم.

في البوسنة أهداني التاريخ فرصة؛ في زيارتي الأولى أيضًا كنت أذهب أو اصطحبني رجل لزيارة بعض بيوت البوشناق حتى أفهم وأعرف كيف سيدخلون انتخاباتهم بعد تأسيس أول حزب يمثل المسلمين، هذا الرجل متقد الذاكرة، الذي كنت أحسبه مخلصًا لبلده، كان الدكتور حارث سيلاديتش.

الحقيقة أدهشني في منطقة البلقان كلها آثار الاستبداد وحكم الفرد. ربما شعرت حتى بشيء من الأمل؛ لأن هذه المنطقة كانت تبدأ في تحطيم هذا

---

(١) مخرج ومنتج أفلام وثائقية، مدير عام شركة «هوت سبوت فيلز»، دبي.

الاستبداد، وفي الوقت نفسه كنت أتمنى يومًا أن يحدث في بلادي ما يحدث في هذه المنطقة. أدهشني أيضًا الوجود الإسلامي المنتشر هنا وهناك. لم يدهشني جغرافيًا فقط وإنما أدهشني حتى في المعنى. أنا كعربي مسلم استفدت كثيرًا من هؤلاء المسلمين البسطاء، وفهمت أنه ربما أُسكِتت المآذن وتمّ محوها إلا أن قلوب الناس ظلت عامرة بهذا الدين رغم ما مرّوا به، وأن المظاهر الشكلية ليست هي الفيصل وإنما هذا الاعتقاد الراكن والثابت في قلوب الناس.

أدهشني أيضًا معاناة الوجود الإسلامي أو معاناة المسلمين في كل المنطقة، والحقيقة والحمد لله أني أدركت أن المعركة قبل عام ١٩٩٠ لم تكن بين الذين لا يؤمنون بالإسلام والذين يؤمنون بالإسلام، وإنما كانت بين الذين لا يؤمنون بالإنسان وغيرهم. الحقيقة أنهم استطاعوا أن يوزعوا الألم على الجميع، وإن كان المسلمون نالوا النصيب الأكبر، لكن هذه المعاناة كانت تطال أو طالت الجميع.

تورطت في حرب البوسنة وقضيت فيها سنواتها، وشاهدت الإعلام الدولي وهو موجود يتابع كل صغيرة وكبيرة. أيضًا أدهشني هذا الأداء بين المتخصصين الذين يؤدون العمل بمهنية عالية وبإخلاص، وبين الذين يوظفون الأخبار لصالح جهة ما، حتى إنك تكتشف أن بعض الصحفيين يعملون كجواسيس لبلادهم أو لأطراف أخرى. لا أريد أن أُغرق في الماضي كثيرًا ولكن أتخيل أن العنوان هو الاستشراف وكيف نرى المستقبل.

أظن أنه ربما بحكم عملي كصانع للأفلام الوثائقية مازلت مؤمنًا بأن الأفلام الوثائقية هي شهادة التاريخ عما جرى، ومن ثم يجب أن يكون هناك تسجيل وتوثيق لكل ما جرى. لم يتم توثيق المظالم التي وقعت على الناس في مناطق البلقان، لم يتم توثيق المظالم التي وقعت على الكتّاب والمفكرين والمثقفين، لم يتم توثيق حكايات المسلمين، كيف حافظوا على دينهم وعلى هويتهم كل هذه المدّة الطويلة. أعتقد أننا ما زلنا حتى الآن - وطبعًا حرب البوسنة هي التي فتحت أعين العالم العربي على هذا الوجود الإسلامي - لكن أظن أننا مازلنا في حاجة للمعرفة، بالمسلمين وغير المسلمين. ودلالة

على عدم معرفتنا بالمنطقة ربما أتذكر سريعًا أنه في عام ١٩٩٠ تقريبًا، التقيت بشابين مصريين في مطار بلغراد، هي حكاية طويلة جدًا، كانا قادمين للبحث عن عمل ثم فقدا كل أموالهما، فقررا أن يعودا إلى مصر بدون أي شيء. كنت جالسًا معهما أستمع إليهما، وكان الحديث شائكًا جدًا، وأحببت أن أستعرض معلوماتي أو أغيّر الموضوع، فقلت: هل تعلمان أن هنا حوالى ستة ملايين مسلم؟ فأجاب أحدهما مباشرةً: «ياه كل دول جايين يدوروا على شغل؟». كان في ذهنهما أنه ليس من الممكن أن يكون هناك مسلم من داخل تلك البلاد! إني أخشى أن يكون هذا الجهل بتلك البلاد لا يزال موجودًا، وأن المعرفة الحقّة بتلك المنطقة لم تتم بعد.

عام ٢٠١٥ أي هذا العام المقبل، يكون قد مرّ عشرون عاما على مذبحة سربرنيتسا، هل يؤدي عالمنا العربي واجباته لتوثيق هذه المذبحة التاريخية؟ الحقيقة أني مهما نسيت في حياتي لا يمكن أن أنسى مشهدًا واحدًا على الأقل من المشاهد التي رأيتها، مشهد الأم التي تدخل بدعوة من هيئة دولية، مجموعة من الأمهات يدخلن إلى مكان (مخزن) به عظام مرصوصة، وتبحث كل أم عن عظام ابنها، تبحث في ملابسه، في خاتم الزواج في أي شيء يتعلق به حتى تثبت أن هذا ابنها. بعد هذا المشهد بقيت أسبوعًا لا أستطيع النوم، هذا المشهد بسيط جدًا، داخل مشهد أكبر معقّد للغاية، هل نحن مستعدون لتوثيق هذا الحدث؟ الأمر الآخر، نحن نتحدث عن المذابح وعن وعن..إلخ، هل نحن مستعدون لتوثيق بطولات المسلمين في الحرب التي تمّت في البوسنة؟ لم يتم توثيق ماذا جرى، ماذا فعل المسلمون؟ نحن اكتفينا ببعض الجهود في توثيق المذابح التي جرت، لكن كيف صمد هؤلاء الناس على الصعيد العسكري وعلى الصعيد المدني؟ هذا الأمر يحتاج لتوثيق، أظن أننا بحاجة كما تردد في هذا الندوة الكريمة من قبل، بحاجة إلى أن تتحول هذه الأفكار التي تدار في هذه الغرفة إلى واقع، أتمنى أن نرى في هذا الحي الثقافي أيامًا أو برنامجًا عن البلقان الثقافية، نتمنى أن يحدث هذا الالتقاء بين الثقافات لا سيّما في نطاق الشباب، أتمنى أن تكون هناك ندوة أخرى متخصصة عن العرب في الإعلام البلقاني بصورة عامة

من مبدأ البحث العلمي، حتى تكون الدراسة متبادلة وربما حتى نرى كيف نحن في مخيلتهم، كما كيف هم في مخيلتنا.

في هذا الصدد أيضًا كان الدكتور شمسي أيوازي يتحدث عن «الجزيرة-بلقان»، بالتأكيد هي ألقت ضوءًا وأدت دورًا وتركت بصمة، لكن في الحقيقة لا زال عليها دور أكبر من ذلك، يجب أن تدخل كل بيت وأن تعبّر عن كل شرائح المجتمع البلقاني، ما زال هناك طموح كبير أن تؤدي دورها الإعلامي في هذه المنطقة.

إذا كان بوسعي أن أقول في النهاية ما هي أهم التوصيات بالنسبة لي، سأقول شيئًا واحدًا: أن نكون كمحمد الأرناؤوط، هذا الرجل الذي لا يملّ من تغذية المكتبة العربية بما يجري في البلقان وبتاريخ البلقان، وهذه الثروة التي يعمل عليها ليل نهار. صحيح أن التاريخ يتحدث عن حروب كثيرة في البلقان تمّت وجرت ولكن فليكن حلمنا أكبر من التاريخ: مجتمعات متعددة الثقافة، متعددة الهوية، متعددة المعتقد، يمكن أن تعيش بسلام، وهذه هي الجنة التي يجب أن ندخلها في الأرض.

مطبعة كركي
قريطم - بيروت - تلفاكس: 862500 1 961+
E-mail: print@karaky.com